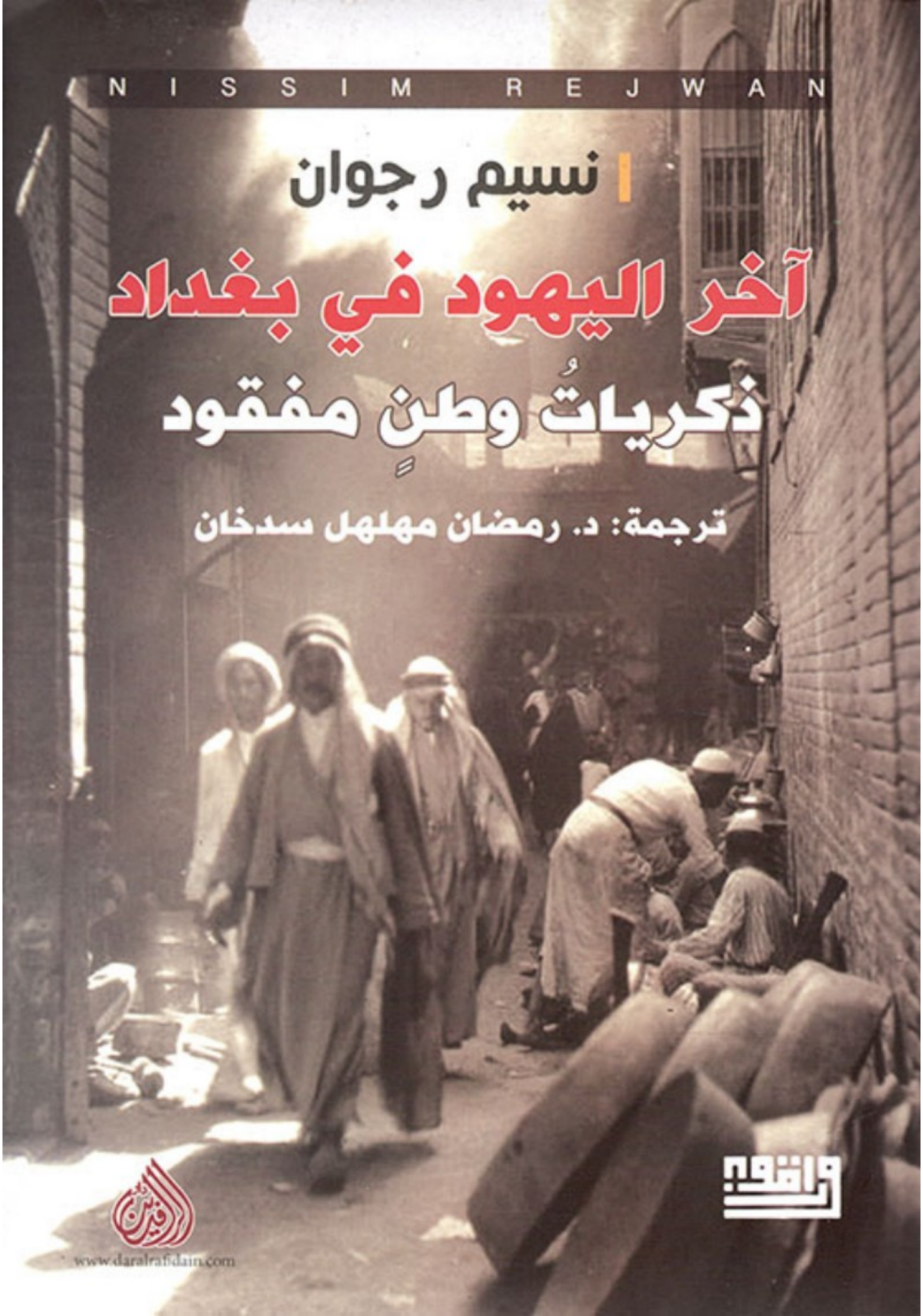

NISSIM REJWAN

نسيم رجوان

آخر اليهود في بغداد

ذكرياتُ وطنٍ مفقود

ترجمة: د. رمضان مهلهل سدخان

www.daralrafidain.com

آخر اليهود في بغداد...

ذكرياتُ وطنٍ مفقود

آخر اليهود في بغداد...
ذكرياتُ وطنٍ مفقود

THE LAST JEWS IN BAGHDAD:
REMEMBERING A LOST HOMELAND

This book was first published by the University of Texas Press in the United - States of America, 2004.

المؤلف: نسيم رجوان
الطبعة الأولى، لبنان/ كندا/ البصرة (العراق) ، 2016
First Edition, Lebanon/Canada, Basra (Iraq) 2016

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أونقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved، is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book، or part thereof، or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information، whether electronic or mechanical، including photocopying، recording، or storage and retrieval، without written permission from the rights holders

لبنان – بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com

OPUS PUBLISHERS
56 Laurel Cres. London, Ontario, Canada
Tel: +2266783972
N6H 4W7
alfajrb@yahoo.com

وراقون للنشر والتوزيع
Warraqoon for Publishing & distribution
العراق، البصرة، العشار
محلة البجاري، خلف فندق البرموك السياحي
تلفون: 9647814145195+ / 9647710910001+
warraqoon@gmail.com
safaadhiab@yahoo.com

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978-1-988150-36-9

نسيم رجوان

آخر اليهود في بغداد...

ذكرياتُ وطنٍ مفقود

ترجمة: د.رمضان مهلهل سدخان

OPUS PUBLISHERS

كلمة شكر

أقدم شكري الجزيل الى الدكتور رمضان مهلهل سدخان على مجهوده القيّم في ترجمة هذا الكتاب من اللغة الإنكليزية الى اللغة العربية بصورة فنية دقيقة يستحق عليها كل الفخر والإعجاب.

كما يسرّني ان أقدم تقديري الكبير الى دار النشر العراقية (ورّاقون) التي أتاحت لي نشر سيرتي في الوطن الذي أنتسب اليه وتدوين أحداث مررتُ بها خلال طفولتي وشبابي، وبذلك يسّرتْ قراءته للشعب العراقي الذي ربما فقد ذكرى اليهود في بغداد ولكن اليهود لم يفقدوا ذكراه.

ويسرني كثيراً أنني استعنتُ بصديقي العزيز الكاتب والمفكّر الأستاذ أميل كوهين في لندن الذي ساندني وثابر دؤوباً في التنقيح لإخراج هذا الكتاب بحلّته الأخيرة. لايسعني الاّ ان أقدم له كل الأمتنان والتقدير على كل جهوده الطيبة.

المؤلف

لأنك كنتَ من الحماقة بحيث احببتَ مكاناً واحداً، فابقَ بلا مأوى الآن ...

الشاعرة لويس گلوك، في قصيدة "حزن انسان بالغ"

الإهداء

الى إيلي خدوري،

صديقي العزيز ومُرشدي الأدبي.

وفي ذكرى

اصحاب وأخلّاء فترة الشباب

نجيب المانع،

عدنان رؤوف،

بلند الحيدري،

اسحاق خضوري(بار-موشيه)،

والى جميع افراد الـ «شِلّة».

تمهيد

اليهود بوصفهم عراقيين اصليين

مقدمة: جويل بينين

توطئة: لحظة تأمّل

يخبرنا نسيم رجوان، نقلا عن و. هـ. اودن، بأنه كان دائماً يقاتل من اجل الحق ليبقى «وجهاً خاصاً في مكان خاص». وسوف يحترم القراء المؤمنون نواياه المعلنة. مع ذلك فأولئك الذين وجدوا طريقهم الى هذه المذكرات، كالمؤلف نفسه، من غير المحتمل انهم تجنبوا التأثير الكبير للقوى السياسية المتنفذة التي هيمنت على المصالح والطموحات الخاصة لمعظم اليهود العراقيين وأنهت قروناً من التعايش اليهودي-الاسلامي.

ان مايزيد على قرن من النزاع العربي - الصهيوني قد جعل من الصعب بالنسبة لأولئك الذين بلا تجربة مباشرة به ان يتخيّلوا يهوداً مثل نسيم رجوان بأنهم يمثلون وجوداً اصلياً، وحيوياً بالفعل، في المجتمعات والحضارات العربية والإسلامية. ولم يتجذر اليهود ولم يذوبوا حضارياً في اي مكان سوى في وادي الرافدين. ان التكافل اليهودي العميق مع المجتمعات الاخرى التي كانت تشكّل العراق بعد عام 1921 – العرب المسلمون من السنة والشيعة، الكرد والتركمان، المسيح الآشوريون والآراميون، واليزيديون – هو النقطة المرجعية التي لاغنى عنها من اجل فهم السياق الحضاري والسياسي لكتاب «آخر اليهود في بغداد».

تشكلت دولة العراق الجديدة من ثلاث محافظات من الامبراطورية العثمانية: بغداد في المركز، والموصل في الشمال، والبصرة في الجنوب. اثناء القرن التاسع عشر، نمت المجتمعات اليهودية لهذه المحافظات، لاسيما مدينة بغداد، نمواً كبيراً من حيث العدد والرفاهية. في بواكير القرن التاسع عشر، كان هناك حوالي 10000 يهودي في بغداد وأقل من 1500 في البصرة. بحلول عام 1908، كان اليهود يشكلون 53,000 من قاطني بغداد البالغ عددهم 150,000 شخص[1]. وآخر حولية عثمانية عن بغداد احصت 80000 يهودي من بين 202,200 شخص من ساكني المدينة عام 1917[2]. وعند عام 1947، وحسب الإحصاء الوطني، كان اليهود يؤلفون 118,000 من مجموع سكان العراق البالغ عددهم 4.5 ملايين (اي 2.6 بالمائة؛ إذ تتراوح الاحصاءات غير الرسمية بما ينيف على 130,000). كان اليهود يتركزون كثيراً في المدن الكبيرة بواقع 77,500 في بغداد، و 10,500 في البصرة، و 10,300 في الموصل. وكانت مجتمعات يهودية اصغر تقطن في كل محافظة من البلاد. ان الزيادة المثيرة في حجم المجتمع اليهودي العراقي تعدّ اضافة لتعزيز الرخاء لصفوتها التجارية والمادية وللسيطرة الحضارية لطبقة النخبة.

عمل اليهود كصيارفة لمحافظي المحافظات العثمانية في بلاد مابين النهرين في بواكير القرن الثامن عشر. من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى خمسينات القرن العشرين، هيمنوا كذلك على التجارة الخارجية من وادي النهرين الى الهند وأوربا. ومما مكّن بروز تجّار بغداد والبصرة اليهود هو نهاية الاحتكار التجاري لشركة شرق الهند البريطانية في عام 1813، وتوسيع ميناء البصرة، وفتح قناة السويس عام 1869. استوطن اعضاء العوائل التجارية اليهودية في بومبي، و كلكتا، و رانكون، وسنغافورة، وشانغهاي، وهونغ كونغ، وانكلترا. اصبح اليهود القاطنون في بريطانيا ومستعمراتها تحت الحماية البريطانية، التي اعطتهم افضلية شرعية واقتصادية على المسلمين مما سهّل اقامة شبكات تجارية تمتد حتى بلاد مابين النهرين. ان وجود العائلة وأعضاء المجتمع الموثوق به في الخارج اتاح لليهود الانخراط في الصيرفة وتمويل التجارة الخارجية بشكل ايسر من المسلمين والنصارى بدون ارتبطات كهذه. التجّار اليهود، برغم انهم كانوا يتاجرون على الاغلب بالبضائع الهندية والبريطانية، لم يكونوا ببساطة مجرد وكلاء او وسطاء. بل كانوا يتنافسون مع رجال اعمال بريطانيين اكثر مما كانوا متعاونين معهم. ان درجة الهيمنة التجارية اليهودية يعبّر عنها وجودهم الغالب في المؤسسات المالية والتجارية الرائدة في بغداد. مابين عامي 1938-1939، كان عشرة من بين أعضاء «الدرجة الأولى» الخمسة والعشرين من غرفة تجارة بغداد [كانوا] يهوداً، اذ ان اليهود كانوا يؤلفون 43.2% من اعضاء الغرفة البالغ عددهم 498. في عام 1936، كان 35 من بين الـ 39 صيرفياً وصرّافا للنقود في بغداد [كانوا] يهوداً[3].

كان آل ساسون من ابرز العائلات التجارية اليهودية. «اذ ان روثتشايلد الشرق»، كما كانوا يُعرفون، احتفظوا بشبكة تجارية وزراعية ونسيجية مترامية الاطراف ذات مصالح في الهند، واليابان، وانكلترا بالإضافة الى العراق. عوائل كآل ساسون لم يشكّلوا سوى 5% من المجتمع اليهودي. كان السواد الأعظم منهم، كجيرانهم المسلمين والمسيحيين الحضريين، اما فقراء او تجّار صغار، حرفيين، وموظفين ذوي دخل متوسط.

احتلت بريطانيا بلاد مابين النهرين عام 1917. وشرعنَ ذلك الاحتلال تفويض من عصبة الأمم، كما ابقت بريطانيا آخر قواتها في البلاد حتى نال العراق الاستقلال عام 1932. انتعشت عناصر النخبة من المجتمع اليهودي اثناء الانتداب البريطاني؛ كما اصبحت مصالحهم التجارية والسياسية تضاهي عموماً السيادة البريطانية. بقيت بريطانيا عاملاً جوهرياً في السياسة العراقية حتى عام 1958 من خلال قواعدها العسكرية ودورها المهيمن في الصناعة البترولية.

نصّب البريطانيون فيصل الأول ملكاً على العراق عام 1921. كان ملتزماً بتشكيل هوية جديدة، مدنية ووطنية توحّد المسلمين السنة والشيعة. وتمتَّع يهود بارزون بعلاقات طيبة مع المملكة. اذ ضمنَ دستور عام 1925 المساواة بين الجميع امام القانون، وحرية الدين، وحق الأقليات في ادارة مدارسهم بلغتهم الخاصة.

قبلت الصفوةُ من اليهود رؤية فيصل لهوية عراقية مدنية، وكذلك تبوأ العديد منهم مراكز سياسية عليا في فترة الانتداب. كما ان عدداً صغيراً منهم لكنه مؤثر بقي بارزاً في السنوات الاولى من

العراق المستقل. ساسون حسقيل، احد رجال بغداد البارزين في النصف الأول من القرن العشرين، عمل وزيراً للمالية من عام 1921 حتى عام 1932. فيما عمل ابراهيم الكبير مديراً عاماً في وزارة المالية. احتلّ داؤد سمرا مقعداً في محكمة الاستئناف العليا من عام 1923 حتى تقاعده عام 1946. وفاز اليهود بخمسة مقاعد برلمانية في انتخابات عام 1925 – اثنان من كلٍّ من بغداد والبصرة ومقعد من الموصل. بينما مناحيم صالح دانيال (1925-1932) ومن ثم ولده عزرا بن مناحيم دانيال قام بتمثيل اليهود في مجلس الشيوخ.

استمرت المجتمعات العربية اليهودية من اليمن وجزيرة جربا التونسية تكتب بشكلٍ رئيسٍ باللغة العبرية او العربية - اليهودية (وهي لغة عربية بخط عبري) حتى القرن العشرين. بينما كان العديد من يهود شمال افريقيا والمشرق يستخدمون الفرنسية بوصفها لغتهم المشتركة. على عكس ذلك، كان اليهود العراقيون يتحدثون اللهجة اليهودية البغدادية من اللغة العربية في البيت و منذ اواخر القرن التاسع عشر، تبنّوا اللغة العربية الفصحى بوصفها لغتهم الحضارية.

في عام 1864، فتح المجتمع اليهودي البغدادي اولّ مدرسة حديثة للبنين في المحافظات العثمانية الثلاثة لوادي الرافدين. وأوكلت ادارة المدرسة الى التحالف الاسرائيلي العالمي – وهي منظمة لليهود الفرنسيين اعتنقت مهمة حضارية لأربنة Europeanize يهود الشرق الاوسط بإعطائهم تعليماً علمانياً فرنسياً. وفتحَ التحالفُ مدرسة للبنات في بغداد عام 1893 ومدرستين اخريتين للبنين في السنوات الأولى من القرن العشرين بالإضافة الى مدارس في البصرة، والموصل، وبعض المدن الصغيرة. اظهر العديد من اليهود العراقيين ولعاً بالانكليزية والفرنسية وفي بعض الاحيان نصّبوا انفسهم مترجمين من هذه اللغات الى اللغة العربية. لكن على العموم رفضت المجتمعات اليهودية سياسة التحالف القاضية بتبنّي الفرنسية بوصفها لغة التعليم الوحيدة. اذا ان اغلب المدارس اليهودية احتفظت بالعربية بوصفها لغة التعليم، كما ان طلاّبها بلغوا مستويات عالية في اتقانها. خسر التحالف الصراع بشأن لغة التعليم، وجميعها، باستثناء مدرستي بغداد الأوليتين، تحوّلت الى ادارة المجتمعات اليهودية العراقية المحلية اثناء فترة الانتداب[4].

ان شبكة المدارس التي أُنشئت بعد عام 1864 مكّنت اليهود من ان يصبحوا، بشكل عام، افضل تعليماً من جيرانهم المسلمين في النصف الأول من القرن العشرين. وقد شجّع تأثير الحلف على علمنة المجتمع اليهودي. وبينما اصبح العديد من اليهود اكثر عالمية من جيرانهم بسبب احتكاكهم بالانكليزية والفرنسية، بقي اغلبهم يدور في الفلك الحضاري الاسلامي العربي.

وكانت الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية للنخبة اليهودية، واندماجهم في الدولة العراقية المتأسسة حديثاً، واعتناق المجتمع [اليهودي] للغة العربية الأساس لـ«التوجه العراقي» الذي تبناه السواد الأعظم من اليهود. اذ ان غالبيتهم رأوا العراق بمثابة وطنهم، والكثير منهم سعى الى المساهمة في بناء الدولة والمجتمع الجديدين، في الوقت الذي اختلفوا فيه بشأن كيفية القيام بذلك. التوجه العراقي للمجتمع اليهودي مكّن اعضاء طبقة المثقفين بأن يصبحوا ارقاماً مهمة في تشكيل الحضارة العربية العراقية الحديثة.

قبل اكثر من عقد على ظهور اول مطبعة باللغة العربية، انشأ باروخ موشي مزراحي اول مطبعة في بغداد عام 1853[5]. وأسس بضعة يهود اخرون مطابعَ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كانت هذه المطابع تنشر اعمالاً في العبرية والعربية اليهودية. لكن بُعيد مطلع القرن، انحصر استخدام العبرية على الأغراض الدينية. كذلك كانت عملية علمنة المجتمع اليهودي جارية على قدم وساق، وأصبحت العربية اللغة المفضلة لدى طبقة المثقفين.

لقد عضّدت ثورة «تركيا الفتاة» عام 1908 ميل الأدباء اليهود للكتابة باللغة العربية الفصحى. ان العديد من اليهود في طول الامبراطورية العثمانية وعرضها اعتنقوا مفهوم المساواة في كافة المجاميع الدينية والعرقية على اساس هوية عثمانية مدنية تبناها النظام الجديد. وقد تمخّض عن انهاء الرقابة وإعادة الدستور العثماني موجة من الدوريات الجديدة في المحافظات العربية. كان من بينها ثلاث صحف بغدادية بمشاركة يهودية فعالة. ظهرت اثنتان منها في اواخر عام 1909: صحيفة «الزهور» الثنائية العربية التركية، تحرير نسيم يوسف سوميخ و رشيد افندي الصفار، و صحيفة «بين النهرين» الصادرة باللغة العربية، تحرير اسحاق حسقيل و مناحيم عاني. بينما ظهرت صحيفة «تفكّر» ثنائية اللغة، التي يملكها سليمان عنبر، عام 1912[6]. اما اول كتاب يصدر باللغة العربية الفصحى يكتبه يهودي هو الثورة العثمانية (بغداد، 1909) بقلم سليم اسحاق، وهو محامٍ وأمين سر الحاخام عزرا دانكور.

اما اول الاعمال الادبية باللغة العربية في العراق فقد ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى. في ذلك الوقت، كان هناك جمهور نقدي من اليهود ممن كانوا حسني الثقافة في اللغة العربية وعلى اطلاع بالأدب الغربي، الذي ادخلوه في الحوار مع اشكال الحداثة الأدبية العربية الصاعدة. تعطي الفقرات التالية ملخصات وجيزة لانجازات العديد من الكتاب اليهود العراقيين في القصة، والشعر، والمسرح، والنقد الثقافي، والصحافة فضلاً عن الممثلين والموسيقيين. اما غير المطلعين على هذه الظاهرة الثقافية ربما يجدون التفصيلَ كبيراً. شعرتُ بأنه من المهم ان اذكر هذه الأسماء (لقد تمّ حذف العديد منها) من اجل ان أظهر درجة المشاركة اليهودية في الثقافة العربية العراقية الحديثة.

في عام 1922 نشر مراد ميخائيل (1906-1986) اولى القصص العربية في العراق هي: (شهيد الوطن وشهيدة الحب)[7]. كما قرض ميخائيل ايضاً الشعر، حيث كان شعره الحر المبتكر محط انظار كبار الشعراء العراقيين امثال معروف الرصافي. ومايزيد على عشرات الكتّاب اليهود الآخرين ظهروا في عشرينات القرن الماضي، من بينهم انور شاؤول (1904 - 1984)، عزرا حداد (1909 - 1972)، و سلمان شينا (1898 - 1978). لقد اسس شينا، وهو محامٍ وعضو في البرلمان العراقي، الجريدة اليهودية الناطقة باللغة العربية وهي (المصباح)، التي ظهرت بانتظام من عام 1924 الى عام 1927 مع اصدار اعداد قليلة في عام 1928 وعام 1929.

كان انور شاؤول، المتخرج في مدرسة التحالف في بغداد، العضو البارز في هذه المجموعة. كان محامياً والمستشار القانوني للخزانة الخاصة للعائلة المالكة من عام 1935 الى عام 1949. في

اربعينات القرن الماضي دافع عن اليهود المتهمين بالشيوعية. تشمل اعماله الادبية ترجمة مجلّدين من القصص الغربية القصيرة بالإضافة الى مسرحيات فرنسية وانكليزية الى اللغة العربية. برغم انه عمل كأول محرر لجريدة «المصباح»، فإن شاؤول، شأنه شأن غيره من المؤلفين اليهود من ابناء جيله، لم يهتم عموماً بالقضايا اليهودية على نحو خاص. اذ كان هذا الجيل الأول من الادباء اليهود يكتبون بوصفهم مواطنين عراقيين. عارض شاؤول الانتداب البريطاني، وكتب قصائد تمدح الملكية، ودعم تحرير المرأة وحقوق الانسان[8]. في عام 1929 انشأ شاؤول مجلة ادبية اسبوعية هي «الحاصد»، التي نشرت مقالات بقلم العديد من المؤلفين الشباب من اليهود وغير اليهود، بضمنهم زوجة شاؤول، استيرين ابراهيم، وخمس نساء اخريات حتى توقفت عن الصدور عام 1938.

ان ظهور مجلة «الحاصد» اشّر تطور جيلٍ ثانٍ من المؤلفين اليهود. شالوم درويش (1913-1998؟) نشر اولى قصصه القصيرة ومقالاته النقدية في مجلة «الحاصد» عام 1929. وظهر مجلدان من مجاميعه القصصية في اربعينات القرن الماضي. كان كل من النقاد المسلمين واليهود ينظرون الى درويش على انه الأكثر موهبة من بين المجموعتين الاوليتين من كتّاب القصة القصيرة اليهود العراقيين وشخصية مهمة في التاريخ العراقي الأدبي[9]. بالإضافة الى انجازاته الأدبية، كان درويش ناشطاً في الحزب الوطني الديمقراطي.

وبسبب تدريبه كإقتصادي، حرّر مير بصري (المولود عام 1911) مجلة غرفة تجارة بغداد من عام 1938 الى عام 1945. برغم ان بصري لم يكن شاعراً مفوَّها، الاّ انه كان من بين العراقيين الأوائل في كتابة السونيتات والشعر الحر. يعقوب بلبول (1920-2003) خلفَ بصري كمحرر لمجلة غرفة تجارة بغداد (1945-1951). لقد انعش كل من بلبول وبصري الاشكال الشعرية الإستروفية strophic الاندلسية والمعروفة بالموشحات. نشر بلبول اول مجموعة قصصية له عام 1938 بعد تخرجه في مدرسة التحالف. ويعدّ واحداً من الكتّاب الأوائل في القصة الواقعية الاجتماعية في العراق[10].

اما اول مسرحية عربية حديثة في بلاد مابين النهرين فقد كتبت عام 1888، كتبها مسيحي، ومُثّلت في الموصل في العام التالي. كان لليهود مسرحهم التقليدي الخاص بهم المستند على التقويم الديني. ادخلت مدارس التحالف الدراما الحديثة في المنهج. كانت مسرحية الملكة ايستر، التي ظهرت اول مرة عام 1908، اول مسرحية على مايبدو عُرضت في مدرسة التحالف للبنين في بغداد. كما انها يمكن ان تكون من بين اولى المسرحيات العربية المؤداة في بغداد؛ حيث ان المسرحيات في اللغة التركية في السابق كانت تعرضها الفرق الزائرة. قبيل الحرب العالمية الأولى نظّم خضوري شهرباني شركة يهودية كانت تؤدي الأعمال المسرحية في اللغة العربية في البصرة والهند. واستأنف نشاطه المسرحي في بغداد بعد الحرب. قبل الحرب العالمية الأولى، كان يتم تمثيل الاعمال الدرامية اليهودية امام جمهور جلّهم من اليهود. ولأن الدراما عادة ما تؤدّى باللهجة العامية، فإن وجود لهجات شعبية مميزة في بغداد اخّر اندماج انشطة اليهود المسرحية الريادية في الحضارة

العراقية المشتركة. لكن في عشرينات القرن الماضي كان الممثلون والمخرجون يعرضون لجمهور مشترك. كان هناك العديد من الممثلين اليهود المعروفين بالإضافة الى الفنان الأمهر خدوري شهرباني. في عام 1926، حضر رئيس الوزراء عبدالمحسن السعدون انتاجاً عربياً لمسرحية لوسيد لـ(كورنيل) التي اخرجها شهرباني وبمشاركة ممثلي عرض من مكتبة الإصلاح الأدبية. انبهر السعدون جداً بحيث اوصى بضرورة ترتيب عرض ثانٍ على شرف الملك فيصل. حضر الملك وأعطى موافقته. ولم يبقَ سوى نصوص لحفنةٍ من مسرحيات كتبها يهود. تمّ نشر مسرحية (الولاء والخيانة) (1927) للكاتب سلمان يعقوب درويش ومسرحية (بعد وفاة اخيه) (1931) للكاتب شالوم درويش كما نُشرت الترجمة العربية لـ(انور شاؤول) و توسيع مسرحية ريتشارد شريدان (وليلم تل Wilhelm Tell). وثمة مسرحيات اخرى موجودة فقط على شكل مخطوطات. هذا ولم يستطع شموئيل موريه، وهو يهودي عراقي وأستاذ الأدب العربي في الجامعة العبرية لأورشليم الذي كتب بغزارة عن الإنتاج الأدبي العربي لليهود العراقيين، [لم يستطع] ان يعثر على نسخ من الأعمال المنشورة ل إلياهو خضوري، و حسقيل ابراهيم نسيم، و إلياهو سميرا. كتب احد طلاب سميرا، وهو سلمان عبدالله، مسرحيتين باللهجة العربية الإسلامية، لكن لم يبقَ سوى نص مسرحية واحدة باللهجة اليهودية، وهي (زفاف في بغداد) [11].

كان اليهود نشطين في انعاش المقام العراقي الكلاسيكي، الذي دعمه رئيس الوزراء نوري السعيد وشخصيات مهمة اخرى في فترة الانتداب وفي وقت مبكر من الاستقلال. المقام العراقي هو لحن موسيقي - وهو تنويع موسيقي معقد للشكل الموسيقي الشائع عند الحضارات العربية والتركية والفارسية ترجع اصوله الى الحقبة العباسية (750-1258). كان سلمان موشي (1880-1955) و حسقيل قصاب من مطربي المقام المعروفين. من بين المطربات اللائي اصبحن مشهورات في عشرينات القرن الماضي سليمة مراد (1900-1972) – الزوجة اليهودية ل ناظم الغزالي، وهو مسلم وأحد طلبة محمد القبانجي، مطرب المقام العراقي الرائد في القرن العشرين. كان معظم فناني المقام اليهود عازفين وليسوا مطربين. العديد من اليهود الذين كانوا يؤدون على شكل مجاميع والذين صاحبوا مطربي المقام عُرِفوا بالجالغي البغدادي. في عام 1932، ظهر القبانجي في مؤتمر القاهرة الموسيقي، وهو اول مهرجان موسيقي عربي دولي. كان جميع الذين رافقوه من اليهود ماعدا واحد فقط. رافق حسقيل معلّم المغنيةَ المصريةَ الأولى، ام كلثوم، عندما كانت تؤدي اغانيها في العراق في ثلاثينات القرن الماضي. وكان الأخوان صالح وداود كويتي افضل موسيقيي المقام اليهود [12].

تضاءلت المشاركة اليهودية بعض الشيء في الحضارة والسياسة العراقية في اواسط ثلاثينات القرن الماضي. بعد وفاة الملك فيصل الأول عام 1933، خلفه الملك الضعيف غازي حتى وفاته في اصطدام سيارة عام 1939. اثناء تلكم السنوات، وجدت الدعاية النازية التي نشرها السفير الألماني جمهوراً لها بين ضباط الجيش العربي الذين عارضوا النفوذ البريطاني المستمر في العراق. وقد قوضّت سلسلةٌ من الانقلابات العسكرية التي بدأت عام 1936 الوعد التحرري لدستور عام 1925. في عام 1935، حُرِّم تدريس العبرية، ماعدا بالنسبة للتوراة.

برغم هذه الضغوط، بقي اليهود يشكّلون وجوداً مؤثراً في الحياة الثقافية العراقية. في عام 1937، كتب الشاعر العراقي المجدّد محمد مهدي الجواهري (1900-1997) مقالة صحفية ينتقد فيها قرار المجتمع اليهودي في زيادة الضريبة على اللحوم المذبوحة وفقاً للشريعة اليهودية kosher meat معرباً عن دعمه لليهود الفقراء الذين تثقل كاهلهم تلك الزيادة. اعتقلته الحكومة العسكرية لتحريضه على النزاع الشعبي. في السجن، كتب قصيدة هجائية ينتقد فيها الحكومة ويشير الى هذا الأمر باستخدام الكلمة العبرية «كشير» ومعاكسها «طريف»[13].

أُجبرت مجلة (الحاصد) على الإغلاق عام 1938 نتيجة جملة ضغوط اقتصادية وأخرى مناوئة لليهود بسبب موقفها الصريح المعادي للنازية. الاّ ان العديد من اليهود بقوا نشطين في الصحافة والآداب العربية في اربعينات القرن الماضي وحتى الخمسينات منه، وهم يكتبون ويحررون للدوريات المملوكة للمسلمين والمسيحيين.

وشكّل الصحفيون والمؤلفون اليهود في فترة مابعد الحرب العالمية الثانية جيلا ثالثا، كان بمجمله مسيساً بشكل حاد اكثر من اسلافه. كانت الشيوعية التيار الأكثر شعبية بين الشبان اليهود في اربعينات القرن الماضي. وكانت الصهيونية اعظم منافس لها، التي لم تصبح هامّة الاّ بعد اعمال شغب عام 1941 المناوئة لليهود المعروفة بالفرهود. وقد حظي الحزب الوطني الديمقراطي الاجتماعي نوعاً ما، ومجموعة الأهالي الشعبية، وحزب الوسط اللبرالي، وحزب الشعب بمساندين بين طبقة المثقفين اليهود. كانت هناك ميول سياسية، غير عربية، ديمقراطية وعراقية. وكان العديد من اليهود متلهفين ليكونوا عرباً عراقيين. لكن شأنهم شأن الأقليات الناطقة بالعربية، كانوا متوجسين من الجوانب الرومانسية والعرقية للعروبية. علاوة على ذلك، كانت العروبية في العراق مرتبطة بالهيمنة المستمرة للأقلية العربية السنية.

ان اعلان دولة اسرائيل عام 1948 ومشاركة الجيش العراقي في الجهود العربية الفاشلة للحيلولة دون اقامتها زاد الضغط على المجتمع اليهودي العراقي بأكمله، ولو أن قلّة قليلة فقط هي مَن ساندت الصهيونية بشكل فعّال. وتمثلت بداية نهاية المشاركة اليهودية الكبيرة في الصحافة العراقية بإبعاد محررَين يهوديين في صحيفة (البريد اليومي) اليومية عام 1948 تبعه القاء القبض عليهما بدون تُهم. مع ذلك، بقي العديد منهم في المهنة، وبعضهم [بقي] حتى بعد الهجرة اليهودية الجماعية الى اسرائيل في عام 1950-1951. مثلاً نعيم طويق عمل في صحيفة (الأهالي) اليومية من عام 1934 الى عام 1937 واستأنف عمله في الصحيفة عام 1942 حينما اصبحت الناطق باسم الحزب الديمقراطي الوطني. من عام 1938 ولغاية عام 1963 عمل في صحيفة (الزمان) اليومية. منشي زعرور كان محرر صحيفة (العراق)، المملوكة ل رزّوق غنّام، ومن ثم محرراً للصحيفة المسائية (الحوادث) حتى مغادرته الى اسرائيل عام 1955. مراد العماري عمل في صحيفة (الشعب) اليومية من عام 1944، وهي سنة ظهورها، حتى عام 1946 وبعد ذلك عمل في صحيفة الحزب الديمقراطي الوطني (الأهالي) حتى عام 1952، حينما اصبح محرراً لصحيفة (اوقات العراق) اليومية الناطقة بالإنكليزية، واستمرّ حتى عام 1963. كذلك عمل مذيعاً في الإذاعة من عام 1944 وحتى عام 1946. منشي سوميخ تبوأ منصباً في هيئة تحرير صحيفة الشعب حتى مغادرته الى

اسرائيل عام 1950. سهيل ابراهيم (ادوارد شاؤول، المولود عام 1918) عمل محرراً في (صوت الأحرار)، وهي مجلة حزب الأحرار، حتى مغادرته هو الآخر الى اسرائيل عام 1950. سليم البصون تربع على كرسي تحرير العديد من الصحف، بضمنها (الشعب، والبلاد، والسياسة، والإستقلال)، وصحيفة (الجمهورية) بعد الإطاحة بالملكية عام 1958 [14].

ينتمي نسيم رجوان الى هذا الجيل الأدبي. من عام 1946 وحتى عام 1948 كتب عروضاً للكتب والأفلام بشكل منتظم لصحيفة «الأوقات العراقية» Iraq Times. كان يختلف الى دائرة أدبية معاصرة، يسارية الهوى مقرّها في مكتبة الرابطة حيث محل عمله. كان مالك الرابطة، عبدالفتّاح ابراهيم، قائداً لمجموعة (الاهالي) في ثلاثينات القرن الماضي، ومؤسساً لحزب الإتحاد الوطني الماركسي القصير الأمد والصغير عام 1946. أغلقت مكتبة الرابطة عام 1948، فغادر رجوان الى اسرائيل عام 1951.

ومن بين ابرز المؤلفين اليهود في فترة مابعد الحرب العالمية الثانية هم سامي ميخائيل (المولود عام 1926) و شمعون بلاص (المولود عام 1930)، كلاهما عضو في الحزب الشيوعي، و نعيم قطّان (المولود عام 1928)، و أسبيرانس كوهين (المولودة عام 1930)، و اسحاق بار-موشيه (1927-2003)، و نير شوحيط (المولود عام 1928)، و ساسون سوميخ (المولود عام 1933)، و شموئيل موريه (المولود عام 1933)، و ديفيد تزيمه (1933-1998)، و سمير نقّاش (1937-2004). لقد تركت القطيعة الكبيرة بين اليهود وبقية المجتمع العراقي اثراً لايُمحى في نفوسهم – الهجرة الجماعية لما يقارب خمسة الاف الى عشرة الاف يهودي الى اسرائيل بين عامي 1950-1951. ان زوال المجتمع اليهودي من العراق كان نتيجة لديناميكا معقدة من بينها عواطف نخبة رجال الأعمال اليهود المؤيدة للملكية والداعمة لبريطانيا، والتأثيرات المدمرة للدعاية النازية في ثلاثينات القرن الماضي، و نزع شرعية الملكية بسبب ارتباطاتها بالامبريالية البريطانية، والعروبية، و الصراع العربي الصهيوني.

بضعة مؤلفين يهود عراقيين لم يغادروا بين عامي 1950-1951. انور شاؤول ومير بصري كانا يعدّان نفسيهما عراقيَين عربيَين بعقيدة يهودية. فقد استمرّا يكتبان الشعر الممجِّد بالعراق والعرب. في عام 1968 جاء البعث الى السلطة وبدأ باضطهاد اليهود بوحشية. وتوّجت محاكمة صورية بالشنق العلني لإثني عشر يهودياً بتهم مفبركة تتعلق بالتجسس لصالح اسرائيل في كانون الثاني عام 1969. تمّ اعتقال بصري بدون سببٍ. استأنف شاؤول الدعوة من اجل اطلاق سراحه، لكن دون جدوى. ذات يوم سمِعتْ شخصيةٌ بارزة في النظام، هو صالح مهدي عماش، احدى قصائد شاؤول التي تمجّد العراق أُلقيتْ في التلفزيون. وكانت ابياتها الافتتاحية هي:

إن كنتُ من موسى قبستُ عقيدتي .... فأنا المقيم بظلِّ دين محمّد

وسماحة الإسلام كانت موئلي .... وبلاغة القرآن كانت موردي

أعجب مهدي عماش بالقصيدة ايمّا عجاب بحيث امر بإطلاق سراح بصري [15]. حتى بعد هذه الحادثة استمر شاؤول بكتابة مدائحه للعروبة. في مؤتمر الكتّاب العرب في بغداد في نيسان عام 1969 قرأ:

قلبي بحب بني العروبة يخفق .... وفمي بضادها يشيد وينطقُ

أولستُ منهم منبتاً وأرومةً .... قد ضمّنا الماضي البعيد الأوثقُ [16]

مع ذلك، مابين عامي 1971 و1974 غادر العراقَ شاؤول وبصري اضافة الى الصحفيين سليم البصون، و مراد العماري، و نعيم طويق. ذهب بصري الى لندن؛ والآخرون الى اسرائيل. صديق نسيم رجوان، وهو نعيم قطّان، غادر العراق عام 1946، مهاجراً الى كندا. لقد وضع رحيلهم نهاية للتوجّه العراقي بالنسبة للمجتمع اليهودي.

ان التمييز وتشويه سمعة حضارتهم التي واجهها اليهود العراقيون في اسرائيل – الذي لمّح له من طرفٍ خفي التقريرُ البليغ لنسيم رجوان من انه رُشّ عليه الـ DDT لدى وصوله الى مطار اللد – لايبرر نزعة صهيونية منتصرة تجاه تاريخهم. كان الحنين الى الوطن [النوستالجيا] ضرباً شعبياً لاستعادة الحضارة اليهودية العراقية. لكن التمثيل النوستالجي وحده يخاطر بتتفيه الحضارة اليهودية العراقية بوصفها فولوكلوراً ثانوياً ملحقاً بالحضارة العبرية الاسرائيلية «السائدة». المأساة تولّد الشعور بالفقدان، لكنها تتغاضى عن الثبات والتكيّف الحضاريين.

وبرغم انقطاع ارتباطها المادي بالعراق، فإن الحضارة اليهودية العراقية لم تنتهِ عندما هاجر السواد الأعظم من المجتمع الى اسرائيل. اذ استمر شمعون بلاص، وسامي ميخائيل، و ساسون سوميخ بالكتابة باللغة العربية في صحافة الحزب الشيوعي الاسرائيلي. وبرغم تحوّلهم في نهاية المطاف للكتابة باللغة العبرية، فإن عملهم لايخلو من التأثيرات والثيمات العراقية. فكل من بلاص و ميخائيل قد كتب روايات تصوّر بشكل انتقادي الموقف المزدري للسلطات الصهيونية والاسرائلية تجاه حضارة المهاجرين اليهود الشرق اوسطيين ومعاملتهم غير العادلة في اسرائيل: رواية بلاص (معسكر ترانزيت، 1964) ورواية ميخائيل (جميع الناس متساوون – لكن البعض اكثر مساواة، 1974). لم يكن ايّ منهما متوفراً باللغة الانكليزية. رواية ميخائيل (الملاذ، 1977)، وهي واحدة من بين الروايات العبرية القلائل التي يكتبها يهودي من الشرق الأوسط وتترجم الى اللغة الانكليزية، تستند على خبرته في الحزب الشيوعي العراقي. اصبح بلاص استاذاً للأدب العربي في جامعة حيفا واستمر في كتابة مقالات ادبية بين الحين والآخر باللغة العربية. اما ساسون سوميخ فقد اصبح استاذاً للأدب العربي في جامعة تل ابيب وقد كتب عن الكتّاب العرب اليهود العراقيين والمصريين. وبقي اسحاق بار-موشيه و سمير نقاش يكتبان باللغة العربية فقط حتى وفاتهما. بينما تبنّى الكتاب المهاجرون اليهود العراقيون الآخرون اللغة العبرية قدر استطاعتهم. مثلاً ايلي عمير (المولود عام 1937) ولد في بغداد وغادر الى اسرائيل بمعية عائلته عام 1950. أرسل الى

المدرسة في المستوطنة. روايته السِيَرية autobiographical – متوفرة باللغة الانكليزية بعنوان (كبش الفداء، 1983) – تثير الذل الذي واجهه هو وعائلته واصدقاؤه عندما حاولوا الإندماج بمجتمع اسرائيلي يسيطر عليه اليهود الأوربيون الذين لم يتصوروا بأن اليهود الناطقين بالعربية من الممكن ان يمتلكوا حضارة تستحق المحافظة عليها.

في خمسينات وستينات القرن الماضي كانت موسيقى الشرق الأوسط تعدّ «بدائية»؛ وفي وقت قريب جداً غدت شعبية نوعاً ما. طيلة الثماني عشرة سنة الماضية درج موسيقيون يهود مسنّون على التجمّع كل يوم اثنين للعزف في نادي بردس كاس [17]. مثلاً يئير دلال، المولود في اسرائيل عام 1955 والذي تدرّب كعازف كمان اوربي كلاسيكي، قد حظي باعتراف دولي كعازف عود. اذ حافظ على التراث الموسيقي اليهودي العراقي وجعله في حوار مع تقاليد موسيقية اقليمية اخرى عبر مقطوعاته مع فنانين شرق اوسطيين مختلفين.

لايوجد نمط واحد بإمكانه ان يستوعب التنوع الكامل لخبرات المجتمع اليهودي العراقي والتفاهمات المختلفة لتلكم الخبرات لأفراد من طبقات مختلفة. ان المدى اللغوي للجهود المنصبّة لتذكّره وتسجيله يعطي مثالاً على هذا التنوع في الخبرات. نشر انور شاؤول سيرته الذاتية باللغة العربية، حتى عندما سكن في اسرائيل [18]. وكتب نعيم قطّان رواية سيرية باللغة الفرنسية بينما كان يعيش في كندا [19]. اما ساسون سوميخ فقد كتب بضع مقالات صحفية باللغة العبرية، والتي تبشّر بظهور مذكرات كاملة [20]. جميع هؤلاء الثلاثة كتبوا باللغة العربية حينما كانوا يعيشون في العراق. اخيراً، يقدّم لنا نسيم رجوان هذه المذكرات باللغة الانكليزية. اللغات المتنوعة التي يستخدمها مؤلفو هذه النصوص في حيواتهم المهنية تجسد الهويات الحضارية العالمية الهجينة التي جعلت اليهود في آن معاً جزءً لا يتجزأ من العراق وفي الأخير ابعدتهم عنه.

توطئة

لحظة تأمل

عزيزتي حوّا،

كتب كارل بارث ذات مرة بأن كل سيرة ذاتية هي بالضرورة مغامرة مشكوك فيها. وأوضح بأن هذا راجع الى ان الإفتراض الأساس للكتابات السيرية هو أنه «يوجد كرسي بمقدور الإنسان ان يجلس عليه ويتأمل حياته، من اجل ان يقارن مراحلها، ويستعرض تطورها، ويستغور معانيها». وأضاف بأنه من المؤكد ان كل انسان يستطيع بل يجب ان يقيّم نفسه. لكنه لايستطيع ان يستعرض نفسه «حتى في اللحظة الحالية، اكثر مما في مجمل ماضيه».

ربما يكون ذلك صحيحا. لكنك ياصديقتي تأخذين الأمور على بساطتها. «إبدئي تماماً عند هذه النقطة في الوقت المناسب»، هكذا تقولين ذلك بنغمة حاسمة معينة هي نغمتك انت. ربما تكونين، برغم ذلك، محقة. ان العمل السيري يمكن كتابته بأية طريقة من مئات الطرق المختلفة، وسؤالي المتعلق بأين ابدأ سرد هذه الحكاية الجزئية نوعاً ما، غير الوافية هو سؤال يكون في افضل الأحوال بلاغياً، وفي اسوئها يكون مراوغاً.

انت تقولين «هنا والآن». لكن أيّ من هذه الـ «هناءات» heres و أيّ من هذه «الآنات» nows؟ الخارجية ام الداخلية؟ الفكرية ام العاطفية؟ العامة ام الشخصية؟ هذه التقسيمات والمتقابلات تكون، بطبيعة الحال، واهية الى درجة كبيرة. ان ما يكوّن المرء في نهاية المطاف، ومايحدّد موقفه، وميوله، ونظرته الى الحياة، ومعتقداته هو بلاشك نتيجة لكل من العوامل الخارجية والداخلية، الفكرية والعاطفية، العامة والخاصة – اي التأثيرات والأحداث التي يكون من الصعب جداً الإحاطة بها في اي ترتيب او تسلسل زمني.

كما اعتقد بأنك تعرفين الآن، انني دائما ماجاهدتُ من اجل حق البقاء مايصطلح عليه اودن، في احدى قصائده، بـ«وجه خاص في مكان خاص». ان الطرق التي كانت تُحبَط بها هذه الأمنية البسيطة، والظروف المتفاعلة هناك، تشكّل موضوع هذه النتف من الحياة.

***

الرجاء ملاحظة ان الأسماء العربية، عند نقحرتها transliterated، يمكن لفظها بطرق مختلفة. وربما اسم الشخص نفسه يُكتب بطريقة ما في المقدمة وبطريقة اخرى في المتن.

***

على طول سني كتابة هذه المذكرات، اعتمدتُّ على معرفة مختلف الأقارب والأصدقاء وخبرتهم. شكري موصول اليهم جميعاً. وشكري الخاص الى زوجتي العزيزة راحيل، لفهمها ودعمها في السرّاء والضرّاء. وشكري ايضاً الى مدراء وكادر معهد هاري أس ترومان للنهوض بالسلام لكرم الضيافة ومساعدتهم اليومية.

الفصل الأول

في بغداد القديمة

غالبا ماكان يقال بأن نيويورك هي مدينة يهودية. اعتقد بأن المرء يمكن ان يقول بأمان الشيء نفسه عن بغداد في النصف الأول من القرن العشرين. في وقت الكتابة، بالكاد هناك 20 يهودياً، معظمهم من كبار السن، يعيشون في مسقط رأسي. النُصب الذي تركه هؤلاء اليهود هو كنيس حيث، كما فعلها اسلافهم منذ ازمنة سحيقة، مافتئوا يصلّون من اجل «رفاهية المدينة»، مثلما اختبأ يهود من الشتات البابلي للقيام بذلك الى جانب النبي إرميا قبل ثلاثة آلاف سنة تقريباً. بالنسبة لأولئك الذين، مثلي انا، وُلدوا وترعرعوا وعاشوا في بغداد في السنوات السابقة للنزوح الجماعي لليهود من العراق بين عامي 1950-1951، فإن هذا الأمر يصعب تصوره.

من اجل الحصول على فكرة عن ديموغرافية المدينة وموقف اليهود هناك في تلكم العقود الخمسة، يكفي ان ننظر الى هذه الحقائق القليلة الموضحة بالاحصائيات: في عام 1904، قدّر نائب القنصل الفرنسي في بغداد عدد اليهود في الولاية العثمانية آنذاك بـ 40 الفاً، من مجموع سكان يبلغ عددهم 60 الفاً.

في عام 1910، قدّر تقرير للقنصلية البريطانية عدد اليهود في بغداد بـ50 الفاً. في تشرين الأول عام 1921، نقل مطبوعٌ بريطاني عن ارقام السكان هذه الخاصة بالمدينة كما مذكور في آخر كتاب حوليّ رسمي للولاية: عدد القاطنين الكلي، 202,200، منهم 80,000 كانوا يهوداً؛ 12,000 مسيحي؛ 8,000 كردي؛ 800 فارسي؛ و 101,400 عربي، تركي، وغيرهم من المسلمين.

ثمة اعلان صادر عن الحاكم العسكري البريطاني في وقت مبكر من عام 1919 حدّد عدد الخراف الواجب ذبحها يومياً في شرق بغداد (الرصافة، وهو نصف المدينة الاكثر اكتظاظاً بالسكان) بـ 220 رأس غنم للقصابين اليهود و 160 رأس للقصابين المسلمين وغيرهم من القصابين.

في عام 1926، السنة التي تأسست فيها غرفة تجارة بغداد، كان خمسة من بين اعضاء المجلس الاداري الاربعة عشر [كانوا] يهوداً، اربعة مسلمين، ثلاثة كانوا يمثلون التجار البريطانيين، وواحد يمثّل المصارف، وواحد يمثل التجار الفرس.

هذه هي بغداد التي ابصرتُ فيها النور اول مرة، والتي قضيت فيها الست والعشرين سنة الاولى من حياتي. على اية حال، بينما لم تتغير الصورة من الناحية السكانية كثيراً حتى عام 1951، حدثت تغيرات اساسية في معظم الجوانب الاخرى لحياة المدينة على مدى هذه العقود الثلاثة.

وأحد هذه الجوانب جرى الإعلان عنه بشكل خاص – الا وهو المشهد الديني اليهودي. المجتمع، والعائلة، التي ولدتُّ فيها يمكن وصفها بأنها محافظة في المعنى الدقيق للكلمة، برغم انها ربما غير

«متعصبة» في المعنى الذي يستخدمه فيه اليهود الاوربيون بشكل عام ويهود اوربا الشرقية على نحو خاص. حتى سن العاشرة اعتدت على اخذ والدي، الذي فقد بصره قبل عدة سنوات، الى الكنيس صباح كل يوم سبت، في الاعياد المقدسة، وفي اعياد مختلفة. في مساء يوم الجمعة، كان تضاء شموع السبت، وتعدّ الطاولة، ويرتّل الـ (كدّوش kiddush)[21]، وتُنشَد الـ (اشيث هايل esheth hayil) بانسجام من جميع ذكور العائلة. في صباحات يوم الأحد، بعد القداس، اعتدت على الجري الى مقهى المسلمين المجاور بإبريق للحصول، مجاناً، على الماء المغلي للشاي الذي كان جزءً لايتجزّأ من الفطور. لم تُرَ النقود او تُضرَب الصفقات.

اما بالنسبة للمكانة الاقتصادية الاجتماعية لعائلتي، فإن كل شيء يعتمد على الطريقة التي ينظر فيها المرء الى المَشاهد الاقتصادية والاجتماعية مجتمعة. في ظل الظروف السائدة في العراق في تلكم الايام، كان المجتمع اليهودي من الناحية الاقتصادية في الصدارة، برغم النظر اليه بشكل عام بأنه مجتمع غير ثري. في تقرير القنصل البريطاني لعام 1910 المذكور اعلاه، يصنَّف اليهود اقتصادياً كما يلي:

طبقة الاغنياء والمرفّهين، بشكل رئيس هم التجار والصيارفة، 5%.

الطبقة الوسطى المؤلفة من صغار التجار، والموظفين، الخ.، 30%.

طبقة الفقراء، 60%.

الشحاذون (القادم معظمهم من الشمال)، 5%.

عندما يسير المرء على هدي هذا التصنيف الاعتباطي نوعاً ما، يمكن ان يقال بأن عائلتي كانت تنتمي الى مكان بين الـ 30% من الطبقة الوسطى والـ 60% من طبقة الفقراء، مع انتقالات دورية بين الاثنين، على الأغلب في الاتجاه الثاني.

التجارة والصيرفة

كان العالم خارج البيت يصل الى توقف تام في ايام السبت وفي العطل اليهودية. وكانت الاسواق فارغة من الناحية العملية، كما توقفت جميع الانشطة التجارية في الشارع العام للمدينة، ماعدا القليل من المحال المتفرقة التي تبقى مفتوحة. ليس فقط اليهود، الذين كانوا يمتلكون الاغلبية المسيطرة من المحلات والمخازن، ممن يغلقون مبانيهم التجارية ويمتنعون عن القيام بأية عملية تسوّق؛ بل ان غير اليهود كانوا يحذون حذوهم، برفضهم القيام بعمليات البيع في العطل اليهودية لئلا يستغل الموقف مالكو المحلات القليلة المفتوحة ويكلّفونهم سعراً اعلى على البضائع التي كانوا يشترونها. كذلك كانت هناك العديد من حالات مالكي المحلات من غير اليهود الذي يغلقون محلاتهم في هذه الايام بسبب نقص الزبائن.

هذا هو الموقف بالنسبة للأسواق الكبيرة والشارع العام. في تلكم المناطق المجاورة التي كان فيها اليهود يتفوقون عددياً – برغم عدم وجود حيٍّ واحد يكون يهودياً خالصاً – جنحت الحياة التجارية الى التوقف التام، حيث اغلق غير اليهود محلاتهم، وامتنع الباعة المتجولون عن مزاولة اعمالهم التجارية، وبقي صغار الفلاحين ماكثين في بيوتهم بدلاً عن جلب فواكههم وخضارهم الطازجة الى الاسواق حيث لا تجد المشترين «الجادين» هناك. هؤلاء الفلاحون، بالصدفة، اعتادوا على جلب افضل وأرقى منتوجاتهم الى المدينة ايام الجمع وفي امسيات الأعياد اليهودية، وهم يراعون كثيراً تثبيت اسعارهم بالنسبة للحاجات الموسمية للسكان اليهود في هذه المناسبات – لأنه، مثلاً، في الايام التي تسبق عيد المظال و رأس السنة اليهودية عندما تكون فواكه وخضار معينة اساسية للبركات.

ان الفكرة المتعلقة بالدرجة التي كان فيها اليهود يلعبون دوراً كبيراً في النشاط التجاري العراقي وفي الاقتصاد العراقي يمكن اخذها من حقيقة انه، بين عامي 1935-1936، تسعة من بين المجموع الكلي المؤلف من ثمانية عشر عضواً من اللجنة الادارية لغرفة تجارة بغداد كانوا يهوداً. كان هذا الدور كبيراً جداً، بالفعل، لدرجة ان المناسبات اليهودية كانت تؤثر حتى على بعض الجوانب السوسيو - دينية للحياة اليومية والنشاط التجاري للشيعة في بغداد ومدينة الكاظمية الشيعية المجاورة، وكان هذا برغم ان الشيعة كانوا معروفين بمقاطعة اليهود لدرجة اعتبارهم انجاساً.

في كتابه، شيعة العراق، يورد اسحاق نقاش التقرير التالي: «عند زيارته الكاظمية بين عامي 1934-1935، اشار المجتهد الشيعي اللبناني محسن الامين الى ممارسة تجار بغداد الشيعة الزائرين ضريحي الامامين في الكاظمية في يوم سبت بدلاً من يوم جمعة، برغم ان الجمعة، بوصفها عطلة دينية ورسمية كانت اليوم المفضلَ للزيارة الاسبوعيَة للضريح. وأوضح بأن النشاط التجاري للتجار الشيعة كان يعتمد على خدمة التجار اليهود والوسطاء الذين كانوا يسيطرون على تجارة بغداد؛ وبالتالي، مثل التجار اليهود، اضطرّ الشيعة الى اخذ عطلتهم الاسبوعية يوم السبت».

بعد ذلك بعشر سنوات، عندما كنت في اواخر سني مراهقتي، كان لابد ان يتغير الشيء الكثير في الحياة والممارسات الدينية اليهودية العراقية – كما تغيرت العديد من الاشياء الاخرى. وبالفعل، ان امكانية الكائنات البشرية على التغيير والتأقلم كان الشيء الاكثر طبيعية في العالم، هو شيء ما دائما ماكان يجعلني اتعجب. الفرق بين نوع العالم الذي ولدتُ فيه في بغداد اواسط العشرينات والعالم الذي نلتُ فيه بلوغي، في اواخر الاربعينات – ناهيك عن العالم الذي نعيس فيه الآن – كان عظيماً جدا لدرجة انه يُجهد الخيال لمجرد محاولة فهمه او تفسيره.

في حالتي انا، يكون هذا صائباً، اذ ان التغيير كان اعظم من ذلك منذ ان صادف وغيُّرت عادتي في مكان ما في منتصف العمر، وانا انتقل من بلد الى آخر، ومن حضارة الى اخرى. من المؤكد، في حالات حاسمة معينة لم تكن الاختلافات بين المجتمعيَن مزعجة بالمرة؛ لكن التغير في الخطى المطلقة للحياة والنشاط كان بالغاً بحيث احدثَ اختلافاً كبيراً.

الحقيقة، على اية حال، هي انه في العراق وكذلك في اسرائيل، البلدين حيث انقسمت سني حياتي الخمسين الأولى بالتساوي، حدثت الاشياء اثناء هذه العقود الستة – وهي اشياء هائلة، ومقلقة قد غيّرت وجه المجتمع؛ إذ حصلت تغيرات اجتماعية وحضارية ذات طبيعة هامة وحساسة.

وكانت النتيجة مقلقة مرتين: ففي الوقت الذي كنت فيه في الخامسة والعشرين كان المجتمع العراقي قاطبة والبنية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع اليهودي في العراق قد تغيّر بشكل لايمكن ادراكه تقريباً، بينما الانتقال الى اسرائيل كان يعني شيئاً ما ينطوي على «صدمة حضارية». وإثناء الخمسين سنة الماضية، علاوة عل ذلك، شهد المجتمع الاسرائيلي نفسه عدداً من التغيرات الجذرية، التي، طبعاً، اخذت اثرها.

بيت لولو ام البير

كان الحي الفقير نسبيا الذي ولدتُ فيه يسمى ابوشبل، من المحتمل انه سمي تيمناً بالرجل القوي (المسلم) او كبير مالكي الحي. في ابي شبل كما في معظم احياء بغداد، كانت صنابير الماء الجاري غير متوفرة الاّ في بيوتات منتخبة قليلة.، اما بسبب الاجور الباهظة لنصب انابيب جديدة وربطها بمحطة الضخ الرئيسة او بسبب بعض الصعوبات الادارية. كان امام الأحياء الاكثر فقراً طريقتان في الحصول على تجهيزاتهم من الماء الصالح للشرب – إما ان يذهب السكان الى المسجد المجاور، حيث كان هناك دائماً صنبور كبير او المزيد من الصنابير الكبيرة اذ كان بوسعهم ان يسحبوا مايشاؤون من الماء، او ان يعتمدوا على «السقّا» لأخذ احتياجاتهم من الماء. (كان الماء المتاح للجميع يسمى «سبيل»/أي مجاناُ، كما في «الطريق السريع»).

في المنزل في ابي شبل الذي عشنا فيه كمستأجرين ثانويين كانت حنفية مثبتة بسبب وجود بئر كان ايضاً يؤدي وظيفة الحمّام، وبهذا تنتفي الحاجة الى السقّاء الاّ عندما تحصل بعض العوارض ويُترَك المنزل بدون شرب نظيف، وهو شيء كان يحدث كثيراً. اتذكر جيداً السقّاء المجاور وهو يطوف ببضاعته – وهو رجل يملك حماراً ثقيل الوزن عادة ما يحمل ثلاث او اربع من قِرَبٍ كبيرة من جلود الأغنام مترعة بالماء. كانت القرب مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض ومهيّأة لاحتواء الماء بحيث لايتسرب منه الاّ الشيء القليل بفعل التقطير الذي لابد منه، ودائماً ماكان السقّاء يعرف اين يأخذ حماره؛ اذ كان لديه زبائن دائميون بطلبات مستمرة وعادة مايرفض بيع الماء الى سكان اخرين.

سواء تمّ سحبه من الحنفيات او تمّ جلبه بواسطة السقّا مباشرة من ضفاف نهر دجلة الجميل، الذي كان يجري تماماً في منتصف المدينة شاطراً ايّاها الى نصفين – الرصافة الى شرق النهر والكرخ الى غربه – فإنه تبقى هناك مشكلة اين تُبقي الماء نظيفاً وبارداً نسبياً. كان هذا الجزء الأسهل. عند وصوله، كان هذا السائل الثمين يُصَبّ مباشرة في آنية خزفية عملاقة عادة ماتُنصب في مكان بارز في الفناء الداخلي. الحِب – هكذا يسمى بالعامية العراقية – كان مركز استقطاب وذو اهمية تلي

اهمية المطبخ مباشرة. وإذ يوضع بشكل ستراتيجي في الظل، كان دائماً ما يغطّى بعناية بغطاء خشبي لحمايته من الذباب، والبعوض، وغيرها من الهوام الطبيعية الموجودة في الهواء.

كان الحِب وسيلة متعددة الأوجه. فضلاً عن إبقاء الماء نظيفاً وصالحاً للشرب فإنه كان بمثابة ثلاجة بدائية. كان الماء بارداً دائماً بفضل النسيم الذي، مهما كانت درجة حرارته، دائماً باستطاعته ان يبرّد الجزء الخارجي من الحِب نتيجة تمّاسه بجدرانه الرطبة. علاوة على ذلك، كان الحِب، الذي هو مدوّر وذو قاعدة ضيقة جداً، يوضع على «قفص» خشبي متين ذي فتحات صغيرة تسمح للتيار الهوائي بالدخول والخروج وبذلك تُبقي المكان بمنأى عن العقارب، والصراصر، والأفاعي، وغيرها من الهوام القادمة من الأرض. انه في هذا القفص كانت توضع بعض اثمن الحاجيات الضرورية. بالإضافة الى الابريق jug الخاص الموضوع تماماً تحت قاعدة الحِب لجمع الماء المتقطّر منه، كانت هناك فسحة واسعة فيه لاستيعاب القدور، والقناني، والصحون المحتوية على الطعام المطبوخ والحليب واللبن الرائب والأدوية السائلة والفواكة والخضار، التي كانت تُحفظ في برودة معقولة خلال حرارة الصيف العالية وبهذا تبقى بعيدة عن التلف. كما ان القفص يمنع القطط من الوصول الى اللحوم ومنتجات الحليب اذ لم يتم انتاج الثلج و مكعبات الثلج الاّ في ثلاثينات القرن الماضي وكان يستعمل داخل البيوتات المرفّهة لحفظ اللحوم، والخضروات، والفواكه.

كان يندر في تلكم الأيام بالنسبة لمنزلٍ في بغداد ان يكون خالياً من العقارب والأفاعي، وفي كثير من البيوتات كان معتاداً لرب العائلة ان لا يخلد الى النوم الاّ بعد ان يكون قد فحص الثقوب الموجودة في الجدران بحثاّ عن الأفاعي. برغم ان عملية القضاء على العقارب كانت واجباً، فإن قتل افعى او ايذاءها كان محرماً تماماً. وعادة ماكانت تُنشر اوراق البطنج الجافة ذات الرائحة العطرة على الأرض اعتقاداً بأن الأفاعي لاتتحمل رائحة هذا النبات وبالتالي تكف عن التطفل مرة اخرى. في بيوتات معينة، مرة اخرى، كانت سيدة المنزل تترك صحناً من الحليب في مكان ما من اجل ان تصبح الافعى التي تشربه هادئة وودودة لأهل الدار. في مثل هذه الحالات، تترنّم الأم قائلة، «يافعى الدار، لاتؤذيننا ونحن لن نؤذيك!»

ذات يوم حينما كنت في حوالي الرابعة من عمري، خرج رأس افعى صغيرة من احدى الحُفر في جدار في المنزل الداخلي. وإذ سيطر الخوف؛ لم يجرؤ احد على دفع الأفعى الى الداخل او إخراجها. في النهاية، تمّ جلب احد المختصين، وهو مسلم يعيش في الجوار، الى مكان الحادث. عند رؤيته الأفعى، طلب قنينة فارغة، وبأصابعه المجردة استخرج الأفعى، وقد احكمَ إغلاق فمها، ومطّها، ثم وضعها بكل جسارة داخل القنينة، ذيلها اولاً. بعدها اغلق القنينة بعناية، ووضعها في جيبه، وقال سلاماً، ثم مضى. لم يتم دفع اية نقود، فالأفعى نفسها كانت على مايبدو هي المكافأة الكبيرة.

تقريباً مايأتي من حيث الأهمية بعد الحصول على الماء وحفظه هي مشكلة التخلص من المياه القذرة والمجاري. كانت منظومات المجاري المركزية غير معروفة تماماً ولم يُسمع بها؛ اذ ان المياه القذرة المحلية عادة ماتذهب الى المجاري، التي دائما ماكان منها اكثر من واحدة في المنزل، محفورة عميقاً في مكان ما تماماً في وسط الباحة الداخلية. كما كانت هناك حفرة منفصلة في الأرض

مربوطة مباشرة بدورة المياه، الذي عادة ماكانت نوعاً من المراحيض. ورق المراحيض لم يكن معروفاً لأن اليهود، باتباعهم تقليد جيرانهم المسلمين، كانوا يستخدمون الماء لتنظيف انفسهم، حيث كانت تترك قنينة في المرافق لهذا الغرض.

لقد عُدّ القيام بعملية تنظيف المجاري والمراحيض – وبالفعل كان – من اوضع جميع المهن الوضيعة. كان يقوم بهذا العمل حصرياً المسيحيون القادمون من مدينة صغيرة معينة في شمال العراق تدعى تلكيف، لكن كان هناك ايضاً يهود انخرطوا في هذا العمل؛ لكن لايقوم به مسلم على الإطلاق. عندما كنا صغاراً، اعتدنا ان نلقّب كل مسيحي بـ «النزّاح»، وهو الإسم الذي اعطاه البغداديون الى الشخص الذي يقوم بتنظيف المجاري والمراحيض. وكان لدى الشاعر والناظم الشعبي العراقي الخالد ملة عبود الكرخي قصيدة راسخة بالذاكرة يتساءل فيها، من بين عشرات الأسئلة البلاغية الأخرى قائلاً: «يمكن مسلم يصير نزّاح؟ يمكن يهودي يصير چرخچي؟»

ان اليهودي لايمكنه مطلقاً ان يكون حارساً ليلياً ذلك لأن الحراس الليليين الذين يطوفون ازقة بغداد كانوا دائماً مسلمين. ويبدو برغم ذاك ان بعضهم فشلوا بالقيام بوظيفتهم بشكل سليم، ان لم يكن بشكل اسوأ. في اواخر عشرينات القرن الماضي، في الحقيقة، اكتشفت السلطات بأن عدداً من السرقات التي حصلت في بعض المناطق المجاورة كانت بالفعل ممكنة نتيجة بعض التفاهم السري بين الچرخچية والمتعاقدين الذين جهّزوهم الى السلطات. كانت النتيجة بأن ذلك العمل قد انيط اخيراً بالباصوانية (الخفراء الليليون) الذين كانوا يستلمون اجورهم من وزارة المالية. كما توجّب عليهم بأن يجلبوا بنادقهم كل مساء ويعيدونها في الصباح التالي، على مايبدو من اجل منعهم من استخدام الأسلحة لأغراض اخرى.

من المهم ان نلاحظ هنا، بين قوسين، بأنه في العراق – ومن المحتمل في اجزاء اخرى من العالم الناطق بالعربية – في تلكم الأيام ان صفة «عربي» لم تُستخدم على الإطلاق لتحديد هوية الشخص، التعارض العربي - اليهودي الذي نشهده اليوم باستمرار لم يستخدم مطلقاً لا في الكتابة ولا في الخطاب اليومي. اذ من العادة ان يقال للبغدادي بأنه يهودي، مسلم، كردي، مسيحي، ارمني، تركي، فارسي.

ان تفسير ذلك ليس عصياً، حسب اعتقادي. فما يسمى بـ الهوية «الوطنية للرجل او المرأة لم يكن فقط بغير ذي صلة ولكن ايضاً المفهوم نفسه لم يكن معروفاً، وفي تلكم الحالات التي كنتَ تحتاج فيها لتعرف هوية المرء في المعنى الأوسع للمواطنة او الموقع الجغرافي كنتَ تقول ببساطة بأنه او بأنها سوري، مصري، يماني،عراقي، فلسطيني، تركي، فارسي، انكليزي – او، كما في حالة «النزّاح»، تلكيفي.

اليوم الذي جاء فيه النزّاحون – واعتادوا ان يعملوا على شكل ازواج او كل ثلاثة اشخاص من ان يكون بإمكانهم انهاء العمل بأسرع و«انظف» مايمكن – كان يوماً مشهوداً بالنسبة لنا كأطفال. اعتماداً على قابلية الأرض على ترشيح المزيد من مياه الصرف الصحي، كان الأمر يحدث على

الأقل ثلاث مرات في السنة، وبالنسبة لنا كان هذا مشهداً نلاحظه دائماً. احد الأشخاص الذين نزلوا في البالوعة لتنظيف الوحل بعد القيام بالجزء الأيسر من المهمة انتهى بمساعدة الدلاء المربوطة بالحبال والتي تُنزَل يدوياً لسحب مياه الصرف الصحي، وفي الأخير تحمّل الجرار الكبيرة وحاويات الصفيح على حمير قوية ذات نظرات هائمة وتؤخذ الى مكان لايعرفه سوى الشيطان.

كانت العديد من منازل بغداد في تلكم الأيام تحتوي على آبار خاصة، يسحبون منها الماء للغسل. في المنزل الذي عشنا فيه، كان البئر مبنياً بحيث يؤدي وظيفة المقوي[22] (المكـي) miqwe (mikve) . كان هذا المقوي للنساء فقط ولابد ان تديره امرأه، ولأن اسم السيدة التي تدير المقوي هي (لولو)، فإن كل شخص في الجوار عرفها على انها لولو ام البير، والمنزل الذي تملكه العائلة يعرف بأنه بيت لولو ام البير. انها مهنة مربحة الى حد ما، مهنة يتقيد بها بدقة في تلكم الأيام. كذلك كان مقوي لولو مشهوراً بنظافته، ومقدار كبير من العمل تمّ تسخيره لإدامة هذا المشروع والحفاظ عليه، الذي تضمّن من بين اشياء اخرى تسخين الماء في الشتاء في الايام التي يكون فيها المقوي مفتوحاً.

بينما كان زوجها وأبناؤها الأكبر سناً يعملون جميعهم بشكل مربح، على الأغلب في التجارة البسيطة وإقراض النقود، كانت لولو الرئيس الحقيقي ليس فقط للحمّام الطقسي ولكن للمنزل ايضاً، بضمنه التفاصيل المختلفة والأنشطة المتعلقة بالإيجار والمستأجرين الثانويين مثلنا. بالفعل كنت دائماً مندهشاً من حقيقة ان جميع المنازل التي نعيش فيها في عشرينات القرن الماضي وثلاثينياته كانت تسمّى تيمناً بنساء البيوتات بدلاً من ازواجهم. من بيت لولو ام البير انتقلنا الى بيت دينا، ومن ثم الى بيت راحيل – وفقط مع نهاية الثلاثينات اصبحت معظم المنازل التي عشنا فيها كمستأجرين ثانويين تسمّى بأسماء مالكين ذكور.

الفصل الثاني

قبيلة رجوان

ثمة نظريتان بخصوص تاريخ وأصل الاسم رجوان. استناداً الى ابي الراحل، كان احد اسلافه احمر جداً في منطقة الوجه لدرجة ان الناس اعتادوا على ان يشيروا اليه: «هو احمر مثل رجوان» – الكلمة رجوان هي كلمة عربية عراقية دارجة للون الارجواني او القرمزي او الاحمر، لكن الكلمة الاصلية في اللغة العربية الفصحى هي ارجوان. في تلكم الايام لم يمتلك الناس عادة القاباً، فالرجال والنساء يُعرفون إما بأسماء الدلع (كناهم) او بأسماء اسرهم؛ لكن في فترة حياة اسلافي ظهر قانون او تقليد كان الناس بموجبه عليهم ان يمتلكوا اسم اسرة – وبهذا حدث ان لقب عائلتي اصبح رجوان. بالصدفة، ان احد المرادفَين العبريين لكلمة «ارجوان» متطابق من الناحية العملية مع الكلمة العربية، وهي ارجوان – الاخرى هي ارجامان argaman. منذ اواسط الخمسينات كنت استخدم من آن لآخر الاسم N. B. Argaman كإسم حركي حينما يبدو هذا الاسم يناسب اغراضي.

هذا هو التفسير النموذجي الذي اعتدت ان اضعه من اجل اولئك الفضوليين الذين يحققون بتاريخ وأصل اسم عائلتي. احد اصدقائي، على اية حال، وهو لغوي ومستعرب، جلب انتباهي ذات مرة الى حقيقة ان رجوان Rejwan يمكن ان يكون انحرافاً ليس من ارجوان urjuwan ولكن من راجوان rajwan ، وهي كلمة عربية مشتقة من الفعل raja ، الذي يعني «يأمل»، او من الاسم rajaa، الذي يعني «امنية» او «أمل». في هذا السياق، حسبما يوضح هذا الصديق، كلمة rajwan تعني «الشخص الذي يرجو» او «الشخص الذي عنده امنية».

وبرغم ان التفسير الثاني ربما يبدو مقبولاً، الاّ انني اجنح الى تفضيل التفسير الأول لأنه في طبيعة التقليد العائلي. كما انه ايضاً اكثر روعة وسحراً. بعد كل هذا، كل شخص «يأمل» او لدية امنية من هذا النوع او ذاك. وليس وجه كل شخص يمكن ان يكون احمر كالأرجوان!

بغض النظر عن كونه احمر عموماً من حيث السحنة، فإن آل رجوان يبدون ايضاً حادّي الطبع وسريعي الغضب – وسريعي الإنفعال بسهولة اكثر. ماتزال القصة ترويها بنات اختي اللائي على قيد الحياة وغيرهم من الاقارب في اسرائيل عن احد اجدادي الذي اشتدّ غضبه ذات يوم مع الحاخامية المحلية لدرجة انه اتخذ فعلاً الخطوة القاسية بادعاء تحوله الى الإسلام، كنوع من الإحتجاج العلني.

تدور الحكاية كالآتي. هارون (آرون) رجوان، عضو محترم وميسور في المجتمع، كان مسؤولاً لدى السلطان العثماني بصفة ادارية ما. ذات صباح يوم سبت، وبينما تتفقد تجهيزات المطبخ، وجدتْ طباخة الأسرة، وهي مسيحية، بأن ليس هناك بذور رمان جافة باقية. الآن هذه البذور هي مكون رئيس لأي طبق بامية، لاسيما عند تحضيره للرز – الفكرة هي انها كانت افضل وأطيب من مجرد عصير ليمون عندما يتطلب الأمر اعطاء طبق البامية ذلك المقدار من الحموضة اللازمة له.

الامراة بعد ذلك اخذت طريقها صوب سوق الشورجة القريب واشترت البذور – وحسبما قيل ليس لطبخها في يوم السبت ولكن لتخزينها فقط للمرة القادمة عندما تطلب منها العائلة ان تعدّ طبق البامية.

ولحسن الحظ، على اية حال، شاهد الخادمةَ – وميّزها – موظف في مجلس الجالية اليهودية، وهذا الموظف اليقِظ سرعان مارفع تقريراً بالجريمة الى رؤسائه، وهم حاخامات ورعين ومتشددين نوعاً ما. رُفعت قضية ضد هارون رجوان وفي الأخير اتُخذ قرار بعزل الرجل – وهذا حكم يُعلن عادة في جميع الكُنُس. ماجعل الامور تسوء اكثر هو ان كل ذلك تمّ القيام به بدون علم الرجل وبدون الطلب منه للتوضيح او منحه جلسة استماع من أي نوع.

سمع هارون بقرار الحكم والعزل العلني بينما كان يجلس مع الاصدقاء في المقهى المجاور، حيث ازاء ذلك – حسب ما تذهب القصة – وقف وأعلن قراره بأن يصبح مسلماً احتجاجاً على قرار الحاخامية التعسفي. هناك وفي ذلك الوقت نطق بالشهادتين – وهو إبلاغ بسيط جداً يفيد بأن لا اله الاّ الله وان محمداً رسول الله.

الآن لدى جدي الرائع العديد من الاصدقاء المسلمين، بعضهم كان حاضراً في المقهى، وليست هناك طريقة سهلة للعدول عن الشهادة، التي هي الفعل الوحيد الذي يُطلب من الشخص القيام به عند رغبته في التحول الى الاسلام. وهكذا بقي هارون رجوان لبعض الوقت مسلماً بالإسم، برغم استمراره في السر على العيش حياة اليهود. اخيراً، على اية حال، كان على الحاخامية ان تتراجع في قرارها. اذ اقرّت علناً بخطئها ورجلنا حصل نوعاً ما على عملية دفن يهودية صحيحة بينما الموقف الديني لزوجته وأطفاله بقي كما هو.

آل رجوان الأغنياء وآل رجوان الفقراء

في سن مبكرة جداً بدأتُ ادرك بأن قبيلة رجوان – كانت وماتزال العائلة الوحيدة التي تحمل هذا الإسم في هذا العالم – تضمنت بعض الأشخاص الأغنياء بالإضافة الى الفقراء ومتوسطي الحال الذين كنت اتصل معهم ضمن فرع العائلة من ناحية الأب. الموسرون على نحو خاص كانا اخوان اثنان، إبنا عم الأب، الذين اشتغلا في استيراد وتجارة الجملة للشاي والسكّر. لذلك كانت هيمنتهما واضحة جداً في سوق الشاي، بالفعل، لدرجة كان يسميهما الناس «ابو الچاي» – أي تاجر الشاي.

الأخوان رجوان كانا يمتلكان سَكَنين فسيحين جداً، هما بنايتان فعلاً، ذواتا مظاهر خارجية وابواب هي الأفخم بلاشك في عموم مركز مدينة بغداد. كان المنزلان يقعان في حي السنك الأنيق، مباشرة على شارع الرشيد. بالنسبة لمسألة طلب المساعدة من اقربائنا الموسرين، اعتاد الوالد ان يتمعن في بعض الشكوك الممضة والمماطلات، وهو يدرس الايجابيات والسلبيات لأيام واسابيع، قبل الانصياع لمناشدات الأم واتخاذ القرار بمفاتحة احد الأخوين – على مايبدو الأكثر عطفاً والأكبر سناً. كان هذا يحدث عادة عندما تتعرض العائلة الى نكبة مالية او غيرها – وما اكثرها. مثلاً عندما قرّر والداي اخيراً تزويج احدى اخواتي وتوجّب عليهم اذ ذاك توفير المهر. او مثلاً حينما الأخ

الياهو، المعيل الوحيد للعائلة، كان يعاني من «مشاكل السيولة» وكان على حافة الإفلاس. او حينما ساءت الأمور لدرجة اننا لم نستطع دفع الايجار او حتى دفع فواتير البقالة.

بطبيعة الحال، انه انا دائماً مَن كان يجب ان يأخذ الوالد – الذي فقد بصره قبل ان اولد بسنوات – الى بيت ابن عمه الثري، على بعد مسافة لابأس بها من المكان الذي اعتدنا العيش فيه في بغداد القديمة والتي دائما ما كانت تُقطع سيراً على الأقدام. اتذكر على وجه الخصوص احدى هذه المناسبات. كان الوقت ظهراً او قريباً من الظهر حينما وصلنا. سُمح لنا بالدخول الى المنزل وتُركنا نجلس هناك في الطرار – نوع من الشرفة الداخلية التي تطل على الفناء والبقچة [أي الحديقة] الصغيرة في الوسط – ننتظر وصول رب الاسرة لأخذ قسط من الراحة وقت الغداء والقيلولة. بالإضافة الى الطباخ – وهو رجل متوسط العمر – كان هناك ثلاث خادمات. لأنه كان وقت الغداء، تمّ تقديم الطعام مباشرة – اطباق شهية لم اعتد عليها من قبل. عند وصول ابن عمه، سيخبره الأب الحكاية الحالية للمصيبة – وبعد بقاء قصير جداً غادرنا. لااتذكر تماماً محتويات تلك الحكاية، ولااتذكر طبيعة الاجابة او الوعود التي قُطعت للأب. لكنني لااعتقد بأن تلك الدعوة الخاصة ذهبت ادراج الرياح في النهاية.

في تناقض حاد مع ابنَي العم الغنيين هذين، كان اخوان الاب فقراء نوعاً ما برغم ان فقرهم لم يكن كفقرنا نحن بشكل عام. عمو يعقوب، الذي يكبر الوالد بعدة سنوات، كان كان يعمل اسكافياً. كانت عنده فجوة خاصة به كمَشْغَل ، بدت لي بأنها نُحتت تماماً في الجدار الخارجي لـ «المدراش» (مدراش تلمود التوراة، وهي مدرسة لدراسة التوراة تعادل تقريباً اليشيبا اليهودية في اوربا الشرقية برغم انها تدار بوصفها مدرسة بستة مراحل او اكثر). لم يكفِ المحل لاستيعابه واستيعاب اكوام الأحذية والصنادل القديمة التي تمّ جلبها له حالياً ليصلحها – وقد اعتاد على الجلوس هناك، والانحناء لقلة المكان، وهو يدق المسامير او يقوم بالغرزات، معتمداً على نوع الحذاء الذي يقوم باصلاحه.

برغم انه على مايتضح ليس الشخص الذي تذهب اليه من اجل المساعدة المادية من أي نوع، فإن عمو يعقوب مع ذلك ساهم بشيء ما الى العائلة. فهو لم يقبض أي اجر لقاء الخدمات المقدمة الينا، ولذلك لم يربح أي شي عندما كان يقوم بذلك. اعتدتُ ان اخذ له تلك الاحذية والاحذية الطويلة والصنادل، احياناً للمرة الثالثة، او الرابعة، او العاشرة، واتذكر كيف انه اعتاد ان يعترض عليّ بأن أرجعها لأنه لايوجد شيء في العالم يستطيع ان يفعله من اجل ان يجعلها ذات فائدة مرة اخرى. لااعرف إن كان الامر عن طريق الصدفة ام عمداً، لكنني اتذكر بأنه عند تلك الزيارات المتكررة الى دكان عمو يعقوب كانت هناك احياناً مكافآت اخرى يمكن الظفر بها. تماماً بجانب الدكان كانت بوابة الـ «مدراش» – في اغلب الحالات كان هناك نوع من المتعة، تتراوح بين قطعة من الحلاوة (طحين، و زيت، و حلوى السكر) ملفوفة في قطعة من الخبز، او بعض الكچري بالخبز.

كان للوالد اخ اخر، هو ابراهيم. برغم انه وعائلته كانا قد هاجرا الى باريس بعد ولادتي بالضبط، الاّ ان عمو ابراهيم كتب عليه ان يصبح حموا لإثنين من اخواتي، نجية و سمحة. وشأنه شأن بقية

العائلة، كان ابراهيم في احسن احواله متوسط الحال بالنسبة للوسائل المادية. لكن كان قائداً بالفطرة وقد اختير بسهولة وبشكل طبيعي ليكون مختار المنطقة التي كان يعيش فيها. وبتلك الصفة، كان يؤدي وظيفة الصلة الطبيعية بين الساكنين والحكومة انذاك.

وبلا اية مهنة او تجارة معروفة، استطاع عمو ابراهيم مع ذلك ان يرعى عائلة كبيرة – وبُعيد مجيء الانكليز الى العراق رزم اشياءه وعبر الحدود الى كرمنشاه. ومن ذلك المكان بالضبط قرر هو وزوجته سارة بأن اختي نجية هي قرين مناسب لابنهم الأكبر إلياهو. ذات يوم في ربيع عام 1934، وصلت سارة الى بيتنا بمعية احد اولادها الاكبر سناً، بشكل غير معلن – وتمّ حسم القران بظرف دقائق، وأصبحت اختي مخطوبة لـ «إلياهو» وهو مشهد لم يحضره اي من الطرفين.

اخوات الأب، عماتي، كنّ اكثر حظاً عموماً. لم يكن سوى اثنتين منهن، تفاحة، الصغرى، كانت اكثر مثاراً للإعجاب. فهي قوية، طويلة، بهية الطلعة بشكل ملحوظ، لهذا تزوجت بأحد افراد عائلة برشان التي عاشت بكنفهم قرابة الخمسين سنة. ان منزل روبين برشان، الذي وُلدت فيه عمة تفاحة، ضيّف جميع الاحداث المهة للسنة اليهودية – هثيما في عيد االزيارة، وهو هوشاعنا رابّا الذي يأخذ الليلة كلها مُنهياً احتفال المعابد، وهي مناسبات وفاة مختلفة. كان الاب يحضر هذه المناسبات على نحو منتظم، ولأنني مرشده فقد كنت ايضاً دائما هناك. كذلك كانت هنالك زيارات اقصر، كان الوالد يقوم بها في مناسبات عندما تكون الحاجة لنوع من المساعدة، المادية وغيرها، مطلوبة حيث يتم اختيار الاعضاء الموسرين من القبيلة بعناية للتدخل، مثلا، عندما جرى تزويجِ ابنةٍ، او عندما اعلن إلياهو افلاسه وسُجن.

عمتي الاخرى من جانب الاب، عمة حنينة، كانت تعيش مع عائلتها في جزء اخر من العراق وقلما كانت تسنح لي الفرصة لرؤيتها. اخيرا، على اية حال، مثل العديد من العائلات اليهودية الاخرى من المحافظات توجّب عليهم الانتقال الى بغداد، لكن في ذلك الحين كنت بالغا نوعا ما وتوقفت عن مرافقة الاب في مثل هذه الزيارات الاجتماعية برغم انني استمريتُ في اخذه الى الكنيس ايام السبت وفي مختلف المناسبات والأيام المقدسة.

مواجهة عمى الأب

ربما لم ابلغ من العمر اكثر من ثلاث سنوات حينما تعلُّمت ان االخذ الوالد الى الكنيس، والحلاق، وأماكن محتلفة اخرى التي اعتاد الذهاب اليها. في تلكم الايام وفي ذلك المجتمع بالذات، ان تصاب بالعمى كان يعني نوعاً من الإبتلاء الاجتماعي فضلاً عن الاعاقة الجسدية. ان التحرك حوالي المنزل وحتى اعطاء يد العون الى الأم في اعبائها اليومية لم تشكّل صعوبة بالنسبة للأب؛ اذ انه كان بالتالي يساعدني ايضا بواجباتي المدرسية، لاسيما في اللغة العبرية والرياضيات. لكن الخروج وحيداً في ازقة بغداد وشوارعها الضيقة، حتى لأقصر مسافة، كان مسألة خارج التصور – ناهيك عن الانخراط فعليا في مهنة ما او غيره كمحاولة لكسب العيش.

ولد الاب حوالي عام 1880 وتزوج بأمي في مطلع القرن، حينما كانت تقريبا في الرابعة عشرة من العمر. كان مولودهما البكر ولداً جاء الى الدنيا عام 1903 او 1904. كان اسمه إلياهو تيمناً بجدي من جهة الاب وكان محظوظا جدا بحيث نجا من المصير الاسود لمعظم رعايا السلطان العراقيين الذين في خضم الحرب العالمية الاولى تمّ تجنيدهم على عجل وإرسالهم الى موتهم المحقق سيرا على الأقدام، حيث قلة قليلة جدا تمكنت من الوصول الى جبهة القتال، ناهيك عن عودتهم الى بيوتهم. بعد إلياهو، ولدت الأم سبعة اطفال – اربع بنات وثلاثة اولاد. على اية حال، من بين الثلاثة اولاء المولودين قبلي، لم يعش سوى إلياهو، الاثنانِ الآخران – كلاهما يحمل اسم نسيم – توفوا بُعيد ولادتهم. اما البنات فقد كتبت لهن الحياة. وإذ لم يبقَ للأسرة سوى ثلاث بنات وولد واحد، قام والداي بمحاولتين اخريتين في اواخر حياتهما من اجل زيادة تعداد الاسرة من الذكور. وهكذا تمت ولادة اختي الصغرى سمحة وأنا، بفاصلة زمنية مقدارها ثلاث سنوات بالضبط.

الظروف التي ولدتُّ فيها، ذات ليلة في وقت متأخر من شهر كانون الاول في ابي شبل، وهي منطقة مسلمة الى حد كبير من بغداد القديمة، يستحيل وصفها اليوم لأنه اقل مايقال عنها بأنها معدمة. بالمقارنة مع ظروف اخرى عديدة، على اية حال، لم يكن حال اسرتي بالموقف الأسوء. مع ولادتي، اصبحنا اسرة من ستة اشخاص – الاب باروخ؛ والأم لولو؛ والأخ إلياهو والأخوات نعيمة، و گورجية، و نجية؛ و أنا. وقد تزوجت اختى الكبرى نعيمة قبل ولادتي بثلاث سنوات فقط.

كان إلياهو يكبرني بأكثر من عشرين سنة تقريباً، وبسبب ظرف الأب، اصبح المعيل الوحيد للعائلة. في ذلك الوقت بالضبط كانت الامور تسير سيرها الحسن معه؛ ففي شراكته مع احد الأقرباء الأباعد، فتح مخزنا في وسط بغداد لبيع القمصان وغيرها من الملبوسات والخردوات، بشكل رئيس لأفراد قوات صاحبة الجلالة البريطانية المحتلة.

ان الظروف الدقيقة التي فقدَ فيها والدي بصره كانت مرتبطة بي في فترة ما في السبعينات عن طريق اختي الكبرى نعيمة، التي كان عمرها تسع سنوات حينما وقعت المصيبة. حدث كل هذا بشكل مفاجيء جدا قبل ولادتي بعشر سنوات تقريبا. ذات مساء في وقت متأخر ذهب الاب الى منزل روزا، ابنة العمة عزيزة، ليجلب نعيمة، التي كانت قد أُرسلتها الأم الى هناك بمهمة ما وتأخرت نوعاً ما في عودتها. في طريق عودتها الى البيت، اشارت نعيمة: «بابا، عيناك محمرّتان الى درجة كبيرة، محمرّتان جدا بحيث انهما يبدوان تحترقان!» في تلك الليلة نفسها اشتكى الاب طوال الوقت من آلام ممضّة في الرأس والعينين – وفي الصباح القادم ذهب بصره.

وبكل مايستحقانه من قيمة، فإن جميع المحاولات من جانب كادر مستشفى مير إلياس لإنقاذ بصر والدي ذهبت ادراج الرياح. لكن بينما اعلن اطباء العيون السبب وراء العمى بأنه راجع لـ «التهاب حاد»، اصرّ افراد العائلة الكبار بأن السبب الحقيقي يكمن في شيء اخر غير ذلك. الحقيقة هي ان الاب كان يمتهن النجارة وان مجلس الجالية اليهودية في ذلك الحين – في بواكير الـ 1910s – كان منهمكا في وضع اللمسات الاخيرة لمستشفى حديث للجالية في مكان ما بالقرب من بغداد، وهو مستشفى مير إلياس الشهير. وقد تطلّبت اعمال البناء والبستنة إسقاط عدد لابأس به من الاشجار

القديمة في الموقع، وكان الاب احد اولئك المكلفين بهذا العمل. لقد كانت كعقوبة ربانية بسبب انخراطه بهذا النوع من العمل، لذلك يقع اللوم في فقد ابي البصر في كلتا عينيه [يقع] على إسقاط الاشجار الذي يعدّ فعلاً محرَّما.

وبرغم فقدانه بصره، تمكّن الاب من الاستمرار في عمله كنجار لفترة قصيرة؛ كذلك كانت لديه فكره فتح محل بقالة اصبحت فيه نعيمة ذات العشر سنوات مسؤولة فعلاً عنه. لكن الحرب العالمية الاولى وضعت نهاية لكل هذا، حيث تمّ تجنيد اعداد كبيرة من اليهود القادرين وسوقهم في المسيرة الطويلة عبر الصحراء التي ما كان لأحد ان يعود منها – مايسمى بـ «النفير العام» (سفربارلوغ) الذي زجت فيه الامبراطوية العثمانية كل شيء في محاولة رائعة لصد تقدّم الحلفاء.

كان الوالد يتمتع بعقل تحليلي رائع، وكان متعلماً، ومثقفاً حقيقياً بطريقته الخاصة. وكونه رواقي المزاج، فقد كان قاسياً، منضبطاً، ويتوق الى النظام. إما بسبب تحررية داخلية في منهجه او نتيجة لإدراكه بأنه كانت تعوزه السلطة الحقيقية على اطفاله وأهل بيته عموما، كان متسامحا جدا معنا نحن الاطفال وكان يأخذ الامور بشكل فلسفي نوعا ما.

اخيرا بدأ الاب ينسحب تدريجيا، مدركا على الاقل بأن كلمته لم تعد تحمل اي وزن وأنه اصبح لاحول له فعلا في التأثير على الاشياء. ان ماجعل الاشياء اكثر صعوبة هو التغيرات السريعة والجذرية نوعا ما التي تحدث حولنا – في الجالية اليهودية، وفي البلاد ككل، وفي نطاق عائلتنا – وكل هذا بينما هو استحال فعلاً اسيراً لعماه. كما اصبحت زياراته الى الكنيس اقلّ تكراراً، وكذا الحال مع اتصالاته بالأقارب والأصدقاء. في الحقيقة، كان لديه اصدقاء قليلون جدا خارج الاسرة الكبيرة – الاقارب، والانسباء، وأبناء عمومته الأباعد، وما الى ذلك.

لم اسال الوالد قط كيف وأين تلقّى تعليمه. كان يعرف التوراة وأجزاء من سِيَر الانبياء عن ظهر قلب تقريباً، بالإضافة الى الصلوات، الهاغادة، ومختلف البركات. واستمر في ترؤس الصلوات والقراءات في جميع المناسبات الاحتفالية – ليلة السبت الكدوش، ليلتين لصلاة عيد الفصح، الليلة الاحتفالية لرأس السنة اليهودية «روش هاشانا» مع إلقاء الكثير من البركات، البركات التي تقال في امسيات يوم الغفران مع ذبح الفراخ القربانية، والسلسلة المعقدة من البركات التي تُلقى في «السكّه»، التي كان هو نفسه يستخدمها ببراعة وإتقان من اجل ترسيخها في الايام السابقة لعيد المظال «السكّوث».

كما كان الاب مصدر جميع القصص التي سمعتها في سني طفولتي. وتراوحت الحكايات من تقارير مباشرة من قصص الانجيل الى الميثولوجيا القديمة. معرفتي بقصة الخلق، وسفينة نوح، ابراهيم وعيسى، واسحاق ويعقوب واخوانه، موسى وابنة الفرعون، وقصة التجسس الاولى المتعلقة باحتلال اريحا – كل هذه سمعتها اول مرة من الوالد في ليالي الشتاء الطويلة والقارسة البرودة. لكن فضلا عن الحكايات الانجيلية كان الوالد ايضا معينا لاينضب لقصص مطولة مليئة بالمخلوقات الغريبة تتراوح بين الساحرات، الخيّرة والشريرة، الى العمالقة والوحوش الحقيقية. في عملية

استرجاع لاحقة اشعر الآن يقيناً بأن تلكم الحكايات لايمكن تلفيقها – ومازلت اتساءل من ذا الذي كان قد قصّها على الوالد في المقام الاول.

الفصل الثالث

الأم وتأثير الوهم

لو كانت عالمة اجتماعية او عالمة انسان حضارية، فإنني على يقين بأن الام كانت ستصبح نصيرة كبيرة للنظرية المعروفة بـ «نبوءة تحقيق الذات» ولكانت اول شخص يوسّع هذه النظرية، حتى قبل وليم الأول. لقد اقترحها كل من توماس و فلوريان زنانياكي في كتابهما الكلاسيكي، «الفلاح البولندي في امريكا واوربا». قدّم توماس و زنانياكي الفرضية التي في دراستنا للإنسان تكون مهمة لاكتشاف كيف يحدّد الناسُ المواقفَ التي يجدون انفسهم فيها، لأنه «اذا يحدد الناس المواقف على انها حقيقية، فإنهم يكونون حقيقيين في نتائجهم.»

هذا، بالضبط، هو جوهر فلسفة الأم في الحياة، التي لم تكلّ من اعادتها، دائما بوصفها تفسيرا جاهزا لشيء ما نشتكي نحن الاطفال بانه خاطيء. بصرف النظر عن الخوف التقليدي الاعتيادي من «تكوين رأي عن الشيطان»، افادت فلسفة الأم ايضا بأنه اذا ما تجاهل المرء منغصات معينة فإنه لن يتأثر بها.

عادة، يتم تطبيق المذهب بدرجة كبيرة على الظواهر النفسية؛ لكن احيانا يتوسّع ليشمل الشكاوى والمصائب الجسدية اليومية. حينما، مثلا، انا او شخص ما غيري في المنزل كنا نشتكي من كوننا «متوعكين صحيا»، او [نشتكي] من عدم وجود رغبة للطعام، او انه او انها لا يستطيع النوم، او العمل، او المشي، او القيام ببعض الأعباء، فإن الام تقول شيئا ما بهذا الخصوص مفاده «حسنٌ، من الطبيعي عندما تستمر على قول ذلك وتؤمن به، عندها في النهاية ستشعر في الحقيقة بأنك لست على مايرام لن تكون قادرا على القيام بشيء. من الافضل ان تتجاهله و تحاول ان تقنع نفسك بأنك على مايرام تماما!»

هذا الاعتقاد كان راسخا بقوة في منهجها تجاه الاشياء حيث ان الام كانت تؤمن فعلا بأنك اذا ما تمنيتَ شيئا ما بقوة وعناد كافيين فإن امنيتك ستتحقق. هذا الجانب من فلسفتها الذي لا يمكنني قط قبوله او تبنيه. لكنني نشأت بأن اكون مؤمنا حازما تماما في اعمال نبوءة تحقيق الذات، التي تعرف كذلك لدى بعض علماء الاجتماع وفي سياق مختلف بأنها «الحلقة المفرغة»؛ سواء تحت تأثيرها ام لا فانه لاسبيل امامي للمعرفة. على ضوء ما جئت لأتعلمه في سنين لاحقة، بدأتُ كذلك ان ارى علاقة وثيقة بين معتقدات الام في هذا الخصوص وما يدعوه المرء بتأثير البلاسيبو، الذي، كما وجدتْ عددٌ من الدراسات الأخيرة، يستطيع تلطيف اعراض انواع مختلفة من الابتلاءات الجسدية، تتراوح بين الربو الى قصور القلب الاحتقاني وحتى السرطان.

لا اعرف إن كان هذا نوعا ما يمثّل توسّعا لفلسفتها العامة في الحياة، لكن هناك سجال سرمدي بيننا، برغم انه اتخذ اشكالا محتلفة وسبّبته عوامل شتى، فقد بقي على حاله تقريبا. في مسألة الطعام، مثلا، لم تبدو الأم الاّ نادراً بأنها تضيف الكمية المناسبة من الملح والفلفل والليمون والسكر، او أيّ من

المطيّبات والمكونات الاخرى في الوجبات التي كانت تعدّها. وكذا كانت طبيعية جدا الشكوى اما ان الطعام كان مالحا جدا، او حادا جدا، او حلوا جدا، او انه لم يكن متبّلا بما فيه الكفاية. وردة الفعل الطبيعية للأم بالنسبة لهذا هو شيء ما موجود في الأسطر التالية: «حسنٌ، لايعرف المرء حقا ماذا يعمل معكم ايها الصغار او كيف يتصرف في هذه الدار! امس كان هناك المزيد من الملح، اليوم هناك القليل منه! لماذا لا تستطيعون ان تقرروا؟ ماذا تريدون مني ان افعل؟» يبدو انه لم يدر بخلد الأم بأن هذه هي حالة مقبولة وأنه في كلتا الحالتين ليس هناك ببساطة الكمية المناسبة من الملح في الطعام.

لأنه كان في الغالب دائما بأنني انا من يجرؤ على القيام بهذه الملاحظات والاعتراضات حول الطعام، فقد قررتْ الأم ان تنعتني بـ «ابو الثريا والميازين». الاشارة، على اية حال، كما عرفتها لاحقا، الى النجوم التي تُرى بالعين المجردة في الليالي، في هذه الحالة الميزان Libra، كناية للميازين؛ وأحد الستة المرئية من نجوم الثريا – من مجموع سبعة – كناية للثريا. ابو الثريا والميازين (حيث ميازين جمع ميزان) تقال عن الشخص الذي يماطل بشكل مستمر ولايبدو انه يقرّ على قرار، بالإضافة الى صعوبة ارضائه.

القصة وراء هذه المقولة تخبر بأن شابا متزوجا حديثا، شأنه شأن جميع البغداديين، كان قد نقل فراشه الى سطح المنزل في فصل الصيف من اجل نسيم الهواء البارد في الليالي. وبينما هو نائم على ظهره بجانب زوجته، يحدّق الشاب في النجوم ويشتكي من انه لايمكنه النوم تحت الثريا تماما، لأن القوم في الاعلى هناك، المكلّفين بإضاءة الثريا، ربما يكونون يتجولون معها، وهي ربما تصفعه على رأسه. لذلك تتبادل الزوجة الأماكن معه صاغرة، لكنه سرعان ما ينهض متذمراً من ان الميزان Libra فوق رأسه تماماً فماذا يحدث إن سقط وزن من احد الشباب الذي يَزِنون، او [سقط] الميزان كله؟ ونفس الشيء، طبعاً، حدث عندما كانت الزوجة تحرّك بصبرٍ الفراشَ الى هذا الجانب من السطح او ذاك! من هنا جاءت عبارة (ابو الثريا والميازين).

مع مرور الوقت، اصبحت ردود افعال الأم على هذه العبارات موضع تندر العائلة التي كانت [الأم] تشاطرهم فيها. حتى انا، بكل الشهرة التي اكتسبتها لنفسي في وقت مبكر في الاجراءات بأنني مُنشد للكمال بشكل لايطاق ومدقّق بالتفاصيل، قد اعتدتُ على هذا وكنت لا استقبل الاجابة الثابتة بأكثر جدية من ابتسامة و لامبالاة.

الأم

حينما احاول ان اجد كلمات لأصف بها ملامح الأم وتوجهها العام لايمكنني ان افكر الاّ بكلمتَي «كلاسيكية» و «نبيلة». من الناحية الاجتماعية، فهي تنحدر من عائلة تجار وبهذا الخصوص تبدو اعلى قليلا من حيث الموقع الاجتماعي من حالة ابي. في تلكم الايام العشوائية نوعا ما، لأن المهور تكون جزءا لايتجزأ من أي اقتران محترم وأن البنات تعدّ عالميا عبئا على آبائهن، فإنه ليس من

غير المعتاد بالنسبة لعائلة جيدة تنحدر من «سلالة» معصومة ان تزوج بناتها بشباب منحدرين من عائلات ذوات وضع اجتماعي اكثر تواضعا.

أي عامل من مجموعة عوامل يمكن ان يكون ذا تأثير هنا: تحول مفاجيء نحو الأسوأ في التجارة او انتكاسة اقتصادية اخرى تقوم بعرض مهر مناسب لم يكن في البال؛ او بساطة الفتاة او أي خلل جسدي اخر او اعاقة ما التي تميل الى ان تلقي بظلالها على مهر كبير؛ او مكانة كان الشاب موضوع النقاش قد اكتسبها بفضل جهوده الخاصة ورفعته الى موقع اجتماعي اعلى من اصوله المنحدر منها. حتى الأربعينات، فإن العامل الآخر الذي سيأتي الى ذهني في اخذ هذه «الزواجات المختلطة»، لاسيما الحب والفرار مع الحبيب، لم يُسمع بها.

في قضية والديّ، بقدر ما استطيع ان اتذكر، انه «النَسَب» الذي قرر القضية. من المؤكد، من الناحية الاقتصادية عائلة الأب المباشرة لم تكن ذات مكانة اجتماعي تضاهي مكانة الأم؛ لكن يبدو ان ماكانت تفتقر اليه العائلة بالنسبة للنقود والممتلكات الدنيوية ظهرَ بأنه فرضته [حددته] مكانتها [أي العائلة] الاجتماعية – وبهذا تمّ الإقتران وتمّ اتخاذ شابٍ ذي مكانة اجتماعية غير مبالية كمكانة نجار [تمّ اتخاذه] كصهر.

سُميتُ تيمناً بإسم اب والدتي، نسيم عزرا نسيم. من عادة اليهود العراقيين ان يسمّوا اطفالهم تيمناً بآباء، وأجداد، وأقارب ميتين. (ان تسمية الوليد تيمناً بجدّ حيّ غير مسموح به لأنه يعدّ فألاً سيئاً – بشكل غامض يسرّع بوفاة المسمّى.) ويُسمح بهرمية دقيقة. اولاً يأتي الأجداد من ناحية الأب، فالوليد دائماً ما يسمّى تيمناً بالجد الميت او الجدة الميتة؛ ثم يأتي الاجداد من ناحية الأم؛ وعندما يصادف ان كل هؤلاء مازالوا على قيد الحياة يتم اختيار اسم قريب relative ميت.

في السنوات اللاحقة، مع بداية الاستقلال وتزايد اندماج اليهود في المؤسسات التربوية وغيرها من المؤسسات الوطنية، اصبح من قبيل الموضة ان تعطي الطفل اسمَين، واحد عبري وواحد عربي. وهكذا فإن اول ولد يولد لأخي إلياهو بعد وفاة الأب سُمي باروخ/فاروق. استمرت هذه العادة بعد الهجرة الى اسرائيل. «الاسماء التي تنمّ عن مكانة اجتماعية»، وحديثة، وجميلة، وأكثر عصرية مثل يورام، تامار، باتيا، يگال، إيلان، ترتبط عادة بالأسماء العبرية القديمة والأسماء التوراتية مثل حسقيل، شموئيل، رفقه، استر، نيهيميا، شلومو، وغيرها – مما تمخّض عن ان الطفل يتم تمييزه فيما بعد بشكل ثابت بالإسم الاكثر عصرية بينما يتم تجاهل الاسم الآخر تماماً. في بيتنا نحن، مثلاً، لاندعو مولودنا الأول باروخ لكن دائماً [ندعوه] روني، برغم ان اول اسمَيه هو باروخ، تيمناً بإسم جده من ابيه.

جدي من امي و سَميّي كان تاجراً ذا مكانة ما في المدينة، وأولاده، الأربعة الذين نجوا من معدل الوفيات العالي غير المعهود، كانوا جميعاً يمتلكون بعض التعليم. في الوقت الذي كنت فيه كبيراً بما يكفي لفهم هذه الأشياء، كان لدى اخ امي الأكبر، خالو يوسف، اربعة اولاد بالغين اثنان من بينهم يعملان في التجارة بينما الإبن الأكبر، يامين، كان ضابطاً في الجيش العراقي ومن هنا لُقّب بـ

«يامين الضابط». العم منشي كان قد انتقل الى عبادان (المحمرة) في بلاد فارس وكل الذي كنت اعرفه عنه هو الإسم. الولدان الآخران، عزرا و إفرايم، كلاهما يعملان كموظفَي حسابات في شركة النقل الرئيسة في البلاد، التي يملكها حسقيل ناثانئيل.

اثناء مرحلة معينة من طفولتي المبكرة، حينما أُعلن إلياهو مفلساً ولم يكن معنا أي فلس لإعانته، اعتدت الذهاب الى مكاتب ناثانيل عند الظهيرة، حيث سأعطى روبية، وهي مساهمة يتقاسمها سوية الخالان. لابد ان اضيف بأنه في تلكم الأيام ان الروبية، التي تعادل تقريباً شلنين انكليزيين، تُستخدم لشراء مواد غذائية كافية ليومين او حتى المزيد من الأيام كما انني اتذكر جيداً كيف كان هذا موضع ترحيب في المنزل. على طول تلك الفترة بأجمعها، عن طريق سوء الحظ او غيره، فشل خالاي في اعطاء الروبية مرة واحدة فقط – وكان يوماً حزيناً جداً لأهل الدار وازعاجاً كبيراً لي شخصياً لأنهم يظنون بأني مسؤول عن سوء االحظ هذا. كانت الشكوى، حسبما اعتقد، بأنني كنتُ «فخوراً ومتكبراً جداً» بحيث لم اطلبها [أي الروبية]. في الحقيقة كنت على حد سواء خجولاً جداً وفخوراً جداً بحيث لم اتفوه بأية كلمة؛ فقط اظهرتُ نفسي، وجعلتهم يشعرون بوجودي، وانتظرت بصبر حتى جمع الخالان حصة بعضهما الآخر، اخذتُ الروبية وغادرتُ بدون ان اقول لهما وداعاً، ناهيك عن قول «شكراً لكما» او اية عبارة لطف.

دجاجة عشية السبت

برغم كل عيوبها و خصوصياتها، كانت الأم مدبّرة بيت مجدة برغم انها صعبة جداً في بعض الأحيان. ولكونها مسؤولة عن المنزل، كانت تبذل قصارى جهدها بالفعل لتدبير امور المعيشة. كيف كانت تنجح لااعرف بالضبط؛ لكن الأطباق التي كانت تعدّها، برغم فقر مادتها ومكوناتها، كانت شهية جداً ولو انها نادراً ماكانت تُقدَّم بكميات كبيرة كافية.

كانت الأم بارعة بشكل خاص في تحويل الموقف السيء او العادي نحو الأفضل، مستغلة اقصى استغلال مكونات الطعام التي تبدو اليوم قليلة بشكل مريع وغير كافية. في السنوات التالية – لإعطاء مثال بارز – حينما كان لدي الوقت او الفرصة لتدبّر مثل هذه الأشياء، لم اتمكّن قط من ايجاد توضيح مقنع لظاهرة دجاج عشية السبت وعدد الأطباق المستخرجة منه.

هناك شيء واحد، هو دجاج عشية السبت دائماً ما كان يشكل مشكلة في بيتنا بسبب ارتفاع سعره النسبي. من المثير كيف كانت تختلف اسعار المواد الغذائية المختلفة واللحوم، سواء من حيث علاقتها ببعضها البعض او بعبارات مطلقة، من خلال ماتبدو عليه اليوم في معظم بلدان العالم. في بغداد طفولتي وشبابي، مثلاً، كانت اسعار لحم البقر و الضأن اقل بكثير من اسعار الدواجن.

كذلك، ان الدواجن لاتباع بالوزن؛ كانت تباع بالقطعة، فكلما كانت الدجاجة اسمن كان سعرها اغلى. عن طريق الصدفة، الفرّوج الشهي لابد ان يكون دجاجة لأن الديكة تكون عادة هزيلة وخالية من الدهون. المناسبة الوحيدة التي كانت تُذبح فيها الديكة في بيت يهودي محترم كانت عشية يوم

الغفران، حينما كان على ذكور العائلة ان تمتلك ديكاً لكل واحد منهم من اجل القربان الطقسي – وما اعتيد ان يخلصنا من ذلك اليوم هو الأناث، المؤهلات ليكون لديهن دجاجة قربانية لكل منهن.

كان يوم شراء دجاجة السبت هو الخميس، وكان هناك دائماً مقدار كبير لتقييم الايجابيات والسلبيات. اولاً كان هناك سؤال جوهري يتعلق بالمبلغ الذي سيصرف، بالإضافة الى تقييم كل شي آخر. بعد ذلك عندما يتم شراء الطير اخيراً ويتم جلبه الى البيت، دائماً عن طريق الأم، سيكون هناك حدس منظم بخصوص قيمته من حيث السعر المدفوع، كمية الدهن الذي يحتويه، وإن كان هناك بداخله بيوض لم تتشكل بعد – وكذلك إن كانت الأم قد قامت بالخطأ الفاحش الذي هو ليس من غير المعتاد في الإشتباه لأن صفار البيض هذا هو قطعة ثمينة من السمن عادة ماتوضع في نفس المكان – والتي تسمّى لسبب ما «وقّة»، اللفظ اليهودي العامي لكلمة «ورقة»، اللفظ العربي لـ «قطعة ورق». كانت «وقّة» الدجاجة قضية مهمة جداً لدرجة ان الكلمة كانت تستخدم للإشارة الى قيمة شيء ما او شخص ما – كما في «بينو»، او «بيها»، «وقّة» (أي انه/انها تمتلك مادة مهمة). وطبعاً كان يجب ان تكون دجاجة حية؛ اذ ليس هناك أي تساؤل لشخص ما في بيع او شراء دجاجة مذبوحة او جزء منها.

عادة مايكون اول شخص يتفحص الطير هو الأب، الذي بعد مقدار لابأس به من الفحص والتقييم، سيعلن قراره الذي اتخذه – طير سمين ومليء باللحم بسعر معقول كان القرار الذي يعطي الأم مزيداً من الرضا. لكن حينما يكون قرار الحكم سلبياً – ونادراً ماكان الأب يخطيء في تقييماته – تقول الأم بكل ثقتها التي استجمعتها لكن قولها يكون ممزوجاً بالشكوك: «لا، انت على خطأ هذه المرة – وسوف ترى ...». عندئذ يتم اطلاق سراح الدجاجة في باحة المنزل لتنتظر لقاءها بذبّاح الحي صباح يوم الجمعة من اجل ذبحها بشكل صحيح.

وتوقعاً لحدوث الاشياء الجميلة خلال اليومين التاليين، كان غداء الخميس والوجبة الرئيسة تتكون بشكل ثابت من مخلوطة سمك وخبز. وكونه طبقا من اصل هندي، كانت وجبة الكجري تُعد بعدة طرق محتلفة، لكن في بيوتات بغداد اليهودية كانت المحتويات تتألف بشكل عام من الرز والعدس، تطبخ احياناً بشرائح الطماطة لكن اغلب الوقت بدون ذلك. بعد طبخ التمن والعدس، يتم غلي زيت السمسم في مقلاة منفصلة، وبعد اضافة الثوم والكمون وتركهما يغليان الى اقصى حد، تضاف محتويات المقلاة بعناية ويكون الطبق جاهزاً للتقديم.

لكن هذا هو ابسط وأرخص صنف من وجبة كجري، وهو الصنف الذي كنا نعمله دائماً. الأشخاص الأقل فقراً كانوا يستخدمون الزبد بدلاً من الزيت، بينما الموسرين حقاً دائما ما يعملونه إما ببيضتين مقليتين، وملء كوب من لبن الزبادي، او كليهما. كذلك يكون لديهم كميات كبيرة كافية لاحاجة لأن تأكلها بالخبز. هذا النوع من اكلة كجري كنتُ اتناوله احياناً جداً، ويكون هذا فقط في بيوت بعض الأقارب الموسرين.

برغم ان وجبات السبت لابد ان تشتمل على السمك و قطعة من لحم الضأن، كان لابد للأم ان تكون حاكماً حقيقياً من خلال الطريقة التي كانت تتمكن فيها من عمل دجاجة وحيدة بائسة تكفي على الأقل وجبتين كاملتين لسبعتنا نحن – وفي بعض الأحيان لأكثر من ذلك. وإذ تُذبح صباح يوم الجمعة، يتم اولاً تنظيف الطير وتمليحه، ثم بعد الفترة الزمنية المطلوبة يجري سلخه بعناية، مع الإحتفاظ بالصدر، والجناحين، وأحياناً المؤخرة السفلى من اجل ان يبقى الجلد ككل على حاله قدر المستطاع. وبهذا يكون الجلد المستخرج اهم جزء في الدجاجة، ليس فقط لأن كل السمن من الناحية العملية محفوظ هناك ولكن ايضاً كان ضرورياً لإعداد وجبة يوم السبت الرئيسة المسماة تبيت t'beet، التي، عند ترجمتها ترجمة تقريبية، تعني طبقاً ليلياً.

بعد غسله وتنظيفه مراراً وتكراراً، يملأ الجلد – مع إبقاء فقط الجناحين والصدر على حالها – بالرز وشرائح الطماطا والكركم والملح والفلفل وشرائح أي نوع من اللحم في معدة الدجاجة، ثم تتم خياطته ويوضع جانباً. وذلك مايصنع اكبر حشوة واكثرها لحماً. اما الأجزاء الأصغر الأخرى من الجلد، لاسيما اجزاء الرقبة، يتم استخراجها وتُحشى بالطريقة نفسها، برغم انها لم تكن بنفس الغنى والوفرة. حينما يتم استطلاع كل جانب ويتم إعداد جميع الأجزاء المحشوة الثمينة، يوضع قدر كبير على النار ويتم تزييته جيداً او – اذا استطعت ان تتحمل مثل هذا الإسراف – بسمن الدجاج. وحينما يُغلى هذا، تضاف الدجاجة المحشوة والحشوة الثانوية الأخرى، ثم [يضاف] القليل من الماء وعصير الطماطا، ثم [تضاف] كمية من الرز وأخيراً المزيد من الماء والمطيبات. حينما تُطبخ جميع محتويات القدر الى النصف او الى الربع، عادة ما تُنقل الى نار صغيرة جداً، على طباخ نفطي او، افضل من ذلك، على فحم حيّ. بعد ذلك، بعد تغطية القدر بكمية كبيرة من وسائد خشنة صنعت لهذا الغرض و الخرق، يُترك هناك تماماً حتى ظهيرة السبت، قرابة على الأقل عشرين ساعة.

عادة مايقدَّم التبيت في وقت الغداء يوم السبت، لكن في الشتاء حينما يكون الجو بارداً جداً يحدث استثناء ويتم تقديمه في وقت متأخر في الصباح، مباشرة بعد عودة الرجال من صلواتهم. في تلك الحالات، يضاف المزيد من الماء الى القدر وعادة ما تسبح الدجاجة المحشوة في نوع من عصير الطماطا والرز الكثيف جداً.

اما طبق الدجاج الرئيس الآخر فيُقدّم في اماسي السبت، والمكونات تشمل البيض، والرقبة المسلوخة وبعض الأجزاء والقطع الأخرى التي تمّ الإحتفاظ بها بمهارة من الدجاجة. اما الكبد على اية حال فيجب ان يتم إعداده منفصلاً، دائماً عن طريق شيّه، لأنه، بسبب كمية الدم الذي يحتويه، يحرّم غليه او قليه او إعداده بأيما طريقة اخرى.

الآن ان الطريقة التي يتم بها حفظ التبيت، وحالة النار التي يبقى عليها في الليل، ودرجة الطبخ التي بقي عليها قبل ان يوضع في القاع كل هذه هي قضايا خادعة لاتستطيع اية ربة منزل ان تأمل في القيام بها بمثل هذا التنسيق الدقيق فيما يتعلق بكمية المادة المنتهية. انه عن طريق المصادفة، على الأغلب مسألة حظ، وغالباً ما تكون هناك بعض العقبات. لم يكن اللهب على الارتفاع المناسب بالضبط ومن ثم فإن التبيت اما ان لا يكون مطبوخاً جيداً او ان لايكون حاراً بما فيه الكفاية او

كلاهما. او ان هناك مقداراً كبيراً جداً من الرز داخل الدجاجة من اجل ان تُطبخ المحتويات الثمينة طبخاً كافياً – او هناك الكثير جداً من الماء، او الحرارة، او أي شيء من عشرات الأشياء من اجل ان يُطبخ الطبق جيداً ويكون مذاقه جيداً. عندما يحدث أي من هذه المشاكل وعندما يكون فرد من العائلة – عادة انا – وقحاً جداً او لامبالياً جداً في تقديم تعليق، فإن ردة فعل الأم تكون موحّدة. ستستهزئ وتقول، «نصيب السبت» [أي حصة السبت] – لتدل على ان لاشيء هناك باستطاعة أي شخص ان يقوم به بخصوص ذلك.

مقارنة بأيام الأسبوع الأخرى، فإننا لابد انفقنا ثروة صغيرة على وجبات السبت. الى جانب السمك المقلي وحساء الدجاج والرز، فإن وجبة عشية السبت كان يجب ان تتضمن مواد اخرى معينة غالية بعض الشيء التي تعتمد طبيعتها على الموسم والجو. في السنوات التالية، حينما كنت كبيراً بما فيه الكفاية بحيث اتجاهل هذه العادات وبعد وفاة الأب، اصبحتُ فعلاً اشتاق كثيرا الى هذه وغيرها من المناسبات الاحتفائية – وكنت ابتهج دائماً في المشاركة في احداهن حينما تسنح الفرصة. جاءت هذه على الأغلب حينما حدث وزرتُ بيوت إلياهو او نعيمة – اخي واختي وكل من اللذَين يكبرانني سناً بأكثر من 15 سنة؛ لكن فيما بعد كنا سنحضرها في بيت والدَيّ زوجتي، لاسيما اماسي رأس السنة وليالي عيد الفصح.

تقريباً رغماً عنها وبالتأكيد ليس نتيجة الإختيار، اصبحت الأم صانعة القرار من الناحية العملية في كل شيء يؤثر على الأسرة. ولكون الأب ملازماً للبيت وغالباً ما كان يشكّل حتى عبئاً عليها، كانت الوالدة تخرج طوال اليوم تكسب لنا قوتنا جميعاً، اذ ان اخواتي وأنا كنا صغاراً جداً او غير مهمين بحيث لايمكن ان نعيل، لذا توجّب على الأم ان تكون مسؤولة عن الأشياء – ومن ان اجل ان تدبر شؤون البيت كان لابد لها من ان تكون صارمة نوعاً ما ومتعقلة بشكل متطرف بقدر تعلق الأمر بإنفاق النقود.

اصبح هذا عادة لدى الأم، اصبح طبيعة ثانية على ألأغلب، وحينما تزوج اخي الأكبر اخيراً لم تستطع مفارقة هذه العادة. في البداية سارت الأمور بسلاسة، لكن مع مرور الوقت وبعد فترة قصيرة من المران بدأت امرأة اخي الجديدة هيلا تؤكد نفسها، إن لم يكن هناك سبب اكثر من انها كانت زوجة معيل العائلة الوحيد في المنزل. بدأت الجدالات، عادة حول اشياء صغيرة، وسرعان ما اصبح إلياهو منخرطاً في الموضوع، اذ توجّب عليه ان يُصغي الى الشكاوى ويتصرف حسبما مفترض كقاضٍ بين المشتكين. عيب والدتي الرئيس في هذا الخصام المستمر تمثّل في ان زوجة ابنها كانت تمتلك كل الوقت في العالم في أن تقصّ لإلياهو قصتها المشوهة بشكل مزعوم لما حدث قبل يوم، بينما هي، النفس الفقيرة، لم تستطع فعلياً الوصول الى ولدها هي.

اصبح الشقاق اسوأ تماماً بعدما وضعت هيلا مولودها البكر – وبرغم انه كانت انثى ولذلك لاشيء هناك يدعو للتفاخر، اصبحت بشكل متزايد لاتتحمل الوضع الذي بدا فيه ان العمة تهيمن على الساحة – ناهيك عن العم الملازم للبيت، وكنتين تكبران بسرعة، ونسيب مدلل نوعاً ما. وفضلاً عن الكلفة المطلقة لإطعام خمسة افواه زائدة كانت هناك مشكلة الإزدحام، الذي لابد انه جعل الحياة

صعبة للغاية بالنسبة للأم الجديدة. انا على يقين بأن العامل الحاسم الذي حال دون انتهاك اخير وانفصال جسدي تالٍ هو الصعوبات الاقتصادية التي كان سيفرضها مثل هذا الإنفصال، لأنه كان يعني بأن إلياهو سيستمر ويعيل بيتين، وكنا جميعاً فقراء جداً بحيث لا نتمكن من هكذا نوع من الترف.

الفصل الرابع

نعيمة

توفيت نعيمة، اختي الكبرى، بسلام في منامها ذات ليلة في تشرين الثاني عام 1980، عن عمر 77 سنة. قبل وفاتها بسنين قلائل، كان من عادتي زيارتها في شقتها السكنية الصغيرة الخاصة بالمهاجرين في نيتانيا، حيث عادة ما كنت ابقى ليلة او ليلتين. كانت ذاكرة نعيمة خارقة. فلساعات بلا انقطاع اعتادت ان تجيب عن تساؤلاتي بشأن تلكم الأيام الخوالي، واصفة الظروف التي عاشت فيها عائلتي قبل ولادتي او بعدها مباشرة. ذات يوم قرأتْ على مسامعي مقولة اليهود القديمة المقفاة وهي:

هذه ارض يهتز ثراها

لاترفع يداً على طفل

لا تأكل أي شيء مكشوف

ولا تثار مهما كان السبب.

كانت نعيمة نشيطة جداً، عالية الذكاء، وعملية للغاية. منذ ان كانت في التاسعة من عمرها، حينما اصيب والدنا بالعمى، لم تتوقف عن العمل. بُعيد تلك الكارثة، قرر الأب ان يفتح دكان بقالة صغير في المنطقة المجاورة – وعلى مدى السنتين او الثلاث سنوات التي افلس فيها كانت نعيمة تدير المكان – تراقب الدكان، تعمل الحسابات، تزن المواد، تتعامل مع النقود، وما الى ذلك. اخونا، إلياهو، الذي كان يكبرها بسنة او اثنتين، كان يميل، مثل بقية جميع الأطفال اليهود الذكور في تلك الأيام، بأن يكون مدللاً ولم يحرّك ساكناً – السبب وراء ذلك يعود الى انه كان يحضر توراة تلمود المدراش، بينما نعيمة كانت تبقى في البيت كبقية غالبية اقرانها الأناث.

حصل زفاف نعيمة في خريف عام 1919، قبل ولادتي بخمس سنوات. بدت الأشياء حينها مشؤومة تماماً في بغداد، بسبب الاحتلال البريطاني والوصول الوشيك للملك فيصل الأول، الذي توّج ملكاً على العراق في آب من عام 1921. ذكرت نعيمة بأن ذلك الزفاف لم يحضره الناس كما ينبغي، لأن العديد من الأقارب والأصدقاء الذين من المفترض ان يأتوا فشلوا في ذلك كونهم كانوا وجلين من مغادرة بيوتهم.

كانت زيجة جيدة حسب مقاييس تلكم الأيام. العريس، صالح طحان، كان ينحدر من اصل متين برغم انه لم يكن مما كان اليهود وقتذاك يصطلحون عليه بـ «عائلة جيدة». آل الطحان هم عائلة نموذجية لعموم يهود بغداد المتأقلمين ذات جذور عميقة جداً في المكان. كانوا يعيشون في حي

دهدوانة، الذي مثل ابوشبل، الحي الذي عشنا فيه كمستأجرين من الداخل، كان ذا اغلبية مسلمة مع أسر يهودية قليلة متناثرة هناك. كلمة «طحان»، التي منها أشتق اسم العائلة، تعني «grinder»، وامتلكت العائلة اسمها من حقيقة ان في منزلهم الكائن في زاوية نائية من حي دهدوانة كانوا يشغّلون ولمدة سنين آلة لطحن حبوب الحنطة، وهي آلة بدائية الى اقصى حد من حيث التصميم وتعمل بمساعدة الثيران التي لاغنى عنها. بعد الحرب العظمى مباشرة، مع مجيء البريطانيين، دخلت مطاحن كبيرة واكثر «حداثة» وبهذا اصبح العمل بالنسبة لآل الطحان راكداً قرروا على اثرها اغلاق المحل.

لم يمر المزيد من الوقت على آل الطحان ليكتسبوا خبرات جديدة – وتمكن الإخوان من استئجار مشغل صغير ومخزن للمجوهرات في سوق الصاغة. كان الشخص المسيطر في العائلة هو اخو صالح الأكبر خضوري، الذي بالإضافة الى فتح محل للمجوهرات اعاد ايضاً بناء موقع معمل الطحن القديم زائداً المسكن، وانه في هذا المنزل الجديد عاشت عائلتا صالح و خضوري لعدة سنوات. كان خضوري شخصاً مراوغاً وناجياً حقيقياً. اثناء سني الحرب العالمية الأولى استطاع فعلاً، بمساعدة النقود او الذهب التي بحوزته بالإضافة الى بنيته القوية، ان ينجو بجلده، وان يعود الى بغداد بُعيد تجنيده مع آلاف من التعساء الآخرين الذين أرسلوا الى الجبهة بعد حملة مروعة من النفير العام، المسمّى بـ «سفربارلوغ»، الذي لم يتمكن شخص من العودة من هذا التجنيد الى عائلته.

في البيت المقابل لآل الطحان كان يعيش ابراهيم حبّة، الذي كانت زوجته فرحة هي البنت الكبرى لذائعة الصيت هناء القابلة. تدور حول اقتران ابراهيم بفرحة قصة منتشرة في الدائرة المقربة من اسرة الأم. تقول الإشاعة بأن فرحة، قبيل زواجها، اعتادت ان تعمل كخادمة في منزل تاجر يهودي غني مشهور جداً بشبقه ومجونه. برغم انه كان متزوجاً ولديه بضعة اطفال، قيل عنه بأنه تمكن من اغواء والإيقاع بشكل خاص بكل خادمة جميلة صادف وان عملت في الأسرة – مما اصبح بعضهن حوامل.

وكونها شابة وجذابة جداً، فإن فرحة لم تنجُ من ذلك المصير – لكن الرجل كان مناوراً ذكياً وكان يتمكن دائماً من ايجاد مخرج مشرّف. في بعض الحالات، كان الستراتيج بسيطاً جداً و دائماً ما تأتي ثماره. لأن الفتيات موضوع السؤال كنّ فقيرات ولأنه لاتوجد فتاة يهودية في تلك الأيام باستطاعتها ان تجد زوجاً، مهما كان متواضعاً، بدون دفع مهرٍ ما، فإن هذا الفاسق كان ببساطة يساعد في تزويج خادماته الحوامل بسرعة فائقة بحيث لا يخرج الأمر برمته الى العلن. كذلك كان يهتم بالمصاريف التي تتضمنها مشكلة العذرية. كان الأمر هكذا بالضبط، لذلك كانت القصة بأن فرحة المسكينة نجت من مصير اسوأ من الموت.

اسرة الطحان

كانت زياراتي لأسرة الطحان متكررة جداً. عند عمر خمس او ست سنوات كان وضعنا الإقتصادي يتدهور وغالباً ما كنت اذهب الى نعيمة من اجل وجبة طعام عابرة، او حلويات، او حلوى، او بعض

الفواكه لأن عائلتها كانت ميسورة الحال نسبياً. نعيمة وزوجها وأطفالها الأربعة الأوائل عاشوا في ذلك الوقت في قسم من منزل الطحان، الذي كانت تعيش فيه اسرة الطحان بأكملها - وهم الأبوان المسنّان لكن النشيطان نوعاً ما، وخضوري ومولودهم البكر وعائلته المؤلفة من خمسة اشخاص ونسيبي صالح وعائلته وأخويه الأصغر سناً الذَين مايزالان غير متزوجين.

انه خضوري، على اية حال، الذي هو سيد المنزل بلا منازع. كان الطفل الأول ويكبر صالح بسبع سنوات، واولاده كانوا بالغين في ذلك الوقت، حيث كان الولد الأكبر يقوم بمساعدة والده في اعماله التجارية بينما الثاني، ناجي، فكان يدرس ليصبح طبيباً. من الصعب في هذه الأيام ان ننقل نوع الخوف الذي كانت تثيره كلمة «طبيب» في تلك الأيام؛ كان هناك نوع من التحدي، نوع من المواجهة حتى، في حقيقة ان الصبي الذي تربّى في تلك الظروف وذلك المحيط سيصبح مجرد حلم بأن يكون طبيباً. لكن خضوري كان رجلاً ذا ارادة وتصميم – وبحسب تقرير نعيمة كان تعهَّد بأن يجعل ابنه ناجي طبيباً مهما كلف الأمر. في واقع الحال، فعلاً، برهن ناجي بأن يكون اقل بلادة و، برغم الجهود الجبارة التي بذلها للسيطرة على مواده، استطاع خضوري اخيراً بأن يكون اباً فخوراً لطبيب حقيقي بفضل استخدام حِيَلِه المختلفه وسلطته كأب.

وغنيّ عن القول بأن دراسات ناجي – الحقيقة هي أنه لابد ان يدرس ويحضر دروسه – جعلته عضواً ذا مكانه في عشيرة الطحان. فهو الوحيد بينهم كانت لديه غرفته الشخصية، بشرفة داخلية كبيرة حيث درجَ على التجول بلا انقطاع جيئة وذهاباً بينما يقوم بمذاكرة مواده الصعبة. وحينما كان ناجي في غرفة دراسته يطلبون منا نحن الأطفال بأن نلزم الهدوء لئلا نزعجه او نشتت انتباهه.

كانت الوجبات في بيت الطحان تعدّ عادة بشكل جماعي في قدور ومقالي pans ضخمة، وكما جرت العادة في البيوت اليهودية في تلكم الأيام ان اطباق معينة كان يجري عملها في ايام معينة من الأسبوع، لاسيما آخر ثلاثة ايام منه: الكجري ايام الخميس؛ كبة حامضة-حلوة (كرات من اللحم تطبخ بالخضروات) ايام الجمع؛ التبيت t'beet الذي لابد منه (وهو فراخ تطبخ بالرز وتبقى لليلة كاملة على نار هادئة) ايام السبت. اما وجبات منتصف النهار – أي الرئيسة – اثناء بقية ايام الأسبوع فكانت تعتمد الى درجة كبيرة على الوضع المادي للعائلات، والسؤال الرئيس هو الى حد ما إن كان اللحم سيكون ضمن المكونات ام لا.

عادة، هناك يوم واحد للسمك – بالنسبة للأغنياء والفقراء على حد سواء لأن السمك في تلكم الأيام كان اقل غلاءً من اللحم بما لايقاس. في هذا السياق من المهم ان نضيف بأن تمويل الجالية اليهودية المنظمة كان يأتي الى درجة كبيرة اذا لم يكن بشكل كامل من الضرائب التي تُجبى على لحم كشير، وهو وضع كان يجعل اسعار اللحم عند الجزار اليهودي اغلى بكثير من تلك التي تدفع للحم نفسه عند الجزارين المسلمين. مع ذلك، في كل خبرتي في الحياة في بغداد ليس هناك بيت يهودي يفكر حتى بشراء لحم طريف – ولا حتى اولئك الذين لا يمتلكون أي تقليد او رغبة لمراعاة قوانين الـ «كاشروت» [لحم حلال]. المفارقة هي ان افراد بعض هذا العوائل نفسها، بينما لايترددون للحظة

من الأكل من علبة من لحم الطريف المعلّب المستورد او بعض الأطعمة الأخرى التي تحتوي على اللحم، لاتقترب من جزار يبيع لحم الطريف.

لا اتذكر قضاء المزيد من الوقت اثناء تلكم الزيارات في منزل آل الطحان. فضلاً عن الوجبات والأشياء الجيدة – الأولى [أي الوجبات] كانت وافرة وطازجة من القِدْر، الثانية [أي الأشياء الجيدة] تتضمن اشياء بسيطة تعتمد على التوقيت والحظ – لذا ليس لدي ما افعله هناك. كان ابناء خضوري الذكور اكبر مني بكثير، بينما ابناء نعيمة فكانوا اصغر بكثير؛ ولذلك كان هناك دائما هذا الإزعاج في ان نلتزم بالهدوء، لأن ناجي بدا انه دائماً هناك، يدرس ويذاكر دروسه المستحيلة.

لكن تعلقي بنعيمة وبيتها كان لابد ان يأخذ وقتاً طويلاً. كالعادة في مثل هذه الحالات، شعر الأخوان من آل الطحان بعد فترة قصيرة بأنهما مضطران للعيش منفصلَين – سواء بسبب نمو العائلتين ام بسبب مصاعب اخرى لا أعرفها. كذلك كان لديهم اعمال تجارية منفصلة، بقيت، على اية حال، في نفس الخط – اعارة الذهب والنقود. خلال السنوات القادمة، كانت نعيمة وعائلتها تعيشان بالتناوب معنا كمستأجرين ثانويين (حينما كنا مانزال نسكن مع عائلة إلياهو المتنامية)، كمستأجرين اوائل، او بشكل منفصل. لكن على اية حال بقيت الروابط متينة، وخلال تلك الفترة كانت نعيمة هي التي تقدّم العون لنا بطريقة او اخرى – الطعام، المصاريف الصغيرة، والخدمات.

هاجرت عائلة نعيمة المؤلفة من سبعة اشخاص الى اسرائيل عام 1951، وهي سنة نزوح اليهود من العراق. بعد اسابيع قليلة من وصولهم كانت على وشك ان تفقد احد اولادها الثلاثة، الذي اصيب بطلق ناري صدفة بينما كان في التدريب العسكري. بعد ذلك بعقدين تقريباً، حيث تزوج جميع ابنائها واستقروا، قضت نعيمة اخر عشر سنوات او نحوها من حياتها تعيش وحيدة في شقتها في ما اصبح المنطقة الفقيرة من ناتانيا. حينما كنا نعيش في رامات غان، غالباً ما كنا ندعو انفسنا الى وجبة طعام احتفالية من الپاچا (وهي معدة حمل وأمعاد محشوة بالحم والرز) في يوم سبت؛ لكن بعد وفاة صالح ولم يبقَ هناك أي شخص يذهب الى تل ابيب ليشتري المكونات من جزاري حي تكونا، اعتدنا ان نذهب في الصيف لتزجية اليوم – وبعد ذلك حينما انتقلنا الى اورشليم ولم يكن باستطاعة زوجتي مرافقتي بسبب الأطفال، كان من عادتي الذهاب لرؤية نعيمة لعطلة نهاية اسبوع كاملة او ايام قلائل اثناء الأسبوع، الذي اعتدت ان اقسمه بين اوقات الصباح على الشاطيء وأوقات العصر والأمسيات لسماع قصص طويلة وممتعة عن طفولتي وعائلتي، كانت تقصها نعيمة بذاكرتها الخرافية بحماس لا يعرف الملل. اعتدت ان ادوّن ملاحظات عن ذكرياتي البارزة في بغداد – وفي الوقت الذي ماتت فيه نعيمة في تشرين الثاني 1980 استطعت ان استردّ الكثير من ذلك الماضي البعيد.

المَشاهد، الأصوات، النكهات، الروائح

ثمة شيء جاذب في مجمّع الطحان - حبة الا وهو «المطيرچي» في البيت المجاور – رجل بالغ ربما في ثلاثينياته كان لديه سرب من الحمام، يرعاها ويطعمها كما لو انها من ذريته. في ساعات معينة من النهار كان يهشّ عليها بعموده الطويل وكانت تطير، وتجوب الفضاء اينما وجّهها، وهو

يراقب بإعجاب وفتنة وبلهفة واضحة. لم تمرّ سوى سنوات فقط فيما بعد حتى عرفتُ السبب لنظرة الرجل القلقة: جيراننا المطيرچي – الذي يحتمل بأن هذا اللفظ هو مكافيء عراقي لما يعرف في الغرب بمراقب طيور – كان منهمكاً حقاً في نوع من حرب وهمية مع الخصوم من المناطق القريبة والبعيدة، هدف الحرب محدد بجذب الحمام من سرب العدو ومن ثم اضافتها الى سربه. كيف تمّ ذلك – أي كيف ان حمائم من سربٍ ما يتم جرها لتلتحق بحمائم في سربٍ اخر، او لسرب معين من بين اخرى كثيرة – يبقى لغزاً بالنسبة لي.

غالباً ما كانت تقدّم الشكاوى الى الشرطة عن طريق «مطيرچيين» كانوا قد عانوا خسائر ثقيلة في حروبهم الصعبة جدا. المشكلة، على اية حال، هي ان شهادة المطيرچي لم تُقبل لدى المحاكم نظراً للسمعة السيئة التي كان يتمتع بها افراد العصابة. كانت النتيجة بأن مثل هذه الشكاوى لا يتم النظر فيها الاّ اذا تمكنت الشكوى من إعطاء شهود خارجيين. برغم هذه الصعوبات وغيرها، على اية حال، فإن فن المطيرچي كان يمارَس بشكل اوسع وأن عدد مراقبي الطيور هؤلاء كان كبيراً بما فيه الكفاية بالنسبة لقلة من الباعة المتجولين الذين يجوبون ازقة بغداد وهم يصرخون، «زعارتي، زعارتي، اين هم مالكو الطيور؟» – زعارتي هو افضل انواع الطعام لطيورهم.

كذلك ايضاً اثناء زياراتي المتكررة في منزل آل الطحان لمحت لأول مرة الحياة الملونة الزاهية والمتنوعة للمناطق الأكثر اضطهاداً من بغداد القديمة. فبينما اختارت العوائل اليهودية القليلة الميسورة نسبياً والمزدهرة نوعاً ما التي تمتلك مكانة آل الطحان وآل الحبّاس [اختارت] الإلتصاق بمنازلهم العميقة في اماكنها مثل حي الدهدوانة، كان هذا الى حد ما لأن هذه المناطق ذات الغالبية المسلمة كانت تتدهور بسرعة بسبب هجرة سكانها الأصليين، اي طبقتها الراقية اذا جاز التعبير.

الشوارع نفسها، بالفعل، التي كان لابد ان اطأها وأنا اسير الى منزل نعيمة، كانت مليئة بالمناظر والأصوات وحب الإستطلاع التي ستترك اثاراً لا تمحى في خيال روح الشاب الباحثة والمراقِبة. والأصوات نفسها، والخلافات والنزاعات التي لا تنقطع واللعنات المثيرة – كانت هذه المواجهات على شكل تجليات حقيقية. حتى طرق الكلام، بالإضافة الى العديد من التعبيرات، كانت غالباً موضع دهشة.

من المؤكد، ان يهود بغداد كان عندهم لهجتهم الخاصة بهم التي كانوا يستخدمونها في بيوتهم وفي تعاملاتهم اليومية مع بعضهم البعض، بينما في نفس الوقت يتكلمون مع جيرانهم المسلمين بلهجتهم العامية العربية. الحقيقة، على اية حال، هي ان الناس في كل منطقة وفي كل طبقة و طائفة عرقية و/او دينية في بغداد كان لديها طريقة مختلفة بعض الشيء في التعبير عن نفسها. ويصدق هذا حتى على الجالية اليهودية، بسبب الاختلافات في الطبقة والتعليم البارزة جداً وكذلك بسبب حقيقة ان مناطق مجاورة معينة حيث اعتادت ان تعيش مجاميع معينة من اليهود الفقراء وغير المتعلمين، لاسيما اولئك الذين على مر السنين جاءوا الى بغداد بحثاً عن العمل وحياة افضل.

هؤلاء عادة منخرطون بمهن اكثر وضاعة – كالحمالين، والخدمة المنزلية، ومنظفي المراحيض، والغسالات، وجامعي القمامة. وكانوا على الأغلب يُؤتى بهم بشكل دائم من شمال البلاد، واحياناً من اقصى الشمال، كبلاد فارس، افغانستان، كازاخستان، وجورجيا. ومن المثير للعجب ان بعض هؤلاء كانوا يمثلون نماذج للجمال، على الأغلب، طبعاً، الأناث. الجورجيون على الأخص كان لديهم صفة مميزة مفردة تصاغ باسم موطنهم الأصلي. وكعلامة لجمالهم المميز – بشرة خفيفة، وعيون زرقاء او خضراء، وعادة الملامح الصغيرة والدقيقة، لاسيما افواههم وانوفهم – فإن الكلمتين «جورجي» و «جورجية» (وهما مذكر ومؤنث beautiful و Gorgian) اصبحتا فعلاً اسماء علم شعبية اولى. وهذا لايدعو للعجب في مجتمع كان يمجّد البشرة الخفيفة وملامح الوجه الدقيقة.

الأصوات، هي الأخرى، كانت موضع احتفال حقيقي. عندما تمر عبر سوق الحنّوني، تتناهى الى مسامعك اصوات الباعة المتجولين وأصحاب المحال الصغيرة وعشرات الباعة الذين يجوبون الشوارع وهم يمدحون بضائعهم التي كانوا يحملونها عادة على رؤوسهم، وبعض المنعمين يكونون بمعية الحمير التي تحمل اسفارهم. اعتاد الكثير منهم ان يأتي من البلدات والقرى المحيطة حيث كانوا يزرعون الفواكه والخضار في مزارعهم الصغيرة – التفاح والبرتقال والليمون والليمون الحلو والمشمش والخوخ والعنب والبصل والثوم والخيار والبطاطا والملفوف.

نحو نهاية الصباح – الذي في هذه الحالات كان طويلاً قبل وقت الظهيرة – اولئك الباعة الجوالون الذين يفشلون في بيع كل بضاعتهم في السوق يعودون يهتفون بمدح بضاعتهم عبر الأزقة والممرات، حيث ان الناس الذين لم يستطيعوا الذهاب الى السوق او لن يتحملوا مشقة الذهاب اليه للتسوق يظهرون امام ابواب بيوتهم ليدخلوا في جدالات طويلة حول الأسعار وفي الأخير يأخذون مايحتاجون من الفواكه والخضار الى منازلهم. ودائماً ما كان الرجال هم الذين يُرون يتعاملون مع هؤلاء الباعة المتجولين، وبالأخص بالنسبة للبيوت المسلمة. اذ لا توجد امرأة مسلمة محترمة تريد، او يُسمح لها بـ، إظهار وجهها للأجنبي.

كما كان هناك ايضاً الباعة المتجولون الذين استقروا في مناطق ستراتيجية معينة في المناطق المجاورة وهم يصرخون بمدائحهم المقفاة لبضاعتهم: «بيض اللگلگ» (حلوى كبيرة ملونة تذوب بمجرد تماسها مع اللسان)، سمسمية، لبلبي، كاهي، شلغم، فاصوليا، باقلاء، اصابع العروس، و فواكه طازجة ومجففة من جميع المناشيء – تفاح، مشمش، عنب، خوخ، كمثرى، تين – جميعها يتم الإعلان عنها اما عن طريق المحافظة او البلاد التي جاءت منها او عن طريق نوعيتها ودرجة نضارتها.

كذلك كان الصنّاع والعمال المهرة يجوبون احياء بغداد وهم يعرضون خدماتهم، بعضهم يبدو اجنبياً. كان هناك الجرّاخ؛ خياط الفرفوري، الذي يُصلح الخزف الصيني المكسور والأواني الخزفية؛ ابو العتيگ؛ وكسّار الخشب.

كان سوق حنوني، طبعاً، سوق مختلط، برغم ان اليهود اكثر بروزاً نظراً لأعدادهم بالإضافة الى هيمنتهم الإقتصادية. على اية حال، اصحاب المحال اليهودية قلما يتاجرون بالمنتوجات الزراعية، ما لم يصادف ان يكونوا يمتلكوا محلات بقالة كبيرة تبيع فواكه معينة، في هذه الحالة كانوا يقومون بعمليات شراء بالجملة في العلوة غير البعيدة، حيث كانت اسعار الجملة وعمليات البيع تتم عن طريق المزاد العلني. لكن في سوق حنوني كان جميع الجزارين يهوداً، بسبب مشكلة الكاشروت [الطعام الحلال]، اذ ان اليهود من الطبيعي غير مسموح لهم بابتياع لحومهم من غير اليهودي. هؤلاء الجزارون كانوا يأخذون خرافهم الحية، التي كانوا قد اشتروها من المزارعين المسلمين، الى المسلخ حيث يرون بأنها ذُبحت على الطريقة الصحيحة، وفحصت محتوياتها الداخلية بشكل دقيق؛ بعد ذلك تُسلخ ويؤخذ لحم الضأن الى الأسواق لبيعه. في حال ثبت ان ذبح بعض الخراف غير كامل، أي لاكوشر [غير شرعي] nonkosher، فإن الجزار كان يبيعها الى نظيره المسلم بسعر اوطأ كثيراً.

اجمالاً، كان سعر لحم الضأن لدى الجزار اليهودي على الأقل ضعف ونصف، في بعض الأحيان اعلى مرتين من صنف اللحم غير الشرعي nonkosher. لم تُذبح الأبقار قط من اجل البيع في محال الكوشر [اللحم الشرعي] kosher؛ بينما لحم البقر كان يُعدّ بالفعل اقل مرتبة من لحم الضأن، الى حد ما لأنه يحتوي على دهون اقل. لا يأكله الاّ فقراء المسلمين. بشكل عام، كان معدل اسعار اللحوم من جميع الأنواع على عكس ماهو عليه الآن: لحم البقر ارخص من لحم الضأن، ولحم الضأن ارخص من الدواجن، والسمك ارخص الجميع.

هذا وبتقدم الصباح ودخول وقت الظهيرة، كان الجزارون يخفضون اسعارهم لأن، مع انعدام وجود أي نوع من انواع التبريد، اللحوم لا يمكن ان تُخزن حتى صباح اليوم التالي، في الصيف ولا حتى الى المساء. تجار الأسماك كانوا في الموقف التعيس نفسه، فقط اولئك الذين يبيعون الطيور كانوا في موقف يحافظون فيه بشكل معقول على اسعار ثابتة لأنه لا احد يبيع او يوافق على شراء دجاجة او ديك مذبوح. كان ذباحو الكوشر المرخصين دائماً قريبين في متناول اليد في ذلك القسم من سوق حنوني الذي تباع فيه الطيور.

بهذا الخصوص كان البيض يشكّل صعوبة الى حد بعيد. فالكثير من البيض المشترَى يثبت انه فاسد او فاسد جزئياً نظراً للحرارة او بعض الأسباب الطبيعية الأخرى، كما ان الإجراء كان طويلاً ومحفوفاً بالمخاطر عندما يتوجب إرجاع بيضة الى البقال او البائع المتجول، لأنه من اجل ان تبرهن بأن البيضة فاسدة عليك اولاً ان تأخذها الى البيت، وتكسرها في مقلاة او تسلقها وتقشرها – عندها يكون بإمكانك إرجاعها الى البقال و تطلب بديلاً عنها او تطلب ارجاع نقودك. في حال كانت بيضتك في المقلاة او نصف مسلوقة كانت هناك دائماً مشكلة تتعلق بماالذي، بالضبط، جعل البيضة فاسدة، مع اصرار البقال بأنه المح هو الذي فسد، اذ لايحتوي على شيء سوى نقطة حمراء او سوداء – وذلك لايجعل من البيضة فاسدة!

كما كان هناك دائماً الحمالون، الذين يتكلمون بشكل ثابت بلغة لايفهمها الاً هم وحدهم. الحقيقة هي انه من المحتمل بأن جميع الحمالين الجيدين كانوا اكراداً قدموا من الشمال. وكونهم شديدي المراس وأقوياء وصبورين كالبغال، بدا انهم قادرون على حمل اوزان لاحدّ لها. كانت قوتهم وقدرتهم على التحمل خارقة جداً لدرجة ثمة مقولة تدور في بغداد، مفادها انه «لولا الأكراد لهلكَ الحمير».

في بغداد في تلكم الايام كانت الحمير تُستخدم على نطاق واسع كوسيلة لنقل البضائع من جميع الأنواع، وفي بعض الحالات كان المالكون يمتطونها للتنقل من مكان الى آخر. وبسبب الأحمال الكبيرة التي قيّض لها ان تحملها والمسافات الطويلة، هذه المخلوقات الصبورة غالباً ما تُظهر علامات التراخي وترفض السير بالخطى التي اختارها لها اصحابها. والنتيجة هي اما ضربات ثقيلة بقضبان طويلة، قوية او وخزات عميقة بأبر عريضة خاصة، او كلاهما. كانت هذه الممارسة واسعة الإنتشار لدرجة ان امانة العاصمة اصدرت اوامر صارمة تمنع استخدام الأبر و، الأنكى من ذلك، حددت طول القضبان المستخدمة بثلاثين سنتيمتراً. وهذا ما جعل الأمر صعباً لا يطاق بالنسبة للسائقين الذي يشيرون الى بهائمهم، ذلك لأن القضبان القصيرة غالباً ما تسبب الماً للمضروب اقلّ منه للضارب. لذلك غالباً ما كانت تُسمع الشكاوى المريرة للمالكين المنهكين والمتصببين عرقاً بينما هم يضربون حميرهم بآلات غير كفوءة من اجل جعلها تستمر في السير. وعند مخاطبة حميرهم المسكينة، كان بعض السائسين يصيح، بصوت خفيض نوعاً ما: «دمشي! طلعولك خوال وعمام!».

بعض الحمير، على اية حال، كانت تتلقى معاملة خاصة. فتلك التي تنتمي الى سلالة تسمى الحساوي، مثلاً، كانت تُعد جيدة او «ذكية» بحيث لاتحمل اشياء مثل القمامة، ولا تستخدم الاّ لحمل الفواكه والرقي والتمور والعسل والأشخاص، بينما تُترك الأعمال الحقيرة الى تلك الحمير التي تنتمي الى سلالة الشامية لتقوم بها. كما قيل بأن اناث سلالة الحساوية، على عكس اناث سلالة الشامية، تلد مرة واحدة فقط في طول حياتها. ثمة خصيصة اخرى لحمير الحساوية وهي انها لن تدخل زقاقاً او طريقاً جانبياً لم تألفه، لكنها تقف لبرهة تنتظر اصحابها ليوجهونها الى الطريق.

لاحاجة للقول بأن كل هذه كانت اوجهاً من الحياة في بغداد لا يجد فيها المسافرون الأجانب القادمون من الغرب شيئاً سوى الوساخة والقذارة. كمثال على ذلك، كيف ان الآنسة فريا ستارك، وهي سيدة بريطانية سارفرت وكتبت عن العالم العربي – و تعدّ «نصيرة للعرب» – [كيف] وصفت انطباعاتها الأولى عن بغداد. كتبتْ في كتابها «لوحات بغدادية»، «ما تراه للوهلة الأولى في مدينة الخلفاء»،

هو جانب حقير؛ شارع مستقيم منخفض طويل، هجين قذر بين الشرق والغرب، مع عدم جاذبية كليهما. الزحام يبدو مريضاً وشاحباً، الأطفال يرثى لهم، الدكاكين هي حلول وسط غير فعالة مع اوربا، و الغبار شرير، لأنه يتحول الى تسمم الدم في اقل فرصة ممكنة، ويحمل الفكرة البابلية القديمة عن الجو المسكون بالعفاريت.

وما الى ذلك. من الطبيعي، ليست هذه بالتأكيد فكرتي عن بغداد ايام طفولتي وشبابي، برغم ان الكلمات كُتبت تقريباً في نفس الوقت الذي كنت فيه قادراً على فهم واستيعاب مشاهد المدينة، وأصواتها، ونكهاتها، وروائحها. سيغريد نونيز، روائية امريكية موهوبة تكتب عن احدى شخصياتها – الإبنة الامريكية المولد من اب صيني وأم المانية المولد – تقتنص فحوى هذا الأمر في هذه الحوارية الموجزة عن الوالد:

كان دائماً يرغب في الإياب. كان دائم الشوق الى الصين.

لكنه لم يبلغ من العمر سوى العاشرة حينما غادر.

نعم، لكن ذلك مايهمنا – حيث قضيتَ سِنيك الأولى تلك، ولغتك الأولى ذلك هو انت.

«A Feather on the Breath of God»، (هاربركولنز، نيويورك، 1995).

اسواق بغداد الشهيرة

بعد ذلك بسنوات قلائل، حينما كنت في العاشرة من عمري تقريباً، انتقلَ عمل إلياهو الى سوق السراي، في مركز الضجة التجارية حيث موقع جميع الأسواق. كما انه كان اقرب حيث صادف اننا كنا نعيش في ذلك الوقت. هذا جعل من السهل بالنسبة لي ان اذهب الى هناك، على الأغلب للإقامة حينما لم تكن هناك مدرسة وفي كل يوم عمل بعد المدرسة. كانت وظيفتي هي اخذ غداء إلياهو، الذي كان يتكون من ثلاثة اطباق موضوعة بعناية في اداة من الصفيح ذات ثلاثة طوابق مع حقيبة، واحد للحم المطبوخ وواحد للبلاو (رز مسلوق مقلي) وواحد للحلوى.

في الطريق الى سوق السراي وأنا احمل غداء إلياهو، كنت امر خلال سوق البزازين، وهو اكبر سوق في بغداد، متخصص في الأقمشة من جميع المواصفات، التي تفصّل وتخاط في البيت فيما بعد كملابس لأفراد العائلة، إما عن طريق سيدة المنزل نفسها او عن طريق خيّاطة، دائماً انثى كانت تقوم بالعمل في بيت المالك وتغادر عند غروب الشمس.

ثم هناك سوق الصفافير، حيث كانت تُعمل ادوات المنزل كبيرها وصغيرها، وحيث جلبة المطارق على المادة الخام الحارة لا تطاق لولا الأغاني والحكايا المسلية التي يترنم بها العمال المتصببون عرقاً. اعتاد الحرفيون في هذه السوق بالذات، الذين جميعهم مسلمون، [اعتادوا] ان يغلقوا المحال ايام الجمع – أي على عكس التجار وأصحاب المحال المسلمين الآخرين الذين، بينما كان اليهود يهيمنون في الخطوط المختلفة للأقمشة ومحال لوازم الخياطة، عادة ماكانوا يأخذون عطلتهم الأسبوعية ايام الأحد.

بينما كنت اعيش في منطقة مسلمة اخرى، ليست ببعيدة عن المنطقة السابقة، اعتدت ان امر من خلال سوق الشورجة في طريقي الى إلياهو. هذا السوق – الذي يعرف كذلك ايضاً بسوق العطارين

– كانت تحفّه كلياً تقريباً مخازن البقالة حيث تباع جميع انواع الحبوب، والفواكه المجففة، والتوابل، والمربيات. ماعدا مخازن قليلة، ومحال الحلويات (التي كانت جميعها يهودية)، كانت المحال هنا يديرها جميعاً المسلمون. اما القليل من محال الحلويات، التي عادة ما كانت تصنع وتبيع الحلوى والكعك، فقد تخصصت في مَنّ السما، وهو خط هيمن فيه اليهود. كانت الكعكة المسماة قادراسي تُصنع من هذه المادة الخام، التي تستورد من اصفهان، في بلاد فارس، في حالة خام الى حد ما ومن ثم تُغلى، وتكبس، وتُعمل على شكل كعك دائري صغير، عادة مع وضع لوزة او لوزتين داخله.

من المثير ملاحظة هنا ان الإسم من السما (التي تعني من السماء) هو في اللهجة اليهودية، «من» كلمة عبرية. ان سبب الإسم مثبت في القصة المروية في التوراة العبرية (سفر الخروج 16:13-21). يبدو انه، في تيههم الطويل الذي دام 40 عاماً في صحراء سيناء قبل وصولهم الى ارض المعاد، اليهود الذين طُردوا من مصر كانوا يقتاتون على شيء ما كان يسقط من السماء خصيصاً لذلك الغرض – عصير حلو، لزج، شبيه بالعسل، ثقيل. وكما هو مروي في سفر الخروج (الطبعة القياسية المنقحة)، عند مراقبة طيور السلوى التي جاءت في المساء وهي تغطي المخيم، وفي الصباح حينما ذهب الندى، «كان هناك على وجه البرية شيء دقيق مثل القشور، دقيق كالجليد على الأرض». فلما رأى بنو اسرائيل هذا، «قال بعضهم لبعض، ما هذا؟ ... فقال موسى لهم، هو الخبز الذي اعطاكم الرب لتأكلوا». في اللغة العبرية، ان السؤال الذي سأله بنو اسرائيل هو «man whu» – «man تشير الى «ماذا». من هنا جاءت لفظة man el-sama.

الباعة المتجولون والباعة، والمنادون من جميع الأصناف اعتادوا ان يملأوا سوق الشورجة، عادة لعرض مواد غذائية جُلبت لهم من القرى المجاورة والبلدات في اوقات الصباح وكان لابد ان ينتهوا من بيعها عند حلول المساء. ونادراً ما كنت قادراً على تحمل مصاريف ايّ من البضائع التي رأيتها بالقليل من المال الذي كان بحوزتي، إن كان هناك مال. عادة ما كان إلياهو يجلب هذه الحلوى الى البيت ايام الجمع حينما يكون باستطاعته تحمل تكاليفها.

في السنوات التالية، حينما كنت في سني مراهقتي، تعرفت على الأسواق الأخرى للمدينة، مخاطراً في الذهاب ابعد غرباً على طول الشارع العام، شارع الرشيد. بصرف النظر عن تنوع المحال التجارية، المقاهي، المطاعم، والجوامع، كان ثمة شوارع جانبية وأزقة بالإضافة الى الأسواق يمكن استكشافها. مقابل حي العاقولية تماماً هناك سوق الفواكه الأكثر حيوية والأفضل تنظيماً في المدينة. كان يعرض اكثر الفواكه غلاءً التي وصلت لتوها من بلاد فارس، وسوريا، وشمال البلاد.

قليلاً نحو الغرب كان هناك شارع المتنبي، الذي يؤدي الى الدوائر والوزارات الحكومية الرئيسة، وبالإضافة الى المنازل القديمة لطبقة نبلاء المدينة كانت تقع مكاتب العديد من المحامين والأطباء فضلاً عن مكاتب التحرير والمطابع لجريدتين يومتين وثلاث صحف اسبوعية على الأقل، حيث ان الأخيرة كانت قصيرة العمر.

عند السير قليلاً نحو الغرب، والمرور خلال عدد من افضل المطاعم (من بينها مطعم الشمس) والمقاهي (كهوة حسن عجمي مثلاً)، نصل اخيراً الى سوق الهرج (حرفياً يعني السوق الصاخب)، اشارة الى الدلالين الذين يصرخون ويعرضون شتى انواع البضائع، من حقائب السلع الى الأثاث المستخدم الذي تمّ شراؤه من اصحابه المحتاجين الى النقود لأغراض اكثر جوهرية، عادة لقمة العيش. في ذلك السوق بالذات درجتُ احياناً على تناول طبق كباب، بعيداً عن الأنظار لأن اللحم كان بشكل واضح غير شرعي.

لم تك هناك اماكن تقريباً لشراء شراب بارد، ناهيك عن الآيس كريم. اذ ان الآيس كريم والمشروبات الباردة المعبئة بقناني كانت غير معروفة، والثلج نفسه نادراً ما كان متوفراً، ماعدا في شهر الصوم، شهر رمضان، حينما كان اولئك القادرون على شرائه يشربون العصائر الباردة في الإفطار – أي عندما يصادف ان يقع شهر الصوم في ايام الصيف الحارة. عند نهاية العشرينات، حينما بدأ انتاج الثلج بالجملة، اصبح الآيس كريم متوفراً، وعادة كان يُصنع من البرتقال او الليمون، وأحياناً من الحليب. انه فقط في منتصف الثلاثينات تمّ انتاج الصودا وغيرها من المشروبات الباردة المعبئة بقناني، هذه المرة على يد السوريين مثل عبدو الشامي، المتخصص بشتى انواع الآيس كريم، وحجي خيري الحلبي، الذي جاء من حلب وكان يعرف بشكل خاص بـ «شربت اللوز» الذي كان يصنعه ويبيعه.

الفصل الخامس

البدايات الأولى

كان الأب المصدر الوحيد للتغذية العقلية للسنوات السبع الأولى من حياتي على الأقل. وكونه ملازماً للبيت وليس لديه سوى الشيء القليل الذي يعمله، فقد اعتاد ان يقضي ساعات يشرح فيها الأشياء التي كانت تحيرني ويجيب عن اسئلتي الملحّة. لا أتذكر انني اسأل أياً من الأسئلة التي يضعها الأولاد الأذكياء و الخيالون لآبائهم – من قبيل السؤال إن كان التمساح سيتغلب على النمر او بالعكس. اسئلتي – بالحكم على الأقل من خلال الإجابات التي مازلت اتذكرها – كانت ذات صبغة «ارقى» بكثير. ماذا كان في السماء و «أعلى من ذلك»؛ اللغز وراء وجود القمر؛ مصدر حرارة الشمس ولماذا تشرق ومن ثم تغرب؛ مفهوم الرب وطبيعته الدقيقة، وشكله المحتمل وطرقه في اتخاذ القرارات؛ الملائكة التي سكنت في السماء؛ طبيعة الجنة والنار والحسنات والسيئات التي تتيح للمرء بالدخول الى هناك او تمنعه. بالنسبة لجميع تلكم التساؤلات وحالات الحيرة كانت اجابات الوالد حاضرة ومحددة جداً، على الأقل في البداية؛ لكن تحت مزيد من الضغط والإلحاح يتساهل قليلاً، مضيفاً على اية حال بأنه في عمره لا يريد ان يجلب الشكوك من النوع الذي كنت المح لها.

بعد ذلك بسنوات، في اواخر مراهقتي، قرأت في مكان ما عن مفاهيم اكثر جدة، تدعى بشكل مختلف «دين الطبيعة» او نظرية التطور؛ حينما واجهت الأب بالأطروحة القائلة بأن الكون وعالمنا معه جاء الى الوجود بدون اوامر او رغبات من أي شخص، كان يعيد عليّ حجته القديمة لا أكثر. في طول حياته، حسبما يوضح، كان يهتدي ويعيش على المعتقدات والمذاهب التي تعلّم ان يتقيد بها. كان يؤمن بالله وفي قصة الخلق المعطاة في التوراة، في الوصايا العشرة، مهمة موسى، بعث الموتى، الجنة والنار – وما كان ليفكر الآن بانقلاب جذري لهذه المعتقدات كما اوحت لها تأملاتي و «ابتكاراتي» الغريبة.

من جانبي، بغض النظر عن فترة وجيزة جداً في سني مراهقتي التي اصبحت فيها دينياً بشكل عميق، كنت دائماً لا أدرياً وأبقى كذلك. وبقدر تعلق الأمر بالشعائر الدينية، فإن الموقف العام في بيتنا كان موقفاً متساهلاً، عش ودع غيرك يعيش، برغم انه اثناء السنوات الست عشرة الأولى من حياتي لم يجرؤ احد علناً ان يخرق متطلبات شعيرة يوم السبت او التعاليم الرئيسة والفروض المرتبطة بمناسبات اخرى وأعياد مقدسة. كان يوم الغفران، طبعاً، اقدس جميع هذه الأعياد المقدسة، كما ان الصوم كان عالمياً، باستثناء الأطفال حتى عمر ثلاث عشرة سنة الذين يكونون ضمن «الصوم التدريجي»، «صوم الدرج»، ويسمح لهم بالأكل عند منتصف النهار. انه في سنتي الحادية عشرة او الثانية عشرة، على اية حال، قررت بشكل طوعي ان اقوم بأول صيام نظامي لي؛ اذ ان هذا لابد انه كان ضمن مرحلتي الدينية. على اية حال، برغم انني تمكنت بطريقة ما من اكمال اليوم فإنني وجدت المحنة كبيرة لا تطاق. كان ذلك صيامي الأخير بالإضافة الى صيامي الأول الكامل.

لا اعتقد بأن فشلي مبكراً في الإجراءات الخاصة بالإلتزام بيوم السبت والصوم في عيد الغفران كانت له علاقة بحقيقة انني لم امتلك مراسيم بلوغ صحيحة. بالفعل، ما يعرف الآن في عموم العالَم اليهودي بأنه «سن البلوغ» يدعى في بغداد ببساطة «لبس التفيلين». انها مراسيم بسيطة تؤدى في الكنيس، حيث يدعى الصبي الى قراءة جزء من القانون – عادة الجزء الأخير (مافتر)، الذي يعطيه فرصة قراءة الدرس النبوئي (هافترا). ماعدا الطبقات الوسطى والموسرين، ليست هناك عادة مراسيم مرافقة او نوع من عروض مبهرجة مرتبطة الآن بالحدث. ولأسباب لا اتذكرها بوضوح كبير، لكن لابد ان لها علاقة بالكلفة المطلوبة، تركتُ مراسيم الكنيس – والمرة الأولى التي اتذكر انني لبستُ فيها التفيلين كانت حينما تحتمَ عليّ القيام بذلك عند حضور صلوات الصباح اثناء «الشِفعة» لأمي في اواسط الستينات.

اعتقد بأن الوالد، لو كان يمتلك ذلك النوع من السلطة التي اعتاد الآباء ممارستها حتى في تلكم الأيام الخوالي للتقرب من الحداثة، لكان اصرّ على قيامي بمراسيم كنسية صحيحة حينما بلغت سن البلوغ. لكن في ذلك الوقت كان الأب يفقد بسرعة السيطرة على الأشياء في البيت وبيننا نحن الأبناء. لم يكن ببساطة في موقف يؤثر اكثر على الأحداث في العائلة بطريقة مجدية.

دينا وبناتها

في وقت ماً في اواخر العشرينات، حينما كان عمل الأخ إلياهو مزدهراً نسبياً وقبيل خطوبته من هيلا، كنا نعيش – مرة اخرى كمستأجرين ثانويين – في بيت دينا، على الشارع الرئيس لـ «تحت التكية»، وهي منطقة يهودية الى درجة كبيرة. كانت دينا وزوجها ابراهيم شخصين محترمَين ويهوديين ملتزمين جداً، لكن لسبب غير محدد بأن جميع الأطفال الذين تمكنوا من انجابهم كانوا بنتين لم تعطياهما الهدوء او راحة البال.

في ذلك الوقت، كانت البنتان «حوريتين» في بداية مراهقتهما، ربما في سنواتهما الحادية عشرة والثانية عشرة على التوالي. كان اسماهما عزيزة ونظيمة، وعند الوهلة الأولى لايبدوان مرتبطين على الإطلاق، فالإخت الكبرى، عزيزة، هي سمراء مكتنزة ذات عينين داكنتين بينما اختها الصغرى فكانت ذات بشرة افتح كثيراً. كذلك، بالإحتكام الى نوع الألعاب التي كان بمقدورهما ممارستها، ووسائل التجميل التي كانتا احياناً تصران على استخدامها برغم احتجاجات امهما، فإن الأختين لابد انهما كانتا من سلالة خاصة جداً بالفعل.

كانت عزيزة ونظيمة لابد ان تلعبا دوراً حاسماً في ثقافتي الجنسية. فالحقيقة هي انه، في كل الأحوال، كوني الذكر الوحيد الذي كانتا تعتقدان ان تأخذا معه بعض الحرية فإنني اصبحت محط اهتمامهما وولائهما. بالنسبة لبقية المنزل – والداي، وإلياهو وأخواتي الثلاث – بدا طبيعياً ان لا شيء خاصاً في كل ذلك. كان من الطبيعي جداً بالنسبة لشابتين ليس لهما اخ ان يدلعا ويدللا صبياً وسيماً في الرابعة من عمره.

الاّ ان الأختين كان لهما مآرب اخرى – وما أسرع ان تمكنتا من جعلي طرفاً راغباً لهذه المآرب. في مقالته حول جنس الطفولة، يتكلم فرويد في مكان ما عن الوجود المنتظم لغريزة جنسية في مرحلة الطفولة. وينتقد زملاءه الذين، برغم اعترافهما احياناً بأن الأطفال الصغار يمكن ان يدخلوا في انشطة جنسية مبكرة، كانوا ينظرون الى هذه [الأنشطة] على انها حوادث استثنائية، بوصفها حالات شاذة او بوصفها امثلة مرعبة من الإنحراف المبكر. لكن فرويد، من جانبه، ينظر الى هذه المظاهر – الإنتصاب، والإستمناء، وحتى «الأنشطة الشبيهه بالجماع» – على انها ظواهر شائعة الى حد ما كان اهمالها من لدن النفسانيين لابد من تفسيره جزئياً عن طريق اعتبارات الأستقامة.

كذلك يتحدث فرويد عن تأثيرات الإغراء، الذي يعرّفه بأنه معاملة الطفل بوصفه شيئاً جنسياً سابق لأوانه، وتدربه في ظروف عاطفية عالية كيف يحصل على الإشباع من مناطقه التناسلية. في أعمارهما وعمري، يتضح الآن لي بأن عزيزة ونظيمة كانتا داخلتين في إغراء شامل، يكلّل بالإنتصاب، إدخال جزئي، وذروة تشبه الجماع بشكل ملحوظ. لكن ليس من السهل دائماً ان تجد غرفة فارغة في منزل مزدحم لكي تعيد العمل بشكل متكرر، كما ان اساليب اخرى، «أكثر استقلالية» لابد من ايجادها للوصول الى ذلك الإشباع اللذيذ الذي كان الحصول عليه من المناطق التناسلية.

بعد ذلك ببضع سنين، حينما، فجأة ذات ليلة، توقف الدلال ليكون «جافاً»، بقيتُ قلقاً بشأن ذلك وجعلتُ العن رفيقتَي طفولتي على الفعل المنحط الذي قامتا به. لكن اخيراً، بعد المعرفة التي جاءت من القراءة حول هذه القضايا، خفّتْ مخاوفي وهواجسي. في مرحلة ما، بالفعل، كنت ابحث في الحقيقة عن اتصال بالأختين، بإيقاف احداهما في الشارع لأرحب بها و»اسأل عن حالها». كان الرد دائماً مؤدباً، من المؤكد، لكن لم تكن هناك اشارة الى تلكم الأيام الجميلة. الاّ انه في ذلك الحين كنت من النوع الخجول والفارق في العمر كان كبيراً، على الأقل بمقاييس تلك الأيام.

ومثل جميع النساء اليهوديات من طبقتها، كانت أم الفتاتين، دينا، سيدة مفعمة بالحيوية في اواخر شبابها – ولأن زوجها ابراهيم كان نوعاً ما عالماً مجتهداً، رقيق الكلام وكسولاً وغير عملي، فالزوجة كانت الشخصية المهيمنة في المنزل، الذي، في سجلاتي العائلية، اخذ يعرف بـ «بيت دينا». بالإضافة الى حصولي على اللمحة الأولى للجنسانية البدنية الاعتيادية، يبدو انني فتحت عينيّ اول مرة على العالم حولي في بيت دينا. في تلكم السنين بالذات حضرت الأستاذ l’estadh، وهو نوع من الروضة التي تعطى فيها تعاليم في اللغة العبرية الأولية والتوراة. ولأننا كنا صغاراً جداً، فإنه يتم نقلنا كل صباح بواسطة الخِلفة، الذي مهمته تكمن في سوقنا نحن الأطفال من والى الأستاذ. في اغلب الحالات، كان الخِلفة معاقاً عقلياً او يبذل جهده ليبدو كذلك او يتصرف مثله. في السنوات التالية قابلت احد خِلفاي المختلفين في شوارع اورشليم. شأنه شأن العديد من العراقيين اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل، كان في ذلك الوقت قد غيّر مهنته وأصبح الآن يبيع جريدة معاريف، احدى الصحيفتين المحليتين المسائيتين. كان ذلك في بواكير الستينات، حينما كان الرئيس المصري ناصر في قمة لا شعبيته في اسرائيل وكان يعاني من صعوبة الحفاظ على ما يسمى بالإندماج مع سوريا –

وكان الخِلفة العجوز كالعادة يلعب دور المهرج، وهو يصيح، «ناصر مات، ناصر مات – فليُمسَح اسمه تماماً». تجاوزته لأنني اعتقدت بأنه ليست هناك فرصة في العالم بأنه سيتذكرني.

الأخ إلياهو

ان ذكرياتي المبكرة عن اخي، إلياهو، الذي يكبرني بثماني عشرة سنة، هي نوعاً ما مبهمة. اعتقد بأن سبب هذا هو انه، منذ ولادتي، كان إلياهو لابد ان يعمل ليعيلنا جميعاً ولهذا لم اره الاّ لماماً. في افضل الأيام، حينما كانت الأعمال التجارية تسير بشكل حسن في السنوات السابقة للكساد الإقتصادي العظيم، اعتاد ان يجلب الى البيت في عصر يوم الجمعة حزمة ورقية صغيرة مليئة بـ «السلع»، والحلويات والسكريات وما الى ذلك – وكانت هذه توضع بعناية بعيداً في الخزانة وتقنّن لنا نحن الأطفال، على امل ان تستمر لأسبوع. لكن هذه الأيام الجميلة لم تدم طويلاً.

اعلن عن خطوبة إلياهو عام 1931. كانت الخاطبة امرأة تدعى صالحة وعروس المستقبل كانت من بلدة خانقين في الشمال. هيلا كانت كوهينية a Cohen، وكردية ايضاً. وقد حكمت عليها الأم بأنها «نحيلة جداً». لا أعرف بالضبط كيف، بسبب كل هذه السلبيات، عُقد القران في النهاية. من المحتمل انه المهر – الذي، برغم عدم كبره، كان في النهاية حسبما يُزعم لا يُدفع كاملاً او لا يُدفع بالمرة.

في تلك الأيام، ابتداءً بعام 1928 او 1929، اعتدت ان أأخذ الأب الى منزل هارون برشان، الأبن الأكبر لأخت الأب تفاحة وأبو شالوم، ديد، ورينا. كان المنزل فسيحاً ونظيفاً ومؤثث ببذخ، وكان يقع على بعد منازل قليلة من مدرسة التحالف للبنين. كانت زوجة هارون سارة امرأة مثالية وتقوم بالنزر اليسير بالنسبة للأعمال المنزلية، لأن في العائلة خادمين مقيمين، طباخ وخادمة – وهو شيء لم يُسمع به في الدائرة الضيقة لعائلة والدي. كان من المعتاد ان نذهب الى منزل برشان للصلاة وقراءة التوراة في صباحَين من رأس السنة وليلة الهثيما، وهي آخر ليلة من «السكّة» (عيد المظال)، التي تُقضى عادة بالقراءة والصلوات من جانب الرجال بينما النساء كنّ يشغلن انفسهن – وبهذا استطعن من البقاء ايقاضاً – بعمل اكوام من شعرية بحجم الحبة من عجينة صنعت خصيصاً لهذا الغرض.

من المحتمل ان لايعدو الأمر اكثر من مسألة تمني، لكن احياناً ثمة مقدار لابأس به من الهمس والقيل والقال في عائلتنا حول قِران ممكن بين إلياهو و رينا – وهو حدث، لو حصل فعلاً، لبرهنَ بأنه نعمة ليس فقط لإلياهو بل لنا جميعاً ايضاً. كان إلياهو قد بدأ عملاً تجارياً صغيراً، محل على الشارع العام بالقرب من «الجسر»، بُعيد مجيء البريطانيين اواخر عام 1917. لابد ان ذلك كان في صيف عام 1920، حينما كان في السادسة عشرة من عمره تقريباً. فُتح الدكان بالإشتراك مع احد الأقرباء الأباعد، وهو شاب يحمل اسم مراد، ويلقّب، لسبب ما يتعلق بسلطة وشخصية امه، بـ «ابن ست الكل».

في الوقت الذي اصبح فيه مؤهلاً للزواج، في اواسط العشرينات، كان إلياهو قد انهى شراكته بمراد وأنشأ دكانه الخاص به في السوق المركزي للمدينة، وهو سوق السراي. وإذ بدأ اوائل الثلاثينات،

فإنني اعتدتُ ان اذهب الى هناك مبكراً في المساء، وأنا االخذ طعام غدائه، لأنه كان يعمل طوال اليوم بدون استراحة وليس هناك اماكن كوشر ليأكل فيها – وعلى اية حال لاشي يضاهي طبقاً معداً في البيت. يبدو ان هارون برشان بشكل من الأشكال ساعد إلياهو في الوقوف على قدميه، وليس هناك شك بأنه كان قد اهتمّ به كقرين محتمل لرينا. لكن يُحتمل ان ذلك لم يكن اكثر من الميل الطبيعي آنذاك من جانب كل اب ان يرى من الناحية العملية كلّ شاب هو صهراً مأمولاً.

من المحتمل ان هذا كان فقط جزءً من مسألة التمني تلك، بالإضافة الى نوع من توبيخ الذات وطريق للتباهي – لكنني اتذكر بأنه، بُعيد خطوبة إلياهو من هيلا، كانت الإشاعات تقول بأن هارون برشان القوي هالته السرعة التي، حسبما يُزعم، قررت بها الأم تزويج ابنها البكر. بالفعل، اتذكر جيداً الإشاعة المنتشرة بأن هارون برشان عبّر عن نفسه بحدة اكثر عند سماعه الأخبار؛ لكن، طبعاً، من الممكن ان هذا لم يكن سوى تعليق على العروس، الحقيقة بأنها كانت كوهينية، او من اصل كردي، او هي بنفس عمر إلياهو – او جميع هذه المثالب المزعومة مجتمعة. هكذا هي قوة التمني، على اية حال، بأن ملاحظته تمّ اخذها حالاً لتعني بأنه كان قد خطط ليجعل إلياهو صهره، بينما الأب والأم كانا لا عزاء لهما.

عند التأمل في الأمر، اعتقد بأن حظوظ إعطاء هارون برشان يد ابنته للزواج بإلياهو كانت جيدة كعدم وجودها. تزوجت رينا اخيراً بمحام من بيت جيجي. ابنتها بلانش تزوجت يعقوب بلبول، وهو شاعر شاب واعد وكاتب قصة قصيرة اصبح اخيراً سكرتير غرفة التجارة، والذي غيّر اسم عائلته في اسرائيل الى ليﻫ.

تغيّر الحظوظ

تزوج إلياهو في وقت مبكر عام 1931، ومن اجل المناسبة ومن اجل مساحة اكبر انتقلنا الى منزل جديد يقع في منطقة افضل. كان صاحب الملك هذه المرة يهودياً مهيباً مستبداً من مدينة صغيرة في الشمال الذي كان قد جاء الى بغداد للبحث وإيجاد عمل افضل. كان اسمه مدعاة للخوف كتصرفه – حسقيل ابن ملة مردان. ليس لدي فكرة اين اكتسب اب الرجل لقب «ملّة»، اذ ان كلمة ملّة هي المكافيء الفارسي لرجل الدين او الزعيم الديني تستخدم عادة كلقب للمسلمين فقط. على الأرجح، بأن مردان، وهي كلمة عربية/عبرية تعني «متمرد»، كان حاخاماً والى جانب المسلمين الذين ربما كانوا يقصدونه من اجل النصح او الشفاء والذين لاشك يدعونه «ملّة»، كذلك اخذ اليهود هذه العادة وأصبحت الكلمة جزءً من اسمه.

وبحسب مقاييس العائلة، كان المنزل يمثل تحسناً ملحوظاً على كل شيء كنا قد عرفناه – بالتأكيد افضل من بيت دينا – وشغلنا نصفاً كاملاً منه. اخذ إلياهو وعروسه غرفة كبيرة لهما، بينما الأب، والأم، وأختاي وأنا فقد كنا ننام في الغرفة الأخرى. كذلك كنا نستخدم القبو – الـ «نيم»، الضروري جداً للقيلولة الإجبارية تقريباً بعد وقت الغداء في الصيف – بالإضافة الى شرفة داخلية واحدة في الطابق الأرضي – طارمة – واستخدام المطبخ وما يوصل الى غرفة الحمّام. ان حدث الخطوبة

الرئيس، القدوس الذي كان يسبق ليلة الدخلة، كان يجري في المنزل، وأحد الأشياء التي ابهرتني في المناسبة ليس الطباخ فقط وإنما رجل يشرف، ويوجّه، ويراقب كل الحدث ويسمى «الحوّاش»، وهي كلمة مشتقة من الـ «الحوش».

كانت ليلة الدخلة مسألة دقيقة ومعقدة نوعاً ما – وغالباً ماكانت تكتنفها الصعوبات، والعراقيل، والمشاهد البشعة. في بعض الحالات، بالفعل، كانت تنتهي بمأساة – على الأقل بالمعنى الإجتماعي للزواج الذي يُفسخ وتصبح الخطوبة باطلة ولاغية. عادة ما كان يحدث هذا في الحالات النادرة جداً حيث لا يمكن التثبّت من عذرية العروس – او عند اكتشاف بعض حالات العوق. في هذه المناسبة بالذات، على اية حال، كان كل شيء يسير بسلاسة. أُخِذ إلياهو على جانب في المساء وأُعطي تعليمات مفصلة على يد اثنين او ثلاثة من افراد العائلة الأكبر سناً والأكثر خبرة. مالم يمتلك العريس بعض الخبرات السابقة، فإن تلك كانت عادة اول مرة يتلقى فيها الرجل اليهودي تعليمات في الثقافة الجنسية. على اية حال، حتى بالنسبة للأشخاص الأكثر خبرة بيننا فإنه من الضروري تمرير المعرفة وآلية التعامل مع العذراء لهم.

بعد «الدخلة» – التي كانت تتضمن بالفعل مجرد دخول الغرفة حيث تكون العروس جاهزة تماماً ومتزينة لهذا الحدث الكبير – عادة ما كانت والدتا العروسين تجلسان لصق الباب او تحومان حوله، بانتظار خروج الكلمة، بالإضافة الى الدليل الدامغ على العذرية على شكل منديل صغير مع علامات دم وردية عليه. كان هذا يُعرَض على الأشخاص الذين يهمهم الأمر وأقرب الاصدقاء – من اجل أن لا يحصل أي خطأ وتبدأ الإشاعات. بعد هذا الدليل المزدوج – الأول يتعلق بعذرية العروس والثاني يتعلق بافتضاض العريس لغشاء البكارة – عادة ما يُترك الإثنان لوحدهما يقضيان الليلة بسلام. حسب خبرتي في تلكم الأيام، كان مفهوم «شهر العسل» غير معروف تماماً – وكان هناك عمل كالعادة في صبيحة اليوم التالي.

بعد الزواج بسنة او نحوها، عندما بدأ الكساد الإقتصادي العالمي يضرب اطنابه، واجه إلياهو صعوبات مالية حادة واضطررنا الى الإنتقال من منزل ابن ملة مردان الى منزل آخر، بعيد جداً عن ابسط وسائل السكنى كمستأجرين ثانويين، وهذه المرة في بيت عائلة گباي، الذين تشاطرنا معهم البيت الصغير في حي العاقولية. بقينا هناك مجرد ستة اشهر وفي ظروف تعيسة حقاً لأنه ليس هناك نقود تغطى ابسط حاجاتنا. في هذا المنزل بالذات أعلن افلاس إلياهو رسمياً واضطر الى قضاء بعض الوقت في السجن.

بحلول ربيع عام 1933 تدهورت الأمور تدهوراً كبيراً بحيث اضطررنا الى البحث عن سكن اكثر رخصاً وندبر امرنا بمنطقة اكثر فقراً. انتقلنا حينها من منزل الگباي الى بيت راحيل في حي تحت التكية. في ذلك الوقت كان لإلياهو و هيلا طفلتان – وهذا بحد ذاته كارثة – وهكذا اجبرنا على ان نُحشر في غرفة كبيرة واحدة، ذهبتْ بالتأكيد الى عائلة اخي، وعلّية صغيرة (كابشكان) اضطررنا ان ننام فيها نحن الخمسة الباقين في فصل الشتاء.

في عين الناظر

لو قيّض لي ان اعطي تقديراً تقريبياً لفكرة الجمال الأنثوي السائد في بغداد في تلكم الأيام – بين اليهود وغير اليهود على حد سواء – فإنه يتوجب عليّ ان الجأ الى منهج نسبي. لقد سأل البرتو مورافيا ذات مرة كلوديا كاردينال: «كيف هما كتفاك؟» اجابت، «هما ممتلئتان، مدورتان، انثيتان تماماً، ورشيقتان؛ ليستا حادتين وزاويّتين angular». وعندما سألها عن ارادفها، على اية حال، قالت كلوديا بأنها كانت تتمنى بأنها اكثر ضيقاً. وهذا، طبعاً، كله مسألة ذوق شخصي؛ لكنني اميل الى التفكير بأنه، لو ارادوا ان يعبّروا عن رأي حول الموضوع، فلا احد من ابناء جلدتي سيتفق مع نجم السينمائي الإيطالي، وبالخصوص عند تعلق الأمر بعُرض ارادفها.

الحقيقة هي ان العرب، سواء المسلمين منهم ام غير المسلمين، كانوا قد شكّلوا لأنفسهم عبر قرون كاملة مفهوماً خاصاً للجمال الأنثوي، بمقاييس صارمة في بعض الأحيان مزعجة جداً. صلاح الدين المنجّد، وهو مؤرخ عربي مشهور، ومؤلف كتاب عن نشوء الأفكار العربية عن الجمال الأنثوي عبر القرون، يكتب بأن انتقائية مفهوم العرب عن الجمال تنبع من التنوع الكبير في الخبرات الجمالية التي كانت متاحة لهم. ويوضح بأن حضارتهم المزدهرة «تمخضت عن آلاف الحسناوات المعروضات للبيع في المدن الشرقية والأسواق كل يوم».

وحسب المنجّد، فإن الإعتقاد السائد بأن العرب ترى الإنحناء السخي هو مقياس الجمال الأنثوي اعتقاد مغلوط. ويضيف، صحيح ان العرب الأوائل اعتادوا على تفضيل الأفخاذ الكبيرة والصدور البارزة الكبيرة؛ لكن تفضيل السمنة في النساء كان سائداً بين الشعوب البدائية والرجعية، وعبر العديد من القرون لحضارتهم المزدهرة استخدم العرب مقاييس للجمال بعيدة تماماً عن هذه المقاييس – برغم انهم يتحولون الى تفضيل الضخامة والسمنة في الفترات المتأخرة، «حينما اصبحوا مرة اخرى متخلفين».

اشك بأن استخدام المنجّد لكلمات مثل «رجعي» و«متخلف» في هذا السياق يشير الى نوع من الإعتراف بالمفهوم الغربي السائد عن الجمال الأنثوي، بالإضافة الى محاولة تصحيح مايراه انطباعاً غير محبّذ سائداً في الغرب فيما يخص ذوق العرب وميولهم الجنسية. والأمر هكذا، يدرج المتطلبات الخمسة التالية التي يقول بأن العرب يرونها جوهرية بالنسبة لجمال المرأة لكي تكون كاملة:

الأمرأة المثالية يجب ان تكون طويلة، لاهي نحيفة ولاهي بدينة، ومشدودة الجسم والعضلات اكثر مما تكون متراخية.

الأجزاء والصفات المختلفة لجسمها يجب ان تكون متناسقة وحسنة الشكل، من اجل ان تشكّل كلاً متجانساً.

مقياس الصدر يجب ان يكون مساوياً او تقريباً مساوياً لمقياس الأرداف، بينما الخصر يجب ان يكون قياسه نصف ذلك القياس او اكثر من ذلك بقليل.

بالإضافة الى هذه المتطلبات العامة، اصرَّ العرب على «جمال الروح». اذ ان الجمال الأنثوي ليس مجرد مسألة بدنية. فالنشاط، ورقّة الحركة، والدلال، وطلاوة الحديث – كل هذه تساهم بجاذبية المرأة.

كذلك وضع الخبراء العرب متطلبات وتوصيفات مفصلة لكل ميزة من ميزات المرأة، لكن هذه المتطلبات متخصصة جدا بحيث لا يمكن ادراجها هنا.

كما اشير عما قليل، اعتقد بأن المنجّد هنا متأثر كثيراً بالمقاييس السائدة في الغرب اليوم. ان تقييماً اكثر تمثيلاً، وأكثر دقة هو التقييم الذي اعطاه امير الجزائر عبدالقادر الجزائري (المتوفى عام 1883) الذي، قبل محاصرته ونفيه، كتب جواباً لعدد من الأسئلة التي وضعها له القائد الفرنسي في الجزائر، الجنرال دوما، بأن «الجمال الذي يحبه العرب يتطلب من المرأة ان تمتلك [هذه المجاميع السبعة المؤلفة من] اربع خصائص: اربع سوداء وأربع بيضاء وأربع حمراء وأربع كبيرة وأربع صغيرة وأربع واسعة وأربع ضيقة. اما الاربعة السوداء، يقول الأمير فهي: الشعر والحاجبان والرموش وحدقات العيون. والأربعة البيضاء هي: الجلد وبياض العين والأسنان والأظافر. والحمراء هي: الخدان والشفتان واللسان واللثة. والكبيرة هي: الثديان والفرجان والركبتان والردفان. والصغيرة هي: الأذنان والفم واليدان والقدمان. والواسعة هي: الجبين والعينان ومنحنى الصدر والسرة. والضيقة هي: الخيشومان والأذنان والفرج». (جدير بالذكر هنا بأن سلفيا جي. هايم، التي كتبت مقالة توجيهية جداً عن الموضوع وهي ترجمة هذه المقطوعة، كانت حريصة في ان توضح بأن «الخشونة التي ربما تبدو في ترجمة هذه النصوص ... راجعة بشكل اساس الى ان مرادفات الكلمة غالباً ما تمتلك ايحاءات في لغة لا توجد في لغة اخرى»، وأن «الكلمات العربية كما هي مستخدمة هنا هي خالية من المحتوى الوجداني او العاطفي»).

وبقدر تعلّق الأمر بمحيطي الشخصي، فإن الهزال في النساء كان ايضاً ليس فقط غير محبّذ او مفضّل ولكن ايضاً كان ينظر اليه على انه مثلبة حقيقية. اتذكر بدقة بأنه، عند عودتها من تفحّص الزوجة المستقبلية لأخي إلياهو – ليس بصحبة عريس المستقبل، بطبيعة الحال – صرّحت الأم بأن الشابة لابأس بها عموماً، ماعدا الحقيقة المؤسفة وهي انها نحيفة جداً – جلد وعظم. وواست الأب بإضافة ان امرأة ابنه المستقبلية بلاشك سيزداد وزنها ما إن تتزوج وتصبح حاملاً.

كانت هذه هي وجهة النظر التي حملها العراقيون في تلكم الأيام بشأن الموضوع. اليهود، خاصة النساء وعلى الأشهر الخاطبات، لديهم طريقة لاتصدق الى حدّ ما في وصف العروس الجميلة: «الوجه ابيض ومدوّر كالبدر، والأنف كالقرنفلة، والفم كحبة الهيل.» والعيون؟ هنا نواجه مشكلة بخصوص النِسَب المحضة، بالنسبة للعيون المثالية كانت «كاللوز»، والآن «كعيون المها». الطول،

ايضاً، كان موضوع تقييم، حيث قيل بأن نِسَب الأمرأة الشابة الجميلة التي تفيض صحة هي «الطول شراع والركبة ذراع».

في عمر السابعة او نحوه، عندما سمعتُ امي تشتكي من النسب البدنية لكنتها المستقبلية، فإنني كنت اميل الى موافقتها. ماهو مهم، بالنسبة لي، كان ومايزال المتطلبات التي حددها المنجّد – وهي ان ملامح المرأة والأجزاء المختلفة من جسمها يجب ان تكون متناسقة وحسنة الشكل من اجل ان تشكّل كلاً متناغماً سواء من حيث الرشاقة او البدانة او الوسطية.

ممرضة المدرسة

نموذج كهذا عن الجمال الأنثوي التام بالنسبة لي تمثَّل في ممرضة المدرسة اثناء سنتي الثانية او الثالثة من التعليم الابتدائي. كان شعرها احمر وكانت بشكل عام تفيض بالألوان – فوجهها يبدو مصبوغاً تماماً برغم انها لم تستخدم المكياج بشكل واضح. وقعتُ في غرامها مباشرة بما يشبه عاطفة عمياء. بعد تدريبي المختصر على يد الأختين في بيت دينا، كنت قد اصبحت في سن الثامنة او التاسعة قادراً على الأهتمام بحاجاتي الجنسية. لكن مع الممرضة في مدرسة راس القرية كان الأمر مختلفاً تماماً – نوع جديد من الشوق، نوع «افلاطوني» من الولع الذي لايمتلك أي هدف جسمي محدد والذي [أي الولع] كان على مايبدو من الممكن اشباعه بمجرد النظر والتأمل.

الممرضة، التي هي يهودية كما هو شأن جميع الممرضات تقريباً في تلكم الأيام في بغداد – حيث البقية كنّ مسيحيات – اصبحتْ على الأرجح على دراية تامة بتحديقي المتلهف، المندهش، شديد الاهتياج. لابد انها كانت تعيش في الحيّ نفسه الذي عشنا فيه – وعندما شخّصتها تسير من والى البيت اعتدت بطبيعة الحال ان اتبعها. من مسافة امينة، بالتأكيد، لمجرد الاستمتاع برؤية قدّها وحركات سيقانها وأردافها الفاتنة. على اية حال، بنوع من الثقافة بـ «حقائق الحياة» التي اعتادت عليها الفتيات، تأكدت بأنها لم تشك بشيء. من ناحيتي، كنت سعيداً وراضياً على الإبقاء على مسافتي – وأخيراً فقدتُ رؤية الحسناء الشابة، التي اعتقد بأنها كانت تعمل بدوام جزئي وتركَتْه عند نهاية السنة الدراسية.

اعتقد بأن هذه التجربة القصيرة من التعلق العاطفي بما كنتُ اراه امرأة جميلة كانت تمثّل لقائي الأول الواعي بالجمال الأنثوي. منذ ذلك الحين، لم اتوقّف عن الانبهار والخوف من مرأى وجه انثوي جميل بحق. بالنسبة لي، يبقى هذا لغزاً، ومعجزة حقيقية للصنعة التي لاسبيل الى تفسيرها وتحليلها – كيفية اجتماع خصائص معينة لتصنع امرأة فاتنة ومرغوبة جداً. ليس لأن لدي تفضيلات خاصة في هذا المجال. فالأمرأة يمكن ان تكون بيضاء او سوداء، شقراء او سمراء، او ذات رأس احمر، او لاشيء من هذه الصفات. يمكن ان تمتلك تقاسيم كبيرة او دقيقة، بجسم ممتليء او نحيف، عيناها كبيرتان او صغيرتان. العامل الجوهري هو مظهرها العام، الطرق الخفية التي تجتمع فيها مجموع ملامحها، وحجمها، ووزنها، وطريقة مشيها لتُنتج مايسمى عموماً بـ «الجمال».

ان هذا التصرف الانتقائي نوعاً ما بالنسبة لما يشكّل الجمالَ الانثوي كان يتعارض مع كل الآراء المقبولة في تلك الأيام – وليس فقط في الوسط الذي نشأتُ فيه. في مثل هذا المدح، يبدو ان خصائص امير الجزائر السبعة غير ملائمة – ليس تماماً. فالرجال في امريكا والغرب ربما كانوا يفضّلون الشقراوات؛ وفعلوا كذلك بالضبط في بغداد. من الممكن تماماً، على اية حال، بأن الشقراء من الممكن ان تكون ليس فقط «خرساء» بل ايضاً غير مغرية جداً من الناحية البدنية. وكذا تكون السمراوات، وحمراوات الشعر، وداكنات البشرة، والسوداوات.

الجنس في العائلة

بقدر ما اتذكر، لم ألاحظ أية علامات للحياة الجنسية بين والديّ. ليس فقط لأن ممارسة الحب والمداعبات كانت من الأسرار المحروسة بعناية التي تجري في ظلام الليل. من المؤكد انها كانت كذلك؛ لكن مع معرفتي المبكرة بهذه القضايا والظروف الطبيعية التي عشنا فيها في تلك الأيام، فإن مثل هذه الحوادث لاتفلت من مراقبتي.

عند التفكير بما حدث في السابق، يبدو لي ان الغياب الكلي لأية حياة جنسية ملحوظ جداً. مع ذلك، لم يكن الأب في منتصف اربعينياته حينما ولدتُ، والأم لم يكن عمرها اكثر من 35 سنة – وبقدر تعلّق الأمر بإنجاب الأطفال، فإن الطفل القادم، والأخير، لوالديّ – سمحة – ولدت بعد ولادتي بثلاث سنوات. هل كان ذلك نهاية لحياة والديّ الجنسية؟ كل الذي اتذكره بوضوح هو تلميح، مجرد تلميح، لرفضٍ من جانب والدتي. ذات مرة، حينما كنت في السادسة او السابعة من العمر تقريباً، لمحتُ والديّ في نقاش محتدم، وكانت هناك اشارة لطلب محتمل لأبي ليؤدي واجباته الزوجية – ومن ثم سمعتُ والدتي تلمّح بالرفض، بالرفض ....

ولأنني لم ارَ اخي إلياهو ماعدا ايام السبت ومناسبات اخرى – التي كان يقضيها على اية حال في معظم الأوقات يلعب النرد مع اصدقائه في مقهى – لم يبقَ عادة سوى اختيّ الكبيرتين العب معهما وأتعلّم منهما. في ذلك المجال، حتى عمر السادسة، اكتسبت معرفة او خبرة قليلة لأنه بعد عزيزة ونظيمة عشنا في عوائل حيث ان الفتاتين الشابتين الموجودتين كانتا اختيّ. سمحة، طبعاً، لم تكن مصدر عون. كانت گرجية، التي تكبرني بحوالي أحد عشر عاماً، من النوع الهادي جداً، تحرص بجد على حضور دورة التطريز التي كانت قد تعلمتها في الأتليير، وهي مدرسة للتطريز والخياطة اسستْها الجالية لتدريب الفتيات اليهوديات الفقيرات على تعلّم مهنة ما. كما انها كانت أيضاً ستتزوج قريباً في ما اعتقدته اندفاعاً، والعريس – وهو يهودي يدخن الأفيون وذو مزاج حاد - أخذها معه إلى كرمنشاه.

انها نجية، التي تكبرني بتسع سنوات، والتي كانت ستلعب دوراً في تربيتي الجنسية - وهي تربية غير واعية برغم انها لم تكن غير مهمة. كانت فتاة شابة محبوبة من كل جانب، وكانت في بيت راحيل حيث أنني لأول مرة أصبحت ادرك مدى معرفتها بتلك المسائل، في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، كانت قادرة على توليد إغراء واثارة كبيرين عندما اختارت أن تفعل ذلك. لم يكن

الموضوع، بطبيعة الحال، بريئاً بالنسبة لي لكن ناجي المحظوظ، الابن الأصغر لصاحبة المكان وفي سن العشرين أو نحو ذلك عمل كسائق شاحنة في شركة مواصلات رائدة. لأنه كان يعمل في الليل في بعض الأحيان، وكان يضطر الى قضاء بضعة أيام في الذهاب خارج المنزل كان لديه الكثير من وقت الفراغ خلال النهار، وكان بالتالي في وضع يمكنه من رؤية نجية كثيراً جداً. حتى اشيع بأنهما تمكنا من اللقاء سراً خارج المنزل. كان ناجي منجذباً لها صراحة - ولا عجب في ذلك. ما ظللتُ أتساءل فيه هو أنني ظننتُ بأنها اضطرت إلى العمل بجد لإغرائه - بالجلوس في الشرفة الداخلية تماماً بجوار الغرفة حيث كان ينام والتفتيش عن مئات الأعذار لجلب انتباهه. في بعض الأحيان، وأنا اراقب من الكوّة حيث كنت أنام، اعتدت على التحديق، لساعات في بعض الأحيان، وأنا اراقب عن كثب الحركات التي وجدتْها نجية دائماً أعذاراً لها لكي تكون في مواقع مختلفة من الظهور الجزئي.

اللمحة الوحيدة التي حصلتُ عليها من أي نشاط جنسي في العائلة كانت لإلياهو و حلا بُعَيد زواجهما. كان هذا في بيت ابن ملة مردان، حيث كان لديهما غرفة بكاملها مخصصة لهما وليس هناك اية طريقة لأي شخص ان يراهما او ان يدخل بدون ان يُعلن عن ذلك. كانت غرف النوم، على اية حال، في الطابق الثاني، حيث ليس هناك أي مخلوق بإمكانه ان يبقى في فصل الصيف لأية فترة من الزمن. كانت هذه الغرف تُترك تماماً في الصيف، اذ الناس ينامون على اسطح المنازل ليلاً ويأخذون قيلولتهم اما في الطارمة في الطابق الارضي او في برودة النيم. انه في النيم في وقت مبكر من المساء عندما لمحتُ اخي وامرأته مشتبكين في عناق جديّ. لابد ان اضيف بأنه لاشيء مثير على نحو خاص او حتى مثير للفضول بشأن هذا المشهد؛ ففي عمر السابعة او نحوه كنت تعلمتُ الكثير من الكبار من حولي.

الخادم المقابل لنا

عندما نحكم عليه عن طريق طول جدرانه وعرضها وحجم البوابة، لابد ان البيت كان واسعاً وفسيحاً. لكن اذا اخذنا بعين الاعتبار حقيقة ان لا احد يدخله او يغادره، فإن البيت لابد انه كان غير مأهول. لم اكن اعرف على وجه اليقين أي نوع من المخلوقات كانت تعيش في تلك البناية، التي كان بابها مباشرة عبر الطريق من بيت راحيل، وفي السنة او السنتين التي قضيناها هناك لا اتذكر بالمرة رؤية نَفَس يدخل او يخرج هناك. العلامة الوحيدة على وجود حياة تتمثل بخادم عجوز، اشيب – وهو ايضاً ما كان ليُظهر وجهه لولا ضعفه الظاهر بالنسبة للأناث الشابات جداً.

لابد ان اختي في ذلك الحين كانت في الخامسة او السادسة من عمرها، لكن شأنها شأن السواد الأعظم من الأطفال الفقراء والمحرومين كانت اكثر حكمة وأكثر دهاءً من الكثير من الأطفال بعمرها. هي وأنا كنا صديقين – على الأقل في المعنى الذي اعتدنا فيه على جمع مواردنا الضئيلة لتدبير امور المعيشة. لم يكن فوق تصورنا التخطيط لسرقة اجاصة او تفاحة من البقال – او، افضل من ذلك، [سرقة] طعام شهي نادر كموزة. لم يكن هذا سوء خلق او أي شيء كاندفاع طفوليّ للقيام بأشياء يعرفها المرء بأنها محرّمة جداً. انها حاجة ملحّة ان تمتلك و تتذوق اشياء معيّنة نراها

معروضة يومياً في افضل المحال والمخازن لكن تلك الأشياء لم تُجلب الى البيت او تُرى على المنضدة.

ذات يوم فاجأتني سمحة بإنتاجها فعلاً قطعة شوكولاتة. لم يتطلب الكثير من الاقناع لأكتشف مصدر الهِبَة الجديدة. انها كانت من الخادم المسلم قبالتنا. في البداية غضبتُ وحذّرت سمحة من انني سأشي بها اذا تجرّأت بالقيام بذلك مرة اخرى، ثم طلبتُ ان اعرف بالضبط كيف ولماذا وفي أي اسلوب اعطاها هذا العجوز الشوكلاتة. بعدها رشح بأنه، عندما كان يرى سمحة عند الباب – الذي كان مفتوحا الى حد ما – كان يشير لها بأن تدخل وقطعة الشوكلاتة في يده. كان الاغراء كبيراً لكن سمحة قالت بأنها قاومت ذلك لبعض الوقت. ثم استسلمت في هذه المرة الأخيرة، ودخلت المنزل المخيف وسُلّمتْ لها الشوكلاتة. حسنُ، اصررتُ، لكن لماذا تحتَّم عليها الدخول الى المنزل عندما كان هذا الشيء بريئاً كما بدا من القصة التي سَرَدَتْها؟ اخذ هذا الجانب بعض الوقت والإقناع بالحسنى، كان مصحوباً بالتهديد من اجل توضيح الأمر: اثناء الثواني القليلة التي كانت فيها سمحة في داخل المنزل، كان الخادم العجوز يداعبها قليلاً ومن ثم يفترقان بالشوكلاتة.

لاشيء يشبه التبرير في جعل الأشياء غير المقبولة تبدو مقبولة وفي النهاية يتم قبولها. ولاشيء يشبه الجوع او أي نوع اخر من الحرمان يؤدي الى هذا التبرير. حسنُ، العجوز هو مع ذلك ليس سوى عجوز؛ وإذا كان احمقاً جداً بحيث يوزّع مثل هذه الاشياء الثمينة كالحلويات وقطعة شوكلاتة حقيقية مقابل شيء ما حميد وغير ضار، فلمَ هذا الانزعاج!

وهكذا استمرّ الحال لبعض الوقت على الأقل – حتى توقف الرجل عن الظهور على الباب ببضاعته التي لاتقاوم – استمتعنا بالرخاء. اما السبب وراء اختفائه، فهذا امر غامض غموض المنزل نفسه الذي كان يخدم فيه. فكل الذي عرفناه عنه هو ربما كان قد توفي، او مرض مرضاً ميؤوساً منه، او تمّ طرده بدواعي كبر السن. او هل كان، برغم ذلك، المالك الحقيقي لذلك المنزل وساكنه الوحيد؟ هل هو ربما مات فعلاً في مكان ما في ذلك المنزل الفسيح، مع عدم وجود شخص يعتني به او حتى يشهد دفنه؟

الفصل السادس

التعليم

صديقة لي من نيويورك، وهي كاتبة مشهورة بصراحتها، كتبتْ ذات مرة رسالة في سياق احدى تأنيباتها الدورية: «لماذا، بحق السماء، لم يرسلك ابوك الى المكافيء البغدادي لـ«الچيدير» cheder؟[23] كما تعرف ان الافكار ذات القيم الانسانية لم تبدأ قبل التنوير الفولتيري، وحتى افكار التنوير هي افكار أشعيا».

لكنهم ارسلوني الى واحدة [من هذه المدارس] – حسنُ، ارسلوني الى مايعرف بالمكافيء البغدادي للچيدير الشرق اوربي (الذي لابد ان يعني «غرفة»). كان يدعى استاذ وما كان الاستاذ يعلّمنا هناك نحن الأشقياء هو قراءة التوراة. من المؤكد، كنا نجلس جميعاً في غرفة، عادة في المنزل، وعادة يكون منزل «الأستاذ» الخاص، وهذا الأستاذ الوحيد جعلنا ببساطة نردد ما كان يقرأه. لكنني لا اتذكر ان سمعته او سمعتنا يردد او نردد أي شيء ابعد من الصفحات القليلة الأولى من سفر التكوين.

إما انني لم ابقَ هناك فترة طويلة او كان ثمة شيء ما خطاّ جداً يعاني منه الأستاذ. وتبقى الحقيقة بأننا لم نتمكن مطلقاً من الذهاب ابعد من هذه القطع الاولى. الفكرة، حسبما اشك، هي جعلنا نحو الأولاد مشغولين وبعيدين، بدلاً من تعليمنا عناصر العبرية وقراءة الانجيل.

لكن اذا كان الاستاذ غير كافٍ – وهو بالتأكيد ليس هكذا – فإنني ايضاً أُرسلتُ الى المدراش، اقرب شيء كان على يهود بغداد ان يقارنوه بالـ «يشيفا» الشرق اوربية. ربما لا تختلف المدراش عن اليشيفا الاّ في انها تحتضن جميع الأعمار وجميع مستويات الدراسات التوراتية، من اجل ان يستطيع التلميذ ان يأخذ ببساطة خطواته الاولى نفسها في العبرية والدراسات الدينية. لكن – لابد من القول – انني تمكنت من البقاء قليلاً ان كان هناك وقت. ان الزحام، والنتانة، والنظام الصارم، والفقر الثقافي المطبق في كل من المكان والحشد – كل هذه جعلتني ببساطة اسرع في ترك المكان كشخص يركض من اجل حياته. لا اعلم في أي عمر بالضبط كنت حينها – ولا اتعجب لو كان السبب في تركي للمدراش هو مستواي غير الكافي في العبرية و/او دراسة التوراة – او شيء ما يتعلق بقلة انضباطي. ما اعرفه هو ان ردة فعلي كانت بسبب الاشمئزاز المطلق – وانه تحت أي ظرف من الظروف لم اكن قادراً على البقاء هناك ولو ليوم واحد.

الى صديقتي الغاضبة دائماً – التي صادف ان تكون قومية اثنية يهودية راديكالية معادية للعرب متعصبة – كتبتُ:

لا، اذاً؛ ذلك ببساطة لم يكن بيت القصيد – أي الذهاب او عدم الذهاب الى المعادل البغدادي الچيدير. يتضح ثمة شيء ما في «حضارة» المكان و [حضارة] الناس. ثم ماذا كانت الچيدير تعلّم اولئك الذين كانوا يحضرون على كل حال؟ القومية اليهودية السياسية الحديثة – أي صورة طبق الأصل لمفهوم عرقي راديكالي خاص بالقومية التي استعارها برمّتها اليهود المغرّر بهم الاستيعابيون من وسط اوربا وشرقها والتي اخيراً مارسها بثأرٍ اتباعُهم في فلسطين؟ وانت تمتلك القلب – واللامبالاة الفكرية العجيبة – لتدعونني «ابن التنوير»؟ ماهذا بحق السماء؟ تعرفين – او على الأقل ينبغي ان تعرفي – مَن هم «ابناء التنوير المهمَلين والمنبوذين» عند اليهود! لاتحسبيني من بينهم، شكراً جزيلاً لكِ! افضّل ان أدعَى – مثلما دُعيتُ كذلك فعلاً، وعن طريق استاذ جامعي – بأنني «متحجر» دموي.

وتظنين بأنكِ ذكية. تظنين بأنكِ قد انهيتيني بمجرد اعادة صياغة ملاحظتي بشأن اليهود الألمان. (وماذا بشأن شكرك عن «عدم دعوتي بالضبط بأنني «احمق تماماً» وعن اقتناعي بالتلميح بأنني نوعاً ما مغفّل عادي، غير مؤذٍ؟) مخطئة ثانية – وبشكل مضاعف حتى! في المقالة التي تقتبسينها كتبتُ: «كان اليهود الألمان مغفلين تماماً اذ تصوّروا – بمعرفتهم التأريخ – بأنهم من الممكن ان يتم استيعابهم، او امتصاصهم، او قبولهم على انهم ألمان اولاً وأتباع دين موسى ثانياً!» وانتِ تعرضين صيغة معارِضة هشة: «كان اليهود العراقيون مغفلين تماماً اذ يتصورون – بمعرفتهم التاريخ – بأنهم من المَمكن امتصاصهم.»

وهكذا دواليك. لكن ياعزيزتي شافا الغاضبة، والنافدة الصبر، والمندفعة، باديء ذي بدء، لم يرغب يهود العراق مطلقاً بالمرة – ناهيك عن التوسل – ان يتم امتصاصهم او استيعابهم عن طريق او في المجتمع ذي الأغلبية المسلمة الذي عاشوا فيه. اعرف بأنه من الصعب عليك وعلى أناس ترعرعوا في محيط يهودي اوربي ان يصدّقوا هذا، مع ذلك تبقى الحقيقة بأنه بقدر تعلق الأمر بيهود الشرق الأوسط وشمال افريقيا فإن مسألة القبول، او الإمتصاص، او الإستيعاب لم تبرز ببساطة. كما ليس هناك أي شيء غريب او ملحوظ في هذا: الحقيقة هي انه، طالما ليس لفكرة القومية العرقية الإثنية اساس في تاريخ العرب او الفكر الاسلامي في المقام الأول، لاحاجة للناس للذهاب الى أي مدىً من اجل ان يتم «قبولهم» او «السماح» لهم بالدخول الى المجتمع الأوسع. بالفعل، «بمعرفتهم التاريخ»، كان يهود بغداد مغفلين تماماً حتى في تأملهم البحث عن هذا الدخول – ناهيك عن النظر اليه فعلاً على انه شيء جوهري. لكنهم ليسوا مغفلين ولم يجربوا ان يكونوا كذلك.

لذا استمرّي وخذي نصيبكِ من السعادة! عندما يحلو لكِ ان تشبّهينني بيهودي الماني – وهو الشيء الذي يبدو انني اتذكر بأنكِ قمتِ به في احدى رسائلكِ – فليكن ذلك! لكن ليس هناك مجال لتقديم مثل هذا الاعتذار و، هكذا اتمنى، انكِ ماضية في الاستمرار بتجريب وحل اللغز الثقيل الذي يبدو لكِ بأنه انا. اتمنى لكِ حظاً اوفر – في جهدكِ اللاحق والجهود التي ستعقبها بلا شك.

سنة في الروضة

فضلاً عن سنتين او ثلاث سنوات من الحضور مع هذا الأستاذ او ذاك، فكل الذي بقي خلفي في عام 1936 عن طريق التعليم الرسمي هو خمس من بين ست سنوات من التعليم الابتدائي، تلقيته على الأقل في ثلاث مدارس ابتدائية يهودية.

لكنني اودّ ان اتحدث هنا عن سنة واحدة قبل المدرسة، التي قضيتها في روضة يهودية ليست بعيدة عن مكان سكناي. ذكرياتي عن تلك السنة هي مقتصرة برمتها تقريباً على تجربة مؤلمة الى حد ما حصلت لي مع احد زملائي في الصف. هذا الصبي، الذكي جداً حد الإزعاج، كان يتحدث لي بشكل منتظم عن كل الحلوى التي اعتادت والدتي ان تحشو به حقيبتي – وهذا بحجة ادعاء كاذب بـ «شرائها» مني. لكن الصفقة تتم بالدَين، اذ يعدني الصبي بدفع المبالغ المتراكمة «غداً».

السبب وراء قبولي بهذه الصفقة غير العادلة الى حد ما هو ان المبلغ النقدي بالنسبة لي حينها لم يكن كافياً؛ اذ ثمة قاعدة في عائلتي تتلخص في ضرورة عدم «تبذير» النقود خارج المنزل واحتياجاته. كذلك هناك امر مضاف يفيد بأن عدم المعرفة بخمسة او ستة سوف يبدد بلاشك أية اموال نقدية يحصل عليها المرء على حلويات غير مغذية وباهضة الثمن وغيرها. بدلاً عن ذلك، تأخذ ما انت بحاجة اليه – كالحلويات والشوكولاتة – لكن لا يُسمح لك بأخذ عملة صعبة.

لكنني بحاجة الى العملة الصعبة – وأحتاجها بالضبط لأنفق على اشياء غير مغذية. وبالتالي قبولي بالعرض في بيع حلوياتي والبقاء جائعاً فعلاً على امل وضع يدي على بعض العملة الصعبة، مهما كانت زهيدة. على اية حال، كانت نتيجة محاولتي الأولى في فن البيع مرعبة: مبلغ كبير نسبياً من المال اعتقدتُ بأنني حصلتُ عليه من بيع هذه الحلوى بقي نظرياً تماماً. اذ لم ارَ بنساً واحداً منه.

وإذا ما اخذتُ كل هذا بعين الإعتبار، فإنني كنتُ وحيداً منذ نعومة اظفاري، مستسلماً للمزاجية والإكتئاب وميالاً لأكون موضع للسخرية والتندّر من جانب اقراني المزعجين في المدرسة. فأنا قلما اشترك في العابهم، ولم اشترك سوى في مناسبة واحدة في مزاحهم ضد اساتذة المدرسة. حدث هذا في الأستاذ l'estadh، حيث كنا قد اعتدنا على المدرس النصف مجنون، رث الثياب الذي كنا معتادين مع كل حركة منه والذي كنا نستطيع ان نتنبأ بردود افعاله بدقة كبيرة. ذات يوم انتهى هذا الجو الشاعري فجأة: مدرس جديد، يرتدي ملابس اوربية، حليق الوجه تماماً، وبصوت ساخر سلطوي، تمّ تقديمه لنا بوصفه مدرّسنا الجديد. الأنكى من ذلك انه كان يتحدث بلكنة غريبة وأخبرونا بأنه عاد لتوّه من فلسطين حيث كان قد ذهب لدراسة التوراة والعبرية.

كان متكبراً في مظهره ويخاطبنا بغطرسة واضحة، لذا قرر عدد من زملائي في الصف المزعجين بأن «يلقّنوه درساً». كان الوقت صيفاً وثمة العديد من الرقي الرديء، مليء بالعصير ذي الرائحة النتنة وغير الصالح للأكل. ذات يوم، بعد ان انهينا دوامنا وغادرنا كالعادة قبله بدقائق معدودات، قفز بعض منا على سطح البناية على الطريق الذي عرفنا بأنه سيسلكه. لم يكن سوى نص رقية لكن التأثير والإرباك كانا كبيرين حينما سقطت بدقة على هذا المسكين. اعتقد بأن ارتباكي وشفقتي كانا اكبر من ابتهاجي، ولم اشترك قط في مثل هذا المزاح ثانية.

كما انني لم اشترك ايضاً في الألعاب التي كان اقراني يلعبونها، غالباً في الشوارع والأزقة بالقرب من بيوتهم. كانت هذه الألعاب اما تتطلب نقوداً لشراء التجهيزات وغالباً للرهانات، او انها تتطلب لياقة بدنية – وأنا افتقر لكليهما. وكان هذا من المحتمل يفسّر حقيقة انني ليس لدي اصدقاء حقيقيين حتى عمر الخامسة عشرة، حينما كانت الصداقة ترتبط بأساسٍ من المسعى الذهنى او الصحبة البسيطة. من الغريب انه حتى في ذلك الوقت، على قدر ما اتذكر، صادف وأن كان اصدقائي اكبر مني سناً بكثير.

ان حقيقة كوني غير لائق جسدياً لممارسة الرياضة والتمارين ليس له علاقة بحالتي الصحية، برغم الإنطباع العام في العائلة هو انني عرضة للإصابة بالزكام والشعور بالتعب بسرعة وفي كثير من الأحيان. اصبح هذا جلياً بعد ذلك ببضع سنوات عندما، اسوة مع جميع الصِبية البغداديين، أرسلتُ لمدرّب يعلّمني السباحة. استغرق الأمر مجرد يومين للتخلّى عن الفكرة، والعودة الى البيت في اليوم الثاني وأنفي ينزف وأطرافي غير قادرة على الحركة.

مدرسة راس القرية

عموماً، كانت ايامي في المدرسة حتى سن الثالثة عشرة، عندما تركتُ مدرسة راس القرية حالاً بعد إنهاء الصف الخامس، اياماً مليئة بالقلق الممض، والملل، والتعاسة. بقدر تعلّق الأمر بالتعليم الفعلي، اعتقد بأن الست سنوات التي قضيتها في المدرسة كانت غير منتجة الى ابعد حدّ، برغم وجود استثناءات. كانت اللغة العربية والنحو العربي دروسي المفضّلة واستطيع ان اقول انني حصلتُ على اساس جيد فيهما بينما كنت في المدرسة. اما الموضوع الآخر الذي اتذكر بأن لي ولعاً به هو الهندسة geometry، الذي هو مثل النحو والصرف، يحتاج الى تفكير نظامي ومنطقي وبالمقابل غرس فينا اطاراً ذهنياً منظّما.

ان مدرسة راس القرية، التي سميت تيمناً بالحي الذي وقعت فيه، هي مدرسة حكومية تأسست لإعطاء التعليم الى الأولاد اليهود الذين هم اما لا يتحمّلون مصاريف المدرسة الخاصة او انهم اثبتوا بأنهم ضعفاء جداً في تحصيلهم الدراسي بحيث لا يُسمح لهم بالإنخراط بإحدى المدارس الجيدة التي تديرها الجالية اليهودية، او كلا السببين. احدى هذه المدارس كانت مدرسة التعاون، التي قُبلت فيها مبكراً والتي كان لابد لي ان اتركها بسبب عدم قدرتي على تجاوز بعض المواد، لاسيما اللغة الانكليزية والرياضيات. كانت احدى المصاعب تكمن في ان مدرسة التعاون بدأت بتدريس طلابها اللغة الانكليزية مباشرة من المرحلة الأولى، حينما ادخلت المدارس الحكومية مادة اللغة الانكليزية فقط في المرحلة الرابعة.

ومن التعاون انتقلتُ الى راس القرية في خريف عام 1930. لم اعانِ من اية صعوبة تُذكر ونجحتُ في المراحل الثلاثة الأولى. اتذكر بأنني نلتُ سمعة طيبة في البيت بأنني كنت ذكياً جداً وذاكرتي جيدة جداً بحيث انني دائماً استوعب الدروس في الصف وبذلك لا ينبغي لي القيام بالواجب البيتي او

الاستعداد للإمتحانات. لا اعرف أي تبرير لهذا التباهي، لكنني اعرف بأنني لم اقم بالواجب البيتي او اكلّف نفسي وأفتح مقرر اللغة العربية او مقرر آخر خارج الصف.

ولم تبدأ المشكلة الحقيقية الاّ بعد إدخال مواد لا تتطلب بعض التحضير والمذاكرة فقط بل ايضاً كانت تتطلب واجباً بيتياً حقيقياً – الرياضيات، والتاريخ، واللغة الانكليزية، والجغرافية. كانت مادة الجغرافية شيئاً مزعجاً في حياتي في تلك الأيام، تنطوي كما هو شأنها على عدد من اكثر المحاولات كرهاً. المشكلة هي انه ينبغي للمرء ان يذاكر ليس فقط عواصم جميع تلك الأقطار البائسة، بل عليه ان يذاكر احجامها وسكانها ومناخاتها وواراداتها وصادراتها الرئيسة. بالنسبة لجغرافية العراق، تركّز الواجب البيتي على إدراج الأماكن، والأنهار، وغيرها من المناطق الأخرى التي مررتَ بها او صادفتها في رحلات متخيّلة من مكان الى آخر – معززة بالخرائط. برغم انني تمكنتُ في النهاية من تعلّم بعض الخدع المفيدة – مثلاً ان الطقس، والصادرات الرئيسة، ومعظم واردات جميع الأقطار، لنقلْ، [واردات] امريكا او جنوب شرق اوربا كانت متماثلة تقريباً – الاّ انني اضطررتُ في نهاية المطاف الى الاستسلام حتى من المحاولة، وفشلتُ فشلاً ذريعاً في هذه المادة في امتحانات نهاية السنة في مرحلتي الرابعة. كان النظام في ذلك الوقت يقضي بأنه طالما فشلتَ في مادة واحدة فقط فيمكنك ان تعيد الأمتحان بعد العطلة الصيفية و، عندما تجتاز هذه المادة بنجاح، يمكنك ان تنتقل الى المرحلة القادمة. ولأنني لم استعد الى الإمتحان الثاني، فقد اخفقتُ في اجتيازه، وبقيتُ في المرحلة الرابعة لسنة اضافية.

برغم انها كانت مدرسة حكومية، الاّ ان جميع المدرسين في مدرسة راس القرية كانوا يهوداً ماعدا عبدالستار افندي، الذي يدرّس التربية البدنية والأناشيد، ومدير المدرسة القوي حسن افندي. كان المدير، الذي هو في الأربعينات او نحوها والأكبر سناً من بين الكادر التدريسي، مؤدِّباً عظيماً ومؤمناً متحمِّسا في الإستخدام الخيري للعصا. اسوأ تجربة لي مع حسن افندي كانت عندما مُسِكتُ مع زجاجة صغيرة من ماء الكولونيا في جيوبي. حصل على الزجاجة اخي إلياهو إثناء عمله كسمسار وجلبها الى البيت لزوجته لكي تستخدمها. لا اتذكر ما اذا كنتُ سرقتها او أُعطيتْ لي – اعتقد الى حد ما ان الأمر الأول هو الأرجح، انطلاقاً من فداحة الفضيحة التي سبّبتْها مسالة اكتشافها في حوزتي. كان حسن افندي تقريباً على علم بوجود الرائحة، وعندما عرفتُ بالحقيقة اسرعتُ حالاً الى المراحيض ورميتُ الدليل الجرمي بأمان في الخزان. لكن ذلك لم ينفع، لأنه يبدو بأنني استخدمتُ هذا الشيء ولذلك كان كلّ جسمي تفوح منه الرائحة. في النهاية، ولعدم قناعته باستخدام عصاه بشكل متكرر وبأقصى ما يملك من قوة، قرر حسن افندي ان يجمع الطلاب جميعاً في الساحة الداخلية ويوبخني علناً بسبب جريمتي – من اجل ان تكون درساً لهم كي يتذكروه.

وإذ انظر الى الوراء، اعتقد الآن بأن امتلاك قارورة الكولونيا تلك كان يعدّ جناية فظيعة بسبب شيء ما لم اتوصل الى ادراكه في ذلك الوقت. لم يكن الشذوذ بين الذكور غير معروف في بغداد، برغم انه لا يمتلك سوى مشتركات قليلة مع ما يُعرف بالشذوذ في الغرب، حيث يرقى الى ابتلاء جسدي. إما عن طريق الميل او بسبب قلة الشركاء الأناث، حيث اعتادت نسبة معينة من الذكور على الإنجذاب الى اعضاء من نفس جنسهم، عادة يكونون وسيمين وصغاراً. كان هؤلاء الرجال على

الأغلب بلا استثناء ثنائيي الجنس، وجميعهم تقريباً تزوجوا وأصبحوا اباءً. بالنسبة لتجربتي، في الحقيقة، لم اتذكر مطلقاً بأنني قابلتُ مثلياً ذكراً «سليماً» – ولم اعرف سوى واحداً ادّعى بأنه لم يستطع ممارسة الجنس مع امرأة. في واقع الحال، ان الأشياء الجنسية للشواذ من الذكور كانت في جميع الحالات تقريباً شبَّانا طبيعيين يجري تملّقهم، ورشوتهم، واستغفالهم للدخول في علاقة مع رجل اكبر سناً يحمل تلك الميول. ولابد من وجود، على اية حال، بعض القوّادين الذكور – او اولئك الذين يفعلون ذلك من اجل المال. كان يُنظر الى هؤلاء على انهم ارذل الأراذل، اكثر سوءً من القوادات من النساء.

كنتُ اعَدّ وسيماً جداً ولذلك كنتُ مرغوباً جنسياً- وفي سني مراهقتي الأولى ادركتُ بأنني مطلوب من الناحية الجسدية. وهذا هو السبب، حسبما اعتقد، الذي جعل امتلاكي لقارورة كولونيا تبدو جريمة مروّعة. لا اعرف عن حسن افندي، المدير، وميوله في ذلك المجال من النشاط ؛ لكن الأمر مع عبدالستار افندي، مدرس تدريبنا البدني، فقد كانت قصة مختلفة. لا اعتقد بأنني الولد الوحيد الذي يجتذبه جنسياً، لأنني اعتدت سماع مقولة بأنه «يلاحق الأولاد» (هذه كانت العبارة الغريبة التي كان يُعرف بها هؤلاء الرجال في بغداد – يدوّر اولاد).

لم تكن العصا شيئاً غير مألوف في مدارس بغداد في تلك الأيام – وكانت تُستخدم بحرية في افضلها و»أغناها». لكنها لم تكن بتلك الحرية كما في تلك المدارس حيث كان معروفاً بأن التلاميذ ينحدرون من أسرٍ محرومة اقتصادياً. ومن بين هذه المدارس مدرسة راس القرية.

الشتاء في بغداد هو شأن خطير؛ فالتدفئة كانت ترفاً لم نستطع تحمله، وليس هناك مقدار كافٍ من الملابس يعطي حماية كافية من البرد القارس. والأسوء من ذلك كنا نضطر نحن الأطفال الى الذهاب الى المدرسة في السراويل القصيرة. لأنه حسبما يبدو دائماً اننا كنا نسكن بمسافة عن المدرسة، ففي وقت وصولي في نهاية المطاف الى المكان كنت متجمداً – يدان عاريتان، ساقان عاريتان، قدمان يغطيهما الشيء القليل، ورأس حاسر وأنف جاري. ولحسن الحظ لم اتأخر في اغلب الأحوال عن الدروس – وكانت تلك خطيئة لاتغتفر. الخطيئة الأكبر، في الحقيقة، ان المدير نفسه هو من كان يتعامل مع المذنبين.

على اية حال، برغم اغلظ الأيمان التي يقسم بها المرء – امام نفسه وأمام حسن افندي – «بأن لايفعلها ثانية،» لامفر من ارتكابها مرة اخرى. فمن جانب، ان اخي إلياهو كان الفرد الوحيد في العائلة الذي يمتلك ساعة – وتلك الساعة لايمكن الاعتماد عليها دائماً. ومن جانب آخر، دائماً ما كان يحصل شيء ما غير طبيعي: طابور طويل في محل الخباز، ووقت آخر آخر يضيع في موقد الكيروسين، وضرورة شراء الشاي او السكّر او كليهما في ذلك الصباح نفسه. لكن حتى عندما كنت اتناول كوب شاي ونصف رغيف من الخبز – الذي كان هذا فطوري المعتاد ماعدا ايام الجمع وأيام السبت – فإن كتاباً مدرسياً او كتاب تمارين كان يضيع، والنقود المطلوبة لشراء قلم رصاص او ورق لم تكن متوفرة ببساطة او من الصعب التغاضي عن ذلك بدون تحقيق موسع، او القيام بمهمة ما.

من بين المدرسين اليهود في مدرسة راس القرية، اتذكر صالح افندي، الذي كان يدرّسنا الرياضيات وكان يصرّ على مخاطبتنا باللكنة العربية العامية للمسلمين، على عكس زملائه الذي تدبروا الأمر بعمل خليط غريب من العربية الفصحى و العربية التي يتكلمها اليهود. لكن المتفاخر على نحوٍ خاص هو مدرس شاب اسمه نيازي – وهو اسم غير مألوف بين يهود العراق – الذي كان يعلّمنا في المرحلة الرابعة. اتذكره يخبرنا بأن التلفظ الصحيح لكلمة bicycle هو يشبه كلمتي «behind» و«beside»، التلفظ الصحيح الذي كان خطأً بالمرة. كان يصرّ على ان نلفظه بشكل صائب لكن بعد بضع سنين اكتشفتُ كم كان لامنطقياً ذلك التلفظ.

مقاطعة منتجات المانيا النازية

ثمة استاذ آخر لايُنسى، كذلك كان يهودياً، هو داود افندي، مدرسنا في مادة التوراة. حينما وصل النازيون الى سدة الحكم في المانيا، في نهاية عام كانون الثاني 1933، كنت في منتصف الفصل الأول من السنة الدراسية حيث كنت اقضي سنتي في المرحلة الثالثة. ذات يوم في ربيع السنة نفسها كرّس داود افندي بشكل عملي الساعة بأكملها للحديث عن موقف اليهود في المانيا وكيف ان الحاكم الجديد لذلك البلد ادولف هتلر كان يعدمهم. لكن الأمر لايتعلق بالمعلومات التي اراد ان ينقلها. بل كان له ايضاً اعلان والتماس اراد ان يصرّح بهما. فبينما كان يُظهر لنا كيفية وضع مكان صناعة المنتجات التي نشتريها، طلب عدم شراء أي شيء مطبوع عليه الكلمات «صُنع في المانيا» سواء من جانبنا او من جانب افراد عوائلنا. كذلك اعلن بأنه تم تنظيم مقاطعة على نطاق واسع بطبيعته – أي انه لن يتعامل أي تاجر او مصدّر - مستورد يهودي مع المانيا او يروّج لبضائع مصنّعة هناك.

لقد أُخِذ التماس داود افندي بشكل عام على محمل الجد وعلى الأقل نحن الأولاد امتنعنا عن شراء أي قرطاسية مدرسية المانية الصنع. اثبتت المقاطعة عموماً فعاليتها بطريقتها الصغيرة جداً، لأنه من الناحية الافتراضية تركّزت صادرات البلد بشكل عام، وارداته، وتجارة الجملة بأيادٍ يهودية. على اية حال، هناك تذمر من جانب المسلمين الأكثر وعياً والمجاميع القومية العربية. تحتوي سجلات الوقت الخاصة بوزارة الخارجية الألمانية على تقارير مرسلة الى برلين عن طريق مبعوث المانيا في بغداد للتعامل مع هذا الموضوع. ورشح بأنه في تشرين الأول عام 1933 كانت الدوائر العربية المسلمة تُظهر علامات استياء ضد المقاطعة. ومن غير المؤكد ما اذا كان الاستياء، الموجّه اساساً ضد اليهود، كان سببه حقاً المقاطعة او حتى مرتبط به.

المبعوث الألماني، في تقرير الى مراجعه في برلين مؤرخ في 25 تشرين الأول، 1933، اخبر مراجعه بأن الأغلبية المسلمة اصبحت معادية لليهود علناً وبشدة في اعقاب تزايد هجرة اليهود الألمان الى فلسطين. ونقل المبعوث عن برقية مرسلة الى المفوضية الألمانية عن طريق جمعية الشبان المسلمين في 23 تشرين الأول من السنة نفسها احتجاجاً على تنامي عدد تأشيرات الدخول التي تمنحها السلطات الألمانية الى مواطنين يهود المان للسماح لهم بالهجرة الى فلسطين من خلال السلطات البريطانية. في تقريره، عبّر المبعوث الألماني عن ارتياحه من حركة الاحتجاج هذه، على اساس انها ساعدت في تمثيل البريطانيين بوصفهم العدو الرئيس وبالتالي بوصفهم ملتزمين لجعل

اتفاقية عراقية-انكليزية صعبة المنال. اوضح المبعوث هذا الأمر، على اية حال، بأن الجاليات اليهودية في بغداد، والبصرة، والموصل لم تُضرب او تُذكر في المقالات الصحفية المنشورة احتجاجاً على هجرة اليهود الألمان الى فلسطين.

انشقاق في الجالية

ان الدعوة لمقاطعة جميع السلع المصنوعة في المانيا لم تكن المرة الأولى في تجربتي كصبي حيث اتخذ يهود بغداد ماكان يعرف بموقف طائفي جماعي. قبل بضع سنوات، عندما كنا نعيش في الحي اليهودي تحت التكية، تطور انقسام عظيم وصاخب جداً ضمن الجالية اليهودية، مصحوب بحملة غير مسبوقة من التشهير والسب، المزاعم والمزاعم المضادة، وتهم بـ «الردة»، والصلوات من اجل ادانة الـ «الهراطقة» في المعسكر المعارض. كانت الضجة تُسمع في كل بيت يهودي في جميع الأحياء ذات الأغلبية اليهودية – تحت التكية، و حنوني، و ابوالسعد، و كوجة بحر، وغيرها. وكطفل شاهدت هذه الحوادث بدون ان اعي حول ماذا كانت كل هذه الجلبة. بعد ذلك بعقود، عندما كنت اعمل في كتابي عن تاريخ يهود العراق، تمكّنت من فهم شيء ما يشبه القصة الكاملة.

يبدو ان كل هذا قد بدأ في وقت ما اواسط العشرينات لكنه لم يصل ذروته الاّ في بواكير الثلاثينات. وكونه بشكل رسمي يدور حول انتخابات الحبر الأعظم، كان هذا الشقاق يمثّل شيئاً ما اعمق ونتائجه كانت وفق ذاك بعيدة المنال، مع ازدياد تنامي ضعف الجالية اليهودية وتقييد القوى التي تدير شؤونها الخاصة.

ما حدث هو انه في اواخر العشرينات اخذ جيل جديد بالكامل من اليهود العراقيين، اغلبهم خريجو مدارس التحالف المختلفة، بالبحث عن تنصيب حبر اعظم (حاخام باشي) وقيادة طائفية اكثر تقبُّلا للمفاهيم والعادات العصرية. المقرَّر الوحيد المفتوح لهؤلاء هو اختراق مؤسسات الجالية والعمل من اجل التغيير من الداخل. بدؤوا باختراق «المجلس الجسماني» lay council، تاركين القضايا الدينية تماماً لأعضاء ما يسمّى بـ «المجلس الروحاني» spiritual council. واستطاعوا القيام بهذا بالعمل الجاد، طوال فترة العشرينات، من اجل انتخاباب اعضائهم الى المجلس الجسماني – وفي اوائل الثلاثينات تمكّنوا من تأمين إقالة الحبر الأعظم، عزرا دانگور، مستبدليه بالحاخام ساسون خضوري بوصفه حبراً اعظم ورئيساً للمجلس الروحاني.

لكن اعضاء المجلس الروحاني عارضوا الانتخابات بشدة. وفضلاً عن الاعتراض على طريقة إبعاد دانگور من رئاسة المجلس، كانوا يرون خضوري متساهلاً بشكل خطير بقضايا الالتزام الديني والحفاظ على الهالاخا (القانون اليهودي). ولعدم قدرتهم على منع انتخاب خضوري بوصفه الحبر الأعظم الجديد، لجأ المحافظون الى نص القانون، الذي مكّنهم من تعيين حاخام اذا ما رغب بذلك. واستمروا بتعيين الحبر الأعظم، على اساس انه كان يحمل اراء غير تقليدية بشأن التوراة. وكانت النتيجة، حسب اعتقادهم، بأن خضوري لايمكنه الاستمرار كحبر اعظم لأنه وُجِدَ بأنه غير ملائم لكي يكون حبراً في المقام الأول. على اية حال، برغم انهم على وجه التحديد كانوا يتصرفون وفق

حرفية القانون – في هذه الحالة مرسوم عثماني قديم – فإن عملهم تمخّض عن اضعاف اكبر لسلطتهم و، في نهاية المطاف، [تمخّض] عن حرمان المؤسسات الطائفية بشكل عام من الكثير من قوتها في ادارة شؤون الجالية.

بالنسبة لما حدث هو انه، استجابة الى حد كبير لمناشدات للأعضاء «االمتغرّبين» Westernized في المجلس الجسماني، سنّت الحكومة قانوناً جديداً عام 1933 ينظّم شؤون الجالية اليهودية. بموجب هذا القانون، يمكن للشخص العلماني ان يترأس الجالية وليس من الضروري ان يكون حاخاماً معيَّنا. علاوة على ذلك، لابد لرئيس الطائفة المنتخّب ان يصادق على انتخابه مرسوم ملكي. ولذلك اصبح ساسون خضوري رئيس الطائفة وحاخامها الأعظم، برغم الاحتجاجات والصرخات واللعنات والمظاهرات الموجّهة ضده.

من تلك النقطة فصاعداً، اصبح الحبر الأعظم من الناحية العملية موظفاً حكومياً ولم يعد يشعر بأنه مرتبط بالولاء لممثلي الطائفة. اما الإصلاحيون، من جانبهم، فقد شعروا بأنهم منعزلون عن المؤسسة التي رأوها ميتة من الناحية العملية ومغالِطة تاريخياً.

الفصل السابع

نحن و الإنهيار الإقتصادي الكبير

لا اعرف كيف تعمل هذه الأشياء – ولا [يعرف]، كما اشك، حتى الاقتصاديون المحترفون. في السنوات التالية، طبعاً، علمت بالانهيار الكبير عام 1929؛ لكن فيما بعد حدث ذلك في ارض قصية ولأشخاص موسرين. ان الآثار الدقيقة التي خلّفها ذلك الانهيار على جالية تجارية بدائية، صغيرة في بلدة صغيرة مثل بغداد – الحقيقة هي انه من الممكن وجود مثل هذه الآثار – كانت دائماً شيئاً ما ملغزاً بالنسبة لي. وتبقى الحقيقة، على اية حال، بأنه لم تمرّ سوى سنتين بعد الإنهيار، وفترة زمنية طويلة نوعاً ما بعد زواج اخي إلياهو، حتى بدأ الركود الاقتصادي يأخذ اثره بين افراد المجتمع التجاري في بغداد.

إلياهو، من ناحية، افلسَ (طلع خاسر) وتمكّن بنسبة معينة من تسويةِ ديونه المتراكمة مع ما يمتلكه وما يُفترض ان يدفعه من النقد. بعد ذلك بفترة قصيرة، اشهر افلاسه رسمياً. وكانت احدى النتائج أنه اضطر الى ايجاد ايجار سكن آخر أرخص، ابسط بكثير من السكن الذي كنا نملكه.

انه في منزل آل گباي، الكائن في حي العاقولية الراقي، اشهرَ إلياهو افلاسه رسمياً وعليه ان يقضي مدة معينة في السجن. في وقت المحاكمة، كان إلياهو خجلاً جداً وشعر بالضعة لدرجة انه حاول ان يُنهي حياته، بطريقة بدائية جداً بالشرب من قنينة بنزبن – انتزعها الوالد وبدأ يشرب محتوياتها بنفسه. ومن بين الأشياء غير اللائقة التي حصلت لنا هناك، في وقت كانت فيه اعصاب كل شخص متوترة، انه ذات مرة جُنَّ جنون الوالد على شيء كانت سمحة – التي تصغرني بثلاث سنوات – قد قامت به لدرجة انه حاول ان يخنقها بيديه.

بحلول ربيع عام 1932، اضطررنا الى الإنتقال من منزل گباي الى بيت راحيل، الواقع في حي تحت التكية الأكثر فقراً. واضطررنا ان نحشر انفسنا في غرفة واحدة كبيرة مطلة على الشارع الضيق، والتي كانت تؤدي الى عائلة اخي، وعلّية صغيرة، فوق الغرفة التي يستخدمها ناجي الابن الأصغر لمالكة الأرض. في بيت راحيل بالذات بدأت قصة رومانسية بين ناجي واختى الكبرى نجية.

بعد فترة بضعة اشهر من التعاسة والفقر المطبق عقب اطلاق سراحه من السجن، درج إلياهو على قضاء ايامه في احدى المقاهي في المركز التجاري، عادة قهوة موشي – وتدريجياً دخل في تجارة المضاربة، بالعمل وسيطاً بين تجار الجملة والمورّدين من ناحية وتجار المفرد من ناحية اخرى، في خطه الخاص في دكانه لبيع لوازم الخياطة. واخيراً، استطعنا ان نترك بيت راحيل والانتقال الى ديوان خانة، ذلك الجزء من البيت بُني اصلاً لسيد المنزل وأصدقائه من الذكور، في بيت ابوالجص مقابل شارع المتنبي الراقي والفسيح جداً. كان هذا بناء من طابقين مع فناء داخلي فسيح وقطعة صغيرة وقفتْ في وسطها شجرة تين او شجرتان وكانت تعطي ثمارها في الموسم.

نجية وناجي

بعد فترة وجيزة من انتقالنا الى بيت ابوالجص اخذ الأب يمارس سلطته الأبوية بسبب ما حصل في المرة السابقة. حدث هذا عندما تمكّن من ايجاد طريقه في مسالة زواج نجية. ذات يوم زارنا ناجي بشكل مفاجيء، طالباً الحديث مع الوالد. وحدس كل شخص ما كان يدور في خلد ذلك الشاب. من المؤكد، بعد انتقالنا من بيت راحيل لا احد يعرف بالضبط ماذا جرى – إن حدث شيء – بين الاثنين، برغم ان الجميع كانت تتملّكهم الشكوك. اذ ما من احد كان يعرف على وجه اليقين اين كان يرى احدهما الآخر – اذا ما استمرّا في قيامهما بذلك – وماهي طبيعة علاقتهما. يبدو ان نوعاً من التواصل كان مستمراً بسرية بالغة، و – هكذا هي معايير تلك الأيام و [معايير] ذلك المجتمع – ذلك بحد ذاته استبعد بشكل تلقائي تقريباً اية فكرة لعلاقة حقيقية في الماضي ام في المستقبل.

وهكذا حينما جاء ناجي اخيراً – بمفرده تماماً، بدون أي خاطب، او قريب كبير السن، او نسيب مشترك – ليطلب يد ابنته للزواج، رفض الوالد رفضاً قاطعاً. لقد كان لجوابه صدى غريب من القطعية بحيث مازلت اتذكره بشكل واضح. اذ اكّد للخاطب الشاب بأننا لا نبحث عن زوج لابنتنا، «لا انت ولا أي شخص غيرك». وما اغاضني في ذلك الحين هو اننا، كأمر طبيعي، لابد ان ندعو لقرين مناسب، وأن ذلك الشخص المفتَرَض لم يكن سيئاً على الإطلاق. عند التفكير بما حدث في السابق، اعتقد بأن ما اغضبَ الوالد هو الشك بوجود شيء ما خطأ ومشين بشكل غامض حصل بين الإثنين – وتلك لم تكن الطريقة الصائبة للشباب في الدخول الى عش الزوجية المقدس.

لابد ان تلك كانت تجربة مريرة بالنسبة لناجي، الذي كنتُ سأعقد معه ارتباطاً خاصاً في السنوات اللاحقة. برغم انها لم تذكر [أي نجية] تلك الحادثة على وجه التحديد، كان باستطاعتي ملاحظة مرارتها وندمها، التي كانت كافية جداً بحيث ظهرت بشكل اكثر صراحة في موقفها تجاه تصرّف النساء الشابات في اسرائيل ايام السبعينات. ذلك التصرف، لاسيما في قضية الشابات العراقيات والشرقيات، وطرقهن «الحديثة» ونشاطاتهن قبل الزواج، كان من الممكن ان يبدو بسهولة شهوانياً وكان سَيُدان بوصفه لا اخلاقياً ويستحق العقاب حتى في اواخر الخمسينات. على اية حال، كلما اثير الموضوع، سواء فيما يتعلق بسلوك شابة ما من العائلة او [سلوك] بعض الأصدقاء او الجيران، كانت نجية تقول شيئاً ما من قبيل لماذا، مهما كلف الأمر لندعْهم يعيشوا حيواتهم الخاصة بهم، لندعْهم يتمتعوا بسنيّ شبابهم ... . كانت واضحة جداً بالنسبة لموضوع يتعلق بمَن في العائلة له الحق ان يقرّر مَن هو الذي ستتزوجه البنت الشابة، وموقفها المتحرر على الأغلب، كان مختلفاً تماماً بقدر تعلق الأمر بالرجال والنساء من ابناء جيلها.

ليس من السهل وصف العلاقة بين نجية وناجي بأي شيء شبيه بالعبارات العصرية. لم يكن هناك شك بأن الإثنين كانا منجذبين الى بعضهما البعض، ما يرقى في يومنا هذا الى ان يكونا «يحبان» احدهما الآخر. ان الأسباب وراء عدم التصريح بأنهما «وقعا في حب» بعضهما البعض، على اية حال، كانت اجتماعية اكثر منها عاطفية او نفسية. في بغداد تلك الأيام، كان الوقوع الحقيقي في الحب – عبر التفكير بهوسٍ بالمحبوب، وهذا شيء ما في اسلوب، لنقل، شاب غوثه غير المحظوظ،

فيرتر – [كان] شيئاً ما اقرب الى البلاء الجسدي والعقلي، أي السقم. بالفعل، في الميثولوجيا الشعبية عبر الأزمان، بين اليهود والمسلمين على حد سواء، فقط بوسع السحر، والشعوذة، التي يقوم بها عرّاف متمكّن او مشعوذة متمكنة، ان يتمخّض عن مثل هذا الإنهماك المجنون، الذي غالباً ما كانت ضحاياه تنتهي بشكل ثابت في الشماعية [مستشفى المجانين]. مالم، طبعاً، يتم التوسل بسحرٍ مضاد فعّال من لدن صانع معجزات اكثر مقدرة.

موت في العائلة

اصيبت العائلة بفاجعة اليمة عندما كنا نعيش في الديوانخانة في بيت ابوالجص. اذ ان امرأة اخي هيلا، التي حملت لأخي بنتين، انجبتْ ولداً. كانت البهجة عارمة وكل شخص تبادل التهاني مع كل شخص آخر، وهم يتحدثون عن بشائر الخير والحظ الجيد ودعوا بأن هذا المولود الذكر سيتبعه ستة اولاد آخرين، محروسين من عين الشر، وما الى ذلك من التمنيات القلبية. ان البرت brit – او الميلا el mila كما كان يدعى في العامية اليهودية المحلية – لم يكن احتفالاً لأن إلياهو لم يشفَ بعدُ من الإفلاس الذي حصل قبل بضع سنوات.

طيلة الأشهر القليلة الأولى بدا الطفل معافى كأي طفل حديث الولادة. لكنه مَرِضَ فجأة بعد ذلك، وتوفي في ظرف ايام. اتذكر الطبيب الذي تمّ استدعاؤه ليفحص الرضيع – بغض النظر عن التكلفة العالية – الاّ انني لا اتذكر انه اعطى تشخيصاً واضحاً ولم يعرف أي احد الطبيعة الدقيقة لمرضه. كان حزن اخي كبيراً، وأتذكر انه كان يئن ويتمنى لو مات بدلاً عنه. لكن الموقف العام وفحوى التعازي التي تقدّم بها الأقارب والأصدقاء كانت تكمن في انه طالما الوالدان على قيد الحياة وأصحّاء، فإن الله سيعوضهم عن الخسارة الفادحة.

وهكذا حدث، على اية حال، انه اثناء السنة نفسها، ليس قبل وفاة الرضيع بفترة طويلة، مرضت الأم واضطرت الى اجراء عملية في مستشفى مير الياس. وبرغم انها لم تشفَ تماماً من تلك العملية، التي ارتكب خلالها الجرّاح خطأ فنياً سخيفاً، عادت الى البيت سليمة ومعافاة. ان مرض الرضيع ووفاته حدثت ليست بفترة طويلة بعد خروج الأم من المستشفى و، كون زوجة اخي كانت الأكثر تطيُّرا حتى من النساء اليهوديات عموماً في بغداد في تلك الأيام، تمكّن بعض الاصدقاء والاقارب من اقناعها بأن هناك نوعاً من العلاقة بين مرض الأم وشفائها من ناحية وموت الرضيع من ناحية اخرى. النظرية هي انه كان يمكن تفادي موت الطفل لو كان هناك قربان للأم عندما اجرت تلك العملية – أي نحر خروف او حتى دجاجة لهذا الغرض كقربان. وفي غياب هذا القربان، «أختير» الطفل ليكون ذلك القربان وبهذا كان موته لابد منه. وتأوهت السيدة الطاعنة في السن اخيراً التي وصفت كل هذا بتفصيل ممل، مضيفة شيئاً ما الى التأثير بأنه كان يمكن تجاوز الأسى والدموع لو فكرنا بذبح ولو دجاجة للأم عند مغادرتها المستشفى.

لا حاجة للقول بأن سبب وفاة الطفل كان مسألة طبية محضة. في تلك الأيام في بغداد، كانت الولادات تحدث عموماً في البيت. حينما يحين الوقت، يهرع الزوج الى جلب قابلة الحي، وهي تقوم

بكل شيء. وبالإعتماء على معايير اليوم، على اية حال، فإن الأساليب المستخدمة كانت بدائية جداً وأن معدل الوفاة العالي نسبياً يُنظر اليه الآن على انه ناجم عن نقص النظافة وغيرها. احياناً، في بعض احياء المسلمين، حينما يعلق الطفل ولم تنفع كل محاولات القابلة، يأتي احد مؤذني الجوامع المجاورة للمساعدة، ويقفز حسب الأصول الى اعلى المنارة ويصرخ، «ياقريب الفرج، ياعالي بدون درج، عبدتك بشدة وتطلب منك الفرج».

لابد اننا كنا في ضائقة مالية حقيقية اثناء هذه الفترة – والاّ كنا متلهفين الى كسب شيئ قليل من المال لتخفيف موقفنا. ذات يوم في الصيف التالي، جاء اخي من السوق مع مقترح جديد: شابان محليان يهوديان مغامران كانا يبحثان عن مكان يمكن ان تعلّب وتحمّل فيه بشكل صحيح بضاعتهم. عرضا ما كان يبدو حينها بنوداً كريمة جداً – مبلغ لابأس به من المال يُدفع نقداً زائداً حقيبة مملوءة بالسمك للعائلة.

لايهم مقدار الفوضى التي خلقاها والرائحة الفظيعة والضوضاء التي يُصدرها العمال والحمالون وتكسّر كتل الثلج الى قطع صغيرة من اجل تعليب السمك بشكل صحيح ووصوله الى فلسطين قبل ان يتحلل؛ لايهم ايضاً مقدار التنظيف الذي لابد من القيام به في الباحة الداخلية حيث لابد من القيام بجميع الأعمال. كان هناك المال والسمك وهذه كانت عوضاً كافياً. كان هذا يحدث مرتين اسبوعياً، لكن لم يقدّر له ان يستمر طويلاً. بعد ذلك بشهرين او ثلاثة اشهر، توقف مصدّرا السمك الشابان، إما لأنهما لم يتمكّنا من ايصال بضاعتهما على طول الطريق الى الأرض المقدسة وهي ماتزال في حالة صالحة للأكل او انهما وجدا مصنع تعليب مؤقت افضل.

انتقلنا من الديوانخانة – في اواخر عام 1933 او في ربيع عام 1934 – الى بيت يامين، وهو بيت فسيح استأجره اخي نفسه هذه المرة وأجَّر أجزاء منه الى عوائل صغيرة وأزواج جاؤوا وذهبوا بينما بقينا كمالكين افتراضيين. كان هذا اول بيت بغدادي يدخل ذاكرتي – وآخر بيت – قضيتُ فيه اكثر من ثلاث سنوات متتالية. كان يامين، الذي سميّنا المنزل باسمه، ابن خالي – الابن الأكبر لخالي يوسف. قضى العشرينات والثلاثينات من حياته يخدم في الجيش العراقي بعد تخرجه في الكلية العسكرية في العراق. يبدو انه قد تقاعد مبكراً، وأصبح عند التقاعد صيرفياً من نوع ما – إقراض النقود ورهنها وما الى ذلك.

ان البيت الذي استأجره اخي من يامين تمّ رهنه له عن طريق مالكيه المسلمين، وهم عائلة غنية ونبيلة من اصول تركية تتألف الآن من ابن ووريث عاطل على قيد الحياة – ربما هو ضابط في الجيش لكنه مسرف حسبما يتضح – وابنتين، ماتزالان غير متزوجتين برغم تجاوزهما سن العشرينات. كان عالَم الثلاثينات والأربعينات في العراق هو عالَم الرجل و، ما لم يمتلكوا عائلة او صديقات، شاءت الصدف بأن الأختين لم يمتلكا حياة اجتماعية من أي نوع ولذلك ما من سبيل مطلقاً سيجدا فيه الخطباء المناسبين. اجّر ابن خالي البيت لنا على اساس تجاري بحت لكنه تركه لنا نفعل فيه ما نشاء. إن قيّض لي ان اتحدّث عن سنوات «تكويني»، فإنني في بيت يامين قد عشتها.

في صيف عام 1934 ناهزتُ العاشرة من عمري، وحتى الآن لم أنهِ سوى سنتي الثالثة من المدرسة الإبتدائية. في ذلك الحين كان عندي اختان غير متزوجتين؛ نجية التي تكبرني بحوالي عشر سنوات، بينما سمحة كانت تبلغ السادسة من عمرها. وبحسب المعايير السائدة في تلك الأيام، كانت نجية بسنيها العشرين مؤهلة جداً للزواج، بينما لم تزل سمحة طفلة.

كرمانشاه

من بين الست سنوات التي قضيتها في مدرسة راس القرية – والتي لم اتمكن خلالها سوى من اجتياز خمس مراحل – وهذا هو اخطر شيء بالنسبة للعائلة الذي تزامن مع السنتين الطويلتين اللتين اضطررتُ فيهما الى الجلوس في المرحلة الرابعة بسبب رفضي تحضير دروسي في الجغرافيا. وبُعَيد نهاية اول هاتين السنتين، أي قبل اقل من اسبوعين من رأس السنة في صيف عام 1934، انطلقنا امي واختى الصغرى وأنا في رحلة الى كرمنشاه، لنحضر زفاف نجية، التي طُلِبت يدها للزواج لإبن خالي إلياهو، الولد البكر للخال ابراهيم.

وتمّ القران في وقت مبكر من ذلك الصيف حينما، بدون سابق انذار وبشكل مفاجيء تقريباً، جاءت سارة – زوجة ابراهيم ومن عائلة رجوان– من كرمنشاه برفقة ابنها الأصغر صيون تبحث عن عروس لإلياهو. ومن بين الحاضرين، رأت نجية، واقتنعت بها، وجرى اعلان الخطوبة. وكانت عائلة الخال ابراهيم قد غادرت بغداد واستقرّت في كرمنشاه في اعقاب زواج ابنتهم رفقة بيهودي فارسي موسر من تلك البلدة.

توصف كرمنشاه في مراجع السبعينات بأنها عاصمة محافظة كرمنشاه، 270 ميلاً الى غرب - جنوب غرب طهران على ارتفاع 4850 قدماً. يتألف سكانها الى حد كبير من الأكراد وفي تعداد عام 1966 وصل عددهم 188000. ما يميّز المدينة هو انها كانت مركزاً تجارياً وملتقى طرق وقريبة جداً من الحدود العراقية. كما انها تقع في منطقة زراعية خصبة. في عام 1967، وأنا امرّ بالمدينة بينما كنت في جولة دراسية في ايران، لمحتُ كرمنشاه وأدركتُ بأنها لم تعد تلك المدينة الصغيرة التي وصلناها انا، ووالدتي، و سمحة ذات مساء صيف عام 1934، حيث اضطررنا مكرهين ان نقضي راس السنة ويوم الغفران.

انه في كرمنشاه اصبتُ بالتهاب الرئة اليسرى الشديد الذي كاد ان يقضي عليّ. وكما يعرف الجميع، في ذلك الوقت لم يكن في كرمنشاه سوى طبيب واحد، وليس لديه سوى علاجين يعطيهما بغض النظر عما يعانيه المريض المسكين. كان هناك شربت و سهله sharbat and sihle، الأول هو عبارة عن تركيب يمتلك مادة شبيهة بما يُعرف الآن بالاسبرين بينما الثاني هو مادة مهضِّمة قوية جداً ولا يمكن بلعها يُفترض انها تنظف المعدة تماماً.

على نحو جلي، لايهم كم هما نافعان ولأي شيء يكونان نافعَين، فإن هذين الدواءين لم يُقصد من ورائهما شفاء شيء ما خطير جداً مثل ذات الرئة، اذ كان يُترك كل شيء تماماً للقدر إن كنت سأتعافى من مرضي. على اية حال، بعد ليالي قليلة بلا نوم وآلام مبرّحة فضيعة بدأت اشعر

بالتحسن – والفضل يعود جزئياً، اذا جاز الكلام، الى بعض أساليب العلاج البدائية مثل تدليك المريض والجانب المؤلم من الصدر والبطن بزيت نباتي حار. لكن ذلك استغرق وقتاً لا بأس به لأستعيد قوتي.

التأمل في نصيب المرأة

عند عودتي الى بغداد، بعد اسبوع او اسبوعين من بدء السنة الدراسية، وجدتُ نفسي، طبعاً، جالساً في الصف نفسه الذي جلستُ فيه في السنة الماضية. كانت تلك السنة ببساطة اسوأ سنواتي المبكرة في المدرسة، سيئة جداً كما كانت جميعها هكذا. لا اتذكر انني قمتُ بأي واجب بيتي، ولا حتى في الأيام السابقة للإمتحانات. ليس لأنني قد قمتُ بأي شيء من هذا النوع في السنوات الأولى، لكن طالما تزداد المواد من حيث عددها ونطاقها فإنه لم يعد ممكناً الإعتماد بشكل كلي على ذاكرة جيدة.

كما ان الأشياء في البيت تبدو غير مشجعة، بسبب الخصومات المستمرة على ما يبدو بين الأم و هيلا على ما كان يبدو اسخف وأتفه القضايا. والأسوأ من هذا، وجدتُ انني اقف الى جانب والدتي، وأحياناً اتدخل بملاحظة او التماس. ان وفاة الطفل والمشاعر المشتركة من الفقدان والحزن ربما ساعدت في جعل هذه الخلافات الكلامية اقل مرارة وأقل حدة، الاّ ان ذلك كان وقتياً ليس الاّ. وحتى بعد زواج نجية، وقلة عدد الأفواه بشخص واحد، وقلة الزحام، وقلة المصاعب، وقلة الثرثرة والتشكّي، فشلت من الناحية المادية في تحسين الموقف.

وإذا اصبحت الأمور في البيت غير مشجعة، بدأ العالم في الخارج يجذب المزيد من انتباهي. وإثناء السنة الإضافية الطويلة التي تحتَّم عليّ قضاؤها في المرحلة الرابعة، حينما استطعتُ قراءة اللغة العربية بطلاقة كبيرة وعرفتُ عبارات قليلة وتبريكات في العبرية، اشتملتْ قراءتي على نحو خاص على الأعمال المخصصة للكبار. في سن الحادية عشرة او نحوها تنبهت لوجود الصحف والمجلات ومختلف صنوف الكتب، لاسيما الروايات التاريخية. في الحقيقة، لا اتذكرانني وضعتُ يدي على كتاب للأطفال، وبوصفي طفلاً صغيراً لم امتلك مطلقاً اية لعب او العاب – وفيما بعد حينما كان الأولاد في سني يملؤون الحي بصراخهم ويلعبون مختلف الألعاب التي اعتاد الأولاد لعبها، كنت قلما اشترك معهم وفي المناسبات النادرة جداً التي انظمُّ اليهم كنت أضرْب على الأغلب وبالتالي اصبح موضعاً للهزء والسخرية. طفولتي، حسبما ادركتُ مبكراً في التصرفات، كانت طفولة مفقودة.

في المسائل الجنسية، ايضاً، جاء النضج مبكراً نوعاً ما، فلمسة او حتى مجرد رؤية نساء شابات يكبرنني بعشر سنوات او اربع عشرة سنة كان كفيلاً بإحداث موجات من الإهتياج الجسدي والإثارة المناسبة. ويبقى هذا مصدر دهشة بالنسبة لي، وأنا انظر الى الوراء الآن بعد عدة سنوات وهذه التغيرات الجذرية في التقاليد والمواقف، كيف بوسع صبي لا يتعدى عمره احدى عشرة سنة ان يستجمع الشجاعة – والوقاحة – في البحث عن اتصال جسدي حقيقي مع نساء اكبر من عمره مرتين او ثلاث مرات عن طريق الإمساك بهن فجأة في بعض الأماكن والمناسبات المزدحمة –

مثلاً عند مغادرة حفل زفاف او حدث ما آخر يقام في مكان عام، عادة مدرسة او كنيس، او الوقوف في طابور للحصول على تذاكر سينما، او يتم إمساكهن في اسواق مكتضة. لكن هذا كان الى حد ما يتعلق بكيفية مقدرتي على ان اشبع حاجاتي الجنسية المحدودة في تلك المرحلة من حياتي.

عندما انظر الى الوراء، لا يسعني الاّ ان اتساءل ما الذي احدثَ مثل هذه التجاوزات والمضايقات الكبيرة التي يجري التغاضي عنها في غفلة، وبلا عقاب، ومن المحتمل من دون ان يلاحظها احد. الجواب، حسب اعتقادي، لابد انه يتعلق بالموقف العام من النساء في تلكم الأيام والقيود الصارمة المفروضة في ذلك الحين على كل ايماءة او حركة منهن – لباسهن وقصة شعرهن والمكياج الذي يستخدمنه، وحتى الطريقة التي يتحدثن بها ويعبّرن فيها عن انفسهن. بشكل ما، فعلاً، كانوا يتعاملون مع النساء بطريقة تجعلهن صيداً سهلاً لأقل اثارة. فالأمرأة التي تلبس بطريقة ما، والتي تُظهر شعرها، وتضع المكياج على وجهها، وتصبغ شفتيها بكثافة والأقراط المغرية، و تخرج بلا حجاب، وتسير بحذاء ذي كعب عال – مثل هذه الأمرأة تصبح عرضة لتكون موضع ليس فقط صفير وصراخ الإعجاب والإشارات الشهوانية ولكن ايضاً ستكون موضع تحرّش كلامي صريح وحتى جسدي.

بهذا الصدد من المهم ان اورد قضية المسافرات الأجنبيات في العراق تقريباً في نفس الوقت الذي اكتب فيه عن هذا الموضوع. في وقت ما في اوائل الثلاثينات، اصدرت وزارة الداخلية العراقية امراً ادرايا موجَّها لـ«السيدات الأوربيات والأمريكيات في العراق» وبضمنهن ما كان يوصف بـ «تعليمات بخصوص السكن والسفر».

تم إصدار التعليمات لمصلحة «السيدات الأوربيات والأمريكيات والسيدات ذات المكانة الإجتماعية والوطنية المتشابهه»، وتمّ توضيح بأن السيدات اللواتي لا يلتزمن بالتعليمات اعلاه «يكنَّ عرضة لإلغاء تأشيرات دخولهن».

ومن بين الأشياء التي من غير المفترض ان تقوم بها هذه السيدات المسافرات هو التنقل بدون مصاحبة احد، ويهتم الأمر بإضافة انه «يقال بأن السيدة تكون «مصحوبة» حينما يسافر معها فرد اوربي او امريكي من الطبقة الاجتماعية والوطنية نفسها ومن الذكور.»

وهكذا. وقد حفّز هذا احدى السيدات على ارسال رسالة الى محرر الصحيفة الناطقة بالانكليزية، بغداد تايمز، التي كتبتْ فيها، من بين امور اخرى:

مالمقصود بالضبط بعبارة «مكانة اجتماعية مماثلة؟»

من الصعب جداً، في هذه الأيام، تعريف كلمة «سيدة»، لكن عندما ينبغي لها ان تمتلك مكانة اجتماعية ماثلة ايضاً، فإن الأمر يصبح مستحيلاً بدون مساعدة تعريف رسمي واضح.

وهذا موضوع هام جداً، كوني فهمتُ من الوثيقة المذكورة آنفاً بأنه اذا لم تكن هي سيدة، ولا تمتلك اية مكانة اجتماعية على وجه الخصوص، فإن السلطات لاتهتم حقاً بما سيحلّ بها ....

اعتقد بأنه قبل قبول اية دعوة ربما تقدَّم لها، فإنها يجب كذلك ان تكون متأنية في تدقيق المكانة الإجتماعية المناسبة للأوربي او الأمريكي الذي سيرافقها. وهذه مسالة قضائية دائماً، لاسيما عند السفر الى الخارج – ولا يمكن التوصية بها بشكل متأنٍ جداً. لكن اشارات قليلة حول كيفية اتخاذ قرار بشأن قضية كهذه في وقت قصير ستكون مفيدة جداً. فالجوارب وربطات العنق وطريقة اكسفورد هي عرضة لأن تكون مضللة، ويحبّذ اجراء اختبار قصير يمكن تطبيقه بسرعة متى ما تدخل النزهة او الرحلة حيّز النقاش.

الچِفِل - الكِفِل

المرة الثانية التي زرت فيها ايران كانت حوالي 35 سنة بعد بقائنا في كرمنشاه. وإثناء جولة دراسية في ايران في ربيع عام 1967، توقفت مجموعتنا يوماً واحداً في مدينة صغيرة ذات مسجد كبير وقديم. كان المكان رائعاً وأخَّاذا، وبعد ان خلعنا احذيتنا، دخلنا. وبعد سرد تاريخ المسجد وبعض التفاصيل الأخرى، اشار مرشدنا الفارسي الى قبر شاخص في منتصف الباحة المفتوحة ويتضح بأنه مصان جيداً. قال، «وهناك يكون ضريح النبي حسقيل عليه السلام.»

كنت العضو الوحيد في المجموعة الذي جاء من العراق – لذا صدمتني المعلومات ايما صدمة. لم يكن هناك، طبعاً، أي شيء لافت بشأن نبي يهودي من العهد المبكر من المنفى البابلي المدفون في أي جزء من الإمبراطورية الفارسية، التي كان العراق يشكّل جزءً مهماً. لكن الأمر بالنسبة لي كان مختلفاً؛ اذ انني كنت اعرف بأن قبر النبي حسقيل يقع في مكان مقدّس ليس بعيداً عن بغداد يُعرف لدى اليهود والمسلمين على حد سواء بإسم الچفل. لكن لم تكن هناك جدوى من اثارة المسألة في ذلك الوقت ولذلك لم يسمع الصحبُ همهمات دهشتي. كنت دائم التساؤل بأن ثمة ضريحين للرجل نفسه! حتى لو صادف بأن الرجل معترف به نبياً!

كنت زرتُ الچفل مرة واحدة فقط، كصبي صغير. والسبب وراء عدم اصطحابي بانتظام يتعلق، حسب اعتقادي، بالمصاريف المترتبة على ذلك. في الديانة اليهودية هناك ثلاث مهرجانات للحج – عيد الفصح، وعيد الزيارة، والمعابد - الاّ ان تقاليد يهود العراق كانت تقضي بأن الحج الى الچفل كان يتم اثناء عيد الزيارة، وبهذه المناسبة درجوا على تلاوة لفافة حسقيل. كان هذا التقليد قديماً جداً وراسخاً لدرجة ان اسم العيد نفسه اصبح عيد الزيارة. لكن الحج كان ينطوي على بعض المصاريف، ذلك لأنه يتطلب اكثر من يوم ولابد من اعطاء الصدقات، ودفع مصاريف السكن، وشراء الطعام وإعداده. وهذا لا يعني بأن الفقراء من اليهود لم يقوموا بذلك الحج؛ اذ انهم كانوا يقومون بذلك، وكانوا ينامون عادة في العراء او داخل الباحة الخارجية للضريح وربما كانوا يعيشون على بقايا وجبات الطعام التي كان يعدّها الموسرون. اذن الأمر هو ان عائلات من مكانة

معينة و«نسل» معين، برغم انها يمكن ان تعدّ الأفقر مادياً، لم تستطع تحمل منظرها وهي تتصرف كعوائل معدَمة.

وهكذا لم تسنح لي فرصة اخذ نظرة فاحصة للضريح في الچفل. في اوقات لاحقة بدأتُ اندم على ذلك، لأن المكان يمتلك أبهى تاريخ وحتى اسمه له تأثير على موضوع كنت استغرق في التفكير فيه طويلاً – لاسيما العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين اليهود والمسلمين في الشرق الأوسط عموماً وفي العراق بشكل خاص.

ليس معروفاً بشكل عام بأن إسم الچفل مأخوذ مباشرة من القرآن، الكتاب المقدس لدى الإسلام. النبي حسقيل مذكور في القرآن مرتين، ولكن ليس بالإسم في كلتا الحالتين. في سورة 21، الأنبياء، آية 85، الله يأمر نبيه: «و[اذكر] اسماعيل وادريس و ذا الكفل كلّ من الصابرين». وفي سورة 38، سورة ص، آية 48، الله مرة ثانية يأمر محمد: «واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار». في الحواشي المرفقة بإسم «ذو الكفل» في كلتا الحالتين، يصرّح المترجم الانكليزي للقرآن، بكثول، بأنه: « نبي مشهور بين العرب، الذي تشبه قصته قصة حسقيل».

ان استخدام لفظة «ذو الكفل» بدلاً عن اسم النبي يرجع الى ان حسقيل كان معروفاً بذلك الإسم، الذي عند ترجمته ترجمة حرفية يعني «الشخص الذي يكفل». بطبيعة الحال، اكتسب حسقيل اسمه خلال النبوءة التي قام بها والتي تكفّل فيها للمنفيين البابليين مصالحةً مع الله واستعادة اورشليم خلال عودتهم. انه حسقيل الذي، وسط المزاج العام من القنوط المتنامي وانعدام الأمل، واجه بنظرته للعظام اليابسة، وهو تعبير رمزي عن الإيمان والأمل في إحياء اسرائيل الأخير. ان الظروف الدقيقة التي مرّ فيها الإسم «ذو الكفل» من المسلمين الى يهود العراق، والإجابة عن السؤال المتعلق بذلك فيما اذا كان دعاة القرآن انفسهم لم يستعيروا التسمية من يهود الجزيرة العربية، غير معروفة بشكل مباشر. مازلت اجد من المثير بأن يهود العراق لابد انهم استعاروا الاسم من الكتاب المقدس لدى الاسلام.

كنت دائماً اتساءل ماذا يقرأ المسلمون في هذه الحادثة المثيرة – وما اذا كانوا عارفين بها بالمرة. لذلك انا مندهش ان ارى بأن ثمة نوعاً من الجدال كان يدور بشأن الموضوع ليس قبل فترة طويلة على الأقل في صحيفة عربية واحدة. في عددها في الأول من آب، عام 1981، نشرت صحيفة السياسة الكويتية مقالة بقلم احد كتّاب اعمدتها، حسن العلوي، وهو لاجيء عراقي، يحمل عنواناً غريباً: «هل حسقيل مسلم ام يهودي؟» فحوى هذا الموضوع هو ان الله، بذكره حسقيل ومدحه اياه بأنه «من الأخيار» اسوة برجال صالحين آخرين، اظهر بعض الإنحياز لصالح اليهود – سيما وان حسقيل أعطي الإسم «ذو الكفل» لأنه وعدهم بالعودة الى اورشليم والبعث. ولأنه لا يمكن التفكير بهذا، المحَ العلوي الى ان حسقيل ربما كان في الحقيقة مسلماً وأن المكان حيث يوجد فيه ضريحه هو مسجد وليس مكاناً مقدساً يهودياً.

ثم يروي العلوي قصة الحاج ضرب، الذي يدعي بأنه كان «محافظاً» لمدينة الچفل في ايام السلطان العثماني عبدالحميد. هذا المسلم الطيب، الذي ازعجه حج اليهود الجماعي الى الضريح، كتب الى الوالي محتجاً على ان ذلك المكان هو مسجد، وتشهد على ذلك المنارة التي منها استمر المؤذن يرسل دعواته للصلاة. الوالي عندها ارسل احد مرؤوسيه ليستجلي الأمر شخصياً. لكن هذا المسؤول، بعد رشوته بسخاء من جانب اليهود، جلس، في ظل المنارة ذاتها، وكتب تقريراً يشهد بأن لا وجود لأية منارة في المسجد في الچفل! على اية حال، رفض الحاج الطيب ضرب الإستسلام، وكتب على عجل الى الوالي قائلاً له بأن تقرير مرؤوسه كان مفبركاً وبوسع الوالي نفسه ان يأتي ويرى بأن منارة كانت بالفعل تقف هناك.

لم يأتِ الوالي لكنه ابلغ الأمر الى رؤسائه في اسطنبول، الذين قرروا ارسال بعثة خاصة للتحقيق في ادعاء الحاج الطيب. لكن البعثة تمّ شراؤها بالرشاوى، «ومن المحتمل عن طريق نساء ايضاً»، وأثبت اعضاؤها بشدة خطأ التقرير السابق للمسؤول العثماني – وهذه المرة من دون ان يصلوا الى الموقع. وهكذا أرسل التقرير الى السلطان: لاتوجد منارة في مسجد الچفل! اخيراً توفي السلطان وتوفي المسؤولون المرتشون وتوفي الوالي – ولا احد الآن يتذكر الحاج ضرب الطيب الذي قاتل بمفرده في سبيل عروبة الچفل وإسلام المسجد. ويختتم العلوي، «اما بالنسبة للمنارة، فهي ماتزال شاخصة هناك».

وهذا حفّز داود خلاصجي، وهو يهودي عراقي يعيش في لندن، ان يعطي ما يزعم انه الجانب اليهودي من القصة. ويرشح – طبقاً لهذه الرواية من القصة – بأن منارة فعلاً كانت مبنية هناك، بأوامر من السلطان اولكايتو نفسه الذي امر بإعادة اعمار البناية. بنيت المنارة كعلامة احترام للنبي محمد ولم تُستخدم قط لدعوة المسلمين للصلاة. وبالنسبة للإدعاء بأن وفد عبدالحميد فشل في الوصول الى الچفل للتحقيق في الأمر كنتيجة للرشاوى التي دفعها اليهود الى اعضائه، يوضح خلاصجي بأن الوفد تصرف في الطريقة التي تصرفوا فيها ذلك ببساطة لأنهم اقتنعوا بحقيقة التقرير الذي اعطاه لهم ثلاثة اعضاء بارزين من الجالية اليهودية في بغداد.

الفصل الثامن

حسقيل ابو العلوة يستأجر مساعداً

لم احصل على شهادتي الثانوية الاّ عند نهاية عام 1945، أي عندما بلغت الثانية والعشرين من العمر تقريباً. نجحت بشق الأنفس، اذا جاز التعبير، لأنه في الإمتحانات النهائية رسبت في التاريخ وبخطأ ما او بمعجزة حصلتُ على 54 في الرياضيات. ان مسالة الاضطرار الى الجلوس مرة اخرى لامتحان التاريخ في نهاية العطلة الصيفية سبّب لي مقداراً كبيراً من القلق طوال العطلة، وبالخصوص لأنني لم استطيع ان استجمع قوة الإرادة لاستعد استعداداً حقيقياً له بالشكل الصحيح. في ذلك الوقت كانت لي صداقات عديدة كما ان اهتماماتي الأدبية والفكرية قد اصبحت متنوعة جداً وطموحة لدرجة انني لم استطع ان اضع أي شيء جانباً وأذاكر التواريخ المملة، وأسباب، وعوامل، ونتائج جميع تلك الحوادث البعيدة، وبالأخص لأن الكتب المنهجية مكتوبة بشكل سيء ومنظمة تنظيماً رديئاً. اخيراً، استطعت ان اتجاوز ذلك في ما يسمى بالامتحان التكميلي، بحصولي على درجة عالية لاتصدق وهي 70.

في الوقت الذي استلمت فيه الشهادة، التي كانت فائدتها الرئيسة هي الإعفاء من الخدمة العسكرية الإلزامية مع «تهديد» غير محدد بالتجنيد في المستقبل في فيالق الضباط، فقد عملت في عدد لابأس به من الأماكن. اول وظيفة حصلت عليها، حسبما اتذكر، حينما كنت في التاسعة، وأول رب عمل لي كان رجلاً يحمل اسم حسقيل الهلالي. ولم يمضِ سوى اشهر قلائل بعد عودتنا من زفاف نجية في كرمنشاه في تشرين الأول عام 1934، حينما كنت في طور النقاهة من التهاب ذات الرئة الفظيع، حتى دخل الهلالي في حياتي. كان الهلالي متزوجاً لكنه بلا اطفال، وكان يعيش مع زوجته في غرفة او غرفتين في بيت ابوالجص. كانا في حرم البناية (أي جناح السيدات) ذات المنزلين، بينما نحن شغلنا الديوانخانة.

حسقيل الهلالي لابد انه انحدر اصلاً من قرية او مدينة صغيرة في الجنوب. كان يلبس، ويبدو، ويتصرف، ويتكلم، مثل أي فلاح مسلم او مالك ارض او رئيس عشيرة جاء الى العاصمة للعمل او لمقابلة مسؤول رفيع او وزير. في اجزاء معينة من بغداد، كالكرخ (غرب بغداد)، يمكن رؤية اشخاص يشبهون بنيته، وتصرفه، ولباسه؛ لكنني لا اتذكر رؤيتي لأي يهودي يرتدي بالطريقة نفسها – مشفوعة الكوفية، والعقال، والعباية. كانت مهنته، بوصفه دلالاً في سوق الجملة للخضار والفواكه في غرب بغداد – العلوة – شاقة برغم انها غير صعبة بالنسبة للوقت كما انها على مايبدو مربحة مادياً. كان عليه ان يكون في العلوة، التي تبعد مسير نصف ساعة من مكان سكننا، بحدود الساعة الثالثة او الرابعة صباحاً طيلة ايام الأسبوع ماعدا ايام السبت والأعياد اليهودية المختلفة، حيث يكون العمل راكداً لأن اليهود في تلك الأيام لا يتسوقون. كان هذا هو الوقت الذي كان يأتي فيه البقالون والباعة المتجولون لشراء تجهيزاتهم اليومية من الفواكه والخضار من المزارعين الذين

كانوا قد قضوا ليلتهم في جلب بضاعتهم الى العلوة، عموماً على الحمير وغالباً على ظهورهم او رؤوسهم.

وبينما كان حسقيل – الذي كان يُعرف في عائلتنا بـ «ابو العلوة» – معتاداً على هذا النمط من الحياة، لم يكن بمقدوره تحمّل العمل بمفرده. فهناك بضاعة يجب ان تُنقل من مكان الى مكان وتوضع للعرض من اجل ان يراها كل شخص، ومن المزاد العلني نفسه، بعدها عندما يستقر السعر تجري عملية الوزن والقيام بالحسابات وجمع النقود وفيما بعد يأتي العمل المضاف الذي ينطوي على اخذ كمية صغيرة من الفواكه او الخضار المباعة ووضعها جانباً بأمان، ثم يؤخذ قسم منها الى البيت. حسب مقاييس تلك الأيام، لم يكن ابو العلوة شاباً ايضاً: في سن الأربعين او نحوها كان الشخص يُنظر اليه عادة، ومن المحتمل انه هو ينظر الى نفسه، على انه داخل في الشيخوخة. باختصار، كان يحتاج الى مساعدة. فاتحَ والديَّ – او هل هما فاتحاه؟ - وتمّ قبول العرض في الحال.

لم تكن لدي اية معارضة، خصوصاً وأن ذلك كان يعطيني فرصة للحصول على مصروف جيب. لكن النهوض في مثل هذه الساعات غير الصحية والقيام بالمسير الطويل الى العلوة ومنها كان صعباً جداً حتى بالنسبة لطفل غير مدلل. موقفنا المادي، ايضاً، لم يكن سيئاً مثلما كان في الأيام الأولى بعد إفلاس اخي إلياهو برغم انه كان موقفاً عصبياً جداً. الاّ ان المكافأة كانت مغرية – 20 فلساً في اليوم، والأهم من هذا كله، مؤونة كريمة وثابتة من الفواكه والخضار المجانية التي كانت اكثر مما اعتدنا استهلاكه. وبهذا اوضح والداي بأنني يجب ان امتهن تلك المهنة. لكن المحنة لم تدم طويلاً. فبعد عطلة المدرسة الربيعية، التي كنت اعمل إثنائها، اصبح واضحاً بأنني لم استطع القيام بهذه المهنة والدوام في المدرسة في الوقت نفسه. لذلك اضطر حسقيل ان يستغني عني، وما إن بدت العطلة الصيفية حتى تكبدتُ الكدر مرة اخرى.

لا أعرف إن كنت ضعيفاً. (اعتادت الأم القول بأن السبب وراء كوني «نازوكي» [رقيق جداً] هو انه، حينما لم ابلغ من العمر سوى اسابيع قلائل، اصبت بنزلة برد شديدة بسبب تعرضي الى الرياح بينما كنت انام على السطح في احدى ليالي الصيف – المرض الذي بقيت آثاره تقض مضجعي طوال حياتي). انا شخصياً اميل الى ان أرجع ذلك الى نقص التغذية و»الإنهاك الجنسي». الحقيقة هي، برغم ذلك، انه بعد أي مجهود بدني اعتاد انفي على النزف – وعندما كان يحصل ذلك، يُرسَم الخط بوضوح وبقوة. بدأ ذلك يحدث بعد اسابيع قليلة من العمل مع حسقيل اثناء اشهر الصيف وتقرر بأنه، برغم العشرين فلساً وإكرامية الخضروات والفواكه، لابد من إنهاء الترتيب مع جيراننا.

حسن ومحاولة الإنتحار الصورية

سرعان ما وجدت مهنة جديدة تستمر طوال العطلة الصيفية. في ذلك الحين كان اخي إلياهو قد دخل في عملية مضاربة. ولأنني كنت صغيراً جداً وغير متدرب، على اية حال، فإنه لم يقبل بي للعمل معهم سوى حفنة صغيرة من التجار – ومثل هذا الشخص هو إلياهو كوهين، قادم جديد الى بغداد من خانقين في الشمال وبالضبط كان كردياً. كان احد ثلاثة او اربعة اخوة كبار وعلى ما يبدو الأقل

نجاحاً من حيث الحظ، وتمّت مساعدته ليفتح عملاً صغيراً لتجارة الجملة من اجل ان يُستخدم بشكل مربح من ناحية ويُكسب العائلة موطيء قدم في العاصمة من ناحية اخرى. كانت مهمتي ببساطة تتلخص بالجلوس في غرفة صغيرة تغص بعلب ورزم الألبسة الداخلية، والجواريب، والمناديل، وغيرها من المواد. معظم الوقت كنت اقضيه في الكسل، اذ ان عملي يتضمن جلب بعض العلب آناً، وآناً اخرى بعض الرزم لعرضها للزبون؛ وحزم البضاعة المباعة والمحسوبة؛ وعدّ البضاعة المستلَمة وتدقيقها؛ وحراسة القلعة بينما يذهب رب العمل لينهي صفقة، او يتناول وجبة طعام، او يذهب الى المرحاض.

كان ذلك عملاً مملاً وغير مثير بالمرة – لولا نوعان من التسلية بالقرب مني. كان عمل إلياهو كوهين يقع في خان في شارع البنوك، الذي سمّي هكذا لأن بنايات جميع البنوك – البنك الشرقي، والبنك العثماني، وبنك زلخة – كانت تقع هناك. كما ان للشارع مزية ضمّه افضل المقاهي بضمنها قهوة موشي، ودائرة بريد، وعدد لابأس به من المحال والباعة المتجولين الذين يبيعون الأكلات والوجبات الخفيفة الى مئات العاملين، والكتبة، والمضاربين، والبطالين من جميع الصنوف المحتشدين في المكان طوال اليوم.

كان من بين هؤلاء مسيحي من قرية تلكيف الشمالية الذي كان يبيع ما كان يُعرف وبلا منازع افضل كبة برغل في المدينة. كان يعدّها في البيت بنفسه ويجلبها، طازجة وساخنة، في حوالي الساعة العاشرة – وفي غضون ساعة او نحوها يذهب، اذ ان قدره الكبير يفرغ تماماً ويشعر هو بالقناعة والسعادة بنصيبه. لم يحاول قط توسيع عمله بعمل المزيد من الكبة او العمل بنوبتين او استئجار مساعد. احببت الكبة، وهي كرات من الحنطة المطحونة الحسنة الشكل المحشوة بوفرة باللحم، والبصل، والجوز، وأحياناً باستطاعتي تحمل شراء واحدة، لكن مشكلتي دائماً هي انه في شارع مزدحم كهذا لم استطع شراء واحدة بنفسي بدون ان يلاحظونني، اما السيد كوهين او احد زبائنه، او اخي او احد أصدقائه، او قريب او صديق للعائلة – أي منهم او جميعهم يُصعقون بشدة اذ يروننني اشتري او االكل ليس فقط طعاماً غير مطابق للشريعة اليهودية بل طعام يعدّه «أغيل» (أي شخص غير مختون، بمعنى مسيحي). اخيراً، برغم ذلك، وجدت طريقة آمنة للقيام بذلك – وهي عندما يدخل حسن وتبدأ قصة صداقتي معه.

كان حسن حرفياً وفناناً حقيقياً على طريقته الخاصة. ففي منتصف عشرينياته اكتسب مالاً وفيراً بإصلاح السجاد الفارسي، بضمنه السجاد القديم جداً والنادر الذي اعتادت ان تجلبه من اجل اصلاحه ما كنت اراه صفوة المجتمع العراقي وأجانب مثيرون للإعجاب جداً، اغلبهم بريطانيون. كان يعمل بجد، يجلس هناك طوال اليوم يصلح السجاد، ويلاحظ الألوان، ويشذب، وفي النهاية يقوم بما يبدو للكثيرين بأنه اسرار. لذلك قام تاجر موسر ومتعامل بالسجاد باستئجار حسن. الى جانب السجاد الفاخر الجديد مثل ذلك المصنوع في كاشان، وقم، وأصفهان، كان التاجر يشتري ويبيع السجاد القديم ذا القيمة العالية. اتذكر كيف كنت اضيع عجباً وأنا اتساءل كيف يكون ممكناً في هذا العالم بأن شيئاً ما يبدو لي سجادة مبتذلة يمكن ان يحظى بمثل هذه المبالغ الفلكية تصل الى 50، او 60، او حتى مائة دينار وأكثر. حاول حسن تفسير السر لي لكنني لا اعتقد بأنني مقتنع حقاً.

كان حسن مسلماً شيعياً من كربلاء، التي كانت كالنجف المجاورة مكتظة بالسكان وعلى وجه الخصوص الفرس او الفرس المعرّبين، بعضهم مجنسون والبعض الآخر مازال يحمل جوازات فارسية. بغض النظر كم عاشوا في البلاد، لم يتمكّن هؤلاء المسلمون الشيعة وابناؤهم من التكلم بالعربية بدون لكنة قوية – ولم يكن حسن استثناءً. وبالفعل لم يتكلم مع رئيسه كلمة عربية واحدة. كان يقرأ اللغة، برغم ذلك، واذا لم اكن مخطئاً اعتاد ان يتكلم الى اصحابه بلغتهم هم، على الأقل الكلمات القليلة المطلوبة لقبول المهمة والإشارة الى الأسعار. كما كان في الغالب يتكلم عن موقف جاليته وعن كيف ان الشيعة، برغم انهم يشكلون اغلبية السكان المسلمين، مازالوا لم يُعطَوا حصتهم العادلة في حكومة اليوم لصالح الأقلية السنية.

لم تكن سهلة بالمرة مهمة الحصول على حصتي اليومية من الكبة. المشكلة هي ان حسن طالما انه شيعي فإنه من غير المفترض ان يأكل شيئاً ما يعدّه مسيحي – او يهودي – وان الشراء نفسه لابد ان يتم خلسة لئلا يراه رئيسه او أي شيعي من زملائه. وسرعان على اية حال ما برزت مشكلة اخرى: اراد حسن ان لا يأخذ نقوداً مني عن ثمن الكبة. وكان الخيار الذي تركه امامي موجعاً – اما الكبة على حساب حسن او لا كبة. ولا حاجة للقول، مع ما كنت تعلمته عن الذكور العراقيين وطرقهم، بأن اصرار حسن على ان يشتري لي واحدة كل يوم تقريباً – بذلك السعر الباهض الذي يقدر بستة فلوس للقطعة الواحدة – لابد انها قرعت الناقوس في داخلي. لكنه كان لطيفاً جداً ومهذباً بشأن الموضوع، ومقنعاً تماماً، لدرجة انني قبلت تفسيراته ولو بشيء من العقلنة من ناحيتي.

كان حسن بمفرده في بغداد ولم تكن لديه اية اتصالات مع عائلته في كربلاء. كان يعيش في غرفة مؤثثة بذوق في خان سكني ليس بعيداً عن مكان عملنا نحن الأثنين، وذات مساء تمكّن من إقناعي على تناول العشاء معه في غرفته. لابد انني كنت متهوراً في الذهاب، لكنني لم أصَب بخيبة امل. بدا الأمر صداقة بسيطة وخالصة لوجه الله مستندة على بعض الأذواق والمصالح المشتركة وكذلك على الحقيقة العرضية بأن حسن كان يكسب المزيد من النقود بينما انا كانوا يدفعون لي ثمناً بخساً. تكررت الدعوة وأصبحت حالة متكررة – وفي كل مرة يحدث الشيء نفسه: حوار، وجبة طعام، ومزيد من الحوار ومن ثم يحين الوقت للوداع وأغادر. ولم يحاول حسن في هذه اللقاءات المنفردة حتى ولو ان يلمسني.

استمر هذا لأسابيع. كان الطعام فاخراً، عموماً كباب وشواء منوّع، وفاكهة ممتازة طازجة ومجففة، وبعض «الأشياء» الأخرى، وكانت الأحاديث مسلية. على اية حال، برغم ان حسن لم يقم بأية حركة، بدأت علامات معينة تظهر وأعطتني سبباً للشعور بالقلق: الطريقة التي كان ينظر فيها لي، الطريقة التي كان يقترب فيها مني، و – للحظة تفكير – الحقيقة بأنه ليس هناك في الواقع سبب مادي وجيه بالنسبة لمسلم شيعي في منتصف عشرينياته ان يصادق صبياً يهودياً بالكاد يبلغ من العمر 14 سنة لمجرد الرفقة. وبدأ يتوضح لي، ايضاً، بأنه لا احد بكامل قواه العقلية يصرف النقود لمجرد الحفاظ على مثل هذه الصداقة البريئة.

ثم قررت ان انهي تلك العلاقة، ولم يبقَ سوى ان اجد مخرجاً لائقاً لفقير مثلي. كنت شديد الاضطراب لدرجة انني قررت استشارة ابي – اول وآخر مرة اضطررت فيها الى اللجوء الى مثل هذه النصيحة. اصغى الوالد باهتمام، ولم يقاطع حديثي الاّ حينما كان لديه سؤال يسأله او نقطة كان يريدني ان اشرحها او اطنب فيها. في النهاية، طبعاً، اشار بالطريق الوحيد الذي عليّ اتخاذه – وهو الكف عن قبول دعواته والامتناع عن اخذ الهدايا او التذكارات ولكن استمر بصداقتي للرجل وأن لا ادع الأمر يبدو وكأنه انفصال تام.

فعلت هذا بلطف ودقة كما لو انني كنت اعرف كيفية القيام بذلك. لم يفلح هذا – او بدا انه افلح لكن فقط لبعض الوقت. كانت الحيلة واضحة جداً بحيث لا يمكن اخفاؤها ولذلك كانت نتائجها العملية مؤلمة جداً بالنسبة لحسن بحيث لا يقدر على تحملها او تجاهلها. وباءت محاولاته العديدة على اقناعي واغرائي – اذ كان يعرف جيداً نقاط ضعفي – بالفشل. لا اعرف إن كانت احدى هذه المحاولات، لكن في غضون ذلك كان قد انتقل الى غرفة أخرى، اكثر اتساعاً على شارع البنوك نفسه وبدأ يخبرني حول صديقه او اصدقائه الجدد، داعياً اياي ان اتي معهم. تمسّكت برأيي. ذات يوم، على اية حال، اقنعني ان ازوره في غرفته في ساعات الصباح المبكرة، حينما في ذلك الحي المشغول لا يمكن ان يحدث أي شيء غير اعتيادي، لا صراخ للنجدة او أي شيء من هذا النوع يمكن ان يهرب من الملاحظة.

كانت غرفة جميلة، وكانت الطاولة تغص بالأطباق المتسخة وبقايا طعام مما قال انه من حفلة عشاء الليلة السابقة. (لم اصدّق حقاً كون الأمر لا يعدو اكثر من حيلة ولم ألاحظه يتحدث او يذهب مع أي ضيوف محتملين.) جلب قنينة ذات سائل ابيض وقدحين. وبدأ بتقرير دامع مطول حول مدى تعلقه بي وكيف ان الأمر غير ضار بالمرة ولا علاقة له بأية علاقة جسدية. وقال، الآن وقد قررت ان لا اراه، فإن الحياة اصبحت لا معنى لها تماماً ولا تستحق العيش فيها – ولذلك قرر ان يُنهي حياته. على اية حال، ولأنني سبّبت له المزيد من الألم والتعاسة وكوني السبب المباشر في قراره لوضع حد لحياته، اعتقد انه من الإنصاف انني لابد ان اشرب من السائل الأبيض من اجل ان نهلك نحن الإثنين معاً.

طوال هذا الوقت كانت الدموع، الدموع الحرّى الحقيقية، تنهمر من عينيّ حسن فيما كنت اشعر بتعاسة كبيرة. لكنني لم اتزحزح عن موقفي. بل على العكس تماماً. ولإحساسي بالحالة التي كان هو فيها والألم الذي سببته له قررت حينها بأنني لا علاقة لي معه حتى لو كان ذلك يعني المشاركة في خطته المجنونة في الإنتحار. اخيراً، لكوني تأثرت بفيض المشاعر المرتبكة والمتناقضة، قررت، وهكذا شرب كلانا شرب ما كنت اظنه القاتل المباشر. الاّ ان السائل الأبيض لم يكن سماً، بل هو مشروب روحي خالص – وبعد ذلك الأداء الغريب لم ارَ حسن ثانية ابداً.

بيع الجوارب والمناديل

معرفتي بحسن، بكل ماتحمله من المشاهد التراجيكوميدية التي ادت الى إنهائها، كلها حدثت اثناء العطلة الصيفية لما كان يمثل السنة الأخيرة في مدرسة راس القرية. اتضح بعد تلك الميلودراما في غرفة حسن بأنني لا استطيع الاستمرار بعملي مع إلياهو كوهين. لم يكن صعباً ان اجد لي مهنة، سيما وإنني الآن قد اكتسبت خبرة في التعامل مع ادوات الخياطة. كانت مهنتي القادمة في الحقيقة افضل و اكثر «تقدماً»، وتتكون من مساعدة مالك مخزن انيق حقيقي ولو انه صغير يقع في مركز تسوق عام في بغداد في تلك الأيام، هو شارع النهر. كان المالك يهودياً في منتصف عمره ذا طرق هادئة وسهلة وسرعان ما اعلن بأنني عامل جيد، سريع في تعلّم وأخذ الأوامر وكذلك لطيف مع الزبائن.

كان المخزن – الذي يسمّونه مغازة maghazat، من الكلمة الفرنسية magazines، في تلكم الأيام – يعرض تشكيلة متنوعة من الأشياء بالإضافة الى البضائع التي توصف عادة بأدوات الخياطة [الخردوات]، مثل الجوارب النسائية، والأوشحة، والألبسة التحتانية؛ الروائح وأدوات المكياج؛ الفرش والمعاجين المختلفة وحتى الصابون. كل شيء من هذه البضائع كانت تستورد من الخارج والزبائن كانوا ينتمون الى طبقة سوسيواقتصادية معينة، على الأغلب سيدات المجتمع اللواتي، برغم انها ينبغي لهن ارتداء العباية، لم يكنّ صارمات في إبراز وجوههن حينما ينشغلن في تفحّص السلع المعروضة.

الكثير من هذه السيدات كنَّ مسلمات، وبالنسبة لي كان الأمر يعدّ شيئاً من الثقافة ان ارى التناقض الصارخ بين بياضهن والسحنات السمراء عادة لشركائهن في الدين الأقل حظاً. لم اعرف السبب وراء ذلك الاّ فيما بعد. فالكثير من هذه النساء الغنيات او الغنيات سابقاً لكن ايضاً من سيدات المجتمع كنّ اما من اصول تركية محلية انفسهن او بنات امهات تركيات وغالباً آباء اتراك. كنّ في الحقيقة يمثلن بقايا الفترة العثمانية، حينما اعتاد العراقيون من ذوي المكانة الذهاب الى اسطنبول للدراسة او العمل او تمثيل ولايتهم في المجلس وغالباً ما كانوا يعودون برفقة زوجة تركية من نَسَب ما، او زوجة من جزء اوربي من الامبراطورية.

وتبدو الحقيقة، في بلد حيث يبدو كل شخص اسمر غامق، بأن البياض يكون مطلوباً جداً، وبالأخص في النساء. بالإضافة الى العراقيين الذين اشتروا زوجات من خلال اقامتهم في تركيا، هناك طبعاً جميع اولئك المسؤولين العثمانيين الذين جاءوا الى العراق لإدارة شؤون الولايات، اسسوا عائلات، وزوّجوا بناتهم الى الأعيان المحليين، وفي الكثير من الحالات كنّ يبقين، ويتم تعريبهن Arabized جزئياً.

استمر عملي في مخزن شارع النهر لأشهر قلائل. لم اعد اتذكر السبب وراء حصولي على هذه المهنة؛ ربما بسبب ركود التجارة او عامل آخر لاعلاقة له بي او بأدائي. كان قد حلّ ربيع عام 1938 حينما غادرتُ – بينما أخي إلياهو، بالتشاور مع الأب، قرر بأن باستطاعتي جمع المزيد من النقود لو قمت بجولات لأجزاء معينة من المدينة ومقاهيها وأنا ابيع القليل من السلع الصغيرة كالجوارب والمناديل.

وهكذا اصبحتُ بائعاً متجولاً في الشارع في سن الرابع عشرة. اخذني أخي إلياهو الى احد أصدقائه، وهو يهودي طيب القلب بائع جملة يتاجر بهذه البضائع، ولم يوافق فقط على بيع هذه السلع لي بالآجل بل ايضاً [وافق] على السماح لي ببعض التخفيضات الإضافية بحيث ان ما دفعته لتلك الجوارب والمناديل كان حتى اقل مما دفعه بائع المفرد.

وكانت هذه مهنة مربحة مادياً، برغم انها مرهقة ومزعجة غالباً. لا اتذكر انني كسبت نقوداً كثيرة جداً في حياتي. فزوج الجوارب الذي اشتريه بـ 150 فلساً للدزينة استطيع ان ابيعه بأي سعر مابين 15 و 20 فلساً للزوج. زبائني، على الأغلب من مرتادي المقاهي الذين يجلسون هناك اما يلعبون النرد او يحركون خرزهم القلق الأبدي، لا يعرفون كثيراً عن الأسعار ويبدو انهم لا يهتمون بذلك – لاسيما اثناء الأيام القلاقل الأولى من الشهر حينما يكون شيئاً من رواتبهم باقياً معهم. كان اغلبهم من المسلمين، لكن المسألة لم تتعلق بكونهم «مغفلين غشيمين» – وفي النهاية اشك إن كانوا في الحقيقة دفعوا اكثر مما كانوا سيدفعون لشراء البضائع نفسها في مخزن الخردوات. في تلك الأيام كانت اليابان تُغرق السوق بالبضائع، الاّ ان نوعيتها عموماً كانت رديئة جداً بحيث ان السلع اليابانية الصنع قد اكتسبت سمعة سيئة نوعاً ما. انني لم ابعْها في ايام تجوالي في الشارع وكنت اعرض البضائع ذات النوعية الجيدة – الى حد انني تمكنت من الحصول على زبائن ثابتين.

كنت اثناء هذه الفترة، ابيع سلعي ذات يوم في شارع المتنبي، حيث صادف ان دخلت مخزناً كبيراً للأثاث لأعرض سلعي. يرتبط بالمخزن ورشة نجارة صغيرة كان فيها دزينة او نحوها من الرجال يضربون مطارقهم، وينشرون، ويستخدمون الغراء. جاء الإقتراح من احد المالكَين، هما نفساها كانا نجارَين تحولا تجاراً في الأثاث الحديث – والشيء التالي الذي عرفته هو انني اصبحت كاتباً ورسولاً ومحاسباً متمرناً. كان للمكان مزية مضافة بموقعه على بعد ثلاث او اربع دقائق مشي من بيت يامين، حيث كنا نعيش في ذلك الوقت. انه في ذلك المكان انهيتُ اخيراً دراستي الإبتدائية، بحضور الدروس المسائية في مدرسة المأمونية المسائية لذلك الغرض.

حتى الآن كنت قد بنيت لنفسي مكتبة صغيرة، حيث تمّ صنع الرفوف خصيصاً لي وبسعر الكلفة في محل النجارة الذي كنت اعمل فيه. وبقدر تعلق الأمر بتعليمي، كنت قد اجتزت حينها بنجاح الإمتحانات الحكومية، التي مكّنتني من الإلتحاق بما كان يسمّى بالمدرسة المتوسطة. لكنني كنت اتحين الفرص، وافضّل القراءة والمساعي الفكرية الأخرى على النظام المقيت للصفوف الدراسية المزدحمة.

في حوالي هذا الوقت، أي سنتان او نحوهما بعد تركي لمخزن النجارة في اواخر عام 1939، وكون إلياهو الآن مرة ثانية هو المعيل الوحيد، اخذت العائلة قراراً حاسماً بعد الكثير من البحث عن الذات، وضرب الصدر، والمساومة: هيلا الآن كانت ببساطة قد حصلت على كفايتها منا – الأب، الأم، وأنا وأختي الصغرى سمحة – واصبحت مسألة الإنفصال لامفرّ منها. اضطررنا الى الإنتقال الى مكان آخر وترك اخي وزوجته وأطفالهما الأربعة ليعيشوا حيواتهم الخاصة بهم بدون تدخّل مستمر من الأم وبقية افرادنا. لم يكن ذلك سهلاً، لأنه من بين اشياء اخرى اضطر إلياهو الى الإستمرار على

احتضاننا – ليدفع الإيجار والعلاوة التي مكّنت اربعتنا من العيش بشكل مقتصد على اية حال. وأصبحنا ثانية مستأجرين ثانويين للمستأجرين، اذا جاز التعبير، لكننا وقعنا اخيراً بالجدالات والصراعات اللانهائية بين «فصيلَي» العائلة.

مجرد شريك عمل

بقدر تعلّق الأمر بي، على اية حال، لم يعمل هذا الإنتقال اختلافاً كبيراً. فبُعَيد الإنتقال، في ربيع عام 1940، في ما كان يمثّل محاولة لمساعدتي في كسب نوع ما من العيش، رتّب لي إلياهو بأن اكون شريكاً ثانوياً في دكان صغير في شارع الرشيد مجاور بوابة الجامع الكبير في حي الحيدرخانة. اما الشريك الرئيس الآخر فلم يكن سوى زوج نجية، ابن عمي إلياهو، الذي كنت قد حضرت زفافه في كرمنشاه قبل ثماني سنوات تقريباً. وبعد فترة ليس بالطويلة حتى قرر الزوجان وأطفالهما الثلاثة ان يعودوا الى بغداد، اما لأسباب تجارية او مجرد من وحي اللحظة. في البداية فتح إلياهو دكاناً متواضعاً في زاوية مظلمة في سوق الميدان – وهي منطقة ذات اغلبية مسلمة حيث كان العمل كاسداً اغلب أيام الشهر لكنه ينشط جداً في الأيام الأولى من كل شهر. لسبب او لآخر، على اية حال، فكّر نسيبي بأنه كان سيعيش حياة افضل إن استطاع ان يفتح دكاناً في الشارع العام للمدينة، حيث خطط ان يبيع، فضلاً عن المواد المتفرقة [الخردوات] التي اعتاد ان يبيعها في الدكان القديم، بعض المواد الغذائية كالسكر والشاي والرز والجوز. واقتنع بأن افضل تجارة هي المتاجرة بـ «اشياء للمعدة».

في ذلك الحين ثبّت اخي إلياهو نفسه كمُضارِب يتاجر بخط السلع التجارية نفسه وهو يساعد نسيبي في قضايا الدّين الصغيرة والنصائح المهنية. لذلك ذهب زوج نجية الى إلياهو يطلب النصيحة والعون في مشروعه الجديد – وحينما قرّ قراره اصبح الإنتقال نهائياً ولم تُجدِ نفعاً محاولة الإقناع من جانب اخي، اقترح إلياهو بأن يأخذني كشريك، حيث انه يجهّز رأس المال المطلوب على شكل بضائع و ائتمان. تمّت الصفقة و – كوني مثقفاً طموحاً، هاوياً للفنون، مولع بالقراءة، وحالماً – وجدتُ نفسي فجأة اجلس في ذلك الدكان الصغير اعرض السلع وأساوم على الأسعار وأزن السكر والرز والشاي. وكل هذا على اية حال يمكن تحمله لولا حادثة مؤسفة: الحركة التجارية اثبتت بأنها حتى اكثر ركوداً مما كانت عليه في سوق الميدان، ومرأى شخصين يجلسان هناك في ذلك الدكان الصغير ينتظران بلهفة زبوناً كان اكبر كثيراً مما اتحمله. الشراكة لابد ان تنتهي ايضاً لأن الدكان لم يستطع اعالة حتى عائلة اختي.

ام عدنان الچلبي

انه اثناء تلك الأيام الكئيبة والمتعبة تعرفت على عدنان الچلبي. كان عدنان صبياً لطيفاً في السادسة عشرة ويبدو اوربياً اكثر منه عربياً. له شعر اشقر وعينان زرقاوان وكان ابيض البشرة – بلا شك سليل لقاء سابق بين ضابط عثماني وشابة من رومانيا او هنغاريا او غيرها من اقطار جنوب شرق اوربا التي وقعت تحت الحكم العثماني. وهذا لم يكن نادراً جداً بالفعل في بغداد في تلك الأيام،

ويُزعم بأن هذا الجيل breed مايزال يُرى هناك. لم استطع ان اعرف اية تفاصيل مهمة عن عائلة عدنان؛ كل الذي كنت اعرفه هو ان تلك المرأة إما انها مطلقة او هجرها ابوه، وانه كان يعيش مع امه وأختيه المراهقتين.

اصبحنا صديقين جداً واعتدت على اخذ عدنان الى البيت معي وأريه كتبي ومجاميع مجلاتي. ولكن نوعاً ما لم يُكتب لعلاقتنا ان تكون على ذلك المستوى الفكري. فالشاب، برغم انه مهتم بالشؤون الجارية وكان نوعاً ما برعماً ماركسياً، لم يكن له اهتمام بالأفكار التي احملها. بمعنى ما، كنت مهتماً بعدنان كشخص، وبقصة حياته وبقصة عائلته اكثر من اهتمامي بتطلعاته الفكرية او افكاره. كذلك انغمست بخليط من الخيال بخصوص ثلاث شقراوات كنّ يعشن في ذلك البيت معه. من خلال الأشياء التي اخبرني اياها توصلت الى ان امه «عصرية» ومتحررة اجتماعياً ولم ترتدِ الحجاب – وبالفعل حينما زرته في بيته كانت الأم تُظهر وجهها لي بل حتى اعَدَّتْ الشربت والشاي. كانت نسبياً اكثر شباباً – خمس وثلاثون سنة او نحوها – وتمتلك قواماً رشيقاً.

لقد كان من الغباء حقاً بالنسبة لي ان افكر بأنني استطيع ان اصل الى ام عدنان. فلو كانت «عاهرة المجتمع» اذاً لكانت إما محجوزة لبعض الأثرياء او ان سعرها باهض – ناهيك عن الإحراج كوني صديقاً لابنها. ولو كانت مجرد امرأة متحررة اذاً لنظرت اليّ بإنني صغير جداً وقليل الخبرة جداً بحيث لا يمكن ان تتخذني حبيباً. كان الشيء برمته مخيباً للآمال بقدر تعلق الأمر بالأم – بينما كانت الصعوبة مع الأختين تكمن في انهن كانتا صغيرتين جداً، وان انتهاكاً للمعايير والأعراف المقبولة لا يمكن التفكير فيه – وكانت هذه الأعراق تقضي بأن صديق العائلة، وبالأخص صديق الأخ، لا يمس مطلقاً الأخوات ما لم تكن نواياه «شريفة» جداً.

بمعنى ان هذا الموقف الضعيف جعل مني نوعاً من «شاب المنزل» مع عائلة عدنان، وبدأت اشعر بأنني حامي عن الأم والبنات. ذات ليلة، ذهبنا نحن الخمسة الى السينما – وحينما لاحظنا انا وعدنان بعض الشباب الوقحين يحدقون في امه وحتى يقومون ببعض الحركات والإشارات، كنت انا وليس عدنان من تحداهم – وكان هو الذي حاول تهدئتي، موضحاً بأن هذا لم يكن شيئاً غير عادي حدث لأمه، وان افضل شيء ينبغي القيام به في مثل هذه الحالات هو تجاهل الشباب وألاعيبهم بالمرة.

اخيراً، عندما خرجنا من المنطقة وحصلت على وظيفة مع المصرف الشرقي، غضضت النظر عن عدنان وأقنعت نفسي بأنه لا خير يُرتجى من افتتاني به وبعائلته غير المحمية. وبرغم ذلك لابد من تسجيل هنا احد الأشياء التي حدثت اثناء شهور من صداقتنا. ذات يوم، اشتكى عدنان من الم في الحنجرة – وهي حادثة ليست غير عادية بسبب التغييرات المفاجئة في الطقس. وعندما لم يفلح الاسبرين وغيرها من العلاجات البدائية، اضطر عدنان الى مراجعة الطبيب. كان قرار الطبيب: عدنان مصاب بالسفلس – في الحنجرة! لم اعرف ذلك – وأجرؤ ان اقول مازلت لا اعرف – أي من هذه الحالات، ولا اعرف إن كانت الإصابة من الممكن ان تطال أي جزء من الجسم غير الأعضاء التناسلية.

المشكلة الأخرى مع تلك الإصابة هو السؤال المتعلق بكيف حدث مثل هذا الشيء لعدنان، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ذلك حصل فعلاً. اقسم بأنه لم يفعل أي شيء ليوضح اللغز وأكّد بأنه هو نفسه محتار مثلما انا كذلك. في النهاية قال انه استلم العلاج الصحيح؛ اعتقد ان المضادات قد دخلت لتوها الى بغداد فأخذ حقنات بنسيلين. الاّ ان القصة الكاملة بدت لي غريبة جداً وغرست في نفسي مشاعر التقزز بحيث نأيت بنفسي تدريجياً من عدنان وعائلته ذات الثلاث شقراوات المحبوبات والمرغوبات جداً.

الفصل التاسع

العيش في الحرمان الجنسي

في منتصف الخمسينات، وأنا ارقب الشباب والشابات في سني مراهقتهم وهم يحضنون، ويقبّلون، و«يتعانقون» علانية في الشوارع، والباصات، ومحطات المترو في لندن، وباريس، وروما، وتل ابيب، بيت المقدس، لايسعني الاّ ان افكر بالسنوات الطويلة من الحرمان الجنسي لشباب بغداد التي ولدتُ وترعرعتُ فيها. إنني اعترف بأن هذه المشاعر لم تكن دائماً بمنأى عن نوع من الحسد، وهو وعي ملحّ بما فات افراد جيلي بالنسبة لتجربة انسانية جوهرية.

لكن هذه كانت حياة لم تكن خالية تماماً من الفوائد. لا اعرف تماماً ماذا يفعل الشباب اليوم بالنسبة للجنس «الحقيقي» – أي، إن كان التقبيل المستمر والعناق يقود دائماً الى اتصال حقيقي. لكن اياً كان الأمر، فإن حرماني لم يكن كاملاً او نهائياً كما يبدو. ففضلاً عن تلك التي تسمى «الإحتلامات الليلية»، التي كان فيها المرء يضطر الى الإعتماد كلية على التخيل يساعده كتاب او صورة ما، كانت هناك دائماً بعض الفرص لاتصال جسدي من نوع ما.

ان الأماكن العامة المزدحمة والضيوف من النساء احياناً اللاتي يبقين معنا لفترة من الوقت كانت المصدر الرئيس لمثل هذه الإتصالات. في الغرفة الصغيرة في الديوانخانة التي كانت لنا في بيت ابو الجص، كنا خمسة وتوجَّب علينا تدبّر الأمر بسريرَين، احدهما مفرد والآخر كبير نوعاً ما مزدوج. وكان الترتيب هو الأب وأنا نستخدم السرير المفرد، بينما الأم واختاي يشغلان السرير الأكبر. كان الحال هكذا لأسباب دينية، وأشك بأسباب اخرى جعلت والديّ ان لا يفكروا في مشاركة السرير نفسه على اية حال. لكن كان يُزعم بأنني كنت الطفل المدلل في العائلة وغالباً ما اعتدت استغلال تلك الحكاية لاستبدال مكاني بمكان اختي الصغرى، من اجل ان انام في السرير الآخر. وأصبح إغراء القيام بذلك قوياً على نحو خاص عندما جعلنا الأخت الصغرى لهيلا تبقى معنا في زياراتها المتكررة من خانقين حيث كانت العائلة ماتزال تعيش هناك. ان النوم في السرير نفسه مع الأمرأة الجذابة كان بطبيعة الحال له فوائده الخاصة بالنسبة لحاجاتي الجنسية، وانه في احدى تلك الليالي الشتوية مابين عامي 1935-1936 بلغتُ النضج الجنسي، ومازلت اتذكر بشكل حي الوقت الذي حصل لي القذف الحقيقي الأول. لا استطيع القول بأنني كنت خائفاً او مندهشاً – بل اخذت الأمر على مهلي. لا اعرف إن كنت امتلك بعض المعلومات عن ماهية ذلك؛ لكن الى حدّ ما، يأتي هذا بعد تقريباً عقد من «الإثارات الجافة» المنتظمة، لم ارَ أي شيء غير اعتيادي بشأن الظاهرة ماعدا مشكلة الملابس الداخلية الرطبة والخوف من ان «يُكتشف» امري.

السبب وراء إقامة اخت هيلا الصغرى معنا بشكل متكرر هو انها كانت تأتي الى بغداد لتقابل ابن عمها الذي ترتبط معه بعلاقة غرامية طويلة ومحرّمة. هو مسؤول رفيع المستوى في وزارة الداخلية يعمل مباشرة مع المستشار البريطاني القوي للوزير، كان هذا الشاب يُنظر اليه على انه نجاح باهر فيما كانت عائلته تحمل آمالاً عالية جداً فيما يتعلق بنوع الفتاة وطبقتها التي يرونها

مناسِبة لتكون زوجته المستقبلية. ولكونهم انفسهم ينحدرون من الشمال، فقد كانوا جريئين وكثيري الضوضاء ومتشكّين ومصممين تماماً لمنع خطبة ابنهم لإبنةِ عم لن تجلب له لا المهر المناسب ولا التقدم الإجتماعي. كانوا يراقبون الفتاة المسكينة عن كثب، بحيثً في كل مرة تبقى فيها معنا يأتي منهم اثنان او ثلاثة – عادة الأب والأخ الأكبر – وجعلوا مثل هذا المشهد الذي تمكّنت المنطقة بأكملها من سماعه. اذ استمرت المعارك على وتيرة واحدة من الجدال – حيث قامت ابنة العم المراوغة وغير المتواضعة بإغواء ولدهم البريء المحبوب، وترتيب لقاءات غير مشروعة معه، ومحاولة خطفه من عائلته. ودائماً ما كانوا يختتمون بالقسم بأنهم لن، لن يسمحوا للصبي بطلب يدها للزواج. لكنهم فشلوا في الإيفاء بوعدهم: اذ تزوج الإثنان اخيراً ولعدة سنوات تالية تبعها نفور كلي بين الجانبين.

«احتلامات ليلية»

في مقالة بعنوان «تحول سن البلوغ»، يعطي فرويد هذا الوصف للإحتلام الليلي: «في حالة الرجل الذي يعيش حياة عفيفة، فإن الجهاز التناسلي، في فترات مختلفة ... يطرح المواد الجنسية اثناء الليل، بمصاحبة مشاعر اللذة وخلال الحلم الذي يهلوس فعلاً جنسياً.» لم اشعر فقط بأنني ملزم بالتمسك بكلام فرويد بوصفه سلطة كبيرة؛ فالحقيقة هي ان كل شاب من جيلي تجرأت ان افتح معه موضوع الجنس تحدّث عن الاحتلام الليلي بوصفه خبرة مشتركة ومألوفة.

عندما اتكلم عن نفسي، على اية حال، لابد ان اعترف بأنني لم اجرب تلك الخبرة، ولا حتى مرة طوال حياتي. فهل «الاحتلام الليلي»، اذاً، هو نوع من لطف التعبير عن النشاط الذي يدعى استمناء؟ هل ان الشباب الذكور يتكلمون عن الإحتلام الليلي لأنهم يكرهون الإعتراف بأنهم يستمنون؟ انا غالباً ما طرحت هذا السؤال على نفسي لأنه، في تلك الأيام اكثر مما في ايامنا نحن، الاستمناء يمتلك سمعة سيئة بشكل مخيف؟ فقد سمّي «العادة السرية»، وقيل عنه بأنه ينطوي على تأثيرات فظيعة لاحقة، أي نتائج شديدة جداً، لدرجة انه ليس عجباً بالنسبة لمعاصريني ان يكرهوا الإعتراف بهذه الممارسة حتى لأنفسهم.

اعتدت العيش في الخوف من النتائج، وعندما بعد سنين عديدة من الممارسة المنتظمة لم اصبح اعمى ولم امت بالسل، وحتى لم افقد عقلي، كنت نوعاً ما مرتاحاً لكنني بقيت متأثراً بنوبات من رثاء الذات و تأنيب الضمير. كيف، كنت انوح – كم كنت اكثر نشاطاً من الناحية الذهنية، كم كنت متيقظاً ومثابراً وصحياً وعملياً ووضّاء، وفي مئات الطرق الأخرى كم ظفرتُ بالمزيد من النجاح لولا عادتي الملعونة تلك! اما الأصدقاء الذين كنت قريباً جداً منهم لأتحدث عن هذه الأشياء فقد كانوا جاهزين للرد بعبارات التعاطف والشفقة. كما انهم كانوا جاهزين ايضاً لإبداء النصح: طالما تبتلي بافكار وخيالات جنسية، هكذا يقولون، اشغل نفسك بشيء ما – اقرأ كتاباً، قم ببعض التمارين، خذ حماماً بارداً، او مجرد اشرب كأساً من الماء البارد، تناول شطيرة (يفضل بالمخللات والفلفل الحار)، اخرج للنزهة، فكر بشيء ما آخر! ولا حاجة للقول بأن جميع تلك الحيل لم تفلح.

كما كانت هناك، ايضاً، العديد من الإغراءات، والإثارات، والإستفزازات التي لم اتوقف عن التساؤل كيف ان جميع اصدقائي هؤلاء الذين يتكلمون بحرية بالغة عن الإحتلام الليلي بإمكانهم ان يقضوا النهار من اجل ان يشهدوا احلامهم الجنسية المهلوسة ليلاً. هذا هو السبب لماذا كنت دائماً اتهم اصدقائي بالكذب، اوالتشويه، او في افضل الحالات مجرد امنيات. في يوم من تلك الأيام، ايضاً، لابد انني سأكتشف ما اذا كان فرويد العظيم سيعترف بأنه كان قد جرّب فعلاً الإحتلام الليلي – لأن هذه الشهادة المباشرة فقط سيكون لها اثرها في تخفيف شكوكي بأنه ليس اصدقائي فقط ولكن مرضاه ايضاً خدعوا الطبيب بلا حياء حينما تحدثوا عن هذه الظاهرة.

في عائلة جوري

كانت مريم الأخت المفضلة للأم. ذكرياتي الأولى عنها بأنها كانت امرأة حسنة الهندام، جميلة القد تجاوزت منتصف عشرينياتها بقليل. في الحقيقة، حسب معايير الذوق السائدة في انثى الإنسان، كانت الخالة حسناء بمعنى الكلمة – بيضاء، وجه مدوّر، ممتلئة بدون سمنة، وذات ملامح دقيقة ومتناسقة جداً. فضلاً عن ذلك، كانت صغيرة جداً بحيث من غير المتوقع ان ترتدي «الشقصة»، وهو لباس للرأس فضفاض ونوعاً ما غير كامل اعتادت اليهوديات العراقيات ارتداءه للحشمة.

وعلى رأس كل هذا، كانت الخالة مريم تعدّ غنية. ومن بين اخواتها جميعاً، تمكنت من الزواج برجل موسر. موشي جوري، رجل طويل القامة ذو شخصية مهيبة، كان تاجراً في التبغ، وشريكاً في احد اول مصانع التبغ في بغداد، والرجل الذي يدير احد اول المسارح السينمائية في المدينة – سينما رويال. انا مقتنع من انه، بدون الفرصة التي منحتها هذه الحادثة، لجاءت معرفتي بالسينما في مرحلة متأخرة كثيراً في حياتي. كان الترتيب بسيطاً جداً نسبياً. فقد اعتدتُ ان اتسكع هناك لساعة او نحوها قبل بداية الفلم و، في مناسبات نادرة حينما لا تكون الدار ممتلئة، احد العاملين، في أغلب الأحيان جميعهم من اقارب موشي جوري، يسمح لي بالدخول.

سينما رويال هب اول سينما في تقديم الأفلام الناطقة – وبالإضافة الى ذلك اعتادت ان تعرض مسرحاً حقيقياً، مع مجموعة صغيرة من المسرحيات مستوردة على الأغلب من مصر وكان البطل في كل حالة هو يوسف وهبي الذي لا يتعب.

كانت الخالة مريم زوجة جوري الثانية. زوجته الأولى، لولو، التي كانت اكبر من خالتي وغير جذابة تماماً، كانت قد انجبت ابنة، وهي ابنتهم البكر، ومن ثم توقفت عن الإنجاب. وكان هذا عذراً كافياً، سواء من الناحية الإجتماعية او من وجهة نظر الحاخامات، بالنسبة لموشي ان يبحث عن زوجة اخرى، فوقع الإختيار على الشابة مريم. سكنَ آل جوري بعد ذلك في منزل فسيح في منطقة جيدة، وفي ذلك الحين كنت كبيراً بحيث استطيع الذهاب الى هناك، وقد انجبت خالتي خمسة اولاد وكان كل واحد فخوراً جداً بها.

في وقت متأخر من العشرينات، ضمت اسرة جوري موشيه وزوجتيه، وابنته من لولو، وابناءه الخمسة، وأختاً ارملة، روزا، وولديها، وراحيل أم موشيه، وأحد الشباب المتبطلين يدعى غالي الذي

كان ابن اخت سيد المنزل الاّ انني لا افهم حقاً علاقته الدقيقة به والذي لم يحضر الى المدرسة ولا يبدو يشتغل بأجر بأية صفة.

وكان الشخص المهيمن في عائلة جوري هو بلا شك ام موشي، راحيل. كانت لها الكلمة الأولى والأخيرة في كل شيء ولم يغب عنها أي شيء. من بين جميع ربات البيوت اللواتي عرفتهن، فقد صعقتني بكونها الأكثر سطوة والأكثر رعباً. اتذكر بشكل واضح جلستها، منذ زمن موغل بالقدم وحتى نهاية ايامها، في نفس المكان من «القنفة» في زاوية ستراتيجية من «الطّرار» – وهو شبيه بغرفة إستقبال في الباحة الداخلية المفتوحة – تراقب تحركات كل شخص، وتُبدي تعليقاتها، وتتذمر برماً، وتعطي الأوامر. وقد اشيع بأنها تفرض سيطرة تامة على ابنها الوحيد موشي جوري، فهي قديرة وقوية كما كان هو نفسه. اعتقد بأن هذا التأثير، الذي يرقى ليكون سحراً، كان نتيجة لحكمتها الدنيوية الكبيرة ابتداءً بالتسامح الذي اعتادت ان تتغاضى به عن سوء سلوكه.

وبينما كانت ماتزال في منتصف عشرينياتها وبعد ان انجبت خمسة ابناء، فإن الخالة مريم اختارت بشكل غير مثالي نوعاً ما ان تتجب ابنة. كان يوماً حزيناً لكل شخص في او مرتبط بالعائلة؛ اذ ان موشي جوري لم يأتِ للغداء في ذلك اليوم، فيما غادر البيت الإبن الأكبر هارون بغضب واشمئزاز. بعد ذلك بيوم او يومين، برغم ذلك، تصالحت العائلة مع الواقع الجديد، وسميت الطفلة خزنة تيمناً بجدتها من امها. ثم قامت الخالة مريم بمحاولة اخرى – لكن في هذه المرة ايضاً كان الوليد ابنة. وهذه، وهي اخر طفلة تتجبها، سميت تيمناً بجدتها من ابيها راحيل، التي كانت قد توفيت قبل فترة قصيرة جداً من ولادة ابنة مريم الثانية والطفل السابع والأخير، وبهذا ادخرت آخر الأخبار السيئة، اذا جاز التعبير.

لا اعرف الكثير عن «حياة وحبيبات» موشي جوري السابقة، لكن بُعيد ولادة الطفلة الثانية اصبحتُ دارياً بوجود على الأقل امرأة واحدة في حياته – شابة متزوجة من مطرب موسيقار من بيروت سكنت مؤخراً في بغداد. ان حقيقة زواجها لا تبدو تتداخل بأيما طريقة – لا بالنسبة للزوج ولا بالنسبة للعائلة، اومريم، او المجتمع ككل. وفي مرحلة ما من العلاقة، فعلاً، كانت الأمرأة وعائلتها يعيشون في المنطقة نفسها في بيت يُعتقد بأن موشي استأجره لها. على ما يبدو كان موشي جوري زير نساء وفاسقاً كبيراً، وفي تلك الأيام لا يوجد شيء على الإطلاق من المكن ان تقوم به الزوجه بشأن خيانات الزوج.

كما انه ليست هناك اية محاولة من ناحية الرجل بأن يكون متعقلاً بالحد الأدنى بالنسبة لهذا الموضوع. وفهمت فيما بعد من خلال اقرباء قدامى بأنه، بالإضافة الى زوجة الموسيقار، كان لجوري عشيقات اخريات. احياناً، بالفعل، في احدى الليالي اخذ كفايته من المشروبات القوية في احدى النوادي الليلية الفاخرة في المدينة، عاد الى البيت ومعه راقصة كان قد اختارها وقضى الليل معها في غرفة مجاورة لغرفة النوم الرئيسة. والأنكى من ذلك، قيل لي ايضاً بأنه على الأقل في احدى المناسبات في الصيف، لم يتوانَ في وضع رفيقته في الليل على سرير على اعلى السطح، حيث كان كل فرد في الأسرة ينام ولا توجد جدران تفصل بين النائمين.

العصيان المفتوح لإبنة الخال ايفيلين

في منزل موشي جوري تعرّفت اول مرة على خالي منشي الذي افتقدته طويلاً، وهوا لأخ الأكبر الثاني لوالدتي الذي عاد مؤخراً الى بغداد قادماً من عبادان في بلاد فارس، حيث كان قد قضى كل سني كبره [بلوغه] وربّى عائلته. وعبادان في ذلك الزمن كانت تسمى المحمرة. كانت جزءً من خوزستان، كذلك تعرف بعربستان، وتتشاطر شط العرب مع البصرة ومناطق العراق الجنوبية. كانت هذه المحافظة من الناحية العملية عربية من كافة الوجوه قبل ان يقرر الراحل الشاه ان «يؤيرن» Iranize المحافظة عن طريق تشجيع هجرة الأثنية الفارسية الى هناك. لكن تلك الجهود لم تثمر الكثير. اتذكر بأنه في اواخر عام 1967، حينما كنت هناك في جولة دراسية، اندهشت لأجد بأنه بالرغم من جهود الشيعة الحثيثة بقيت العربية اللسان المهيمن. في السوق، تكلمت مع التجار والباعة المتجولين بالعربية العراقية العامية وأجبت باللهجة نفسها كما لو ان هذا هو الأمر الطبيعي في العالم. بل وحتى سُئلت إن كنت قد جئت من البصرة في جولة وفي الحال قلت، نعم، بالطبع.

جاء الخال منشي الى بغداد لأن زوجته مرضت مرضاً خطيراً، ومع وجود ثلاث بنات وصبي صغير واحد، لايستطيع ان يواجه هذا الأمر ببساطة. فقط احدى البنات، وهي ايفيلين، التي لابد انها كانت في الخامسة عشرة او السادسة عشرة، كانت كبيرة بما فيه الكفاية بحيث تهتم بي جسدياً. كانت ساحرة، ومرغوبة بشكل لايقاوم، حسناء فاتنة يبدو انها كانت تعرف كل شيء عن جمالها ولم تشأ ان تخفيه. وجدتها جذابة بشكل مثير – بيضاء البشرة، وممتلئة بدون سمنة، وذات عينين زرقاوين وشعر كستنائي وفم صغير جميل. كانت، في الحقيقة، تمثل كل شيء يمكن ان يتوق اليه المرء عن طريق شيء مثالي من اجل تخيلات المرء الجنسية الشبابية.

لابد انني كنت وقتها في العاشرة او اقترب من الحادية عشرة وقد اصبحت ماهراً تماماً في الإهتمام بحاجاتي الجنسية، البسيطة وغير المؤذية بالمرة اذا جاز الكلام. ما يمكن اضافته الى هذه النقطة، انني كنت ايضاً صغيراً جداً بحيث ينظرون اليّ على انني «امين» من وجهة نظر عفة المرأة واحتشامها. وهكذا فإن مقداراً لابأس به من الظهور الجسدي من وجهة نظر قريبة انثى a female relative بحضوري لايرونه محرماً اجتماعياً فيما كنت بالفعل استغل هذا الوضع استغلالاً كبيراً من كلا العالمين: كوني أعامَل كقاصر بريء من ناحية ومن حيث تمكّني من إشباع جميع رغباتي الصغيرة من اللمس، والنظر، والشم، وجميع هذا يوضع موضع الإستخدام فيما بعد في خلوة السرير.

لم اكن الوحيد المنبهر بجمال ابنة خالي ايفيلين. بل ان جميع سيدات العائلة لاحظن جمالها وسلوكها، برغم بعض التحفظات الاعتيادية بشان حجم بعض ملامحها والموقف الدقيق منها. (لم يتسنَّ لي معرفة ماكان يفكر به الذكور تجاهها لأن مثل هذه المواضيع لم يفترض مناقشتها وكل رجل كان يحتفظ بأفكاره لنفسه؛ لكن لم يكن صعباً تخمين ذلك).

الآن كانت ايفيلين مؤهلة جداً للزواج والخال يوسف، الأخ الأكبر للأم ووالد يامين وثلاثة او اربعة ابناء طموحين، عنده ولد كان حسب مقاييس تلك الأيام قد دخل سن الزواج منذ فترة طويلة. كان مزاجياً، وشخصاً متكبراً في بداية ثلاثينياته وكان الفرد المنتظر دوره ليخطبوا له – ومَن تلك التي من المفترض ان تكون له زوجة صالحة غير ابنة خاله ايفيلين؟ لكن ايفيلين، فضلاً عن امتلاكها شكلاً نادراً وجمالاً اخّاذا، كان لها رأيها الخاص بها. وطوال الفترة القصيرة من خطوبتهما، كانت الإشاعات تدور في العائلة بأنها تقاوم الزواج – كما ان عدداً من الشيوخ المستنيرين، بضمنهم الأم، لمّحوا بمهارة بأنها على حق ستكون غير سعيدة بشأن هذه الزيجة. رغم كل ذلك، فإن هذا الشاب كان ببساطة اكبر من عمرها بمرتين، فضلاً عن كونه الأقل نجاحاً من بين اخوته؛ ومع ذلك، اضاف هؤلاء الأقارب المتفهمين، هذا هو نصيبها، وليس من شأنها ان تعارض الزواج فعلاً.

تمّ الزواج حسب الأصول وكانت هناك حفلة زفاف في منزل الخال يوسف حيث سيسكن الزوجان. لم ارَ ايفيلين ثانية الاّ لماماً. ولم يدم الزواج طويلاً، لكن بدلاً من النهاية بطلاق اصولي او انفصال – كلاهما غير واردين في تلك الظروف – انتهى نهاية «مأساوية» بفرار ايفيلين. ورشح، إما قبيل الزواج او بعده مباشرة، بأن ايفيلين نوعاً ما قابلت، وخطب ودّها، وأغراها محام مسلم شاب اسود من عائلة محترمة وذات تأثير كبير. اخيراً، اخذها خليلة له ومن ثم تزوجها. يقال بأنها تحولت الى الإسلام عند زواجها – برغم انها على وجه الدقة غير مطلوب منها ان تقوم بذلك حسب القانون الإسلامي، الذي يسمح للمسلمين بالزواج باليهوديات او المسيحيات من دون اضطرارهن للدخول في المعتقد.

الماركسي والعاهرة

في بغداد اواخر الثلاثينات او الأربعينات، كانت العلاقات بين الجنسين – بعبارة ملطّفة – مشكلة نوعاً ما؛ كذلك كانت تعتمد ايضاً الى حد كبير على المجتمع، او الدين، او الطبقة التي ينتمي اليها الرجل او المرأة.

من المؤكد، هناك تشكيلة غنية جداً من الدوافع، والإثارات، والمغريات. وفي سياق الحياة في بغداد في تلك الأيام ربما يبدو هذا غريباً. وبسبب القيود الصارمة المفروضة على النساء وعلى ظهورهن في العلن، المرحلة البدائية جداً التي كان فيها المكياج متوفراً، والغياب الكلي لتسريحات الشعر، وندرة حتى فرصة رؤية وجه انثوي جميل علناً، فإن مثل هذه الإغراءات تبدو نادرة جداً او غير موجودة.

وهذا، طبعاً، كلام فارغ؛ اذ انه قريب من الحكم على مرحلة ما وحضارة ما بمقاييس مرحلة اخرى وحضارة اخرى. هناك الرجال وهناك النساء، وغرائزهم ودوافعهم هي نفسها التي كانت منذ زمن سحيق والتي تبقى اليوم. حتى «العباية»، التي هي غطاء اسود يشبه العباءة التي كانت جميع النساء المسلمات وغالبية اليهوديات والمسيحيات يغطين بها انفسهن من الرأس حتى الإبهامين، لم تكن ضمانة ضد الإثارة الجنسية. احياناً، بالفعل، تتحول [العباية] بفضل مرتدياتها لتؤدي وظيفة تكون

على طرفي نقيض مع الهدف الأصلي الذي صممت من اجله. وإذا كانت السيدة تقصد الإغواء، فبإمكانها القيام بذلك حتى بشكل افضل مع العباية منه بدون عباية – وإذا كانت غير جميلة، او متوسطة العمر، او غير جذابة لأي سبب كان، فقد كان بوسعها دائماً اللجوء الى ارتداء «البوشي»، التي تغطي وجهها تماماً والذي كان يهدف الى حماية اخرى من اجل الحشمة والعفة.

اتذكر جيداً الفترة التي عملت فيها كاتباً في المصرف حينما، وأنا جالس ذات مرة في منتصف النهار ادقق الأرقام وأحاول موازنة الحسابات، وقفت امرأة بعمر غير محدد تغطي وجهها تماماً [وقفت] بمواجهة امين الصندوق المقابل لي. كانت تقف هناك، لصرف صك او دفع فاتورة، وتنحني على الصرّاف الخشبي؛ وعمدتْ على القيام بذلك بطريقة بحيث اصبح ردفاها الجميلين، والمدورين بارزين بكل تعرجاتهما وتفاصيلهما. كانت ايضاً تحوّل جسدها على الدوام بطرقٍ وجدتها استفزازية ومثيرة جداً لدرجة انني اضطررت حينها ووقتها ان اخفّف من التوتر، مستخدماً الوسيلة الحاضرة دائماً والملائمة الموجودة في جيب بنطالي بينما انا مستمر ظاهرياً بتلك الأرقام والأعمدة.

لكن ليس جميع سيدات بغداد كنَّ يغطين اجسامهن ووجوههن. ومن اجل الإغراء والإهتياج وحتى مزيد من الإثارة كانت هناك سيدات يُطلق عليهن تأدباً فنانات، عادة يؤتى بهنّ من اقطار البلقان وجنوب شرق اوربا للعمل في النوادي الليلية التي دخلت حديثاً وفي «الملاهي». لا اعرف كيف ان هؤلاء الشابات وغير الشابات يتم استئجارهن اليوم كأشياء جنسية. وبضياضهن الثلجي، وسمنتهن، وفي الغالب بدانتهن، وملابسهن المبهرجة، وبوجوههن وشفاههن المثقلة بالأصباغ، اعتقد بأنهن لا يجتذبن الكثير من الإنتباه في أي عاصمة غربية اليوم والقليل جداً من هذا حتى في العواصم الشرق اوسطية.

في بغداد تلك الأيام، على اية حال، كانت هذه الفنانات الاجنبيات موضع شهوة عارمة rage. في وقت العصر، اعتاد ارباب عملهن الماكرون توجيههن للخروج في الهواء الطلق، والطريقة التي كانوا يقومون بها تتمثل في استئجار «عربانة»، وهي عربة ذات حصانين مألوفة جداً في بغداد في ذلك الحين، وقيادتها في شارع الرشيد العام من البداية حتى النهاية وعلى مهل. كنّ يجلسن هناك في العربات المكشوفة، عادة اثنتين في كل مرة، مع رفع تنوراتهن بشكل ملحوظ فتبين افخاذهن. فلا كُتَل الأجساد الكريمية المعروضة ولا الآثار الزرقاء للعروق التي كانت هناك يراها كل شخص قد اثارتني او اثارت اياً من زملائي على انها طريقة قبيحة او بغيضة. بل على العكس، كنّ ببساطة افضل اعلان كان اصحاب هذه الملاهي يطمحون اليه.

كنت اتردد على هذه الملاهي مع اصدقاء متى ما تكون هناك نقود كافية ندفعها لأقل سعر. لم يكن هناك، طبعاً، أي شك من اي نوع في طلب المشروبات هناك، وعادة ما كنا نذهب هناك بعد ان نتناول القليل من المشروبات خارج ما بوسعنا تحمله. كما لم يكن هناك فن نتحدث فيه، ايضاً؛ فعمل الفتيات لم يكن ينطوي على شيء اكثر تعقيداً من الظهور في «نمرة» شبه عاريات وعرض بضاعتهن، غالباً بمساعدة زميل ذكر اعتاد ان يرقص مع الفتاة ومن ثم، سورة غضب، يجد طريقة في طرحها ارضاً على وجهها او بطريقة ما اخرى يتمكن فيه الجمهور الراقي من رؤية المزيد من

اردافها العارية. ثمة طريقة اخرى لإشباع فضول الزبون تتمثل في حمل الراقص الذكر لـ«الفنانة» ويقوم بالدوران من اجل ان لا يشعر أي احد بالخداع.

كنا جميعاً نصف مفلسين بشكل مزمن وكل الذي كنا نستطيع فعله هو الجلوس ومراقبة النِمَر [الأرقام]. اما الرجال الأكثر حظاً، عادة اكبر عمراً منا بكثير، فقد استطاعوا الحصول على المزيد. صديق كردي لي ايام الدراسة في مدرستي الليلية، علي الطالباني، قصّ علي ذات مرة تجربة خاضها اخوه الأكبر – وكيف استطاع فعلاً ان يضاجع احدى هذه الفنانات. وكونه ضابطاً في الجيش ذو رتبة كبيرة، فقد ذهب الى الملهى في اليوم الذي استلم فيه راتبه. تناول القليل من المشروبات وأخذ يراقب النِمَر. ثمة راقصة انجذب نحوها على نحو خاص، وبشكل لايقاوم على مايبدو. ولأنه لا يجيد اية لغة اجنبية ولعدم رغبته في الإنخداع، اخرج ببساطة من جيب الصدر رزمة من الأوراق النقدية – المجموعة بأكملها، مامجموعه 24 ديناراً (مايعادل 100 دولار) ولوّح به امام وجهها. على اثر ذلك اشارت له بأن يتبعها الى غرفة في الطابق الأعلى، حيث اخذ منه ذلك دقائق معدودات ليريح نفسه من مأزقه الجسدي ومصروفه لشهر كامل. كانت هناك، من المؤكد، القليل من المسارح المحلية التي وقف عليها مطربو البلد المشهورون – سليمة باشا، و زكية جورج، و صديقة الملاية، وآخرون – أمام المايكروفون وغنّوا. (لم يتخلل ذلك أي رقص). كانت هذه الملاهي التي نرتادها ارخصها سعراً، لكن الملاهي «المضبوطة» والتي كانت مهمة جداً، فإن مسألة العرض الجسدي في هذه الأماكن كانت تعدّ قضية بالنسبة لنا.

الإرتباط بالكلچية

لم يكن بوسع أي من اقربائي في تلك الأيام تحمّل مثل هذه المباذل، تماماً مثلما كنا نحلم جميعاً ونتخيل هذه المخلوقات الأنثوية النادرة. وبدلاً عن ذلك، نحن الشياطين التعساء كان لدينا مواطنينا لنذهب اليهم كعزاء لنا. ذلك ليس لأن الفتيات المحليات في المبنى المجاز من الحكومة ذي اللون الأحمر بأزقته الضيقة كنّ جميعاً سيئات المنظر او طاعنات في السن وغير جميلات بحيث لايمكن قبولهن كأشياء جنسية. كانت الكلچية، وهو الإسم التركي الذي كان يُعرف به المكان، تعرض مجموعة لابأس بها من الألوان، والأعمار، والأصول الإثنية، والأشكال – وكانت الأسعار مناسبة جداً، تتراوح بين50 الى 150 فلساً (أي 20 الى 60 سنتاً).

لكن المكان ارتبط بإسم سيء جداً، فيما كان رجال الشرطة المرابطون عند المدخل لم يقتنعوا دائماً او تروق لهم ادعاءاتنا بأننا لم نكن دون سن الثامنة عشرة. مع ذلك كنا نذهب الى هناك، عادة انا مع صديق اكبر قليلاً وأكثر دراية بحِيَل هذه التجارة. دائماً ما كانت تبرز مشكلة السرعة: فكلما كانت الفتاة اكثر جاذبية ومحبوبة، استهوت الكثير من الزبائن – كما ان طرقة لطيفة على الباب في منتصف الفصل act لم يكن حدثاً غير اعتيادي. ليس هناك متسع من الوقت للحديث، والإنغماس في مسرحية حب، والتأثّر عاطفياً بشأن قضايا تتعلق بالظروف التي كانت تُجبَر فيها «فتاة لطيفة مثلك»، صغيرة جداً وبريئة جداً،ان ينتهي بها المطاف في مكان كهذا. كنتَ تدفع النقود وتأخذ «متعتك» وكان ذلك الذي يحصل.

ولكوننا شباباً، اغلبنا عاطلون عن العمل ولدينا المزيد من الوقت، فقد اعتدنا على اية حال تجربة هذا الموقف والإلتفاف حوله عن طريق الذهاب الى المكان في وقت متأخر في المساء – طالما كان المكان مفتوحاً رسمياً – بدلاً من الليل حيث كان البالغون والسكارى يحتشدون في الأزقة والمنازل. لذلك كان ممكناً بالنسبة لنا، في كثير من الأحيان، ان نبقى وقتاً طويلاً مع فتاتنا المختارة، ونقوم ببعض المداعبة، ونتحدث معهن، وننهي مهمتنا بسلام وهدوء نسبيين. لكن المنغّص الوحيد الذي اعتدنا على مصادفته هو انه، حتى لو مكثتَ وقتاً طويلاً جداً، لا تستطيع ان تحصل على نشوة مضاعفة بالنقود نفسها ونحن كنا مفلسين جداً بحيث ليس بمقدورنا تحمّل تلك الرفاهية. في جميع خبرتي، فقط فتاة واحدة وافقت على ابقاء السر بيننا وبهذا لم تطلب سيدتُها اجراً اضافياً.

اما بالنسبة للوقاية من الأمراض التناسلية، كانت هذه، فضلاً عن الفحوصات اليومية التي كان من المفترض ان تخضع لها الفتيات في الكلچية كإجراء روتيني، تقع في نوعين – الواقي الذكري، الذي لم يمنع الإتصال المباشر فقط بل كان يعني مصاريف اضافية وبهذا لم يُستخدم دائماً، وكذلك الغلاية الكبيرة الإجبارية المملوءة بماء الرمان وطشت في الزاوية حيث بإمكانك غسل عضوك بعد الفراغ من العملية – وكلما اسرعت الى استخدامه باكراً، كما ينصحون بذلك، كان افضل.

في الشوارع والأزقة المحاذية للكلچية، في حي الميدان سيء الصيت، كانت هناك عدة مواخير حيث كانت تديرها سيدات فائقة الأناقة جداً. في هذه البيوت بإمكان المرء ان يحصل على خدمات اناث شابات اكثر نظافة وبالتأكيد اقل استخداماً، وبأسعار تتراوح بين 350 الى 500 فلس، وهذا مبلغ باهظ لم نستطع تحمله الاً لماماً. كانت [هذه الأماكن] تُغلق، اذ ان المنشآت الحصرية لا تتم ادارتها وصيانتها الاّ بفضل الرشاوى الإعتيادية المدفوعة لأفراد ما يسمى بشرطة الأخلاق المسؤولين عن إبقاء هذه الأحياء بعيدة عن مثل هذه الأمور. لذلك كان امراً محفوفاً بالمخاطر، اذ عند زيارة المرء التالية يكون عرضة ليجد البيت فارغاً او يشغله اناس محترمون.

ومزية اخرى لهذه الأماكن هي انك بإمكانك الذهاب الى هناك في وقت مبكر في المساء. في احد هذه الأماكن تعرفت على شابة تسمى خيرية – وهي فتاة رقيقة جدا منحدرة من الشمال، بعينين زرقاوين وشعر اشقر وبشرة ثلجية. امضيتُ الكثير من الوقت معها وزرتها اكثر من أي عاهرة اخرى كنت اتردد عليها. بُعيد الغداء، حينما كان لدى المسكينة فرصة لأخذ قيلولة، اعتدت على الذهاب الى المنزل، حيث كانت السيدة ستقودني الى غرفة الفتاة مع اعطائي معلومات بأنني استطيع ان اوقضها، بتقبيلها اذا ما شئت. ردود افعالها تجاه محاولاتي لمواساتها، التي [أي محاولاتي] لا يطابقها شيء سوى عاطفة عناقي، لم توقف تساؤلاتي. وبدون ان تصوغه في كلمات حقيقية، فإن ردة فعلها الثابتة كانت نظرة حزينة وذات معنى تنم عن فهم، وعطف، وشفقة، كما لو انها تقول: ما الذي يعلمه الشباب الصغار السُذّج امثالك بأشياء كهذه. اتذكر بأن ما كان يثيرني ويحزنني اكثر هو الغياب الواضح للأمل، اليأس في تلك العينين الآسرتين، وعجزي وعدم قدرتي على فعل شيء ما شهم وناكر للذات بشأن ماعرفته بأنه محنتها المرعبة.

بعد ذلك بعدة سنوات، صادفتُ كتاباً مُنتَجاً بشكل جميل ويحمل عنواناً مثيراً ايضاً – «المومس في الأدب التقدمي»، نشرته في بريطانيا دار نشر اليسون و بسبي عام 1982. المؤلف، خالد قشطيني، هو زميل عراقي من جيلي برغم انني لم اصادفه في بغداد. في هذا الكتاب يكرّس مجالاً صغيراً جداً لـ «الأدب التقدمي» حول المومس في اللغة العربية لكنه يتمكن من ادراج فقرات شبه سِيَرية semi-autobiographical تتعلق مباشرة بالتجارب التي سردتها للتو. يكتب قشطيني «لايثيرني الآن».

بأن اول مغامرة في الكتابة قمت بها شخصياً اثناء سِنِي دراستي الجامعية – سني مثالية الطالب، والصراع ضد الإمبريالية الحامي الوطيس والولاء لقضية الثورة الإشتراكية في العراق – كانت مسرحية تتعلق بمومس لم تستطع فهم لماذا لا يُسمح لها بالتخلص من رضيعها مثلما ارادت. في بواكير الخمسينات، اصبح المبغى القديم في حي اليهود في بغداد، وهو الكلچية التاريخية، مرتعاً للمفكرين الثوريين الذي كانوا يرتادون المكان على الأغلب بوصفه واجباً وطنياً وغالباً بدون امتلاك المزيد من النقود لدفعها، او الثقة لمفاتحة قوّاد، او الشجاعة للمجيء الى أي مكان بالقرب من أية امرأة. درجنا على التجوّل في زوايا وشقوق الممرات القديمة، ونحن نتلو نصوصاً من البيان الشيوعي، وأبياتاً من قصيدة محمد صالح بحر العلوم التي تُقرأ على قبر مومس. هناك الرسام الذي دفع الى مومس سوداء فقط من اجل ان تجلس له. هناك كاتب القصة الذي دعا مومس عمياء لوجبة كباب لمجرد ان يسمع قصتها. هناك الناقد الأدبي الذي ذهب بعيداً ليشتري لنفسه غمداً مطاطاً لمجرد ان ينتهي به المطاف بنفخه على شكل بالونة. هناك الكاتب السياسي الحقيقي الذي ذهب فعلاً الى السرير مع زهرة وخرج باكياً.

بلا شك،ان خبراتي وأفكاري شاطَرَتْها، وتشاطرها، جماهير الشعب في العديد من الأماكن حيث يكون الصراع ضد الظروف الغبية على اشدّه. في الفصول الختامية من رواية (الأبله) يقصّ دستويفسكي كيف ان طبقة المثقفين في زمانه كان متوقعاً منهم ان يتخلون عن حبهم الحقيقي لحبيبات قلوبهم واحتضان نساء ساقطات لا لشيء سوى اثبات وجهة نظرهم مقابل «قضية المرأة» بأن «امرأة ساقطة هي، بالفعل، تتفوق على امرأة لم تسقط.» حيثما يكون هناك جور، يكون هناك استعباد للنساء واستغلال وانحطاط للجنس.

الفصل العاشر

ايام البطالة

قضيتُ السنوات 1937 – 1939 في خمول تام تقريباً بقدر تعلّق الأمر بالعمل والدراسة المنتظمة في المدرسة. فشهادة المدرسة الإبتدائية، التي تشير الى النهاية الناجحة للمراحل الستة من المدرسة الإبتدائية، حصلتُ عليها اخيراً عام 1938. من المؤكد، ان هذه الوريقة من ناحية اخرى تخولني بالدخول الى مدرسة متوسطة؛ لكن لسبب او لآخر – بشكل رئيس بلاشك هو مقتي الشديد للمدارس الذي كنت اعانيه في سنواتي في مدرسة راس القرية – لم اتخذ تلك الخطوة. وقبيل نهاية عام 1940، حينما بلغت سن السابعة عشرة وكنت على وشك ان يستدعيني الجيش للخدمة الإلزامية التي امدها سنتان، قررت اخيراً ان التحق بمدرسة مسائية، لأصبح بهذا طالباً مسجلاً وهكذا أعفى مؤقتاً من التجنيد الإلزامي.

كان لي من العمر سبع عشرة سنة حينما التحقت بمتوسطة الشرقية المسائية – وكنت من الناحية الفكرية متطوراً جيداً الى حد ما لأن تلك الأشياء مرّت في تلك الأيام. ذلك لأن سني بطالتي لم تذهب سدىً برمتها. بل، انني استطعت طوال تلك الفترة ان انخرط في مشروع طَموح الى حد ما من التعليم الذاتي ولو انه شخصي فوضوي نوعاً ما. فخزانة الكتب التي صنعتها خصيصاً لي اثناء عملي في مخرن الأثاث قد مُلئَت على آخرها، بجميع رفوفه التسعة.

ومنذ نعومة اظفاري بدأتُ بقراءة الكتب والمجلات العربية، مبتدئاً بالروايات التاريخية المتعددة ل جرجي زيدان والترجمات والملخصات الكثيرة لقصص الحب والروايات الإنكليزية والفرنسية التي انتجها المصري مصطفى لطفي المنفلوطي والعديد من الأدباء السوريين واللبنانيين الذين لا اتذكر اسماءهم. لم اكن قارئاً نهماً فقط بل كنت ايضاً شغوفاً بالكتب. كنت احب امتلاك والإحتفاظ بالكتب التي اقرؤها، او التي لم اقرأها، وفي سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة كنت بنيتُ لنفسي مكتبة بيتية ضخمة –حيث جمعتُ أعمال أفضل وأشهر الكتاب المصريين، من بينهم طه حسين، أحمد امين، محمد حسنين هيكل، ابراهيم عبدالقادر المازني، توفيق الحكيم، عباس محمود العقاد، وآخرين. كما انني جمعتُ اعمال الكتاب الكلاسيكيين امثال كتاب الأغاني، رسائل اخوان الصفا، تاريخ ابن الأثير، مقدمة ابن خلدون، ودواوين الشعراء الكلاسيكيين مثل المتنبي، المعرّي، ابن الرومي، وآخرين. كذلك تصدّرت رفوف مكتبتي مجلدات من المجلات الأسبوعية التي جُمعت وحفظت بعناية مثل مجلة الرسالة ل محمد حسن الزيات، ومجلة الثقافة لأحمد امين، ومجلة الرواية، والمجلتين الشهريتين الرائدتين، الهلال والمقتطف.

بعد فترة قصيرة نسبياً، على اية حال، ايقنت برتابة الأدب المنتَج، كان اغلبه يتألف اما من اعادة طبع الأعمال الكلاسيكية والإسلامية او الأعمال المعاصرة، الذي كان السواد الأعظم منها مكتوباً بنَفَس تقليدي. احسست بالملل والتعب من الطابع الممل لمعظمه والندرة القاتلة للأعمال الأدبية الإبداعية الأصيلة حقاً.

في وقت ما اثناء النصف الثاني من الثلاثينات، على اية حال، بدأت نسمة ندية تأتي من عاصمة ثقافية اخرى في العالم العربي – وهي بيروت. اذ تمّ اطلاق مجلة اسبوعية تحمل اسماً غير مألوف هو «المكشوف» – التي تعني حرفياً الظاهر لكنها ايضاً تشير الى الصراحة والفضح – على يد مسيحي لبناني مغامر وفي الحال اصبحت متنفَّسا للشعر التجريبي والطليعي، والقصة، والنقد.

وعلى صفحات مجلة المكشوف بالذات سجّل بعض افضل الكتّاب اللبنانيين في فترة الأربعينات والخمسينات ظهورهم الأول – وهناك شاهدتُ اول مرة اعمال هؤلاء بالإضافة الى عدد اخر ممن كانوا يتمتعون بسمعة محدودة. وضمّ هؤلاء اسماء من قبيل خليل تقي الدين و توفيق يوسف عواد في القصة؛ إلياس ابو شبكة في الشعر؛ مارون عبود و عمر فخوري في النقد الأدبي؛ و قسطنطين زريق، و رئيف خوري، وقدري قلعجي في الآيديولوجيا والسياسة. والى جانب هذه المجلة الأسبوعية، اخرج ناشرها، وهو دار المكشوف، الأعمال الأولى لمعظم هؤلاء الرواد في الشعر الحديث والقصة في العالم العربي.

في العراق نفسه، كان المشهد الأدبي فقيراً جداً بالفعل، ماعدا المجلة الأدبية الثقافية التي استطيع ان اتذكر ظهورها في المعقل الشيعي، النجف، يحررها جعفر الخليلي، وهو كاتب غزير الإنتاج لقصص قصيرة غير مكترثة نوعاً ما. وهذا لا يعني انه لم يكن هناك كتّاب؛ لكن معظم هؤلاء كانوا شعراء من المدرسة الكلاسيكية وكان القليل ممن جرّب القصة. من الشعراء، كان ابرزهم محمد مهدي الجواهري، و محمد صالح بحر العلوم، و أحمد الصافي النجفي، المعروف على نطاق واسع بترجمته العربية المتقنة لرباعيات عمر الخيام. كان هؤلاء الشعراء الثلاثة، وجميعهم من الشيعة، ناقدين جداً ولاذعين في هجومهم على النظام والسلطة. كتب بحر العلوم ذات مرة، رداً على احداث 1936-1937، عقب انقلاب بكر صدقي، بيتاً من الشعر مازلت اتذكره. وهو:

لنا دولة شاخت وإن تكُ طفلة وقد هرمت قبل ان تبلغ الرشدا

ان العمل القصصي العراقي الوحيد الذي اتذكّره من هذه الفترة هو مجموعة قصصية بعنوان «الجمرة الأولى»، كتبها كاتب يهودي شاب، هو يعقوب بلبول.

برغم ان مجلة الرسالة كانت قد بدأت النشر قبل ان ابدأ بقراءتها، فإنني تمكنت من الحصول على مجموعة كاملة من هذه المجلة الأسبوعية، مجلدة في مجلدات بواقع 26 عدداً لكل منها، بينما الحال مع كل من مجلة الثقافة و مجلة الرواية فقد كنت اكثر حظاً في انني بدأت بشرائهما منذ ظهورهما الأول. اذ درجتُ على البحث عن محال الكتب المستخدمة وشراء المجاميع الكاملة من الدوريات القديمة، ذات العمر القصير عادة، التي تعلمت منها الشيء الكثير بخصوص التطورات الأدبية والثقافية في العراق في العقود القليلة الماضية.

وفي هذه الفترة من البطالة تعرّفت ايضاً على اعمال سلامة موسى ومجلته الشهرية «المجلة الجديدة»، التي، بسبب كونها لا تباع في بغداد، كنت استلمها بالبريد عن طريق الإشتراك. ان سلامة موسى، اسوة بمفكرين مصرين قلائل امثال اسماعيل مظهر، فؤاد صروف، وآخرين، كانوا يعدّون

حداثويين ومجددين، وكانت كتاباتهم «علمية»، وأدخلوا الى المشهد الثقافي العربي افكاراً جديدة ومبتكرة كالنشوء، والإشتراكية، والقومية، واللاأدرية.

في مجلة الرسالة بالذات قرأت اول مرة «إلياذة» و«اوديسة» هوميروس بالإضافة الى مقالات حول المسرحيين الإغريق والرومانيين وملخصات عن اعمالهم – جميعها ترجمها ولخّصها دارِيني خشبة. ومن مجلة الثقافة تعلمت الفلسفة الحديثة من خلال كتابات زكي نجيب محمود، والحداثة الإسلامية من خلال اسهامات احمد امين وآخرين. كما ان بعض اروع ترجمات شكسبير الى العربية كانت ايضاً تُنشر في تلك الأسبوعية، ترجمها بالشعر الحر محمد فريد ابوحديد. هاتان الأسبوعيتان، اسوة بالمجلات الشهرية والكتب التي ينشرها الناشران الجديدان المذكوران آنفاً، فتحت لي آفاقاً جديدة كاملة من المعرفة وأعطتني لمحات اولى عن غنى وتنوع الفكر الغربي وثقافته.

ثمة اسبوعية اخرى، هي «الرواية»، كانت كما يدل عليها اسمها مكرّسة خصيصاً للأعمال القصصية، وأغلبها ترجمات لكنها تحتوي ايضاً على بعض الأعمال الأصيلة. انه في مجلة الرواية قرأت اول مرة ترجمات لأعمال عمالقة القصة القصيرة امثال موباسان، وروايات كاملة لـ «فلوبير» وآخرين منشورة على شكل حلقات، وأعمال هاردي، وموم، وأو هنري، وملفيل، وعدد من أعمال الكتّاب الإيطاليين والأسبانيين والروس.

الصحوة السياسية

ولم يأخذ مني ذلك سوى بضع سنوات قصيرة لأقول وداعاً لكل هذا، مستخلصاً كل ما يمكن استخلاصه منها.

لقد بدأ الإغتراب من خلفيتي العربية بالنسبة للقضايا اللغوية والأدبية يظهر على السطح، وبشكل غريب تماماً، عندما بدأت اعي من الناحية السياسية العالم الذي يدور حولي. احد المؤثرات المهمة في حياتي هي الحرب الأهلية ألاسبانية، التي كان يقاتل فيها الجمهوريون الشجعان والمعانون الفاشيين المتوحشين الذين يدعمهم العدو اللدود لليهود في ذلك الوقت – المانيا النازية. ووقف بعض اشهر المثقفين والأدباء البريطانيين والفرنسيين الى جانب الجمهوريين، بعضهم اشترك فعلاً في القتال، حيث الشيوعيون يأخذون زمام القيادة، تدعمهم موسكو. في تلك السنوات من اواخر الثلاثينات في بغداد، هناك القليل الذي يمكن ان تتطرق له وسائل الإعلام المحلية، بسبب ادائهم الفقير للغاية من الناحية المهنية والتعاطف المتنامي ولو غير المعلن حتى الآن مع المانيا النازية وايطاليا الفاشية، العدوَين والمتحدَّيين الرئيسيين لـ «الإمبرياليين البريطانيين» المقيتين وذيولهم في حكومات اليوم.

ان الطريقة الوحيدة لتعلّم أي شيء موثوق بشأن العالم وبشأن الايديولوجيات المتصارعة هي معرفة لغة اجنبية، ويفضّل ان تكون اللغة الانكليزية – وهذا الذي حصل بأنني انطلقتُ في ماراثون تعليم نفسي تلك اللغة، لم يهدأ لي بال حتى سيطرت على ما يذاع ويُكتب في المشهد السياسي-الايديولوجي الأوسع. اتذكر بأن اول مجلة اسبوعية ناطقة باللغة الانكليزية التي اشتريتها وقرأتها كانت تسمّى

«اخبار وأراء العالم»، بينما مجلتي المفضلة الشهرية فكانت مجلة «العمال الشهرية». ربما يبدو هذا الآن غريباً نوعاً ما بأن مثل هذه المطبوعات كانت متوفرة للبيع في بغداد في تلك الأيام؛ الحقيقة هي ان بائع سكائر مسيحي على مايبدو ذو ميول شيوعية طلب نسخاً قليلة للناس الذين كانوا يشترونها بانتظام. ولحسن الحظ كان دكانه الصغير غير بعيد عن مكان سكني في ذلك الحين.

من الطبيعي، ليست هناك طريقة للتوقف عند تلك النقطة. بسبب اخبار محاكمات موسكو سيئة الصيت و المسعى الثقافي القلِق، فإنني سرعان ما تحولتُ الى اعمال ماركس الأكثر نظرية وكلاسيكية – الأعمال التي بدأت تتوفر بفضل فكتور غولانسز وشركة النشر التي حملت اسمه، والتي من خلالها كانت الكتب التي اختارها نادي كتاب اليسار شهرياً تباع في على الأقل مكتبة واحدة في بغداد بأسعار زهيدة الى حد ما. شملت هذه اعمال «رفاق السفر» المشهورين امثال جون ستراچي، آرثر كويستلر، جورج اورويل، وآخرين، بينما الشركة كانت تُظهر اعمال معتبرة تتعلق ببعض من هذه الموضوعات النظرية، من بينها، كتاب «كرّاس الماركسية»، الذي قرأته وأبقيته طويلاً بعد تحرري من الوهم بالعقيدة والحزب. وبالتدريج، على اية حال، وجدتُ نفسي اتحول الى اعمال كتاب غير ملتزمين في اليسار، مثل هارولد لاسكي، ليونارد وولف، جَي. بي. أس هالدين، وآخرين.

عند الاقتراب من نهاية الثلاثينات، وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية، كانت مكتبتي تتألف الى حد كبير من كتب باللغة الانكليزية، مع القليل من الروايات العربية وأعمال النقد الادبي والإجتماعي بالإضافة الى الشعر، وكلها لكتّاب عرب طليعيين في ذلك الوقت، من بينهم رئيف خوري، توفيق يوسف عواد، و إلياس ابو شبكة من لبنان؛ ادوارد الخراط، لويس عواد، و ابراهيم ناجي من مصر؛ و احمد السيد، عبدالفتاح ابراهيم، و مهدي الجواهري من العراق – على سبيل المثال لا الحصر. وهكذا، وفوراً بعد لقائي المباشر الأول بالغرب، وسياساته، وحضارته، وأدبه، وقبل لقاءاتي الأولى مع إيلي خدوري، وفيما بعد مع عدد من المثقفين الطموحين والهواة الذين عُرفوا فيما بعد بـ «العصابة» [الشلّة]، بعت بالتدريج او بالأحرى خلّصت نفسي من كمّ هائل من كتبي العربية ومجاميع المجلات. لذا تتألف مكتبتي الآن عموماً من كتب مختارة من دور نشر بليكان، بنكوين، و بنكوين المختارة – سعر كل واحد منها بست بنسات في ذلك الحين – والأعمال القليلة للكلاسيكيات الماركسية وكتب نادي اليسار التي قررت بأنها تستحق الإحتفاظ بها. ولم اكن مستعداً وقادراً على التعامل مع «الأدب» الاّ فيما بعد، أي في وقت ما في بواكير الاربعينات – على العموم اعمال ادبية باللغة الانكليزية، والأعمال الكلاسيكية، والكتب الأساسية في الفلسفة والأدب قديمه وحديثه، وأعمال متنوعة لروائيين بريطانيين معاصرين – كراهام كرين، الدوس هكسلي، ايفيلين واه، والأعمال المبكرة لأورويل.

زكي محمد بسيم ومدرسة المأمونية المسائية

ذات يوم في منتصف شباط عام 1949 حملت الصحف عناوين رئيسة تتعلق بشنق اربعة من الشيوعيين العراقيين البارزين. وهم يوسف سلمان يوسف (فهد)، و زكي محمد بسيم، و حسين

محمد الشبيبي، و يهوذا ابراهيم صدّيق. ومن بين هؤلاء الأربعة فقط يهودا لم اعرفه او التقِ به اثناء السنين القصيرة من مغازلتي للماركسية. لم اقابل يوسف، الذي كان يكنّى بـ(فهد) وكان الزعيم بالتزكية للحزب، بُعيد وصوله الى بغداد اثناء سنوات الحرب قادماً من مكان ما بقي سراً مغلقاً. فإجابات اسئلتي العرضية لم تكن على وتيرة واحدة. كان يُزعم بأن يوسف عاد الى بغداد – آناً من مسقط رأسه في الجنوب، وآناً من «الخارج»، لكن اخيراً تحدّد لي بأنه عاد بعد سنوات من «التدريب» في اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية.

حينما التقيته اول مرة، في منزل الأصدقاء والرفاق، أحدهم كان مرشدي ومخلّصي المستقبلي، عبدالله مسعود، كان يوسف بدأ لتوّه يجمع التنظيم السري الذي كان سيصبح الحزب الشيوعي السري في العراق – بالإضافة الى محاولة الحصول على التجهيزات، والأموال، والأشخاص لإصدار اول دورية سرية للحزب – وهي دورية «الشرارة». كان شخصاً لطيفاً، ماكراً وغالباً يبدو لي انه الرجل المناسب لهذه الوظيفة. لكن سرعان ما تفرّقت بنا الطرق لأنني ببساطة لم اكن «متواجداً» من اجل التجنيد او من اجل أي عمل سياسي.

الى حد ما على النقيض من يوسف، كان حسين الشبيبي مثقفاً حقيقياً – جِدًّيا، رصيناً دائماً، وغالباً متأملاً. لم اعرفه جيداً، وكانت معرفتي به نتيجة لزياراته المتكررة وتصفحه في مكتبة الرابطة، حيث بدأتُ العمل عام 1946. مثل فهد، على اية حال، لم يكن [حسين] بغدادياً؛ اذ انه انحدر من عائلة شيعية بارزة في مدينة النجف الأشرف. يصعب عليّ نوعاً ما ان اتصوره حتى في عقلي بأنه الشيوعي النشيط الذي – عندما يصدّق المرء بالمدعي العام في محاكمته – اخذ على عاتقه فعلاً اعباء قيادة الحزب عند غياب فهد. في الحقيقة، كان لدي الإنطباع – الذي يبدو انني اتذكر بأنه يشاطرني فيه آخرون في ذلك الحين – بأن عمليات الشنق تلك تمّ حسابها من بين امور اخرى لإظهار نوع من «الإنصاف» بقدر تعلق الأمر بالإنتماءات الدينية والإنقسامات الطائفية. فما هو افضل دليل على هذا يمكن اعطاؤه من تخصيص عقوبة الإعدام لسنيّين، وشيعي واحد، ويهودي؟ (24)

كنت قابلتُ زكي محمد بسيم في عام 1938، حينما كنت في نهاية المطاف اداوم في المرحلة السادسة في مدرسة المأمونية الإبتدائية المسائية. كان زكي ايضاً يريد انهاء دراسته الإبتدائية والحصول على شهادة البكالوريا الحكومية. كان لديه في ذلك الوقت مهنة بدوام كامل بصفة كاتب اصغر في قسم المياه، وهي دائرة حكومية. وتطورت صداقة، بشكل رئيس على اساس الإهتمام المشترك في السياسة.

بدا تطور زكي السياسي غريباً جداً، لكنني اعتقد بأن ذلك ليس غير متوقع تماماً من الوطنيين العراقيين الشباب في ذلك الحين. فإثناء السنتين او الثلاث سنوات التي سبقت بالضبط اندلاع الحرب العالمية الثانية، بدأت تستفزه المشاعر المعادية لبريطانيا، وبالضبط شأنه شأن السواد الأعظم من ابناء جيله الواعين سياسياً. اذ كان يجادل بلا هوادة بشأن الدور الشرير الذي كان يُزعم بان البريطانيين يلعبونه في سياسة البلد ومساهمتهم في حالة التطور المتخلفة بشكل دائم. وكانت رغبته

الجامحة تتمثل في رؤية نهاية لذلك النفوذ وأن العراق تحكمه حكومة وطنية حقيقية تهتم بمصالح البلاد من دون تعهدات تجاه اية قوة اجنبية.

لا اتذكر جيداً إن كان اضمرَ او اظهرَ أية عواطف نحو ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية قبل الحرب، لكن طالما اندلعت الحرب اصبح زكي تلقائياً، ومنطقياً نوعاً ما، مؤيداً متحمساً لقوى المحور وعدواً لدوداً للتحالف. حينما وبّختُه حول موقفه، الذي تضّمن وقوفه الى جانب الفاشيين والنازيين، احتجّ بأن هدفه الوحيد هو رؤية البريطانيين منهزمين خارجين من العراق – وأن موقفه ليس له علاقة من أي نوع بالآيديولوجيا الحاكمة للمحور، ناهيك عن ايديولوجيتهم المعادية للسامية وأساليبهم المناهضة لليهود.

وقبيل نهاية الحرب العالمية الثانية بهزيمة المانيا وقوى المحور، اصبحت عواطف زكي وبشكل مضطرد مؤيدة للسوفيت، على مايبدو لأسباب ايديولوجية الى حد ما لكن بشكل رئيس بسبب موقف السياسات والتصريحات السوفيتية المعادية للإمبريالية. اميل الى الإعتقاد بأن زكي، الذي هو الآن في منتصف عشرينياته، وجد اخيراً ايديولوجية سياسية منقاداً الى عواطفه – التي صادف ان تكون مناهضة للإنكليز ومناهضة للإستعمار. لذلك كان من الطبيعي بأنه، عندما انتهت الحرب، رمى بنفسه بكل اخلاص في القضية الشيوعية و، كونه واحداً من اكثر الرجال جدية ومنهجية رأيته في حياتي، سرعان ما وجد نفسه يلتحق بصفوف الحزب الشيوعي السري الذي يقوده فهد. منذ ذلك الحين فصاعداً يبدو ان ليس هناك حدود لولائه للقضية – وما اسرع ان انخرط ببعض اخطر الأنشطة. لكن الحقيقة هي انه بينما كانت السلطات العراقية ابان سنوات الحرب تتسامح او تتغاضى عن الأنشطة المؤيدة لموسكو، فإنهم بدؤوا يضيقون الخناق بُعيد انتهاء القتال واندلاع الحرب الباردة.

لكن الشيوعيين مضوا مباشرة بانشطتهم السرية، وإصدار مجلة الشرارة لم يتوقف تماماً، برغم الإغارة على بناياتها السرية والإستيلاء على الماكنة البدائية التي كانت تُطبع فيها ومصادرتها.

وفي وقت ما اثناء هذه الفترة من الضغط العصبي والتوتر كان زكي يُستدعى للإضطلاع بدور اكثر فعّالية في انشطة الحزب – وعندما اصبحت الأمور قاحلة جداً بالنسبة للشيوعيين بعد ان تعافت الحكومة من صدمة الإضطراب الشعبي المعروف بـ«الوثبة» في نهاية عام 1947، تولّى زكي فعلاً مسؤولية المنظمة عقب اعتقال فهد والشبيبي. اخيراً، هو نفسه تمّ إلقاء القبض عليه و، بعد محاكمة صورية، حُكم عليه بالموت وشُنق اسوة بفهد، والشبيبي، ويهودا صدّيق.

وطوال السنوات 1938-1941، كنا زكي وأنا صديقين جيدين جداً، ولقلتُ افضل صديقين لوكان عنده اصدقاء آخرين. وكونه انساناً عصامياً عليه بعض المسؤوليات العائلية، كان زكي مشغولاً جداً في تحسين وضعه والجد والإجتهاد في وظيفته ليشترك في نوع من الملاحقات العقيمة التي درج على استهلاك كل وقته فيها؛ فهو كان ببساطة شخصاً اكثر جدية مني – ربما انا جدي بعض الشيء. وكانت النتيجة هي، ماعدا اللقاءات التصادفية والزيارات القليلة التي ازوره بها في مكتبه، انني لا

اراه الاً لماماً. حينما كنا مانزال في المدرسة وفقدتُ فجأة وظيفتي، عرض زكي مساعدتي برغم حقيقة ان وضعه المالي كان سيئاً جداً. رفضتُ في البداية، لكن في النهاية توصلنا الى اتفاق – وهو انه «يقرضني» 250 فلساً في الشهر شريطة انني اردّها له حينما احصل على وظيفة. في بداية كل شهر، لعدة اشهر، حينما كان زكي يعمل الى وقت متأخر ولم يكن عنده وقت للذهاب الى البيت ليأكل قبل ان يأتي الى المدرسة، اعتاد اخوه الأصغر ان يجلب له وجبة اليوم الرئيسة الى المكتب، حيث كنت اشاركه فيها حينما كان يغادر الجميع.

كان المبلغ 250 فلساً مبلغاً كبيراً في تلك الأيام الخوالي. ومن المؤكد، ان المبلغ لم يكن يعادل اكثر من خمسة شلنات انكليزية او اكثر بقليل من دولار امريكي بأجمعه؛ لكن دفع زكي لكامل المبلغ كان ربما اقل من ستة دنانير (أي 30 دولاراً) والنقود التي كان راغباً بإعارتها لي احدثت شيئاً من الإختلاف في ميزانيته. على اية حال، اعتاد ان يبدو اكثر اعتذاراً بشأن الموضوع برمته، وهو يشرح لي بأدبٍ بأنه سيكون خالي الوفاض تماماً على اية حال بمرور اليوم الأول من الشهر، ما يعني انه نفسه سيبدأ بالإقتراض في اليوم التالي ليجعل الأمور تسير طيلة شهر من الزمان، وان «ذلك لم يُحدث فرقاً». بالنسبة لي، كنت اصرف النقود في شراء القليل من المجلات الأسبوعية وكتاب او كتابين وأدفع اجرة ذهابي الى المقهى لبضعة ايام. كمثال على ذلك: كان بوسع المرء ان يقضي نصف اليوم في مقهى حسن العجمي المريحة والمثيرة مقابل ليس اكثر من خمسة فلوس، وإذا اراد الشخص ان يقرأ جميع صحف الصباح على فنجان شاي، كان بمقدوره ان يقوم بذلك بسعر فلسين. وأخيراً تمكنتُ من دفع جميع ديوني المتراكمة الى زكي.

في بغداد في تلك الأيام كان المقهى بمثابة مؤسسة تماماً. ففضلاً عن كونه ملاذاً لنا نحن العاطلين، كان ملتقى مثالياً للأصدقاء، وفي ذلك المكان كانت تجري نقاشات لا حد لها حول السياسة، والأدب، والنساء. وإذ بلغتُ من العمر خمس عشرة او ست عشرة، بداتُ التردد على المقاهي، والمقهى المفضل عندي هو مقهى حسن العجمي، الذي كان «فاخراً» وقريباً والذي كان ببساطة يقدّم افضل كأس شاي في المدينة. في الحقيقة، كان الشاي جيداً وكان يضفي عطراً محببا لدرجة ان بعض منافسي عجمي اشتكوا الى البلدية بأن الشاي المقدّم في مقهاه يحتوي على نوع ما من المخدّرات. من المؤكد جداً، اظهر تحقيق متأنٍ بأنه في مكان ما داخل اعلى ابريق الشاي حيث كان الشاي يُترك لـ «يطبخ» كان تُحشر قطعة صغيرة من الترياق (الحشيش)، لذلك ان ما كان يُعطي شاي المقهى المشهور عطره وطعمه الخاص هو ذلك المخدر المذكور. لم يتم اتخاذ اية اجراءات ضد صاحب المقهى، على اية حال، على الأغلب بفضل الشلنات القليلة المدفوعة الى مفتش البلدية.

وكان لمقهى العجمي سحر آخر لايقاوم. شافتالو الشهير، الشخص الذي كان يطوف المكان ليقدّم للزبائن رشفات صغيرة من القهوة، كان بطريقته الفريدة ممثلاً هزلياً ومسلياً، واعتاد ان يطوف الأرجاء وهو يردّد اقواله المضحكة، التي بدت اكثر إضحاكاً بلكنته الفارسية الثقيلة. من بين العديد من الأقوال، اتذكّر قولاً بخصوص الإختلاف بين «الشِجَر و الباذنجان» «الشِجَر يحب دهن، الباذنجان مياكل دهن». كذلك سمعتُ في مكان ما بأن شافتالو اعتاد ان يضرط حسب الطلب؛ بمجرد ان تطلب منه ذلك.

في ذلك المقهى عملت وانشأت معظم صداقتي الدائمية في اواخر الثلاثينات – أي، حتى كبرتُ على ذلك بسبب اهتماماتي الفكرية المتقلبة والمهنة الدائمية التي حصلت عليها اخيراً مع المصرف الشرقي.

صناعة المعتدل المتعصب

اثناء مقابلة صحفية قام بها قبل بضع سنوات، تحدّث الكاتب الاسرائيلي عاموس عوز عن انشغاله بظاهرة التعصب. كان مسحوراً، كما قال، بـ«الغرائز التي تظهر وكأنها افكار او تصبح افكاراً». وإذ يؤكّد بأن اهدافه الرئيسة تتمثل بـ«مقاتلة التعصب بوصفه كينونة سياسية وفكّ شفرته بوصفه قاصاً»، قال اوز بأنه مستغرب من السهولة والحماس الذي يكتشف به الناس الأشياء التي جعلوا يعدّونها اكثر اهمية من الحياة نفسها. واعتقد بأنه لابد ان يكون هناك نوع من الكره الرئيسي للحياة المعاشة هناك – نقص الموهبة تجاه الحياة.

من المؤكد ان هناك احساساً يكون فيه أي شخص يختار ان «يحارب» التعصّب، او أية ظاهرة سوسيوسياسية اخرى، في خطر ان يصبح هو نفسه متعصباً، او متعصباً معتدلاً او معتدلاً متعصباً لكنه متعصب على اية حال. وعندما اتحدّث الى نفسي، لابد ان اعترف بأنه لفترة تمتد الى قرابة خمسة عقود آليتُ على نفسي مقاتلة – فقط من خلال الكلمة المطبوعة طبعاً – تلك السمة من التعصب الإسرائيلي الذي يعبّر عن نفسه الآن في العِرقية ethnocentricism والتحيّز العنصري-العرقي، الموجود آناً في الحضارية culturism، وآنا اخرى في التقسيم الإعتيادي للعالم الى «امم» غير متصالحة على مايبدو، العرب واليهود ومن دارَ في فلكهم. اتساءل احياناً، عندما، في نهاية المطاف، لا يكون هذا نوع من لعبة فكرية، أي لعبة على الأفكَار التي تثبت خطورتها في انها تأخذ الأفكار على محمل الجد. على اية حال، اودّ ان ارى هذا الميل ليكون قاعدة انطلاق من رغبة لعقدِ نوع من التوازن من خلال التراصف juxtaposition والتواجه confrontation وهو نوع من الفضول يجعل المرء يضع نفسه في مكان شخص آخر – عادة اولئك التابعين للحزب المهاجَم.

هل نحن نولد بمثل هذه المواقف الذهنية ام اننا نكتسبها من خلال خبرتنا الحياتية الفريدة؟ لا اعتقد بأن هناك جواباً مقنعاً لهذا السؤال. يبدو لي، برغم ذلك، بأنه حتى حينما يتم اخيراً اكتساب مزاج الشخص ومواقفه في هذه القضايا، عندها لابد من اكتسابها في وقت مبكر جداً اثناء حياته بحيث ان تلخيصاً مفيداً او ذا معنى للقضايا والظروف الحقيقية يصبح مستحيلاً جداً. من هنا، اقترح ان اتعامل مع مرحلة متأخرة نسبياً من تطوري الفكري والعاطفي – لاسيما الوقت الذي اكتشفت في نفسي ميلاً ايديولوجياً-سياسياً صافياً.حدث هذا في وقت ما في النصف الثاني من الثلاثينات، حينما اصبحت الحرب الأهلية الاسبانية، التي كانت بدأت بثورة قادة الجيش في المغرب الأسباني في صيف عام 1936، [اصبحت] مسألة دولية بعد ان اعلن فرانكو نفسه بعد اشهر قليلة رئيس الدولة الاسبانية. في ذلك الوقت كنت منهمكاً في كسب عيشي و [كنت] صبياً فضولياً وشديد التأثر جداً في الثلاثين من عمري. احساسي بالتعاطف مع قوات الجمهوريين التي انتفضت لقتال جحافل فرانكو لاعلاقة له بفاشية فرانكو واللاسامية المزعومة بقدر تعلقه بالمسائل العليا الخاصة بالخطأ والصواب، الشرعية

واللاشرعية، حقوق الإنسان ومعاملة اسرى الحرب. ما يبدو انه قوّى انهماكي بمثل هذه المسائل هو حقيقة انه تلك السنة نفسها في مراهقتي شهدت حدثين آخرين الذَين تركا انطباعاً دائماً فيّ.

الحدث الأول كان الإنقلاب العسكري سيء الصيت الذي قاده بكر صدقي. ذات صباح يوم خميس لطيف – 29 تشرين الثاني، 1936 – شوهدت خمس طائرات من القوة الجوية الملكية العراقية تحلّق فوق بغداد وتُلقي منشورات تحتوي على اعلان وقّعه الفريق بكر صدقي يعيّن نفسه «قائداً للقوة الوطنية الإصلاحية». وكان هذا واحداً من سلسلة طويلة من الإنقلابات التي لم تجتح العراق فحسب بل العالم العربي ككل في السنوات التالية. لا اتذكر انني استوعبت تماماً مغزى ذلك التحرك او حتى معناه، لكنه سيطرت علي فكرة التغيير والحديث عن «الإصلاح».

اما الحدث الثاني فقد حصل في 11 كانون الأول في العام نفسه، حينما واجه ادوارد الثامن خيار التخلّي عن رغبته بالزواج بالسيدة سمبسون او ترك العرش، اختار التنازل عن العرش. هذا الحدث، الذي أعطي هالة كبيرة من الإعلام، ترك اثراً بليغاً في نفسي، ووجدتُ نفسي ضائعاً في الإعجاب بالعاهل الذي يتباهى باللقب «صاحب الجلالة البريطانية».

في دكان الأثاث الذي اعمل فيه الآن، اصبحتُ في الحال مساعداً للمحاسب، الذي يأتي مرة واحدة فقط في الأسبوع ليقوم بالقيود الختامية، بوصفه مجرد سكرتير، وصبي خدمة. المالكان، وهما مسلمان متوسطا العمر انتقلا من عاملين اجيرين في مهنتهما الى رجلي اعمال مستقلَين لم يضطرا الى العمل بأيديهما، كانا إما خارجاً يقومان بالمشتريات او راجلين، يخدمان الزبائن، اذ يعرضان لهم القوائم، ويستلمان الطلبات. كانت معظم هذه الطلبات تتم على قوة الصور الملونة المطبوعة على ورق الرسم في قوائم جاءت من اوربا وكانت تُرفق بنصوص بلغة اوربية ما حيث لا احد في المصنع يستطيع او حتى يهتم بقراءتها. ان العيون الإحترافية للمالكيَن ورغبات الزبائن كانت تحدّد المواصفات، اذ ان الأساس الوحيد لهذه الأحكام هو الصور نفسها.

كانت هذه هي السنة التي بدأتُ فيها بقراءة الصحف اليومية بانتظام –عادة ثلاثتها او اربعتها جميعاً. (بائعوا الصحف الجوّالين اعتادوا صراحة على «اعارتك» الصحف لقراءتها بنصف السعر للصحيفة الواحدة). كذلك كانت السنة التي بدأتْ فيها تظهر علائم معينة من المشاعر القومية، مصحوبة احياناً بأعمال وتصريحات مناوئة لليهود. اتذكر جيداً الصباح الذي حملت فيه الصحيفة اليومية الرائدة في بغداد «البلاد» مقالة على صفحتها الأولى بقلم عزرا حداد، وهو مثقف وباحث و مترجم و مروّج publicist يهودي مخضرم جاء فيما بعد بطبعة علمية من «رحلات بنيامين من توديلا، تعلن بعنوان كبير: «نحن عرب قبل ان نكون يهوداً»، كان يعني فعلاً شيئاً ما من قبيل «نحن عرب اولاً ويهود ثانياً».

تبع التماسُ حداد حدثاً او حدثين قُتل فيه رمياً بالرصاص رجال اعمال يهود في شوارع بغداد في وقت مبكر من تلك السنة، ابان حكم رئيس الوزراء «القومي» ياسين الهاشمي، الذي تمت الإطاحة به فيما بعد عن طريق انقلاب بكر صدقي. واتبع كاتب المقال حجة معروفة وموثقة بشكل جيد،

مفادها ان اليهود كانوا قد عاشوا في شبه الجزيرة العربية قبل قيام rise اليهودية – وبالتأكيد قبل قيام الإسلام – وكذلك ان يهود العراق كانوا قد عاشوا هناك قبل الفتح الإسلامي. وكانت طروحته المركزية، على اية حال، مقبولة على نطاق عالمي من جانب يهود العراق في ذلك الحين – لاسيما وأن هؤلاء اليهود كانوا مواطنين مخلصين رأوا في العراق وطنهم الوحيد ولم تكن لديهم اتصالات مع الصهاينة في فلسطين او تعاطف معهم.

مأزق منشي زعرور

ان لقاءاتي الأولى مع «السياسة» والشؤون العامة قد دعمها موقع مخزن الأثاث الذي اعمل فيه ونوعية الزبائن الذين يرتادونه. المكان، الذي هو مزيج من ورشة عمل وغرفة عرض الأثاث، كان يقع في شارع راقٍ يدعى شارع المتنبي – كذلك يسمى شارع السراي لأنه كان ينطلق من شارع المدينة العام، شارع الرشيد، الى السراي، وهو مجمع فخم وبارز يضم جميع الوزارات والمكاتب الحكومية – و الى المحاكم ايضاً. كما كان الشارع ايضاً واحداً من المناطق السكنية المطلوبة في قلب مدينة بغداد، بمكتباته، ومكاتبه ومصانع الجرائد. كان يؤدي مباشرة الى نهر دجلة – وتماماً قبل ان تصل المحاكم هناك، على يسارك، كانت بداية السوق الكبير، سوق السراي، الذي يمتلك في تلك النهاية الخاصة خطين من المكاتب ومحلات القرطاسية، بينما في وسطه امتدت سلسلة من مخازن الأحذية والبضائع الجلدية. كان ذلك الجزء من السوق ينتهي من الجانب الآخر بشارع الجسر حيث كان الجسر امتداداً يعبر دجلة ويرتبط بـ «ذاك الصوب» – الذي يعُرف ايضاً بالكرخ.

وفي الجانب نفسه من شارع المتنبي، أي اسفل مخزن الأثاث ببنايات قليلة، ثمة بنايتان صحفيتان – وهما مطبعة العراق الكبيرة والفخمة التي كانت تحرّر وتُنتج فيها جريدة العراق اليومية، ومكاتب التحرير المؤجّرة، المتواضعة التي تضم جريدة حبزبوز الأسبوعية، الجريدة الساخرة المشهورة في العراق، التي يملكها ويحررها ويكتبها الى حد بعيد بشكل كبير رجل لين العريكة ولمّاح بشكل رائع يحمل اسم كريم ثابت، الذي كان يُعرف ايضاً بإسم حبزبوز. ومنذ ان بدأت الصحيفة بالظهور في حدود هذا الوقت، اعتدتُ ان يكون لي ملف كامل منها منذ عددها الأول – ولم تكن مجموعة ضخمة ذلك لأن عمرها كان قصيراً. ان حدة لسان مالكها وانتقاداته اللاذعة ادّت اولاً الى «توقفات» قصيرة متكررة ومن ثم [ادت] الى غلق الجريدة. ذات يوم، حينما كنت ذاهباً الى مكتب جريدة حبزبوز ابحث عن اعداد قديمة لمجموعتي، حصلت لي دردشة طويلة الى حد ما مع الرجل المهيب الجانب الذي ينتجها – رجل متواضع دافيء الكلام في بداية اربعينياته اجاب عن اسئلتي بحرية وأظهر اهتماماً كبيراً ومقداراً معيناً من الرضا كون شخص ما صغير جداً – فضلاً عن انه يهودي – مهتم جداً بصحيفته ويرغب بالحصول على مجموعة كاملة من اعدادها.

اشك ما اذا كنت دخلت فعلاً في مبنى جريدة العراق، لكنني عرفت عن طريق النظر كلاً من رزّوق غنّام – وهو مسيحي يمتلك الجريدة والمطبعة والبناية لكن كان معروفاً بأنه اميّ فعلاً ولم يكن له أي دور في التحرير الفعلي او انتاج جريدته – ومنشي زعرور، الرجل الذي كان يقوم بجميع الأعمال. وبوصفه يهودياً ذا سجل طويل في الصحافة قضى حياته في العيش والعمل بعلاقة وثيقة مع

المسلمين، كان زعرور ينتج جريدة العراق كل صباح من غير مساعدة احد. كان يجمع الأخبار من نشرات قسم الإعلام والوكالات والنشرات الإذاعية، ويكتب العناوين الرئيسة، ويقوم بقراءة التجارب الطباعية، ويكتب الإفتتاحية، ويقرأ ويحرر المقالات التي يساهم بها اناس من خارج الجريدة. وعندما كنت اراقبه من مكتبي في غرف العرض في محل النجارة، عرفت بأن زعرور درج على المجيء الى عمله في حوالي الساعة التاسعة صباحاً ويغادر حوالي الساعة الخامسة او السادسة مساءً، برغم انه كان مضطراً لإصدار صحيفة صباحية. كان ممتليء الجسم، وبدا صارماً نوعاً ما، وصغيراً نسبياً، ودائماً ما كان يضع سيكارة في فمه. كان يحب المناظرة والجدال، وهو حب رافقه في سنواته الأخيرة في اسرائيل، حيث قام بمختلف المهن المتفرقة يعمل في المطبوعات العربية الرسمية وشبه الرسمية التي تنشرها الحكومة ومن ثم اتحاد العمال الاسرائيلي القوي، الهستادروت، وهو خليط غريب من عمال رب عمل ريفي واتحاد عمال قوي.

في سنواته التي قضاها في اسرائيل لم يتمكن زعرور من ان يجد طريقه حتى ولو درجة دنيا من «التكامل». فجهوده المستميتة لكن الكسيحة نوعاً ما في هذا الإتجاه، ورغبته في ايجاد مهنة لائقة بوصفه كاتباً وصحفياً عربياً فخوراً ومحترماً، لم تثمر في شيء. ولاعجب في ذلك. اذ انه كان يشعر وكأنه في بيته تماماً في الوسط ذي الغالبية المسلمة الذي ولد، وترعرع، وتعلّم، وعمل فيه، لدرجة انه ببساطة فشل في «التكيّف» [في الوسط الجديد]، اكثر من أي قادم جديد يتحدث العربية محصور في مجتمع شرق اوربي بغالبيته، ومغلق اساساً ويتظاهر بغربيته «Westernism» وينظر بارتياب لأي شيء عربي او شرقي.

ان فكرة الغربة والعزلة التي لابد لزعرور ان يشعر بها في هذه الأوساط من الممكن التوصل اليها من خلال مقابلة طويلة اجراها ليس بفترة طويلة قبل وفاته والتي افصح فيها عن بعض من خبراته في بغداد. في ذلك الحديث ذكّر بالمنطقة ذات الأغلبية المسلمة – محلة بني سعيد – التي ولد فيها – وكيف، عندما كان في الرابعة او الخامسة من العمر، أرْسِل الى الملّة، المكافيء الاسلامي للـ cheder الشرق اوربي وللأستاذ اليهودي العراقي، والآن، بعد ان انهى المدرسة وبدأ العمل في جريدة العراق، حضر دروساً في القرآن واللغة العربية في المسجد المشهور، جامع الحيدرخانة. وقد اعتاد المعلم، الذي هو إمام المسجد، شيخ رشيد الداود، ان يذهب الى مكاتب الجريدة ليقدّم قصائد للنشر. في احدى هذه الزيارات، روى زعرور، وافق الشيخ على طلب المحرر الشاب وسمح له بحضور دروسه، التي قال زعرور بأنه داوم عليها لأربع سنوات.

ثمة وجه مألوف في شارع المتنبئ في تلك الأيام هو خالد الرحّال، الذي كان يعمل في قسم الصحافة في وزارة الداخلية. كان يمر ايضاً كل صباح في طريقه الى العمل. وكان الرحال – مؤلف برقية المدح المشهورة المرسَلَة الى ادوارد الثامن بعد تنازله من العرش – معروفاً بسعة قراءاته، ومعرفته باللغات الأجنبية، واهتماماته الثقافية الواسعة. بالنسبة لشخص يحمل مثل هذه الشهرة، على اية حال، لم ينتج الاّ الشيء القليل. اذ ان العمل الوحيد الذي اصادفه هو ترجمة القصة القصيرة الشهيرة «كرة الشحم» Boule de Suif لـ «موباسان» التي نشرها ككتيب منفصل بمقدمة تشيد

بالعمل بوصفه ربما افضل قصة قصيرة كتبت لحد الآن. لكن ربما تفرده المعروف كان غليونه، الذي لايفارقه ابداً. والغلايين، في تلك الأيام، كانت شيئاً جديداً في العراق.

الفصل الحادي عشر

رؤى مشوّهة

ذات يوم في وقت مبكر في عام 1971، وأنا اقوم بجولتي الاعتيادية في المكتبات، التقطت ما يمكن ان اسميه كتاب شخصي – كتاب – بفضل زمانه، ونوعيته، ومحتوياته يرقى ان يكون سجلاً اميناً لتطوري الفكري والعقلي اثناء عقد حاسم من حياتي. كان الكتاب يحمل اسم «مجموعة مقالات في الصحافة وخطابات جورج اورويل» The Collected Essays Journalism and Letters of George Orwell، كانت كلها في اربعة مجلدات بغلاف ورقي وسعر رخيص. ان قراءة الكتاب، او حتى تصفحه هنا وهناك، كانت تجربة حقاً. طوال فترة الأربعينات في بغداد تابعت كتابات اورويل وتطور تفكيره السياسي – كل الطريق ابتداءً بمجلدات نادي الكتاب الأزرق، وأعمدته في صحيفة الـ«تربيون»، ومساهماته في مجلات هورايزن Horizon، بوليمك Polemic، بارتيزان رفيو Partisan Review، وغيرها من المجلات وصولاً الى روايتيه «مزرعة الحيوان» و «1984».

المجلد الرابع والأخير من كتاب «مجموعة مقالات» مطرز باقتباس من احدى مقالات اورويل: «فقط عن طريق إنعاش ذاكرتنا نستطيع ان ندرك كم هي مشوهة بشكل لايصدق رؤية الطفل للعالم.» لكن هل بوسعنا ذلك، بالفعل؟ وهل ان رؤية الطفل للعالم مشوهة بشكل لايصدق؟ ماذا لو عكسنا الموضوع» . فقط عن طريق إنعاش ذاكرتنا نستطيع ان ندرك كم هي مشوهة بشكل لايصدق رؤيتنا ككبار للعالم». لكن ربما يرقى هذا الى قول الشيء نفسه – أي ان رؤية الطفل للعالم هي نفسها انعكاس لرؤيتنا «المشوهة بشكل لايصدق» له.

وعند التحدّث عن تجربتي الشخصية، اعتقد بأنني استطيع ان اقول بأمان تام بأنه عن طريق جميع المستويات المهيمنة فإن رؤيتي للعالم كانت دائما تميل الى ان تكون «مشوهة» – في زحف الشيخوخة ليس اقل في الطفولة والمراهقة. في هذا السياق، بـ «مشوهة» اقصد غير واقعية، غير عملية، على الأصح ساذجة، ونوعاً ما رومانسية. يبدو لي، في الحقيقة، بأن هناك نوعاً ما من الكائن البشري الذي يرفض ببساطة ان يكبر – النساء والرجال الذين يبدو انهم يتشبثون بما تُظهره تجربتهم الحياتية كلها بأنها نظرة مغلوطة وعلى اية حال غير واقعية للعالم الذي يعيشون فيه. وهم يفعلون هذا، علاوة على ذلك، بكلفة عالية بالنسبة لهم وبألم كبير وبإزعاج الى اولئك المقرّبين منهم او المعتمدين عليهم.

اذا كان الأطفال بريئين كما يصوّرهم عادة الكبار – الأمر الذي اميل الى الشك فيه – اذاً اعتقد بأنني اتحدث عن البراءة – البراءة غير المتغيرة، المستمرة والثقة بالناس التي تأتي دائماً معها. حتى هذا اليوم، في عمر يناهز السبعين او اكثر، غالباً ما تعاقبني زوجتي بسبب ثقتي العالية وتحمّسي بشأن الناس وبسبب عجلتي الشديدة في تكوين صداقات جديدة – ليس لأنها نفسها غير اجتماعية بما يكفي ولاتحب الاختلاط بالناس بل حسبما يُزعم لأنني لا اقوم بهذا بالإعتدال المطلوب. اذ تبدأ الصعوبة

حينما، عادة بعد وقت طويل من التجاهل بصبر والتغاضي عن التصرفات والإشارات التي بالنسبة لتفكيرها لابد ان تكون سبباً كافياً لتجنّب هذه المعارف او على الاقل البقاء بعيداً عنها، [حينما] اتوصل الى تلك الإستنتاجات بعد فوات الأوان وعلى حين غرة، مع كل ما يرافق هذه الإكتشافات من احراج وارتباك.

كما انه لايبدو انني اتعلّم من التجربة – وغالباً ما اقتبس باستحسان مقولةً باللغة اللاتينية من قسم اليوميات من رواية الدوس هكسلي «اعمى في غزة» مفادها ان الشيء الوحيد الذي نتعلمه من التجربة هو اننا لانتعلم من التجربة. لكنني لست بأي حال من الأحوال نادماً على هذه السمة الشخصية فيّ، برغم الألم وخيبات الأمل – وجوابي لانتقادات زوجتي هو انه من المفضّل ان تكون بريئاً او ساذجاً او واثقاً بالغير وغالباً مايثبت خطل هذا على ان تكون شاكًّا او حذراً او مرتاباً وغالباً ايضاً ما يثبت صواب هذا.

اذن مالذي يشكّل نظرة الإنسان، ومواقفه، ورؤيته للعالم؟ يصوّر تولستوي احدى قصصه القصيرة، بطلَه، ايفان فاسيليفتش، الذي يجادل بأن الأمر برمته هو «مسالة صدفة». اذ يخبر مجموعة من اصدقائه، «اذن انت تؤكد بأن الإنسان لايستطيع ان يحكم بشكل مستقل بما هو صالح او بما هو طالح، اذ ان ذلك كله هو مسالة بيئة – فالإنسان هو ابن بيئته. لكنني اؤكد بأن كل هذا هو مسألة صدفة». ان الطريقة التي ارى هذا فيها، هو ان الصعوبة مع نظرية كهذه تكمن في انه حتى حوادث الصدفة لاتحصل للمرء بمجرد صدفة. عنوان قصة تولستوي هو «بعد حفلة الرقص»، وما يحدث لإيفان فاسيليفتش في تلك النقطة بأنه «مسألة صدفة» لم يكن حدث لروسيّ اقل حظاً، وغير ارستقراطي يعيش في منتصف القرن التاسع عشر ولا يهتم بأية كرات من ذلك النوع.

هل نحن نولد، اذاً، بالمواقف والأحاسيس التي نمتلكها والتي تهيمن على جميع حيواتنا، لتحرك افعالنا، وتحدد ردود افعالنا، وباختصار تصيّرنا على ما نحن عليه فعلاً؟ في افتتاحيته المختصرة لـ«سيرته الذاتية»، يتحدث برتراند رسل عن ثلاثة احاسيس قال بأنها تحكم حياته – احاسيس يصفها بأنها «بسيطة لكنها مهيمنة» لكن التي، كالرياح العظيمة، طوّحت بي هنا وهناك، في مسار صعب، على محيط عميق من المعاناة، تصل الى شفا اليأس». هذه الأحاسيس التي يدرجها هي «الحنين الى الحب، والبحث عن المعرفة، والشفقة التي لاتطاق من اجل معاناة البشرية».

يرشح، على اية حال، بأن ثالث هذه الأحاسيس هو في النهاية البرهنة على ان تكون الأكثر إحباطاً. الحب هو الذي بحث عنه رسل ووجده، «برغم انه يبدو مفيداً جداً الى الحياة الإنسانية». ويعترف بأنه حقق ايضاً شيئاً من المعرفة. ويكتب بأن الحب والمعرفة، طالما يكونان ممكنين، فإنهما يرتفعان الى الأعلى نحو السماوات. لكن دائماً كانت الشفقة تُرجعه الى الأرض. «ان صدى صيحات الألم تتردد في قلبي. الأطفال الجياع، والضحايا المعذَّبين على يد الطغاة، وكبار السن العاجزون عبء مقيت بالنسبة لأبنائهم، وعالم كامل من الوحدة، والفقر، والألم كل ذلك يستهزء بما يجب ان تكون عليه الحياة الإنسانية. اتوق الى تخفيف الشر، لكنني لا استطيع، كما انني انا ايضاً أعاني».

مغازلة الماركسية

بدأت مغازلتي للماركسية، التي هي مغازلة طويلة نسبياً، تقريباً اثناء الحرب الأهلية الأسبانية وفترة حكم الجبهة الشعبية لليون بلوم في فرنسا. ان السحر الذي حملته تلك الآيديولوجيا لي لابد انه يتعلق بإحساس وحنين يتملكني نحو المعرفة، وعطف تجاه المضطهدين والمحرومين، وحاجة لاتقاوم لفهم مايحدث حولي وما حدث في الماضي. يكتب لويس نامبير، الذي كان على ما اعتقد بالضد تماماً من رسل في منهجه العام للأشياء، [يكتب] في مقالة بعنوان «العوامل الأساسية في التاريخ الأوربي في القرن التاسع عشر»: «من الممكن انه ليس هناك معنى في التاريخ الانساني اكثر من تغيرات الأسباب او حركات النجوم؛ او إن كان هناك معنى، فإنه يفلت من حواسنا.»

لكنني الحفت في ذلك – وانا مستمر على الإصرار على محاولة ايجاد معنى ما! وفي ايام القحط تلك، في اواخر الثلاثينات، بدت الماركسية-اللينينية لي بأنها تُعطي معنى ما للتاريخ الإنساني وللقضايا الإنسانية كما بدت لي حينها. كان فرانكو وجحافله الفاشية صراحة هم الجناة، تدعمهم كالمعتاد المانيا النازية وايطاليا موسوليني وتعارضهم كل الشعوب الجميلة التي اصبحت معروفة لي.

لقد بدأت للتو حركة يسارية واعدة بين المثقفين العراقيين، امثال اولئك الذين احتشدوا حول جريدة الأهالي اليومية. وبدأت تظهر في المكتبات كتب وكراسات معينة ل عبد الفتاح ابراهيم، و قاسم حسن، وغيرهما من مثقفي اليسار. كما ان مقالات مترجمة من الصحف والدوريات الإشتراكية والشيوعية الفرنسية والإنكليزية وُجِدت في صحف يومية وأسبوعية معينة – وأغلبها لم تعمر طويلاً. وبدأ متجر لبيع الكتب والقرطاسية يبيع سراً عدداً محدوداً من نسخ «الطليعة»، المجلة الشهرية التي يصدرها في بيروت الحزب الشيوعي اللبناني – وهو المنظمة الماركسية الوحيدة التي تمارس مهامها علناً في العالم العربي.

كان يحرر مجلة الطليعة زعيم الحزب المخضرم خالد بكتاش، بمساهمة نجوم مثل رئيف خوري، و فرج الله الحلو، و ميشيل عفلق – وهو نفسه الذي كان سيؤسس لاحقاً حزب البعث العربي الإشتراكي مع اكرم حوراني. وبمجيء مجلة الطليعة، من حين لآخر وبأعداد محدودة جداً، فإن كراسات او كتباً معينة اما مكتوبة او مترجمة على يد المجموعة نفسها من الكتّاب الذين يقومون بهذا النشاط الشهري – وهؤلاء جميعاً قدّموا لي ولأمثالي الذين لايحسنون لغات اجنبية الغذاءَ الفكري الذي كنا بحاجة اليه.

التعليم الذاتي للغة الإنكليزية

الحقيقة هي ان هناك اهمية ضئيلة يمكن للمرء ان يتعلمها بشأن الماركسية، والشيوعية، والنعيم الإشتركي الشهير الذي يسمى الإتحاد السوفيتي عندما تكون اللغة التي يقرأ فيها المرء هي اللغة العربية. والحالة هذه، وفضولي الفكري يبدو ان لاسبيل الى اشباعه، فإنني انطلقت بأعظم مشاريعي لحد الآن – وهو تعلّم قراءة اللغة الإنكليزية مهما كلّف الأمر. كيف يتسنى للمرء ان يكون قادراً على

معرفة المزيد، ويجد الأجوبة الصحيحة، ويفهم الأشياء، وأخيراً يصوغ اجاباته هو ويقرر مواقفه الخاصة به في القضايا الملحة في ذلك اليوم؟

برغم ان اللغة الإنكليزية كانت تدرّس فعلاً في كل مدرسة في بغداد بوصفها لغة ثانية، الاّ ان هناك على الأقل ثلاث انواع من هذه المدارس و ايضاً اصناف مختلفة من التلاميذ – ولابد ان اضيف بأنني، بقدر تعلق الأمر بدراسة اللغة الإنكليزية، تمكّنت في الحال ان احضر النوع الخطأ من المدارس وانظمّ الى النوع الخطأ من صنف التلاميذ. لأبدأ القول بأن هناك المدارس الحكومية التي كانت اللغة الإنكليزية تدرّس فيها ابتداءً بالمرحلة الثالثة وأن مستوى التعليم لم يكن عالياً بشكل خاص. وثانياً، هناك مدرستان في بغداد كانت فيها الإنكليزية هي فعلاً لغة التعليم – مدرسة شمّاش، التي كانت تديرها الجالية اليهودية بمساعدةٍ من مجلس نواب اليهود البريطانيين، وما يسمّى بالمدرسة الأمريكية، التي اسستها وأدارتها المؤسسات الأمريكية بشكل غامض وربما لا ترتبط الاّ من بعيد بالإرسالية المسيحية او غيرها.

على اية حال، لايستطيع الذهاب الى هاتين المدرستين الاّ اطفال الموسرين – برغم انه في حالة مدرسة الشمّاش كان الموهوبون من الفقراء يُسمح لهم ايضاً بالدخول. وأولئك الذين كانوا يداومون في هذه المدارس يمكن ان يتوقعوا معرفة اللغة بشكل افضل تماماً عند انهائهم للسنة السابعة من الدراسة. وشكّلت هذه [المدارسُ] جميعَ المراحل الثلاث من التعليم قبل الجامعي: ست سنوات في المدرسة الإبتدائية، وثلاث في المدرسة المتوسطة، واثنتان في الدراسة الثانوية.

اخيراً، كانت هناك مدرستان، واحدة للبنين وأخرى للبنات، تابعتان لمدرسة التحالف الاسرائيلي العالمي، الذي كانت فيه الفرنسية هي لغة التعليم ولكن كانت تدرّس الإنكليزية (بالإضافة الى العربية ومن المحتمل العبرية) ابتداءً بالمرحلة الأولى. ومن اجل تلبية متطلبات كلٍّ من منهاج وزارة التربية والإمتحانات النهائية للحكومة الفرنسية، كان ينبغي للتلاميذ في مدارس التحالف ان يكملوا 12 سنة بدلاً من 11 سنة قبل ان يتمكنوا من اجراء الإمتحانات النهائية للوزارة. كانت الإمتحانات النهائية تقام بعد نهاية عشر سنوات من المدرسة والعديد من التلاميذ حينها كانوا ينتقلون مباشرة الى مدرسة الشمّاش، حيث بعد سنتين اخريتين من الدراسة كانوا عادة يخضعون لكلٍّ من الإمتحانات الرسمية المحلية قبل الجامعية وامتحانات الثانوية العامة لجامعة لندن التي تؤهلهم للقبول في الجامعات البريطانية. ولأنني لم اداوم لا في مدرسة الشماش ولا مدرسة التحالف – وبهذا فشلي حتى في إنهاء المرحلة المتوسطة – اضطررت الى تعلّم اللغة الإنكليزية متبعاً الطريق الأصعب.

وبينما كنا نعيش في بيت يامين، بعد ترك وظيفتي في محل النجارة والأثاث، قررت مواصلة دراسة الإنكليزية. في ذلك الحين كنت قد سجلت كطالب مسائي في مدرسة الشرقية المتوسطة والتقيت هناك بداود الصايغ وأصبحت صديقاً له، كان يدرّس النحو العربي والذي شاطرته الإهتمام بالأفكار اليسارية وبالأدب «التقدمي». بعد ان عرضت له مقالة كنت نشرتها في صحيفة محلية حول المجموعة القصصية الأولى التي تظهر بقلم ذو النون ايوب، وهو رائد في الرواية العراقية الحديثة وماركسي ايضاً، اصبحت علاقاتنا اقرب وبدأت بزيارته في بيته الذي لايبعد عن المدرسة. كان لابد

ان يكون في ذلك الحين في اواخر عشرينياته، وكان يعيش مع والديه، وأخ اصغر، وأخت او اختين في منزل ذي طراز اوربي في بستان الخس.

وبرغم انشغالي الكبير بأشياء اخرى وشعوري بالممل بسهولة اكبر من المدرسة، الاّ انني تمكّنت نوعاً ما من الدروس التي درستها في تلك السنة الأولى من الدراسة المتوسطة – ماعدا اللغة الإنكليزية، حيث انني لم استطع جمع الحد الأدنى وهو درجة 50. اجتزت امتحانات نهاية السنة وسُمح لي اخيراً بالإستمرار الى السنة الثانية فقط بفضل ضربة حظ. ففي الإمتحان النهائي في مادة اللغة الإنكليزية كان المشرف – او احد المشرفّين نسيت ايهما – ليس سوى داود الصايغ، الذي ساعدني بالوقوف الى جانبي وتمليتي بالفعل بعض الإجابات الصحيحة، مشفوعة بالتهجّي المفصّل.

وكانت هذه آخر مرة احتجت فيها الى المساعدة في اللغة الإنكليزية. ففي العطلة الصيفية وطيلة شهور بعدها كرّست مايقرب من 16 ساعة يومياً ادرس فيها اللغة الإنكليزية، مبتدءً تماماً من البداية وشاقّاً طريقي بتؤدة خطوة خطوة. كانت هذه تجربة الى ابعد حد. بدأت بالكتب التي كنا نستخدمها في المدرسة، واعتقد كان Oxford Reader II، ولم يكن مرشدي الوحيد سوى قاموس انكليزي-عربي ناقص ونوعاً ما ابتدائي، وهو قاموس إلياس انطوان إلياس الشهير الذي كان الوحيد من نوعه المتوفر للطالب والقاريء العام على حدّ سواء. كذلك كان عندي كتاب تمارين، وبإتقان وإصرار كبيرين كنت ابحث عن كل كلمة لاأعرفها وادوّنها في الحال. كانت الكلمات التي لا اعرف معناها في البداية تفوق كثيراً تلك التي اعرف معناها – استطيع ان اقول تقريباً 80% او اكثر من المجموع الكلي. وكانت تضم «كلمات» من قبيل that for about under over up ومئات غيرها. وفي النهاية، «نجحت» – وبعد ذلك لم اقلق مطلقاً من الدرجات التي احصل عليها في المدرسة في مادة اللغة الإنكليزية.

لكن كانت عندي مواد اخرى اقلق بشأنها، من بينها التاريخ الطبيعي الذي يقف في مقدمتها. لم يكن فقط مادة مملة جداً – بسبب تشريح الضفادع و، الأنكى من هذا، رسم تلك التشابهات والإختلافات عديمة الجدوى بين التشريحات والأجزاء الداخلية لمختلف الحيوانات، أي المشهد غير المرئي. لكن ما زاد الطين بلّة بالنسبة لي في السنة الثانية تلك في مدرسة الشرقية، على اية حال، هو ان مدرس مادة التاريخ الطبيعي كان قومياً متطرفاً وقد سمع بشكل سري بحقيقة ميولي اليسارية فضلاً عن كوني يهودياً. في نهاية السنة فشلت في امتحان مادة التاريخ الطبيعي – وأنا استحق هذا بالتأكيد – ولأن القانون هو ان الرسوب في مادة واحدة لايُقصي الشخص نهائياً من الإنتقال الى الصف الأعلى فإنني مُنحت فرصة: وهو لابد لي ان اجتاز إمتحاناً في المادة نفسها في نهاية العطلة الصيفية، حيث من المفترض ان يكون ذلك بعد السيطرة على المادة اثناء اشهر الصيف.

والحالة هذه، بسبب انشغالاتي العديدة الأخرى، الإجتماعية والثقافية، لم افعل شيئاً من هذا القبيل و، لأنني مازلت متشبثاً بالأمل، جلست حسب الأصول لذلك الإمتحان المصيري. كان الممتحن هو الأستاذ نفسه، نعيم ممتاز، الذي لم يكن عنده سبب وجيه ليتساهل معي. لم اكن مستعداً بشكل جيد ولذلك فشلت – وبالتالي قضيت سنة كاملة في ذلك الصيف. كانت هذه هي المرة الثانية في حياتي

الدراسية التي اضطررت فيها الى ان اعاني هذا النوع من الذل – وأنا على يقين تام بأنه، لولا اوامر التجنيد التي مافتئت تأتي من الجيش، لما تابعت تعليمي الثانوي.

بالنسبة للغة الإنكليزية، بحلول عام 1942 كنت علّمت نفسي مافيه الكفاية من تلك اللغة لكي اتمكن من قراءة الأدبيات السياسية باللغة الإنكليزية، وأتذكّر بأن اول دورية باللغة الانكليزية اشتريتها وقرأتها هو العدد الحالي من مجلة اسبوعية شيوعية تدعى «اخبار وآراء العالم» World News and Views، التي كانت تصدر في لندن لكن يبدو انها توقفت عن الصدور في وقت ما في الأربعينات. كانت تُطبع على ورق رقيق جداً وبحروف صغيرة – وكانت كلها نصاً. طلبت نسخة من بائع الصحف الذي اعتاد على بيعها وبدأت استلمها بانتظام وأقرؤها بشهية متأتية من فضول لايمكن اشباعه. بعد ذلك بفترة قصيرة بدأت باقتناء مجلة «العمال الشهرية» Labour Monthly، وهي فكرة الراحل بالم دَت وهو عضو شيوعي متشدد. كنت اعتقد بأن افتتاحيات بالم دَت هي مادة رائعة. اجمالاً، في القحط الذي ساد بغداد حينها وفي مرحلة تطوري الثقافي، فإن مجلتَي Labour Monthly و World News and Views – اسوة بعروض بنغوين المختارة المؤيدة للسوفييت التي يكتبها زميل السفر المدعو د. ن. بريت، كي. سي.، وناشرون بريطانيون من المزاج نفسه – قدّمت لي ثقافة شاملة، ناهيك عن اسهامها الكبير في صقل معرفتي باللغة الإنكليزية و القدرة فعلاً على قراءة تلك اللغة.

ان الشخص الذي عرّفني بمجلة World News and Views – وبالمذهب الشيوعي ككل – هو رجل شاب اسمه عبدالله مسعود، كان حينها طالباً في كلية القانون في بغداد. كان مسلماً شيعياً، انحدر من كربلاء وغالباً ما كان يُدهشني كونه شيعياً اولاً وشيوعياً في المقام الثاني. ومن بين اشياء اخرى، كان شاعراً هاوياً – وأن اول بيت من قصائده المتفرقة، التي كانت موجهة برمتها الى الزعيم الشيعي العراقي البارز جعفر ابو التمن، كان يقول شيئاً ما مفاده بأن «لايحتل لينين موقعاً اكثر رفعة مما تحتله انت».

كنت مهتماً ان ارى، في السنوات التالية، بأنه من بين جميع اصدقائي ومعلميّ الشيوعيين السابقين كان مسعود الشخص الوحيد الذي خرج سالماً. ربما اكون مخطئاً، لكن انطباعي هو ان شيوعيته كانت انفجاراً لعواطفه ضد المؤسسة السنية في العراق و[ضد] الطريقة التي كان فيها مجتمعه، الذي يشكّل غالبية المسلمين في البلاد، يتم تمييزه وحرمانه مما كان يعتقده بحماسٍ بأنه حصته المستحقة من القوة الفعلية والنفوذ.

سنوات التكوين

غالباً ما يتحدث كتاب السيَر والسيَر الذاتية عما يسمونه بـ «سنوات التكوين» في حيوات اشخاصهم. اذ يرون بأن فترة معينة في حياة الكاتب، او المفكر، او الشخصية العامة، هي التي شكّلت السنوات التي تكوّن فيها أسلوبه، وفكره، ومهنته. لا اشك للحظة بصدقية مثل هذا المنهج وفائدته، لكن عند التحدّث عن نفسي لا استطيع ان افكّر بسنة واحدة في حياتي منذ ان اصبحت واعياً لنفسي ولمحيطي

بأنها لم تكن بشكل او بآخر «تكوينية». كما انني لا اجد أي شيء في هذا يمكن ان يقال عنه فريداً او خاصاً بتطوري.

مع ذلك، لو طُلِب مني ان اشير الى فترة محددة من السنين التي استطيع ان استرجع فيها سنوات تكويني لاخترت السنوات 1938-1945. اثناء السنوات الثلاث الأولى من هذه الفترة كنت قد فتحت عيني اول مرة على الظروف السياسية، والإجتماعية، والثقافية للعالم الذي وجدتُ فيه نفسي، وفي السنوات 1940-1954 تمكنتُ من توسيع آفاقي الفكرية لدرجة، عند الأخذ بعين الإعتبار الظروف التي نشأت فيها وتلقيت فيها تعليمي، يبدو لي بأنها كانت اكبر مما كنت اتوقع. وحقيقة انني اثناء هذه السنوات ذاتها انهيت اخيراً مدرستي الثانوية – وهذه مأثرة تطلبت مني ست سنوات للقيام بها بدلاً من السنوات الخمس المطلوبة – لم تكن سوى جزء صغير من القصة، وحسب رأيي هو جزء مهم.

وعندما نظرت قبل ايام الى الوثيقة المدرسية المفصلة التي حفظتها من تلك الأيام – وهي كتاب معنون من ادارة مدرستي الثانوية، مدرسة التفايض المسائية، الى ضابط التجنيد الأول لمنطقة الرصافة – لاحظت بأن اعلى درجات جمعتها في الإمتحانات النهائية لوزارة التربية كانت الدرجات الي حصلت عليها في مادتي اللغة الإنكليزية والعربية، وهي 81 و 77 على التوالي. هذه النتائج – لاسيما عند مقارنتها مع 53 التي حصلت عليها في مادة الرياضيات العامة، و58 في العلوم، و64 في الجغرافية – تعكس بمعنى مقبول جداً الموهبة التي ادّعي وصلاً بها، وهي كفاءةٌ باللغة توحي بنزعة حقيقية.

في الحقيقة، ان الموضوع الذي كنت سأظهر فيه تميزاً طوال سنيّ دراستي المبكرة هو اللغة العربية، وبالأخص الصرف، والقواعد، والنحو. كذلك حصلت على درجات جيدة في الإنشاء، برغم انني كنت اميل الى الإختصار الشديد والإقتصاد بالكلمات من اجل انتاج الحجم المقرر وبالتالي التأهل لنيل امتياز حقيقي.

في كل من اللغة العربية واللغة الإنكليزية، بقي النحو هدفي الأقوى في المدرسة، برغم انه في الواقع ليس لدي صبر للقواعد. ثمة امر هنا اشعر بأنه يستحق التوضيح. في اللغة العربية، كما في غيرها من اللغات، يكون النحو جوهر القواعد. على اية حال، بينما لابد للنحو في اللغات الأوربية ان يكون ذا صلة بالترتيب النحوي للكلمات في الجملة، فإنه يتطلب في اللغة العربية من الطالب ان يسمّي اولاً قسم الكلام الذي تنتمي اليه كل واحدة من الكلمات في الجملة، ومن ثم يحدد وظيفتها ومكانها فيها، وأخيراً – وهو اصعب الجميع – يعيّن الحركة التي ينتهي معها وفي الختام الطريقة الصحيحة لقراءتها.

هذه الخصيصة في اللغة العربية تجعل من الواجب على الطالب تعلم القواعد بل حتى استظهار اساسياتها – وجع الرأس هذا الذي سرعان ما اكتشفت بأنه غير ضروري عند دراسة اللغة الإنكليزية. على سبيل المثال، برغم انني استطيع ان اكتب هذه اللغة بشكل جيد تماماً وبدون اية اخطاء نحوية، لا استطيع حتى اللحظة ان اسمّي جميع اجزاء الكلام في اللغة الإنكليزية ولا استطيع

ان اقول أي حرف جر يكون او اعطي مثالاً فيه. (وحقيقة ان هناك خمسة اقسام كلام في اللغة الإنكليزية هي فقط حول المعلومات التي مازلت احتفظ بها من تلك الساعات الطويلة والمملة من درس القواعد).

انه فقط في سن متأخرة، حينما بلغت الثامنة عشرة او يزيد من العمر، بدأت بتجريب يدي في كتابة شيء ما للنشر. اذا لا تخونني الذاكرة، فإن اول شيء قد نشرته كان ترجمة عربية لكتيب عن زمن الحرب بقلم البروفسور هارولد لاسكي، وهو واحد في سلسلة نشرتها مطبعة جامعة اوكسفورد وعنوانها هو «الحرية في العالم الحديث». وكان واحداً من الأعمال القليلة في اللغة الإنكليزية التي استطعت قراءتها بسهولة نسبية وقررت ان اجلس واترجمه، لأنني احببت محتوياته وأيضاً كتمرين لجهودي المتواصلة للسيطرة على اللغة.

كان عندي قريب، هو صادق الأزدي، يعمل مدير تحرير صحيفة بغدادية رائدة، «الأخبار»، واستجمعت شجاعتي وقدّمت المخطوطة له. سُررت بالسرعة التي اتخذت الجريدة فيها قراراً ايجابياً – وعلى مدى الأربعة او الخمسة ايام التالية كان الكتيب يطبع على شكل حلقات على الصفحة الأولى، مع وجود اسم المترجم جنباً الى جنب مع اسم المؤلف.

اعتقد بأن نشر الكتيب، في تلك الأيام من الحرب العالمية الثانية حينما كانت تسود المشاعر المناوئة لبريطانيا، لم يمر مرور الكرام بالنسبة لموظفي السفارة البريطانية التي ماتزال قوية جداً، وسرعان ما فوتحت بالمزيد من الترجمات. على اية حال، لأن الجريدة – التي يملكها جبران مالكون، وهو رجل طيب مسيحي بخيل من مدينة تلكيف الشمالية – لم تدفع لي فلساً واحداً لقاء جهودي، لم اعرض عليهم أي شيء آخر. (ولا، لأكون صريحاً، اتوقعهم ان يدفعوا؛ لكن عند اخذ حماسهم بعين الإعتبار اعتقدت بأنهم لابد قدّموا بادرة ولو انها صغيرة).

ان العمل الآخر الوحيد الذي اتذكر كتابته تماماً ونشره كان عرضاً لمجموعة قصص قصيرة محلية. كان مؤلف هذه المجموعة هو ذو النون ايوب، وذلك كان ظهوره الأول على شكل كتاب. ذو النون (الذي هو الترجمة القرآنية ليونس) كان رائداً بلا منازع لما يمكن ان يطلق عليه بقصص النقد الإجتماعي في العراق. وكونه من الناحية الجوهرية راديكالياً واشتراكياً، فإن ذو النون لم يكن صانعاً ماهراً للقصة القصيرة، كما ان محاولاته في مرحلة لاحقة في كتابة الرواية اثبتت عدم نجاحها عند إخضاعها الى المعايير الأدبية السائدة آنذاك في الغرب. لكنه احدث ضجة حينما قام بظهوره الأول، وأنا رأيت بأن مجموعته القصصية الأولى كانت تستحق الجهد.

كان عرضاً نقدياً وظهر في احدى تلك المجلات الأدبية الأسبوعية التي اعتادت على الظهور القليل ومن ثم تتعرض للغلق على يد السلطات بسبب هذه الوقاحة او تلك التي اقترفتها، او ببساطة تختفي مع او بدون أي توضيح.

في تلك الأيام كنت في المرحلة الثانية (او بالأحرى اول سنتين التي كان عليّ ان اقضيهما في المرحلة الثانية) من دراستي المتوسطة، وكان ذو النون مدرسّنا في اللغة العربية. لابد ان اقول بأنه

اخذ نقدي بشكل ودّي تماماً حينما بفخرٍ أظهرتُ له العرض، الذي مدحت فيه شجاعته بوصفه ناقداً اجتماعياً وسياسياً بينما عبّرت عن اسفي بأن القصص لم ترقَ الى المستوى المطلوب، اسلوبياُ وفنياً.

اعتقد بأن السبب وراء قلة كتابتي باللغة العربية هو انه، في الوقت الذي اكتب فيه، كنت منغمساً في قراءاتي الإنكليزية وأصبح من الصعب إرضائي – كما انني ايضاً لم اهتم كثيراً لما كان يُنتج في اللغة العربية سواء محلياً او في العالم العربي عموماً. في ذلك الوقت، فعلاً، استغنيت عن الكل ماعدا ذلك الذي رأيته يمثّل اعظم الكتب والمجاميع الدورية التي شكّلت مكتبتي، والتي بنت بسرعة مكتبتي باللغة الإنكليزية العامرة بالكتب والدوريات. برغم انني كنت حينها ما ازال في منتصف ما ادعوه بسنواتي الماركسية، فإن اهتماماتي الفكرية قد بدأت تتوسع لتحتضن كتابات لاماركسية او مجرد راديكالية لبرالية.

انا و«جيل بنغوين»

لقد رأيت في مكان ما العبارة «جيل بنغوين» يستخدمها مؤرخو المشهد الثقافي - الأدبي البريطاني اثناء الثلاثينات وبواكير الأربعينات. بوسائل شتى كنت عضواً في ذلك الجيل؛ بسعر نصف شلن للعنوان، حتى المعوزين امثالي بوسعهم تحمّل شراء كتاب بليكان بين الحين والآخر. اول العناوين التي اشتريتها، وقرأتها، وحفظتها كان – اذا اتذكّر جيداً – «بعد الطوفان» لـ «ليونارد وولف (لم تتم إعادة طباعته والآن منسي تماماً)؛ و مجاميع جَي. بي. أس. هالدين حول العلم والموضوعات العلمية، بميوله الماركسية المرحّب بها وغرابة اطواره المختلفة؛ و «الدين وبروز الراسمالية» لـ «آر. هـ. توني»، الذي لم اتمكن من إنهاء قراءته؛ و «شعب القرون الوسطى» لـ «إيلين باور»؛ و كتب بقلم لاسكي، وادنغتون، وآخرين نسيت اسماءهم.

لكنني بحق كنت شغوفاً جداً بالأدب الماركسي المحض في ذلك الوقت. اتذكر الإغراء الذي كانت تحمله كتب معينة نشرتها دار فكتور غولانج، والندم بأنني لم استطع شراءها (كانت تلك هي الأيام قبل اطلاق نادي كتب اليسار). ثمة عناوين قليلة تحمل اسم غولانج لايمكن ان تفوتني وأعتقد بأنني كنت راغباً في استعارتها او سرقة النقود. احدها كان مجلداً كبيراً يحمل العنوان «كراس الماركسية»، تحرير كاتب شيوعي بريطاني نشط على نحو بارز باسم بيرنز. كان ذلك المجلد بمثابة انجيل بالنسبة لي لسنة او سنتين؛ الاّ انني تمكّنت من الحصول على نقود كافية لشراء روايات قليلة من غولانج، جميعها ترجمات وأتذكّر منها قصة ملحمية لشوليم آش تدعى «ثلاث مدن» و واحد او اثنين من الأعمال القصصية الروسية الحديثة التي لا اتذكر عناوينها.

لكن كانت عناوين بليكان وفيما بعد بنغوين هي التي اعتمدت عليها تربيتي الأدبية والثقافية لبعض السنين منذ الايام الأولى من قراءتي باللغة الإنكليزية. في تلك الأيام، اعتادت كتب بنغوين – وربما بليكان ايضاً – ان تظهر في دفعات من عشرة في كل مرة، واتذكر بأنني اقضي ساعات اتصفح واقيّم واتعذّب قبل ان اقرر مالذي سيكون الأول من الدفعة لصرف 30 فلساً عليه – او اول اثنين او

ثلاثة اذا صادف وامتلكت مبالغ لابأس بها. ولم تكن الكتب، التي هكذا تسمى على نحو صحيح، والتي كان ينتجها مشروع آلن لين الجديد، هي الوحيدة التي كان لابد من شرائها.

وفي بواكير الأربعينات بدأت كتب بنغوين بنشر مطبوعات لايمكن الإستغناء عنها مثل Penguin New Writing Penguin Film Review Penguin Parade، بل حتى دورية متخصصة بالدراسات الروسية. من كل هذا، على اية حال، كان New Writing المطبوع الذي انتظرته على احرّ من الجمر لقراءته؛ انه في هذه الدورية، التي يحررها جون لِهمان وتُطبع في طبعة جديدة رخيصة بسبب قلة الموارد في زمن الحرب – قرأت اول مرة شيئاً ما لجورج اورويل (صادف ان يكون قصته الكلاسيكية «اطلاق النار على فيل»)؛ ستيفن سبندر («احياء لذكرى» و أثر)؛ و. هـ. اودن («ضع رأسك النائم»)؛ وآخر المفضلين مثل لويس ماكنيس، سيسيل دَي لويس، و هنري ريد.

لم تكن تلك الكتب ذات الغلاف الورقي، والكتب الإنكليزية والامريكية عموماً، سهلة المنال في تلك الأيام. اذا تحتَّم علينا القيام بعدد لابأس به من الزيارات المنتظمة، اليومية تقريباً الى جميع المكتبات وجميع المخازن حيث كانت تباع الكتب، من اجل ان نتمكن نحن من الحصول على الشحنات عند وصولها – وأحياناً كان يستغرق الوقت شهرين او ثلاثة اشهر قبل ان تصل سفينة محملة بالنفائس.

التعرّف على إيلي

اقول «نحن» لأنه في مسألةٍ ما اثناء هذه الفترة قابلتُ إيلي خدوري وكان على وشك ان يحظى بدور لا بأس به في تربيتي الأدبية. لابد ان ذلك حصل في الأيام الأخيرة من صيف عام 1941، بُعَيد انتقالي من الأدبيات الماركسية الى قراءة كتب اكثر عمومية وبالأخص الأعمال القصصية، والشعرية، والنقد الأدبي. كنت قرأت عن ظهور مجلة شهرية جديدة، هورايزن Horizon، تحرير سرل كونولي، وبقيت اتربص بها اذا جاز التعبير – حتى اكتشفت ذات يوم نسخة في قسم المجلات في مكتبة مكنزي.

سألت المدير اذا استلموا نسخاً كافية منها بحيث اتمكن من شرائها بانتظام وأجاب بالنفي، بأن تلك هي النسخة التي يمتلكونها، واذا بقوا يستلمونها بشكل دوري، فإنهم لايحصلون سوى على نسخة واحدة من كل عدد لأن ذلك كان افضل شيء استطاع مجهّزوهم في لندن القيام به. بعد ذلك وضعت طلباً في الحال للمجلة وبقيت احصل عليها بانتظام من خلالهم.

في تلك الأيام كانت في بغداد اماكن عدة يمكن ان تباع فيها الكتب الإنكليزية. لكن المؤسسة الوحيدة التي تتعامل حصرياً مع الكتب والدوريات الإنكليزية كانت مكتبة مكنزي. اما المحال الأخرى – التي يمتلكها جميعاً اليهود – فهي إما بدأت كمكتبات وفي النهاية رأت بأنها لابد ان تبيع بضائع اخرى ايضاً لأن الكتب والمجلات لاتجلب لهم دخلاً كافياً، او خُطّط لها ذلك الطريق منذ البداية تماماً.

كان هناك محلاّن او ثلاثة من هذه المحلات، لكن ولا محل منها قد سمع بمجلة «افق» او دوريات مماثلة، ناهيك عن طلبها وعرضها للبيع. كانت مجلات الـ Time، Look، The Saturday Evening Post ؛ ومحتلف الشهريات الأمريكية البراقة، بالإضافة الى عدد قليل من المجلات «البنّاتية» girlie [كانت] تُعرض في صف الدوريات، بينما في مجال الكتب حاولوا الحصول قدر استطاعتهم من كتب بنغوين و بليكان. (وفضلاً عن هذه لم يكن في ذلك الوقت سلاسل من الكتب ذات الأغلفة الورقية، ماعدا صف من طبعات معادة لروايات بريطانية وأمريكية تمّ انتاجها في المانيا وتوقفت عن الوصول عند اندلاع الحرب).

كانت مكتبة مكنزي استثناءً وكانت الأسباب واضحة. فهي اسسها شخص يُدعى السيد مكنزي بُعَيد الحرب العالمية الأولى، كان المحل في البداية يجهّز الطعام بشكل اساس الى اعضاء المستعمرة البريطانية الكبيرة في المدينة. عندما تضاءل الوجود البريطاني وأصبح العراق مملكة مستقلة، استمر مكنزي بالعمل الصالح، على الأرجح بتشجيع السفارة البريطانية ومساعدتها.

كما كانت المكتبة تمتلك ايضاً مصدر دخل آمن آخر: فقد كان عندها احتكار مطلق بوصفها مستورد الكتب الإنكليزية التي تختارها وتوصي بها وزارة المعارف لمدارسها. (في السنوات التالية كنت على وشك ان اساهم في كسر هذا الإحتكار، عندما كنت مديراً لمكتبة الرابطة اقنعت رئيسي، عبدالفتاح ابراهيم، في استخدام علاقاته في الوزارة من اجل ان يضمن لمكتبتنا حصة في هذا النجاح السنوي.

لقد رأيت مكنزي نفسه مرات قليلة من قبل لكن لم تكن هناك اية اتصالات بيننا غير العمل الصارم. بحلول العام 1940، على اية حال، تقاعد الرجل العجوز فتولى المهمة كبير مساعديه، وهو مسيحي محلي يسمى اسكندر. لم اتمكن مطلقاً من معرفة الترتيب الدقيق – أي، فيما اذا اصبح اسكندر المالك الوحيد للمكتبة او استمر على العمل بأجر. لكن من الضروري ان اكون على علاقة جيدة معه في ايام العوز هذه، كما اظهرت ذلك قضية مجلة «أفق».

وبشكل سري، طبعاً، سُررت نوعاً ما وشعرت بالفخر تجاه نفسي – كما انني اصبحت ايضاً فضولياً جداً بشأن هذا الشاب موضوع الحديث. فبينما رتّبت اجتماعاً ببيننا في الدكان نفسه، جئت ذات مساء لأجد فتى شاباً يرتدي سروالاً قصيراً بانتظاري. انها المرة الأولى التي ارى فيها إيلي – صبي في السادسة عشرة او السابعة عشرة على وشك ان ينهي سنته ما قبل الأخيرة من التعليم الثانوي. ومن الطبيعي انني وافقت ان اعيره اعداداً من مجلة «أفق» عندما اتت مباشرة بعد الإنتهاء من قراءتها. لكن علاوة على هذا الإهتمام المشترك في دورية ادبية، حدث شيء ما اكبر وأكثر اهمية بما لايقاس وهو: اننا اكتشفنا بعضنا البعض وبدأنا صداقة طويلة.

المنزل الذي عشنا فيه

احدى لعنات كونك فقيراً في بغداد الثلاثينات والأربعينات هي ان تكون مستأجراً ثانوياً وتشارك المنزل نفسه والمطبخ الوحيد نفسه، والمراحيض، والحمام مع عائلة او احياناً عائلتين اخريتين. ولو

قيّض لي ان أعطي قائمة بالمنازل التي عشت فيها اثناء سنواتي الإحدى عشرة الأخيرة في بغداد، فإنني سأضيع العد بالتأكيد. اذ دائماً ما كان هناك سبب يجعلني اقرر الإنتقال – عادة ضوضاء كبيرة جداً، فرصة قليلة للنوم ليلاً او الراحة مساءً، انعدام الخصوصية، او لمجرد كره الزملاء المستأجرين.

بعد بيت يامين سكنّا – بدون عائلة إلياهو – في حي العاقولية، في منزل عاش فيه أخَوان وعائلتاهما الخاصة بهما مع ام مسنة وأخت غير متزوجة. لم اعد اتذكر مالذي كان يجري خطئاً هناك، لكن بعد ستة اشهر او سنة انتقلنا الى منزل آخر بالقرب منه، بيت ابي يعقوب، حيث كنا نتشارك في المنزل مع عائلة اصغر وحيث استطعتُ اخيراً ان اقرأ وأخلد الى النوم بهدوء نسبي. كنا نعيش هناك حينما حصلت أحداث مايس-حزيران عام 1941 المأساوية – والسبب وراء تركنا المكان هذه المرة لاعلاقة له بنزواتي او حاجياتي.

ماحدث هو ان اختي، سمحة، الآن عمرها ست عشرة سنة وهي حسناء بطريقتها الخاصة، شوهدت تسير مع اصغر الأخوان الذين يعيشون في البيت المجاور. وحتى لو كان هذا الشاب يهودياً، فإن هذا الأمر كان فضيعاً جداً؛ لكنه كان مسلماً، وزُعم بأن سمحة شوهدت معه بينما كانت تختبيء خلف الرداء المقبول والمناسب المتكون من العباية والبوشية، الذَين يعطيان حماية كاملة، بتغطيتهما المرتدي من الرأس وحتى القدم. لا اعرف بالضبط كيف عُدَّ انتقالنا الى منزل آخر حينها بأنه يعطي نوعاً من الحماية ضد رؤية سمحة المستمرة لهذا الشاب المسلم، لكنه في النهاية قدّم هذا الإجراء بعض العون.

كان المنزل التالي الذي انقلنا اليه واقعاً في حي الحيدرخانة، وهو متوغل جداً في المناطق المسلمة. ولسبب ما كان هذا المنزل يدعى «بيت ابي العَرَق»، تيمناً بصاحب الملك داود، الذي هو اما كان يعمل الشراب الكحولي المذكور آنفاً او يبيعه او كلاهما، والذي كنا نتشارك معه المكان. وبباحة داخلية واسعة جداً، وشرفات داخلية كبيرة الحجم نوعاً ما، بدا المنزل يوفّر ما كنت بحاجة ماسة اليه – وهو مقدار لابأس به من الهدوء وفرصة للحصول على سويعات قليلة من النوم ليلاً بدون ازعاج.

والحالة هذه، اثبت [المنزل] بأنه حتى اسوأ من المنازل السابقة. اذ ظهر بأن داود ابوالعرق كان يعاني من نوع نادر جداً من مرض في الصدر جعله يسعل بدون انقطاع تقريباً - ويسعل بصوت عالٍ وواضح. وكانت النوبات تنتابه عادة في اسوء وقت محتمل – تماماً قبل الفجر – وبدا هذا المسكين يقذف رئتيه خارجاً من اثر السعال المستمر حتى دخول الصباح. ولم يكن هناك مهرب – وعلى ما يبدو ليس ثمة علاج او محاولة لطلب علاج. لم اتصور مطلقاً انساناً بوسعه ان يسعل بشكل عنيف جداً ولمدة طويلة جداً ويبقى على قيد الحياة. كما انه لا مفر من الضوضاء المزعجة؛ سواء كان الرجل في غرفته، ام في احدى الشرفات، او – وهذه اسوأها – عند النوم ليلاً على السطح حيث كان يقوم بذلك كل شخص غيره في الصيف، عندها كانت الضوضاء مجلجلة ومملة جداً لدرجة تصيب المرء بالجنون.

لكن ثمة فائدتان في العيش في «بيت ابو العرق»، استفدت منهما اثناء الستة اشهر التي عشناها هناك. فمن الناحية العملية كانت تعيش بجانبنا عائلة مسلمة غنية تستخدم حسناء سوداء كخادمة – وهي مخلوق جذاب ذات قوام وملامح متناسقة ومبنية برهافة. وغالباً جداً عند مرورها بجانب ذلك المنزل اعتادت ان تقف هناك عند الباب الموارب، حيث مفاتنها المختلفة البادية للعيان حتى من وراء التنورة الطويلة ووجهها المكشوف. تولّد انطباع عندي بأنها كانت تقوم بذلك بشكل خاص من اجل لفت انتباهي ولذلك تحليتُ بالشجاعة وابتسمت لها بإعجاب – ومرة او مرتين بادلتني الإبتسامة بالفعل.

ومرة واحدة فقط، على اية حال، سنحت لي الفرصة لمعانقتها بالفعل – و«حتى الذروة» بتعبيرنا في الوقت الحاضر. حصل هذا الحدث العظيم حينما كان ارباب عمل البنت ذاهبين في نزهة ليوم واحد الى قرية مجاورة او مدينة صغيرة، ولسبب ما لم يأخذوها معهم. في طريق عودتي للغداء في تلك الظهيرة رأيتها واقفة هناك – واندهشتُ قليلاً لأن ذلك هو الوقت الذي عادة ماتكون فيه مشغولة في الداخل تقوم على خدمة سيدها وسيدتها وتساعد في إعداد الغداء.

احسست بأن شيئاً ما غير اعتيادي حصل مما عمّق ابتسامتي الإعتيادية وغمزتي wink المخفية نوعاً ما. وفي الحال اصبحتُ في الداخل وكنا في عناق عاطفي. لكن اتضح بأن الفتاة كانت عذراء وخائفة جداً من «اكتشاف امرها». وكما هو مألوف في مثل هذه الحالات كان هذا امراً اخرق جداً ولذلك اتذكر التفكير بأن تلك الحادثة الخرقاء برمتها لابد ان تتوقف عند ذلك الحد.

اما المزية الأخرى فكانت اكثر اهمية – وأطول بقاءً. عن طريق المصادفة استأجر ذوالنون ايوب غرفاً تبعد خطوات قليلة عن المكان الذي كنا نسكن فيه وأنشأ هناك مكتب مجلته الشهرية الجديدة، «المجلة». وبسبب معرفتي به منذ ايام المدرسة وصداقتي بعبدالله مسعود، اعتدت على زيارته غالباً للتحدّث ومقابلة اناس ذوي ميول متشابهة لأنه دائما ما كان لدى ذي النون بعض الضيوف في الأماسي.

الفصل الثاني عشر

انقلاب رشيد عالي وماتبعه

ان الشيء المثمر الوحيد الذي اتذكر انني قمت به اثناء شهر مايس بأكمله من عام 1941 هو قراءة طبعة وليم كولينز الضخمة لـ «الأعمال الكاملة ل أوسكار وايلد». كنت حينها بلا عمل على اية حال وفي المرحلة الثانية من دراستي المتوسطة؛ لا اتذكر تماماً إن كانت هناك مدرسة اثناء ذلك الشهر من الحرب، لكن بقاءنا في بيت ابي يعقوب مكّنني من الحصول على ركني الهاديء الخاص بي للقراءة.

برغم ان المشكلة قد بدأت في وقت مبكر في نيسان وتمخّضت عن هروب الوصي على العرش عبدالله من قصره، الاّ ان العداءات الحقيقية بين العراق وبريطانيا لم تبدأ سوى في 2 مايس, بعد ذلك بثمانية وعشرين يوماً، في 29 مايس، تمّ تشكيل لجنة الأمن الداخلي على يد محافظ بغداد، ارشد العمري، بغية التفاوض حول هدنة عقب هروب رشيد عالي عبر الحدود الى بلاد فارس بمعية كبار مساعديه. في 30 مايس، ذهب العمري الى رؤية السفير البريطاني، السير كناهان كورنوالس، وهناك وقّع اتفاقية هدنة املى بنودها البريطانيون.

طوال الحرب، التي يسميها البعض حرب الثلاثين يوماً، كانت الجماهير في المدن العراقية الكبيرة في حالة نشوة، تخللتها نوبات من الخوف ورهاب الأجانب. هناك بعض حالات المضايقة البسيطة ضد اليهود، الذين كان كل تحرك منهم يتم تفسيره على انه وسيلة شيطانية مؤيدة للبريطانيين. كان اليهود المنخرطين في انشطة غير ضارة في سياق حيواتهم اليومية يُتَّهمون بإرسال إشارات الى الطائرات البريطانية المحلّقة فوق بغداد، وفي بعض الحالات يتم أخذهم الى مراكز الشرطة ومن ثم يُطلق سراحهم بعد التحقق من تفاهة الإتهامات.

لذلك كان عدد من التجار اليهود يأخذون الى بيوتهم البضائع والحاجيات الثمينة من محالهم وأماكن عملهم من اجل حمايتها. ولم يكن من الأمان او الحكمة بالنسبة لليهودي ان يخرج ليلاً و، إذا كان احدهم متأنياً وحساساً حقاً، حتى اثناء النهار. ولم يفشل هذا الوضع في التدخل في حياتي فقط: بل استخدمته حقيقة كفائدة لي. فعلى الأمد الطويل تمكّنت من البقاء في البيت والقيام بقراءاتي بسلام، دون اية منغصات من الوالدين بشأن «إيجاد شيء ما اقوم به باستثناء التسكع».

لكن ثمة مشكلة ماتزال في الطريق. في 31 مايس، بعدما اصبحت الحقائق معروفة وأعلن الوصي بأنه سيعود الى بغداد في اليوم التالي، بدأ اليهود يسترخون. كان اليوم يوم سبت وبدت المياه تعود الى مجاريها بالنسبة لهم. في اليوم التالي، على اية حال، صادف ان يكون اليوم الأول من عيد الزيارة. ومن عادة يهود بغداد في مثل هذه المناسبات الخروج للمشي بعد الصلوات والإفطار – وفي ذلك الأحد الخاص كان العديد من اليهود يشعرون بأن الوضع آمن جداً بحيث يمكن الخروج للتنزه، وارتداء ملابس السبت وعادة بجيوب مليئة ببذور البطيخ وتشكيلة من الجوز لتزجية الوقت.

ولأن ذلك اليوم كان ايضاً بطريقة ما هو يوم الخلاص من المخاطر التي يشكّلها نظام رشيد عالي المؤيد للنازية، على اية حال، فقد اعتقد الكثير من اليهود بأن المناسبة تستحق احتفالاً مضاعفاً، وبسبب تقارير عن الوصول الوشيك لوصي التاج رأى بعضهم الوضع مناسباً للخروج من اجل غرض محدد ألا وهو المشاركة في ما قيّض ان يكون استقبالاً جماهيرياً له ولحاشيته. ولم يعرفوا سوى النزر اليسير عن طبيعة المفاجآت التي كانت بانتظارهم.

لقد قيلت روايات مختلفة عما حدث فعلاً في ذلك الأحد واليوم التالي. وحسب ارقام رسمية، ان اعمال الشغب وعمليات القتل التي جرت في ذينك اليومين حصدت مامجموعه 110 من القتلى، من بينهم 28 امرأة، و204 من الجرحى – وان الضحايا كانوا من كلا الجانبين، اليهود والمسلمين.

ولم تُعطِ السلطات عدد البيوت والمحال التي هوجمت واقتُحِمت، لكن طبقاً لإحصائيات اعدّها مسؤولو الجالية اليهودية ان عدد المحال والمخازن وحدها بلغ 586، بينما بلغت القيمة الكلية للبضائع، والأشياء الثمينة، والنقود المنهوبة 271,402 دينار عراقي. وبالنسبة للبيوت، اعطت الجالية الرقم 911، مع مامجموعه 3,395 عائلة و12,311 ساكناً – وأن مجموع الخسائر المادية التي تكبدوها وصلت 383,878 ديناراً. وعلى عكس الرواية الرسمية، مرة ثانية، التي لم تذكر حالات اغتصاب، فإن الجالية اعطت تقديراً بثلاث او اربع من مثل هذه الحالات.

لقد أخِذ يهود بغداد على حين غرة تماماً. ومن المؤكد، كان لديهم سبب وجيه جداً للإحتفال: هنا على الأقل كانت نهاية لشهر من المضايقة والإزعاج التي أخضعهم لها نظام رشيد عالي بطرق بارعة جداً وغير متوقعة. كان البريطانيون، الذين كانوا يقاتلون جحافل هتلر، منتصرين. وهكذا، حينما خرجوا لمراقبة الرجوع المظفر لوصي العرش في ذلك الأحد المصيري، اعتقدوا بأن باستطاعتهم تحمّل الظهور مُتَحدّين نوعاً ما، يحدوهم الشعور بالأمن بمعرفتهم ان الجيش وقوات الأمن كانت الآن تمسك زمام السيطرة.

ما حدث بالفعل، على اية حال، هو ليس فقط فشل القوات البريطانية من دخول العاصمة بل سرّح الجنود والضباط العراقيين المنهزمين والسماح لهم بالدخول فرادى وليس جماعات – وهؤلاء لم يتمكنوا من ملاحظة المجاميع الصغيرة من اليهود المتوجهين في الإتجاه المعاكس، وهم يرتدون افضل الثياب للترحيب بالوصي وحاشيته. وما زاد الطين بلة هو ان اليوم كان يوم احد، وطالما عرف هؤلاء الجنود بأن اليهود ليس لديهم سبب ظاهر لكي يلبسوا بشكل بهيج ويتجولوا في الشوارع سوى مناسبة خاصة في ذلك اليوم – وهي عودة الوصي تحت حماية مسلحة صريحة من البريطانيين المكروهين.

وبدأت المشكلة في وقت متأخر من صباح يوم الأحد، حينما التقت مجموعة من الجنود تعبر جسر الخير باتجاه الجانب الغربي من المدينة [التقت] بمجموعة من اليهود في طريقها الى للمشاركة في الترحيب بولي العهد. هوجم اليهود، في البداية بالضربات ومن ثم بالسكاكين – ومن الذين لم يتمكّنوا من النجاة بجلودهم جُرح ستة عشر شخصاً وتوفي شخص واحد بسبب جروحه. وبينما تقدّم الصباح

واشتد وطيس الهجمات، اشترك بعض المدنيين، والمارّة، والمتفرجين في الشجار – بينما رجال الشرطة الذي هم في الواجب في الجسر تصرفوا وكأنهم متفرجون ولم يحرّكوا ساكناً.

انتشر الخبر الى الجانب الآخر من الجسر، حيث كان اليهود يتمركزون – وحينما بلغ المناطق الفقيرة المجاورة لشارع الملك غازي بدأت المجاميع بالتجمهر. وانتشرت الشائعات بأن الشرطة لا تتدخل، برغم انه في مناسبات عديدة كانوا يطلقون عيارات تحذيرية في الهواء عندما تُقتحم المنازل وتُسلب محتوياتها.

ان التجرؤ في هذا التشجيع الواضح ورؤية انه ليس فقط الجنود بل رجال الشرطة كانوا يشتركون في الغارات، فإن الجماهير في هذه الأحياء الفقيرة مثل ابو سيفين وراس الچول – حيث كان اليهود والمسلمون على مقربة من بعضهم البعض – اصبحت مسألة اكثر طبيعية، وبوقت مبكر عصراً شوهدت شاحنات كبيرة تنقل الأثاث وبضائع منزلية اخرى من جانب المدينة الى الجانب الآخر. وحسب بعثة رسمية فيما بعد تمّ تعيينها للتحقيق في الأحداث و الكتابة عنها، اخبر الجنود المرافقون لهذه الشاحنات ضباطَ الشرطة الذين يحققون بالأحداث بأنهم كانوا مجرد ينقلون اثاث المكاتب في مقرات القوة الجوية العراقية، التي قد انتقلت الى مكان آخر!

هذه الغارات، المصحوبة غالباً بعنف جسدي تمخّضت عنه وفيات وجروح، والتي لم تثر ردة فعل مؤثرة من لدن الشرطة، جعلت متصرّف محافظة بغداد يحاول ان يتولى المسؤولية بنفسه. لكن حينما سأل ضباط الشرطة في موقع الحادث لماذا امتنعوا عن إطلاق النار على الجموع المهاجمة، جاء الجواب بأنه «ليست هناك اوامر». وتلقّى نفس الجواب حينما فاتح رئيس الشرطة.

فقط حينما جلب امراً، موقَّعا من الوصي نفسه، صدرت الأوامر بإطلاق النار على اللصوص والقَتَلة. لم يستغرق الأمر سوى ساعة لتفريق الغوغاء وإخلاء الشوارع. في ذلك الوقت، على اية حال، عمَّ الفرهود (الكلمة العربية التي تصف احداث هاتيك اليومين افضل وصف) في جميع الأحياء الفقيرة في شارع غازي وحوله بالإضافة الى بعض المناطق البعيدة مثل الأعظمية والكرادة الشرقية. في هذا الحي الأخير، حيث لم تقع فيها الهجمات الاَ في اليوم الثاني، جُرح ستة يهود وقُتل مسلم واحد حاول الدفاع عن جيرانه اليهود.

من المهم ان نلاحظ هنا بأن الكرادة وبعض الأحياء الراقية في بغداد، حيث كان اليهود يشكّلون اغلبية السكان، شهدت متاعب اقلّ، وبعضها لم يشهد أي شيء على الإطلاق. في كثير من الحالات، قام الجيران المسلمون المسلحون بالحماية وتمكنوا من مطاردة الغوغاء الذين ينوون الهجوم والسلب.

انا والفرهود

ولأنني لم اكن دارياً تماماً بما كان يدور في اجزاء اخرى من المدينة، تركت المنزل بعد الساعة الرابعة مساءً بقليل في يوم الأحد نفسه وأخذت حافلة الى باب الشرقي، حيث تقع المقاهي المفتوحة

ومطاعم الوجبات الخفيفة. كالعادة، انا وأصدقائي تناولنا وجبة من الكباب، ورقائق البطاطا، والسَلَطة، وجلسنا هناك ندردش ونناقش احداث الشهر للمرة الألف. وبرغم انه هو نفسه وطني، فقد سُرَّ صديقي المسلم سلمان بنتيجة تمرد رشيد عالي لأن البريطانيين وأحلافهم كانوا يقاتلون النازيين الفاشيين. من المؤكد انه كان مناوئاً للبريطانيين، لكنه مثل الكثير من العراقيين المعتدلين ذوي الميول اليسارية كان مقتنعاً بترك مشاعره المعارضة للامبريالية مؤقتاً.

لكن، طبعاً، لم تكن اهتماماتنا سياسية بشكل اساسي، اذ كنت انا وسلمان نناقش الأدب وآخر قراءاتي و»اكتشافاتي»، بينما كان هو يقصّ نكاته وحكاياته التي لا تنتهي سواء من الأدب العربي والتاريخ الإجتماعي ام من خبراته في الزبير، وهي مدينة تقع في جنوب العراق التي انحدر منها والتي تُعرف بشكل رئيس بظاهرتين – النوعية الإستثنائية لتمورها والعدد غير المتكافيء من الشواذ النشطين في سكانها. وأشك بأن سلمان نفسه كان شاذاً؛ اذ لم يتفوه بأية كلمة عن جمال المرأة وطوال الفترة التي قضيناها معاً لم استطع ان اقنعه قط ليرافقني في طريقي لرؤية مومس.

لم يكن هناك أي مؤشر عما كان يدور غير بعيد عن المكان الذي كنا نجلس فيه وندردش – وعندما حان وقت المغادرة – حوالي الساعة العاشرة او الحادية عشرة مساءً – رأينا بأن الجو جميل جداً بحيث لا يمكن ان نأخذ حافلة وتمشينا على طول شارع الرشيد في طريقنا الى بيوتنا. اثناء ذلك التجوال، بدأت اشعر بأن شيئاً ما لم يكن هادئاً مثلما كان يجب ان يكون عليه. كانت هناك، مثلاً، مجموعة صغيرة من الشبان اليهود الذين كانوا يتعقبون خطواتنا بعناية، حتى لا نتوارى عن ابصارهم. كما كانت هناك ايضاً القليل من الحافلات.

لكنه فقط حينما اقتربنا من سوق الشورجة والطريق المجاور الذي يؤدي الى حي تحت التكية حتى بدأت اشعر بشيء ما غير اعتيادي بالمرة. وبالإضافة الى سلمان وأنا، كان معنا صديق يهودي شاب صادف ان يكون بيته في الزقاق المؤدي من تحت التكية الى زقاق متوازٍ كذلك يؤدي الى شارع الرشيد. وحالما اخذنا تلك الإنعطافة، تجرّأت مجموعة مكوّنة من عشرة الى اثني عشر شاباً بالقيام بالشيء نفسه – لكنهم قرروا الهرب. فهم كانوا يعرفون بلا شك ما كان يدور هناك في الجانب الأخر من المدينة.

اوصَلْنا صديقَنا سالماً الى البيت، رافضين ان نتركه حتى دخل المنزل. ثم قرر سلمان، وأنا لم اعترض عليه، بأنه لابد ان يوصلني الى البيت ايضاً. لن انسى مطلقاً الطريق الذي دخلته. كان عندي مفتاح للباب، لكن الباب كان مقفلاً بالمزلاج ولذلك لم اتمكن من الدخول. حينما طرقت الباب سُئلت مَن انا ولم يوافقوا على النزول من السطح – حيث كان البغداديون ينامون هناك في الصيف – وفَتْح الباب الاّ بعد ان اكّدت للأشخاص الموجودين في الداخل بأنه انا. ورشح لي بأن هؤلاء الأشخاص، والعائلة التي كانت تشاركنا المنزل، قد سمعوا بما حدث و لأنني كنت متأخراً كثيراً (اذ اقترب الوقت من منتصف الليل حينما وصلت الى البيت) فقد سلّموا بأنني كنت في عداد الأموات، وقُتلت على يد احد عصابات القتل من المسلمين الهائجين الذين يجوبون الشوارع والأزقة.

ارادوا مني ان اخبرهم بما حصل والمشاهد المروعة التي من المفترض انني شاهدتها – واحتاروا اية حيرة عندما علموا بأنني لم اعلم بعمليات السلب، والقتل، والإغتصاب التي كانت تحصل. حافظت على هدوئي، وأخبرتهم بأن لا يخافوا، وذهبوا الى النوم. لكنني لم اتمالك نفسي من سماع الإطلاقات التي أطلقت من مسافة وحتى بعض صرخات الإستغاثة.

في الصباح القادم ساءت الأمور الى درجة كبيرة عندما انتشر الخبر بين سكان الأحياء الفقيرة وأفراد من القبائل النازحة بأنه سيتم كسب الكثير عن طريق الإلتحاق بالشجار. اتذكر انني كنت ارقب من شباكٍ مجاميعَ من الرجال يتضح انهم من خارج المدينة وبالكاد يعرفون طريقهم وهم يحملون رزماً من المسروقات ويتدفقون جيئة وذهاباً في ذلك القسم من زقاقنا المؤدي الى زقاق آخر. حيث كنا نعيش، ليس هناك سوى بيتين او ثلاثة بيوت قبل نهاية طريق مسدود، وبيتنا نحن هو البيت اليهودي الوحيد.

لا اتذكر الفكرة التي عبرت عقل أي ساكن في منزلنا بأن جيراننا المسلمين سوف يضربوننا. بل ان الأكثر شكًّا وهستيرية بيننا عبّر عن مخاوفه بأن جيراننا لن يتدخلوا وسوف يسمحون للغوغاء المتوحشة بعمل ما يحلو لهم بنا.

كانوا [أي سكان المنزل] على خطأ. فبدون حتى ان نفاتحهم بالأمر، اكّد لنا الأبناء الثلاثة الأكبر سناً في جيراننا المسنين – احدهم موظف حكومي والآخر طالب في احدى الكليات – بأننا نستطيع ان نعتمد على حمايتهم. كانوا من عائلة بغدادية مخضرمة وطيبة وهكذا كان بحوزتهم عادة بعض الأسلحة النارية. بقوا يراقبون لكنني لا اظن ان هناك اية محاولة في ذلك اليوم من جانب الغوغاء لمهاجمة منزلنا، على الأغلب لأنهم حتى غير دارين بحقيقة ان يهوداً كانوا يقطنونه.

ماذا حصل فعلاً

ان ما حصل فعلاً في ذلك اليوم الصيفي المصيري في العام 1941 هو الآن واضح جداً وموثّق. لكن سلسلة الأحداث التي ادّت اليه، والدوافع، والأخطاء الفادحة، والمكائد، والفشل، ونقاط الضعف التي جعلت الحدث ممكناً ومن المحتمل لامفرّ منه غير واضحة وربما لن تصبح واضحة بشكل بات. لقد سقطت بغداد بيد البريطانيين وحكومة رشيد عالي اجبرت على الفرار. مع ذلك لم تدخل القوات البريطانية المدينة – وكانت النتائج كارثية بالنسبة لليهود لتُحرج حرجاً كبيراً كلاً من بريطانيا والنظام الموالي لبريطانيا الذي خلف حكومة المتمردين.

وروى سومرست دو تشير، ضابط المخابرات البريطاني الذي كان في موقع الحدث في ذلك الوقت، القصة الكاملة – او شيء ما قريب من القصة الكاملة – في كتابه «السجادة الذهبية». هناك يسجّل بأن احد الضباط مع القوات سأله: «لما لاتدخل قواتنا في بغداد؟ ربما يسرقون الآن. اعرف. سيُقتل العديد من الناس هناك عندما لاتدخل قواتنا.»

يكتب دو تشير، «هذه كانت وجهة نظري انا بينما طرق مكتب الخارجية هي خارج نطاق فهمي. منذ ساعة وقف اطلاق النار سادت كلمتهم. وكوننا قاتلنا في طريقنا، خطوة بخطوة، الى ضواحي المدينة، علينا الآن ان ننتظر في الخارج. يبدو ان هذا سيقلل من كرامة حليفنا، الوصي، لو شوهد بأنه مدعوم بالحراب البريطانية عند وصوله.»

ثمة تفسير آخر وهو ان الوصي عبدالإله، بتصرفه وفق معلومات من اصدقائه ووكلائه في المدينة، قرر بأن الوقت غير مواتي تماماً لدخوله، نظراً لقوة الشعور المناوىء للبريطانيين والإستياء الشعبي ضد نظامه. وحسب هذه النظرية، فإن الوصي وحاشيته، بضمنهم الرجل القوي نوري السعيد، كانوا يأملون بـ ، ويشجعون بصورة غير مباشرة، التطورات التي حدثت.

وباتت فوائد هذا التكتيك جلية. في المقام الأول، ان الغوغاء سيصبّون جام غضبهم وامتعاضهم على كبش فداء جاهز، وهو اليهود. ثانياً، سيستغل النظام الجديد الإرباك العام الناجم من اجل تصفية حسابات قديمة مع العناصر المؤيدة للتمرد.

كانت العواقب النفسية التي خلّفها الفرهود على يهود العراق، وآثاره على معنوياتهم، [كانت] بعيدة المدى. ان يهود بغداد، العنصر الوحيد المؤثر والراسخ في المدينة، صُدموا، وأُرهِبوا، وأوهنوا. على مدى التاريخ الطويل لهذه الجالية، فعلاً، لم تكن هناك حادثة اخرى مؤلمة غيرها. يمكن ان يقال بأن النزوح الجماعي بين عامي 1950-1951، حينما رُحِّل تقريباً جميع يهود العراق على عجل الى اسرائيل، كان النتيجة الحتمية لعملية كانت قد بدأت في ذينك اليومين المصيريين من حزيران.

هذه الأحداث هي التي جعلت يهود العراق تتقبل تعاليم الصهيونية وايديولوجيتها، هذ الايديولوجية التي فشلت في التجذر لأن معظمهم لم يوفّقوا بينها وبين اندماجهم الذي يبدو كاملاً في الحياة البغدادية. فبالرغم من ان الحركة الصهيونية قد قامت ببدايات متواضعة في وقت مبكر من العشرينات، وبالرغم من انها كانت معروفة في العراق حتى قبل ذلك الوقت، فإن الصهيونية لم تتوجه صوب بغداد، ولاسيما في صفوف الشباب، الاَ بعد تمرد رشيد عالي وأعمال الشغب المناوئة لليهود عام 1941.

كانت هناك، طبعاً، عوامل وضغوطات اخرى – وبالخصوص الموقف الذي خلقته مشاركة العراق في الصراع الفلسطيني عام 1948 والهزيمة التي لحقت بالعرب على ايدي دولة اسرائيل الجديدة. لكن احداث عام 1941هي التي بدأت العملية الكارثية.

عقب دخول القوات البريطانية، الذين كان غالبيتهم هنود يتكلمون اللغة الأوردية، اصبح سكان المناطق المحترمة منزعجين جداً من تحرشات هؤلاء الشباب المتعطشين للجنس بحيث رأى العديد منهم انه من الضروري القيام بعمل ما. لذلك قرروا ان يضعوا لافتة ضخمة عند مدخل كل شارع فرعي تقول «لاتوجد عاهرات هنا».

كاتب مصرف

بعد عدة سنوات مما يبدو انه بطالة تامة، اذ كل الذي عملته فيها هو تعليم نفسي اللغة الإنكليزية، وقراءة الكتب، وحضور الدروس المسائية، وجدتُ اخيراً وظيفة – وهي اول وظيفة دائمية احصل عليها في حياتي. اقترح احدهم بأنني لابد ان اقدّم على وظيفة بصفة كاتب متدرب في المصرف الشرقي المحدود، ولدهشتي انني قُبلت وأعطيت حالاً وظيفة «مراقب سجل الحسابات»، براتب شهري مايعادل 11 باوند استرليني.

وحسب الشهادة التي مُنحت لي عند مغادرتي الوظيفة، ان عملي في المصرف الشرقي استمر الى فترة لاتصدق تربو على الثلاث سنوات – من 10 نيسان 1942 الى 30 مايس 1945. اثناء تلك المرحلة استطعت ان انهي دراستي المتوسطة وسنتين من الدراسة الثانوية بالإضافة الى مواصلتي انشطة اخرى – معاشرة الناس ، والقراءة، واهتمام فاتر بالسياسة.

وشأنه شأن المؤسسات المصرفية والتجارية في بغداد تلك الأيام، كان المصرف الشرقي شأناً يهودياً بشكل كبير. ففضلاً عن وجود اثنين او ثلاثة من البريطانيين، الذين تبوءوا مناصب رفيعة، وعدد قليل من المسيحيين، كان جميع الموظفين يهوداً. كان رئيس قسم الحسابات الجارية الذي كنت اعمل فيه اسكتلندياً ذا مزاج عصبي وسهل الإثارة، لكن «رئيس الكتّاب» كان شاباً صغيراً نوعاً ما يحمل الإسم إفرايم. كان لطيفاً دافيء الكلام ولا اتذكر اية صدامات جدية معه؛ لكن لم اكن احب نغمة رئيس القسم ولا اعتقد بأن إفرايم كان يحبها ايضاً.

على ما يبدو، وبشكل يثير العجب، ان الوظيفة التي كنت اؤديها كانت جيدة تقريباً بحيث ابعدتني عن وصول الأذى فاستمتعت بالنعيم غير المتوقع بذلك النوع من المال الذي كنت اكسبه. وبرغم انه بعبارات مطلقة كانت الظروف سيئة للغاية، الاّ انها افضل من تلك الظروف السائدة في مكان ما آخر وبالتأكيد افضل من كل شيء اعرفه. لم تكن هناك اجازة سنوية، ولا منافع اجتماعية من أي نوع كان، ولا صندوق للتقاعد، ولا تعويضات نهاية الخدمة – وحينما قررت المغادرة بعد ثلاث سنوات من العمل في المصرف احتجاجاً على فشلهم في منحي علاوة على الراتب، فإن كل الذي حصلت عليه هو راتب آخر شهر، في حين كان عليّ من ناحيتي ان اعطي المصرف مهلة شهر.

احدى القصص المأساوية التي لن انساها – والتي تعطي ايضاً مثالاً جيداً عن نوع العالم الذي كنا نعيشه – حدثت في يوم صيف في نهاية عملي في المصرف. في صبيحة ذلك اليوم لم يحضر إفرايم الى العمل ولذلك بقي كل شخص يتساءل عما حصل. قبيل الظهر، على اية حال، جاء الخبر بأن إفرايم قد توفي في ذلك الصباح نفسه: في طريقه الى المصرف، وبينما كان يعبر موقع بناء، سقطت طابوقة مباشرة على رأسه ومات في الحال.

بقدر ما أتذكر لم يكن هناك ولو حتى حديث عن بادرة بسيطة كالمشاركة في جنازته، واذا قام زملاء له بزيارة تعزية لعائلته فأنا لم اعلم بهم. كما لم يكن هناك حديث لا عن دفع المصرف للأرملة وتعويض الأطفال – ولا أي قضية تمّ رفعها ضد شركة البناء او أي شخص كان مسؤولاً عن إسقاط الطابوقة الضالة.

ان الذي اعطاني مقداراً من الثقة بالنفس المطلوبة للتهديد بترك المصرف الشرقي هو انني قد وجدت وظيفة في شركة مصرفية صغيرة – وهي وظيفة افضل وأكثر مسؤولية وكذلك براتب اعلى بكثير. مصرف زلخة كان مصرفاً يهودياً اهلياً، اصغر بكثير من المصرفين الكبيرين لكنه يقوم بالكثير من الأعمال التجارية قياساً الى حجمه. كانوا بحاجة الى شخص يتولى مسؤولية ما يسمى بـ «قسم الإئتمان»، الذي يتعامل على الأغلب مع المستوردين.

لكن عملي في ذلك المصرف كان عمره قصيراً نوعاً ما – فقط ما يقرب من شهرين. ولأنني معتاد على القوانين الصارمة والمسؤوليات والمهام المحددة في المصرف الشرقي، فشلت في التكيف مع الأسلوب السهل، والمتقلب نوعاً ما الذي كانت تدار فيه المؤسسة المصرفية الأهلية. غالباً، عندما كان يأتيني زبون وأخبره عن الشروط والمسؤوليات، كان سيذهب الى المدير ويحصل على شروط افضل – ومن ثم يتم نقضي. وفي نهاية الشهر الثاني اعتقدت انني تحملت الكثير.

اعطاني عملي في مصرف زلخة رؤية الى اعمال عالم التجارة افضل من الثلاث سنوات جميعها التي قضيتها في المصرف الشرقي. كذلك كانت لي نظرة خاطفة في المجتمع التجاري اليهودي – وحتى كنت قادراً على التسبّب بشيء من الإزعاجات. ذات يوم اعطاني المدير رسالة كان قد استلمها في ذلك اليوم من شخص ما في لندن. كانت الرسالة قصيرة – وهي طلب معلومات عن شخص يدعى السيد رچموند اعتاد ان يدرّس في مدرسة الشمّاس في بغداد و، إذ هو عائد ثانية الى لندن الآن، كان من الواضح انه يطلب يد شابة يهودية. والآن درج إيلي على الحديث بلا انقطاع عن رچموند، آناً يمدحه، وآناً يذمّه بسبب «الغرور» والتكبر.

فكرت بأنني سأعطي إيلي فرصة لتصفية الحسابات مع رچموند وأخذت الرسالة له في ذلك اليوم نفسه اطلب نصيحته. جلسنا سوية في الحال ودبّجنا جواباً، برغم انه لم يكن ادانة صريحة، لكنه كان شديداً من حيث لهجته وتلميحاته. في اليوم التالي طبعت الرسالة وأرسلتها بالبريد – لكن حينما قرأها المدير اخيراً كان غير سعيد بشكل واضح وساهمت الحادثة بالتطور الذي تطور وانتهى اخيراً باستقالتي.

خضوري خدوري يعمل اكتشافاً

مع ذلك، كما هو الحال مع المصرف الشرقي، ارى الآن من خلال الشهادة التي بحوزتي الآن بأنني لم اترك مصرف زلخة الاّ بعد ان امُّنت مكان عملي القادم – مكتبة الرابطة. ان ما حدث هو انه، بينما كنت انتظر مكاناً لوضع المكتبة المخطط لها وترتيب البضائع، اتخذتُ منصباً مؤقتاً بصفة مترجم في مديرية التجهيز والترشيد. ومن الغرابة، حصلت على الوظيفة بفضل مهنتي الحرة الجديدة بصفة بائع كتب متجول متخصص بالأعمال الأدبية الطليعية وكتب ودوريات اليسار واليسار المتطرف. كنت قد سمعت بخضوري خدوري وميوله اليسارية في وقت ما قبل ان يعرّفني بمديري المستقبلي عبدالفتاح ابراهيم. بينما كان خدوري يعمل الآن – على سبيل الإعارة من وزارة الداخلية – بوصفه رئيساً افتراضياً للمديرية، قررت ان اذهب اليه بباقة من كتب نادي كتاب اليسار

ومطبوعات متشابهة. وأول شيء عرفته هو انه عرض عليّ وظيفة مترجم الى اللغة الإنكليزية، في القسم الذي يتعامل مع آلاف المطبوعات التي تدخل يومياً بخصوص عمل المديرية. كانت الترجمات تجري لصالح «المستشار» البريطاني الذي كان حينها يدير التجهيزات ككل بصورة مؤقتة طيلة فترة الحرب وبعدها.

قبلتُ عرض خدوري، اذ ان عملي يتضمن الترجمة الى اللغة الإنكليزية ما يقرره رئيسي المباشر، وهو آشوري حلو المعشر، بأنه ملائم ليراه الرئيس الأعلى. وإثناء عملي هناك قابلت اول مرة ساسون دلال، الذي عمل ايضاً كمترجم. كان دلال في ذلك الحين قد انهى تعليمه الثانوي واجتاز امتحانات الثانوية العامة رفيعة المستوى لجامعة لندن.

وإذ كان في تلك المراحل المبكرة من خبرته الشيوعية، كان ساسون دلال مؤمناً حقيقياً ومتعصباً. ولكونه مجادلاً اسطورياً، ولمَّاحا، ومتلهفاً، وثمة حمرة بشكل اعتيادي في وجهه، كان دائماً يجادل ويبشر بإنجبيله الشيوعي. تملّكني شعور من انه لولا دعم خدوري لما بقي في الوظيفة يوماً واحداً. كان دلال سيصبح عضواً قائداً في الحزب الشيوعي المحظور و، بوجود جميع قادته في السجن، الزعيم والمقرّر الأوحد. وانتهى به الحال بأن يُحكم بالموت شنقاً، حدث في صيف عام 1949، عقب الشنق العلني لأربعة من رفاقه بأشهر قلائل. وقيل على نطاق واسع بأنه صعد المقصلة وهو يصرخ «يعيش إتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية» ، «يعيش الرفيق جوزيف ستالين!»

لقاءات قصيرة

بعد فترة قصيرة في مديرية التجهيز والترشيد، قابلت صديق خدوري وهو عبدالفتاح ابراهيم، المبادر والضوء الهادي لجمعية الرابطة. كان عبدالفتاح حينها مشغولاً في التخطيط لافتتاح مكتبة تحمل الإسم نفسه، وعرض عليّ وظيفة هناك. في غضون اربعة سنوات قضيتها في المكتبة، اعمل عن قرب جداً مع عبدالفتاح الشيخ الملتزم سياسياً الى ابعد حد، فمن الطبيعي ان اقابل واتعرّف على عدد لابأس به من الناشطين السياسيين، والصحفيين، والمراسلين الأجانب الذين جاءوا يطلبون مقابلة زعيم الحزب السياسي المرخّص حديثاً. بعض من هؤلاء التقيتهم وتبادلت الذكريات معهم في اجزاء اخرى من العالم في سنوات تالية. احدهم كان جون كمچي، الذي عملت معه وأقمنا صداقة دائمة ابتداءً من العام 1962.

لقد رأيت اسم كمچي في الصحيفة الأسبوعية اللندنية «تربيون»، التي صممت تقريباً على هدي صحيفة New Statesman (رجل الدولة الجديد) لكنها كانت تمثل وجهة نظر خاصة جداً بالأخير – وكان يُنظر لها على انها لسان حال مؤيدي انيورين بيفان، وهو شخصية قيادية في حزب العمال. كان كمچي في الحقيقة المحرر التنفيذي لصحيفة «تربيون»، التي كتب فيها جورج اورويل بانتظام تحت عنوان «اكتبُ كما يحلو لي».

ذات يوم، بُعيد اندلاع اول حرب اسرائيلية عربية عقب تأسيس الدولة الجديدة في مايس عام 1948، ظهر جون كمچي في المكتبة، يسأل عن عبدالفتاح، الذي كان له معه موعد لإجراء لقاء. كان كمچي

في ذلك الوقت يعمل مراسلاً متجولاً لإحدى الصحف اليومية اللندنية الرائدة – ومن المحتمل جداً يعمل لصالح الوكالة اليهودية ايضاً من خلال الإتحاد الصهيوني لبريطانيا العظمى – لكنه اختار ان يقدّم نفسه بصفة «صحفي سويسري». على اية حال، بينما سمحتُ لعبدالفتاح ان يعرف بأن اسم الرجل كان مألوفاً لي في صحيفة اسبوعية بريطانية يسارية فإنني لم اشك في شيء؛ ولم اعرف حتى بأن جون كان يهودياً.

مع ذلك، عندما فكرت بالأمر فيما بعد صعقني كغريب بأن الرجل انتحل هوية سويسرية. ولم اعلم الاّ فيما بعد، على اية حال، بأن جون كان فعلاً مواطناً سويسرياً، ولد هناك لكنه امتنع من التجنّس كمواطن بريطاني طوال عمله الطويل في الصحافة البريطانية و الصحافة الأنكلويهودية.

وهو، الى جانب عمله في تحرير صحيفة «تربيون»، اصبح فيما يعدّ محرراً في مجلة Jewish Observer and Middle East Review التابعة للإتحاد الصهيوني، التي اصبحتُ مرتبطاً جداً بها والتي فُصِل منها بسرعة في آذار عام 1967 بتحريض من زملاء إشكول Eshkol، اذ عرف عن كمچي بأنه من المعجبين جداً والمناصرين الثابتين لموشي دايان وأصدقائه في مجموعة رافي المنشقّة. كما اسّس كمچي في وقت لاحق وحرّر المجلة الشهرية القصيرة العمر New Middle East (الشرق الأوسط الجديد).

وباستثناء «المتعاطفين» – الذين يُعرفون جيداً هذه الأيام بـ «رفاق السفر» fellow travelers[25] – واثنين او ثلاثة صحفيين كانوا يعملون في جريدة الحزب الجديد لعبدالفتاح «الإتحاد الوطني»، لم يكن هناك سوى عضو ناشط واحد من جمعية الرابطة يهودياً. كان ابراهيم ناجي من بين عشرات الناس الذي عرفته اثناء عملي في المكتبة. وبوصفه شريكاً في عمل تجاري رئيس للبيع بالجملة متخصص في المعدات الطبية والأدوية، كان ناجي موسراً تماماً من الناحية الإقتصادية، وكان يساعد بسخاء كلاً من الجمعية والحزب. كنت في موقع اعرف هذا بصفتي محاسباً للسابق برغم انه لاعلاقة لي سواء بالحزب او بجريدته قصيرة العمر.

وعلى عكس عبدالفتاح وجماعته من الإشتراكيين المعتدلين، على اية حال، تمّ اكتشاف ناجي اخيراً بأنه كان شيوعياً سرياً ومتورطاً جداً في اعمال الحزب الشيوعي السري. اثناء بواكير الخمسينات، حينما تمخض اعدام الشيوعيين عن اعدام وسجن العديد من قادتهم، عرفت الشرطة نوعاً ما بنشاطات ناجي السرية و، حينما اعتقلته الشرطة وفتّشت بيته، لم يضبطوا دليلاً جرمياً اقل من المعدات المستخدمة لتنضيد، وطباعة،إصدارصحيفة الحزب الشيوعي السرية «الشرارة».

تمّ احتجاز ناجي، مع زوجته الشابة، التي كانت حينها في مرحلة متقدمة من الحمل. وحُكم عليهما بالسجن المؤبد. وأيضاً، نتيجة للصدمة، أسقط وليدهما البكر وأصيبت الزوجة بالعقم، الى الأبد على مايبدو.

اخيراً، في وقت ما في اواخر الخمسينات عقب ثورة عبدالكريم قاسم في 14 تموز 1958، تمّ منح عفو عام للشيوعيين المسجونين وغيرهم من اليساريين، فوجد ابراهيم ناجي وزوجته طريقهما الى اسرائيل، حيث، حسبما كانوا يعتقدون، سيتمكنون من العمل للقضية بلا منغصات. مع ذلك، كانت هناك حركة شيوعية ذات سجل مشرّف، بأعضائها من الكنيست، وجريدتها اليومية، ومطبعتها الخاصة بها، ومع العرب واليهود العاملين معاً لترسيخ مجتمع اشتراكي بحق.

لكن خابت آمالهم بمرارة، على اية حال، وبسبب حالتها الصحية، توفيت الزوجة بعد وصولهما بسنة او سنتين فقط. لم يكن العمل مع الشيوعيين المحليين سهلاً بالمرة، على الأكثر بسبب صدعٍ تسللَ بين اليهود والعرب ضمن الحركة. اخيراً، قام ناجي ذات يوم بجولات لأصدقائه المقربين وزملائه السابقين – وهي زيارات قصيرة غير رسمية انتهت اخيراً بأنه اختار طريق الوداع. في نهاية جولة زياراته عاش ابراهيم ناجي حياته الخاصة.

الفصل الثالث عشر

ايام المكتبة

في وقت ما بدأ عقلي يقلّب الأمور على وجوهها – لا استطيع ان اقول بالضبط متى. كنت جالساً هناك في قاعة الجامعة هذه أصغي الى حلقة نقاشية حصرية وخاصة جداً ألقاها البروفسور برنارد لويس، وهو احد ابرز مؤرخي الشرق الأوسط الحديث. كان الموضوع هو العلاقات العربية-اليهودية، واليهود في اسلام القرون الوسطى، و «الإسلام المعادي للسامية». كان المحاضر يتكلم عن ما اسماه بـ «اسطورة» التسامح الإسلامي الأسباني تجاه اليهود وكيف تمت تقوية ذلك بالضبط على يد علماء اليهود في اوربا في هذا القرن، يُزعم بأنهم يستخدمونه كعصا يضربون بها جيرانهم المسيحيين. وكان يقول بأن العلماء المسلمين-العرب في يومنا هذا مبتهجون على نحو خاص في إلصاق فضيلة التسامح بالإسلام الأسباني.

وهكذا دواليك. انه تقريباً في هذا الوقت «ضيّعني» المحاضر على الأغلب، وبدأتُ افكر بفترةٍ احدث وذاكرةٍ اكثر شخصية – بغداد منتصف الأربعينات وخبرتي الخاصة ضمن الوسط الإسلامي-العربي الذي ترعرعت فيه ووجدته اقرب شيء الى النضج والكمال العاطفي والفكري. وبسبب صعوبة تنظيم افكار المرء في مثل هذه الظروف، وجدتُ نفسي اقفز من مشهد الى مشهد، ومن شخص الى شخص، ومن مكان الى مكان – وأخيراً استطعت ان اركّز على تلك السنوات التكوينية من النصف الثاني من ألأربعينات، وبعض اقراني ومَن هم اكبر مني سناً في ذلك الوقت، والجو العام «للتسامح» الذي تحركنا فيه، وقرأناه، وأحببناه، وعشناه ببساطة.

كان المحاضر مايزال يدقق بالتفاصيل بشأن التسامح، وكيف اعطت «اسطورة التسامح الإسلامي الأسباني» مثالاً مثيراً عن مطبات والتباسات التاريخ وكتابة التاريخ. كان يتحدث عن نوعين، على الأقل، من التسامح – التسامح بوصفه غياب التمييز والتسامح بوصفه غياب الاضطهاد. وحينما بدأ يتوسع ويضع النقاط على الحروف توقفت عن الإصغاء بالمرة وبدأت بإعادة تركيب الوجوه والمَشاهد الداخلة في انطلاق، قبل 35 سنة تقريباً حتى اليوم، مهنتي بصفة مساعد بائع كتب.

بعض اعزّ ذكرياتي عن بغداد، في الحقيقة، تتعلق بعملي في مكتبة الرابطة، وهي فرع من جمعية ثقافية تحمل الإسم نفسه الذي تأسست به جماعة المثقفين ذوي الميول السياسية اليسارية الذين امتنعوا ان يكونوا شيوعيين نشطين. لقد طلب مني امين سر الجمعية وأمين الصندوق الفخري، خضوري خدوري، ان اساعد في تأسيس المخزن، الذي سيتعامل بشكل كامل تقريباً بكتب ناطقة باللغة الإنكليزية.

ثم كانت لي مقابلة قصيرة مع رئيس الجمعية، عبدالفتاح ابراهيم – وفي طرفة عين وُجِدَ المكان، ورتّبت الكتب مباشرة من ناشرين فرديين، وحدّدت الرفوف والمناضد، وتمّ فتح المكتبة. وباستثناء الأعمال الأكثر تخصصاً في علم الإجتماع، وعلم الإقتصاد، والتاريخ، التي اختارها عبدالفتاح نفسه،

كان عندي مطلق الحرية في القيام بالطلبات، فيما لعب ميولي ورغباتي دوراً حاسماً في ترسيخ شخصية المكتبة ونوع الزبائن الذين يترددون عليها.

اتذكر جيداً بأنه في يوم الأفتتاح وإثناء الأسبوع الذي تلا ذلك وُضِع اعلان كبير في صحيفة محلية لإدراج مايُزعم ان يكون «عشرة كتب غيّرت العالم» – التي كانت جميعها متوفرة في المخزن الجديد بأسعار منخفضة نوعاً ما. اشتملت الكتب على «الأعمال الكاملة» لأفلاطون، و «أصل الأنواع» لدارون، و «رأس المال» لماركس، و «مفاهيم اساسية» لفرويد – في سلسلة عمالقة الأدب الحديث؛ لكنها اشتملت ايضاً «الحرب والسلام» لتولستوي، و «يوليسيس» ل جيمس جويس.

وسرعان ما اصبحت المكتبة، التي افتتحت في ربيع عام 1946، ملتقى المثقفين والقراء النهمين من كل الأنواع – وبالرغم من ان لدي حلقتي الخاصة من الأصدقاء والأدباء، فإن بعض افضل ارتباطاتي وصداقاتي الفكرية وأكثرها بقاءً كانت لها جذور هناك. كانت بغداد منتصف الأربعينات مكاناً صغيراً نسبياً مع عدد محدود نوعاً ما من الناس الذين كانوا حقاً يقرؤون اللغات الأجنبية بسهولة او للمتعة. حتى بين الجالية اليهودية، كانت اللغات الأجنبية – على الأغلب اللغة الإنكليزية والفرنسية – هي لغات التجارة والصيرفة، ومفيدة كثيراً اذا ما اردتَ الحصول على وظيفة في احد المصارف او الشركات الأجنبية.

كان هناك، من المؤكد، ثلاث او اربع مكتبات قبل الرابطة، وجميعها متخصصة في المطبوعات الإنكليزية والفرنسية. على اية حال، برغم انها كانت تعرض الأعمال الكلاسيكية وبعض الكتب المتعلقة بالأوضاع الراهنة، الاّ ان الأعمال الأدبية المعاصرة – الرواية والشعر والنقد في الثلاثينات والأربعينات – كانت غير معروفة من الناحية العملية. كما اعتاد إيلي القول بازدراء نوعاً ما عن افراد معينين من جيلنا، «الأدب الإنكليزي، بالنسبة لهم، ينتهي مع اوسكار وايلد».

ان جِدة مكتبة الرابطة، وحلقة الطامحين الأدبيين التي ساعدت [المكتبة] في خلقها، كانت المقدمة لما عُدّ الكلمة الأخيرة في الموضة الأدبية – في الشعر اعمال تي. اس. إليوت، عزرا باوند، اودن، ماكنيس، سبندر، باركر، ادوِن ميوَر؛ وفي القصة اعمال جويس، كافكا، مان، كوستلر، اورويل، كرين، وارن، ترلنغ، بيلو – ناهيك عن مجموعة من المجلات الرائجة في ذلك الوقت – بارتيزان ر□يو، سواني ر□يو، كنيون ر□يو، هدسن ر□يو، بوليتكس من الولايات المتحدة، هورايزن، سكروتني، كورنهل، لايف آند لترز، و بوليمك من بريطانيا.

الجماعة التي رافقتُها

من بين الشباب الذين تعرّفت عليهم من خلال المكتبة كان بلند الحيدري، وهو بوهيمي حقيقي وحتى ذلك الحين كان شاعراً غير ناضج الذي اصبح احد الرواد البارزين في «الشعر الحديث» في العراق.

ولد بلند في محافظة اربيل الكردية في العام 1926 وجاء الى بغداد عندما كان صبياً صغيراً. في عمر يناهز الخامسة عشرة، وتحت تأثير حسين مردان، وهو بوهيمي زميل علّمه بأن العائلة هي «القاتل الكبير»، ترك المدرسة الثانوية في منتصف الفصل الدراسي وعاش حياة صعلوك حقيقي، يجوب الشوارع اثناء النهار وينام في المتنزهات العامة وتحت جسور نهر دجلة ليلاً.

ولأنه شعر بالفجوة في تعليمه، فقد درج على الذهاب الى المكتبة العامة وقراءة أي شيء يصادفه. في وقت ما «تخصص» في علم النفس – الى حد انه اصبح موضع تندر بين اصدقائه الذين ينعتونه بـ «مستر سايكو» Mr. Psycho.

اخيراُ، نشر بلند مجموعته الشعرية الأولى، بعنوان، وهو نموذجي جداً، «خفقة الطين». ظهر الكتاب في العام 1946، حينما كان الشاعر قد دخل لتوه في العشرين من عمره. من المستحيل القول الآن إن كان سبق أي شخص غيره في ريادة ممارسة الشعر الحر في العراق، لكن ثمة شيء واحد واضح: من بين الشعراء العراقيين الشباب الذين بدأوا هذه الموضة –التي بدأت بلا شك في العراق – كان الحيدري في الصدارة، اسوة مع بدر شاكر السياب، رشيد ياسين، اكرم الوتري وآخرين.

لابد من الإشارة هنا بأن إدخال الشعر الحر الى اللغة العربية لم يخطر على البال لو لم يكن هؤلاء الشباب تحت تأثير الشعر الأوربي الحديث والمعاصر. ومن اجل تقييم اهمية اسهام بلند الحيدري، لابد للمرء ان يتذكر بأن الحركة الحديثة في الشعر العربي بدأت حينما تحوّل هو ومعاصروه الى الشعر الحر. ولأسباب اكاديمية جداً لا يمكن الخوض فيها هنا، فإن هذا الإنتقال الى الشعر الحر مثّل حركة جذرية في الحروف العربية، التي انهت تقليد الشعر المقفى، الموزون الذي كان سائداً خمسة عشر قرناً.

لقد سرد بلند نفسه كيف اعتاد هو وأصدقاؤه على التجمع سوية والقراءة بصوت عال بعض اعمال شعراء بريطانيين وامريكيين معاصرين. في المجلة البيروتية الأسبوعية «الأسبوع العربي» الصادرة في 23 حزيران، 1975، يعترف في مقابلة بأنه، بإنكليزيتهم التي كانوا عليها، هو وآخرين كانوا يقرؤون هذه الأعمال عادة بحضور، وبمساعدة، شخص تمكّنه معرفته باللغة من «التقاط الأبعاد الشعرية لتلك التجارب». ويذكر اسماء اثنين من هؤلاء الناصحين الأوائل: جبرا ابراهيم جبرا و نجيب المانع. ويتضمن تقريره، كما طبع في المجلة الأسبوعيةة اللبنانية، هذه الملاحظات:

اثناء هذه الفترة عرفت جبرا، الذي لعب دوراً كبيراً في تحويل التجربة الشعرية لنا. كذلك، اصبحت علاقاتي اقرب مع نجيب المانع، حسين هداوي، و سلمان محمود حلمي. اعتدنا على التردد على مكتبة الرابطة، حيث قابلنا مثقفاً يهودياً اسمه نسيم رجوان، الذي اعتاد ان يعمل نسخاً مطبوعة من أي كتاب شعري كان يصل الى المخزن ويبيعه لنا بسعر رخيص. من بين هذه الكتب اتذكر «اربع رباعيات» Four Quartets لـ «تي. اس. اليوت».

يوسفني ان اقول بأنه هنا ذاكرة الشاعر ببساطة تخونه. لا احد كان عنده الوقت ليعمل نسخاً مطبوعة من الكتب او حتى قصائد فردية. ما حصل هو ان الكتب كانت تُشترى بسعر كامل، و بلند وأصدقاؤه

كانوا على ما يبدو راغبين في التخلي عن وجبة طعام، او تذكرة سينما، او حتى زيارة الى مبغى من اجل شرائها.

كان بلند عضواً من حلقة حميمة من الشباب الذين استندت صداقتهم اساساً على اهتمام مشترك بأشياء عقلية. وإثناء ساعات متواصلة تُقضَى في المقهى السويسري في شارع بغداد الرئيس في اماسي شتوية وفي مقاهي مفتوحة ومطاعم على ضفاف دجلة في الصيف، كانت تتم مناقشة وتحليل بعض آخر «الإكتشافات» الأدبية بشكل مستفيض: روايتا «1984» و «مزرعة الحيوان» لأورويل، وأعمال مختلفة لكافكا في ترجمة انكليزية حديثة لها، وآخر اعداد مجلة «بوليمك» من لندن او مجلة «بولتكس» قصيرة العمر لدوايت ماكدونالد، و «اناشيد» Cantos لعزرا باوند، شعر إليوت ومسرحياته – وطبعاً ألغاز «يقظة فينيغان» لجيمس جويس. كذلك كنا نناقش ونبحث في التطورات الأدبية والسياسية المحلية. بشكل جوهري، على اية حال، كنا نميل الى ان نكون غير سياسيين.

حينما، في اواخر العام 1947، عقب تبني الأمم المتحدة خطة التقسيم لفلسطين والغضب الجماهيري في بغداد ردًّا علي معاهدة بورتسموث بين العراق وبريطانيا، اصبحت فلسطين مرة ثانية الموضوع الرئيس للهياج، الّف بلند بيتين من الشعر التقليدي الذي عكس صراحة المزاج السائد في حلقتنا – سواء بين اليهود او المسلمين. (على حد ما استطيع ان اتذكر، لم يكن هناك مسيحيون في تلك الحلقة – ماعدا جبرا ابراهيم جبرا الذي جاء الى بغداد فيما بعد بوصفه لاجئاً من القدس). من الصعب ترجمة ابيات بلند الى الإنكليزية، الى حد ما لأنها تعج بالمصطلحات والتعبيرات العامية.

دعوها لليهود وخلّصونا

فما أبقت لنا خلقاً ودينا

وفكّوا ياخة عنا فوالله

زهقنا من لغاويها سنينا

سياسة بلا حدود

اثناء هذه الأيام المزعجة، بالضبط عقب هزيمة العرب في حرب 1948، ظهر شاب بريطاني في بغداد. كان اسمه دزموند ستيوارت، وكنوع من البطاقة التعريفية جلب معه ترجمة انكليزية لإحدى «حوارات» افلاطون. عمل في القسم الإنكليزي في محطة الإذاعة المحلية ودرّس اللغة الإنكليزية. حينما اكتشفت السلطات بأنه اذاع محادثات لم يأذن له بها أي شخص طُرد الاّ انه تمكّن من الإبقاء على وظيفته التعليمية واستمر في بغداد لبعض الوقت.

كان ستيوارت، الذي كتب عدداً من الكتب حول الشرق الأوسط بالإضافة الى دراسة عن تيودور هرتزل، معادياً للسامية بالمعنى الغربي الكلاسيكي للمصطلح. وإذ اعتمد على احداث اخيرة في فلسطين وما قيّم بأنه شعور عربي متنام ضد اليهود، فإنه بدأ بشكل رصين بتوزيع كتيب صغير كان قد جلبه معه من انكلترا. كان يتألف من ثماني او نحوها من الصفحات ويحتوي على نص لقصيدة طويلة كتبها هو بدت انها تضمنت جميع المشاعر المتخيلة المعادية لليهود والإدعاءات التي تشكّل الفحوى العامة للمذهب المعادي للسامية الجاري في اوربا الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. القصيدة، المؤلّفة بأسلوب ملحمي عتيق الطراز، ضمّت بيانات بليدة مثل «واليهود هم احفاد الشيطان».

كان ستيوارت يقصد بتوجيه قصيدته بالضبط الى نوع من العرب الشباب، المثقفين، الناطقين بالإنكليزية الذين هم جزء من، او كانوا يترددون على، حلقتنا الصغيرة، او «الشلّة» مثلما اعتاد بلند ان يسميها. لكنه كانت عنده مشكلة صغيرة غير متوقعة بما اقترفت يداه: كانت الحلقة تضم اثنين او ثلاثة يهود بدوا نوعاً ما معتادين على الأمر وشاركوا بروحية عالية من الصداقة والمودّة مع المسلمين. اعطى نسخاً من الكتيب الى الأعضاء المسلمين في الحلقة ملتمساً اياهم أن لا يظهرونه لي قاطعاً وعداً منهم وفق ذاك.

لكن الحيلة لم تفلح. فبعد قراءة الورقة شعراً، على الأقل احد اصدقائي المسلمين، وهو نجيب، اخبرني كل شيء عنها وأعطاني نسخة من الكتيب لأقرأه. لم اواجه ستيوارت قط بخصوص هذا الأمر؛ فهو بدا ذا اهمية قليلة جداً وبالخصوص لأن القصيدة لم يكن لها تأثير بالمرة على الناس من حولنا.

في الحقيقة، ان جميع الأحداث التي هزّت العالم على ما يبدو في ذلك الوقت – خطة تقسيم فلسطين، معاهدة بورتسموث، والغضب الشعبي في شوارع بغداد الذي تلا ذلك (المعروف جيداً بـ «الوثبة»)، وإرسال وحدة عسكرية الى فلسطين وهزيمتها هناك على ايدي «العصابات الصهيونية»، وموجة الإعدامات والإزعاجات التي خضع لها يهود العراق بعد ذلك – كل هذه والكثير من التطورات غيرها حدثت من دون ان تتأثر العلاقات بين اليهود والمسلمين في حلقتنا.

كما لم تكن هناك اية محاولة لتجاهل هذه الأحداث او التستر عليها. بل على العكس تماماً. احياناً، بالفعل، كانت تنشب نقاشات حامية الوطيس حول اوجه الحق والباطل في الصراع العربي الصهيوني في فلسطين. كانت هذه النقاشات تحصل فقط لأن اثنين من اعضائنا كانا يعتنقان ما كان يُعرف بالموقف القومي العربي وكانا فعلاً قلقيَن بما كان يحدث في فلسطين.

خلدون ساطع الحصري، الإبن الأكبر للشخص الذي يُعَدّ المؤسس والايديولوجي القيادي للقومية العربية الحديثة، كان حينها يدرّس في مدرسة ثانوية او كلية في بغداد وكان مشغولاً باستمرار بمشكلة فلسطين، عقب احداث في الأرض المقدسة يوماً بيوم. انا شخصياً لم اكن مهتماً حقيقة بـ

«السياسة»، برغم انه حينما يتعلق الأمر بموضوع اليهود وفلسطين تكون لدي آرائي غير الإحترافية صراحة.

اتذكر احد الجدالات الشرسة جداً مع خلدون، الذي كان يناقش بطريقته الهادئة، اللطيفة حول الظلم الذي لحق بالعرب الفلسطينيين جراء القرار القاضي بتقسيم ارضهم وإنشاء دولة يهودية هناك. حينما تكلّم عن دور اليهود او الصهاينة وكيف تمكّنوا من «اخذ» الأرض من اصحابها الشرعيين، اتذكر جدالي في معرض الإجابة – يؤسفني انها ليست عميقة جداً – بأنه، بالضبط، ليس عرب فلسطين مَن يقاتلونهم اليهود وأخذوا الأرض منهم، بل البريطانيون.

الآن، مع ميزة الإدراك المتأخر وخبرة خمسين سنة، ارى ذلك الجدال بأنه فضفاض وأن تلك الملاحظة فارغة. لكنني اتذكر بشكل واضح جداً بأنه لا احد من بين مستمعيّ listeners my، ولا حتى خلدون، عدّوه خطأ، ونحن كالعادة تحولنا الى المواضيع الأخرى، الأكثر متعة في نقاشاتنا الإعتيادية. وآخِر ماسمعته من خلدون ساطع الحصري هو انه كان يعمل محاضراً في الجامعة العربية في بيروت وكتب عدداً من الكتب – احدها، باللغة الإنكليزية، عن اسلاف الحركة الحديثة في الإسلام.

لمّ الشمل

القومي العروبي الآخر في المجموعة كان عدنان رؤوف، الذي اشتركتُ معه بعدد كبير جداً من الإهتمامات – الأدب، وفترة الإستراحة، والرفقة الصريحة – بالنسبة له يسمح لآرائه السياسية بالتدخل في صداقتنا. من المؤكد، هناك الإختلافات الإعتيادية في الرأي بشأن موضوع فلسطين واليهود. اتذكر انني اعطيته رواية جون هرسي «الجدار» ليقرأها وأنه تأثّر بها ايما تأثر. (كانت صادرة لتوها في ذلك الحين). لكننا يقيناً كنا مهتمين بتبادل اللطائف والنكات اكثر من الدخول في نقاشات مثمرة حول مواضيع الساعة.

ولم اسمع بأماكن تواجد عدنان الاّ في اواخر الستينات – حينما عمل لصالح حكومته في نيويورك بصفة نائب سفير في الأمم المتحدة. وإذ عرفت بهذا من الصحف، قررت ان ارسّخ نوعاً ما من الإتصال به، ولو بشكل غير مباشر. وجدت فرصة في شتاء عام 1969. لقد طلب مني رونالد ساندرز من مجلة مدستريم Midstream – التي كان يحررها آنذاك شلومو كاتز – [طلب] مني ان اكتب مقالة لهم تصوّر لمحة مركبة عن مثقف القدس الشرقية، ولأن الموضوع استهواني كثيراً قمت بذلك في الحال وطبعت [نشرت] المادة في عدد شباط 1969 من المجلة.

بعد ان عرفتُ بأن عدنان كان في نيويورك وبعيداً عن الأذى (فكيف أرسل مطبوعاً من الوكالة اليهودية له في وزارة الخارجية ببغداد؟)، سألتُ ساندرز ليرسل نسخة من العدد له في مقر الأمم المتحدة. وفعل ذلك – وفي رسالة مؤرخة في 20 شباط موجهة اليّ، كتب ساندرز: «ارسلت نسخة من عدد شباط، كما طلبتَ، الى عدنان رؤوف، واليوم استلمنا منه الرسالة التالية، التي اقتبسها بالكامل: 'اشكرك على رسالتك المؤرخة في 13 شباط 1969، وعلى عدد شباط من مجلة

'مدستريم'. لابد ان اشكر السيد رجوان مباشرة لاهتمامه اللطيف، كما اودّ ان ارحب بنصيحتك فيما يتعلق بكيفية القيام بهذا.' انا، طبعاً، ارسلت له عنوانك، واعتقد بأنك ستتلقى منه خطاباً قريباً.»

من المثير جداً، اضاف ساندرز القصة التالية: «في اليوم التالي بعد ارسال النسخة المعلّمة' marked copy له، كان شلومو [كاتز] قد بدأ يغير رأيه. كان يخشى من اننا ربما نريد ان نوقع شخصاً ما في مشاكل (لقد ارسلناه، طبعاً، على عنوان الوفد العراقي في الأمم المتحدة – الآن لدينا عنوان بيته، الذي سأعطيه لك ادناه)، وأنا كنت ميالاً للموافقة. كل شيء يبدو على مايرام الآن، على اية حال، وقد اصبح شلومو متحمساً فجأة لمسألة كونه على اتصال بدبلوماسي عربي حيّ حقيقي بهذه الطريقة». وبعد ان اعطاني عنوان البيت، اضاف ساندرز بأنه اعتقد بأنني لابد من استخدامه بدلاً عن عنوان الأمم المتحدة – واختتم «دعني اعرف ما يحدث».

حسنٌ، لم يحدث شيء! اولاً، ولأسباب لايمكنني الخوض فيها هنا وهي لابد تتعلق بـ «السجل» الذي امتلكه مع مايسمى بـ «الشن بيت» (جهاز الأمن العام)، امتنعت عن الكتابة الى عدنان، بقدر ماكنت متلهفاً للقيام بذلك. لذا لم يكن هناك أي تواصل. وثانياً – وهنا يكمن السبب الحقيقي وراء عدم الكتابة لي شخصياً «ليشكرني» – كنت سألت ساندرز بأن يواصل ارساله الى عدنان اعداداً جديدة من مجلة «مدستريم» عند اصدارها – وبالصدفة حمل العدد نفسه من المجلة، عدد شهر آذار، مقالة لي حول عمليات الشنق المشينة في بغداد بحق عدد من اليهود الأبرياء صراحة الذين اختاروا البقاء والعمل في العراق بعد النزوح الجماعي في بواكير الخمسينات. ومن بين المشنوقين صديق قديم لي وفي مقالتي هذه ادنتُ المجزرة.

كما حدث، ايضاً، بأنه بالضبط في ذلك المنعطف عُيّن عدنان اخيراً سفيراً بالوكالة في الأمم المتحدة، خلفاً لعدنان باچچي، الذي قيل بأنه استقال من منصبه امتعاضاً او يأساً من سلوك حكومته عموماً. ولذلك كان من غير الوارد تماماً بأن نتوقع عدنان يكتب رسالة الى عنوان اسرائيلي، وانا احترمت تحفظه ولم ارغب ان احرجه بأي شكل من الأشكال.

شرحت هذا برسالة الى ساندرز مؤرخة في 17 آذار، مضيفاً: «بالصدفة، اتهمَ اسرائيل بتنظيم حملة شاملة ضد بلده – لذلك اخشى بأنه حينما يقرأ مقالتي في مجلة «مدستريم» عدد آذار ربما يرى هذا جزءً من الحملة. لابد ان يعرف جيداً برغم كل هذا».

احتجاجات عبدالفتاح

كان خلدون وعدنان استثناءً في اعتناق قناعات عروبية، على الأقل في الحلقات التي كنت اختلف اليها. رئيسي الإسمي في المكتبة، عبدالفتاح ابراهيم، كان ديمقراطياً اشتراكياً من حيث القناعة ولا يكنّ الاّ احتراماً قليلاً الى ذلك النوع من رهاب الأجانب الذي مضى حينها باسم القومية العربية. اعتاد جورج اورويل ان يدعو الايديولوجيا التي آمن بها بـ»الإشتراكية الديمقراطية» democratic Socialism، و (كما يرويها برنارد كريك في سيرة حياته الرائعة) كان يصرّ على كتابتها بـ «d» صغيرة و «S» كبيرة. هذا هو بالضبط كيف انني اصف اليوم الموقف السياسي لعبدالفتاح.

في وقتٍ ما قبل ان ابدأ العمل في المكتبة، كان عبدالفتاح قد استقال من منصب حكومي رفيع جداً (بصفة مدير عام في وزارة التربية) بسبب خلافات في الرأي مع الوزير وكذلك لأنه غير مقتنع بالنظام برمته عموماً. وبُعيد افتتاح المكتبة، استهلّ تشكيل حزب سياسي وبدأ بصحيفة يومية – أي انه يقود الحزب ويحرر جريدته. ولم يدم هذا طويلاً، وعندما تمّ حظر الحزب طُلب من الجريدة التوقف عن الصدور.

اتذكر، بشيء من الإحراج لابد ان اعترف به، بأنه حينما ظهر عبدالفتاح في المكتبة في اليوم الذي عرف فيه بفرض حظر على حزبه، قلت شيئاً ما مفاده بأن المرء لابد ان يهنئه بهذه المناسبة. ولأنني رأيت بأنه لم يستسغ الأمر على الأقل، سألت بجدية إن كان حزيناً – ولماذا؟ اجاب بحزن حقيقي، «لا يبدو انك تفهم. كيف اوضح هذا؟ انه شبيه بموت رضيع انجبته، وربيته، ورعيته لفترة من الوقت».

كنت، طبعاً، متأثراً بصورة كبيرة وتركت الموضوع عند ذلك الحد. ليس لأنه لم تكن هناك اختلافات في الرأي ونقاشات حادة بيننا. اتذكر مناسبة ما تجادلت فيها معه حول الموضوع الكامل للديمقراطية وإن كان «يمكن تطبيقها عملياً» في العراق في ظل هذه الظروف. مرة اخرى اخشى ان تكون فكرتي اساساً غير مختمرة تماماً، لكنني اتذكر بوضوح انني اجادل لساعات مع عبدالفتاح بشأن الموضوع. كان «موقفي» هو انه، برغم موافقتي الكلية مع آرائه بخصوص الرغبة في كل من الديمقراطية والإشتراكية، لم اكن متأكداً بأن العراق والشعب العراقي كانا «ناضجَين بما فيه الكفاية للديمقراطية». وبلا انقطاع علّل معي هذه النقطة، شارحاً لي بصبر قلّ نظيره بعدم وجود شعب مؤهّل لنظام حكم ديمقراطي.

الآن، عند التفكير بما حدث في السابق، وعند رؤية كيف يمكن استغلال وتهذيب الديمقراطية والنظام البرلماني في افضل المجتمعات وأكثرها «تقدماً»، فإنني اميل الى قبول وجهة نظره هذه. وبالفعل اعتقدت بأن ما يسمى برجل الشارع، سواء كان امياً ام مثقفاً، متوحشاً ام متمدناً، يميل الى اتخاذ فطرة سليمة حول الأنظمة والحكام لا يفصح عنها دائماً افراد المجتمع المتطورون سياسياً.

لم يكن هناك بالتأكيد اي اثر للشعور المعادي لليهود او التحيّز في عبدالفتاح ابراهيم. بُعيد هزيمة الجيوش العربية في فلسطين في العام 1948، اعتقدت بأنني بدأت اكتشف في حديثه معي شعوراً بالحزن – الذي كان يصل الى الإمتعاض احياناً – حول الإنعطافة التي سارت عليها الأشياء. قال ذات يوم حينما اشارت الأخبار القادمة من الجبهة اخيراً بأن الجيوش العربية لم تحرز اي تقدم، «للعرب ذاكرة طويلة جداً. وليس من المحتمل ان ينسوا هذا الإذلال». كان دائما يتحدث عنـ»هم» عند الإشارة الى العرب، ولم يتحدث عنـ «نا». انا متأكد بأن هذه الطريقة هي على الإطلاق محاولة من جانبه للنأي بنفسه عن زملائه العرب وإخوانه في الدين. وهذا هو التجرّد الذي عادة ما يجده المرء في المثقف الحقيقي. وذكر بأن ما قاله لم يكن غضباً او مرارة – ولا حتى متأتٍ من شعور بتدخل حقيقي. بل كان، بدلاً عن ذلك، نوعاً من التحذير، نبوءة قاتمة بخصوص شكل الأشياء

القادمة. كذلك لابد ان يكون هذا ايضاً تعليقاً دقيقاً على الطريقة التي استجبتُ فيها شخصياً لتلك الأحداث، من دون محاولةٍ من أي نوع لإخفاء قناعتي بالمسار الذي كانت تتخذه الأحداث.

كما لا اعتقد بأن عبدالفتاح كان معادياً للصهيونية ايضاً. (ولم يكن، طبعاً، صهيونياً). لكن كان يحمل مقداراً كبيراً من التعاطف نحو اليهود والمشكلة اليهودية. قال لي في مناسبة اخرى، «انتم اليهود، ملح الأرض. كيف تظن بأنك ستتمكن من العيش في دولتك – الكل محشورون سوية في مكان واحد لا تملكون الاّ انفسكم تتعاملون معها، تعتمدون على بعضكم البعض، وتكسبون عيشكم من احدكم الآخر!»

ثم، بلاشك عند التأمل في المشكلة التي كان هو نفسه يعاني منها مع حكومته وشعبه، قال بإشارة تنم عن يأس وهمي ممزوج بفكاهته الجميلة المعهودة منه: «حسناً! افعلْ ماتريد! امتلكوا دولة دموية خاصة بكم! تعال لنفكر في الأمر، لماذا ينبغي ان نكون نحن المعانين وحدنا؟ ستكتشف عما قريب أي ثقل ينطوي عليه هذا الأمر!»

كان عبدالفتاح متلهفاً جداً بحيث ان عليّ شخصياً ان اعرف ماذا كنت اعمل حينما اتخذت القرار بترك العراق الى الأبد والذهاب الى اسرائيل. وقال لي في احدى المناسبات، «اذا تتصور للحظة بأنك اقرب، من حيث النظرة والمزاج، الى يهودي، لنقلْ، من المانيا، او روسيا، او بولندا، منه اليّ انا او الى العراقيين عموماً اذن فإنك مخطيء تماماً ببساطة. لاتعرف ماذا سيحل بك قريباً!» لكنني بقيت ببرود غير مقتنع – وبعد ذلك توقف عن المحاولة بهدوء.

مجتمع في مرحلة انتقالية

يمكن وصف العراق حقاً بانصاف في اعوام الحرب العالمية الثانية بأنه مجتمع يعيش في فوضى فكرية وسياسية. ان تدفق القوات الأجنبية، والإسترخاء النسبي للرقابة على الصحافة على معظم المواضيع غير المتعلقة بالمجهود الحربي، والتغاضي المتزايد للأنشطة التي يقوم بها الشيوعيون السرّيون وزملاء السفر – هذه وغيرها من العوامل تزامنت جميعها مع بزوغ ما بدا انه جيل جديد من الشباب والشابات المثقفين الواعين سياسياً واجتماعياً والمتلهفين لقول كلمتهم والإشتراك بما كان يبدو انه حقبة متسارعة من التغير الإجتماعي، والثقافي، والسياسي.

لذلك من الممكن القول بأن العراق في السنوات عقب نهاية الحرب مباشرة، في مايس 1945، كان مستعداً لانقلاب حقيقي، وهو شيء يمكن ان يُنظر اليه بانصاف على انه نهضة. ما اصبح يُدعى بـ «قوة جديدة» في السياسة، والتي كانت تتألف عموماً في الواقع من المثقفين، والمربّين، والمحامين، والشعراء، والأدباء، اصبحت محسوسة، وبدأت السلطات نفسها تدركها، وغالباً تعترف بها علناً، من انه ما لم يُسمح لهذه القوة الجديدة بلعب دورها من خلال القنوات الدستورية فهي من الممكن ان تكون تخريبية إن لم تكن مدمرة بشكل ايجابي. وإذ تتبع هذا الخط من الاستنتاج المنطقي، سمحت الحكومة بتنظيم الأحزاب السياسية.

تمّ تشكيل ثلاث احزاب رئيسة – اثنان في اليسار المعتدل وواحد ضمن البرنامج القومي العروبي. قاد عبدالفتاح ابراهيم، الذي اسّس جمعية الرابطة والمكتبة التي اصبحت ملتقى المثقفين اليساريين وطبقة صاعدة من الشباب المهتمين بشكل رئيس بالقضايا الثقافية والأدبية، [قاد] احد الحزبَين اليساريَين الأولين، بينما ترأس كامل الچادرچي، وهو زميل سابق من جماعة «اهالي» المشهورة، [ترأس] الحزب الآخر. اما الفرق بين الحزبين فمن الصعب تحديده، لكن كان مقبولاً بشكل عام بأن جماعة الچادرچي كانوا يركزون اكثر على الديمقراطية، في حين ركّزت جماعة عبدالفتاح على الإشتراكية – وجمعية الرابطة والمكتبة التي أعطيت نفس الإسم، كانت احدى هذه النتائج، والنتيجة الأخرى كانت جريدة يومية.

الفصل الرابع عشر

صداقة عميقة

اول قصيدة قرأتها وقدّرت قيمتها باللغة الإنكليزية هي «اغنية حب لجَي ألفريد برفروك». تبدو بداية غريبة – وكأنك تقريباً بدأت كتاباً من الجملة الأخيرة. لكن في قضيتي كان الأمر طبيعياً الى حد ما – فهو نتيجة للظرف من انني، من ناحية، ليس لدي تعليم نظامي من أي نوع في اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي و، من ناحية اخرى، حماسي للجديد مقروناً بصداقتي الواعدة مع إيلي. ففي البداية، درج إيلي على المجيء اليّ في المصرف لإرجاع النسخة الأخيرة من مجلة هورايزن Horizonالتي انتهى منها وأخذ النسخة القادمة بعد ان انتهيت منها.

الحقيقة، على اية حال، هي انني لم استطع قراءة وتقييم الاّ اجزاء من المجلة – مقالة سياسية-ثقافية ما، وقصة قصيرة، بعض النقد الأدبي، وأغلب عروض الكتب. والشعر كان اضعف نقطة عندي – حتى ذات ليلة، بعد تجمّعنا الإعتيادي في المقهى البرازيلي، رافقت إيلي الى بيته واصرّ على قراءة قصيدة إليوت بصوتٍ عالٍ لي. كان إيلي معجباً جداً بإليوت و كان يقرأ لتوه قصيدة عزرا باوند «الأناشيد» Cantos، وقصائد اودن، جورج بيكر، لويس ماكنيس، و ديلان توماس، وبذا اثبت بأن حماسه كان معدياً infectious.

في السنوات الأخيرة تلك من الحرب العالمية الثانية كان الحصول على الكتب امراً صعباً ومحفوفاً بالمخاطر ايضاً، ولذا كانت مسألة حظ ان تحصل على «المجموعة الشعرية» Collected Poems لإليوت او مختارات من فيبر تحتوي على «الأرض اليباب» بالإضافة الى «جَي ألفرد برفروك». لكن كانت هناك بعض المجاميع الشعرية الجديدة من الشعر الحديث كما ان بعض الناشرين البريطانيين اخذوا ينشرون كتباً شعرية لشعراء شباب. وفوق هذا، استفدنا من متابعة المجلات القليلة المتنوعة حيث كان الشعر الجديد ينشر فيها. وفي وقت لاحق، بعد انتهاء الحرب بسنة او نحوها وبُعيد بدء عملي في مكتبة الرابطة، اصبحت الأشياء بهذا الخصوص اسهل كثيراً لكن الصعوبة الآن تكمن في إيجاد المال الكافي لشراء جميع الكتب التي نريد اقتناءها.

لم تقتصر اهتماماتنا على الشعر. فبمعرفته الجيدة باللغة الفرنسية، كان إيلي يقرأ بروست بلغته الأم وكنت اتابع وأنا اتصارع مع طبعة المكتبة الحديثة من «طريق سوان» وبالتالي مع الترجمة الكاملة للمجلدين، وأيضاً من منشورات راندم هاوس. وبطريقة ما كان إيلي قد قرأ كذلك «سكان دبلن» و «يوليسيس» لجيمس جويس – وكان في الواقع يقرأ منتخبات من «يقظة فينيغان» بطبعة فيبر. كان يحب ان يقرأ لي بصوت عالٍ الشهيرة انّا بيلا بلوربل Anna Bella Plurable the famous وأجزاء من المونولوج الداخلي الذي لا ينسى للسيدة بلوم في نهاية «يوليسيس». لكن القائمة طويلة جداً – كافكا، مان، جِيد، بول إيلوار، وطبعاً، سارتر و كامو. ذات يوم اخرج إيلي فعلاً رسالة مكتوبة وموقعة من اندريه جيد وموجّهة له!

بدأت قصة تلك الرسالة الشهيرة حينما قرأ إيلي بعض الملاحظات التي ابداها جيد في محاضرة او مقالة مفادها ان جيل الشباب كان يعاني من القلق والمخاوف الكثيرة جداً وما الى ذلك – فأخذ إيلي، المتلهف جداً للقيام بشيء (وترك انطباع ما)، [أخذ] القلم في يده وكتب الى جِيد شيئاً من قبيل: لماذا، لكن لا! على العكس، القلق والمخاوف كانت الشيء نفسه الذي يقود الى الإبداع والإلهام؛ في الحقيقة، ماذا نعمل او كيف نكون بدون قلق!

والمسكين جِيد، الذي تملّكته الدهشة بلا شك، كتب الى إيلي يخبره كم كان محقاً – وياله من مغفّل و/او متهاون، جِيد، اذ قام بمثل هذه الملاحظة السخيفة! كان يوماً عظيماً بالنسبة لإيلي، الذي جاء الى المقهى متأبطاً الرسالة وهو يُظهرها الى اصدقائنا الذي يعرفون الفرنسية بينما اخذ يترجمها لي ولأصدقائه الآخرين المحرومين.

برغم كل مزاياه الحقيقية، وذكائه، وتقييمه الأصيل للأعمال الأدبية الحديثة، فقد كان إيلي مراوغاً محتالاً جداً مغرماً بـ «الاستعراض». كذلك كان – ولايختلف عني، لابد ان اعترف – «متغطرساً ثقافياً» متبجحاً وفي الحقيقة هو اقرب الى متغطرس بدون مؤهلات برغم انه كان يروق له ان يُدعى بـ «متغطرس عكسي» a reverse snob. هناك اطباق تقليدية معينة لا يتقرب منها: في ايام السبت، بدلاً من المشاركة في طبق الدجاج والتمن الليلي المعتاد المعروف بـ «تبيت» كان يأكل من علبة سردين او [يأكل] غداءً بارداً، على الطريقة الأوربية. كان صعباً نوعاً على الناس الذين ليس لديهم طموحات في مجالات الثقافة والأدب كما كان ايضاً متمرداً فيما يتعلق بالتقاليد الإجتماعية. ذات يوم كان إيلي يقرأ قصيدة لـ د. هـ. لورنس مع هذه الأبيات، «كم متوحشة البرجوازية/لاسيما ذكر الأنواع»، الذي ما فتأ يرددها لي وله. ليس لأن اناث الأنواع كانت تستهويه اكثر – فإنطباعي هو ان المشاعر متبادلة.

لكن إيلي كان مرحاً – وعوناً كبيراً بقدر تعلق الأمر بثقافتي الأدبية في مراحلها الأولى. عندما حان في النهاية وقت رحيله الى لندن في العام 1947 شعرت بالأسى والوحدة لدرجة ان عبدالفتاح وجدني ذات مرة في المكتبة اذرف دموعاً حقيقية. وذهب تفكيره الأول الى ان السبب لابد انه يتعلق بإهانة ما او مذلة ربما كابدتها على يد زبون او زميل. اكدت له بأن ذلك لم يكن السبب – وكان عليّ ان اخبره الحقيقة. قال بأنه فهم الأمر. وبقيت لعده اسابيع بلا انقطاع في قنوط تام.

بالنسبة لإيلي نفسه، ثمة صمت قبل ان يستطيع ان يجد الوقت ليجلس ويدبّج رسائله الأولى من لندن. بدا انه اراد ان يدرس الطب ويتخصص في الصحة العقلية. لكن لم يحصل أي شيء في ذلك الإتجاه والتحق بكلية لندن للإقتصاد والعلوم السياسية. في احدى رسائله المبكرة اعترف بأن تجاربه في لندن جعلته يدرك بأنه «صُنع في بغداد».

وبرغم عزلتنا الكلية مثلما كان يبدو علينا – عن المجتمع والدولة ليس اقل من [عزلتنا] عن الحضارة – كان لي ولإيلي مع ذلك جذور عميقة محفورة بقوة في تربة العراق. لم نكن غير دارين بهذا وحسب بل رفضناه بشدة، امام انفسنا حتى اكثر مما امام الآخرين. ولم يدرك كم كان «مختلفاً»

وكم كان الإنكليز مختلفين عما كان يتصوره عنهم الآ حينما تمكّن في النهاية من مغادرة العراق للدراسة في لندن.

وبالنسبة لـ«الميول الأدبية» التي اشتركنا فيها إيلي وانا – وهي عبارة اصبحت نكتة اعتدنا ان نطلقها على حسابنا – كان هناك اختلاف كبير بين مدخلاتنا ذات العلاقة في هذا الميدان، على الأقل فيما يتعلق بالخطوات الأولى. ولأنني تلقيت تعليمي النظامي الذي تمكنت من الحصول عليه، لما له من اهمية، في مدارس حكومية، فمن الطبيعي انني ترعرعت مع اللغة العربية بوصفها وسيلتي للتواصل مع العالم الخارجي والقناة الوحيدة التي استطعت من خلالها ان اتلقى صنعتي الأدبية.

بينما، إيلي، على العكس من ذلك، تلقى تعليمه اولاً في مدرسة التحالف حيث كانت تدرَّس اللغة الفرنسية منذ البداية، ثم في مدرسة شماس الثانوية حيث كانت تسود اللغة الإنكليزية، والنتيجة هي انه حتى قبل ان يُنهي تعليمه قبل المرحلة الجامعية كان قادراً على إشباع ميوله الأدبية بقراءة الأعمال الأدبية الإنكليزية والفرنسية بلغتها الأصلية.

في الحقيقة انه فقط مع إيلي بدأت اتعرف على ما كان يُعدّ حينها افضل، وآخِر، وأحدث النتاجات الأدبية الإنكليزية والغربية الأخرى. بل كان الأمر يتعلق بما اسميه بالعصر الذهبي للـ «المجلات الصغيرة»، ولمطبوعات مثل «نيو ستيتسمان» New Statesman، و «تربيون»، و «المشاهد» Spectator اضيفت الآن «كتابة بنغوين الجديدة» لجون لِهمان، و «افق» لسيرل كونولي، و «حياة ورسائل» من انكلترا؛ و «بارتزان ر□يو» الأمريكية وفيما بعد «بولتكس» لدوايت ماكدونالد، و «كنيون ر□يو»، و «سيواني ر□يو»، و غيرها.

كانت العديد من هذه المطبوعات متوفرة إما للبيع لزبائن محددين بوضع طلبات ثابتة لهم في المكتبتين او الثلاث مكتبات المحلية المتخصصة باللغة الأجنبية او في المبنى المتواضع للمجلس البريطاني وغرف القراءة التابعة للمركز الثقافي الأمريكي. في الجزء الثاني، في الحقيقة، تعرفت اول مرة بمجلة «ذي نيويوركر»، التي كانت من المعتاد ان تأتي هناك بطبعة ساخرة خاصة للقوات المسلحة مطبوعة بنوع صغير على ورق رقيق بالضبط نصف حجم الطبعة الأصلية وحمداً لله بلا اعلانات من أي نوع.

كان إيلي يمتلك غرفة خاصة به، وعادة، بعد تناولِنا القهوة والكعك في المقهى السويسري او المقهى البرازيلي وتوديعِنا لأي شخص في «الشلة» صادف ان يكون معنا هناك، نخلد الى غرفته فيما بعد في المساء ونقرأ سوية من آخر الإصدارات، لاسيما الأعمال الشعرية لإليوت، اودن، جورج بيكر، ستيفن سبندر، لويس ماكنيس، هربرت ريد، و أدوِن مور (الذي صادفناه اول مرة بصفة مترجم مشارك مع زوجته لأعمال كافكا).

ان الأشخاص المفضلين عندي، الذين اصبح بعضهم «ابطالي الحضاريين» لعدة عقود قادمة، كانوا جميعهم في تلك «المجلات الصغيرة». اول شيء رأيته عن عمل سيمون ويل كان مقالتها الرائعة «الإلياذة، قصيدة القوة»، التي ظهرت اول مرة في العام 1945 في مجلة «بوليتكس»؛ وصادفتُ

كوستلر، اورويل، سول بيلو، جيمس آغي، دلمور شورتز، حنّه اريندت، سدني هوك، وعشرات غيرهم في مجلات «هورايزن»، «بوليمك»، «بارتيزان ر□يو»، «كومنتري» المبكرة، «ذي نيويوركر»، «ذي نيوستيتسمان»، وغيرها من الفصليات، والشهريات، والأسبوعيات، التي بعضها قصيرة العمر نوعاً ما.

فتاة القاهرة

قالت بأن اسمها هو هيلين. لابد انها كانت في اواسط العشرينيات ولم تكن سيئة المظهر على نحو خاص. ارسلت رسولاً ليدعوني من الطابق الثاني حيث كنت مشغولاً بموازنة حساباتي، فيما بقيت تنتظر في الأسفل بنفسها. وقالت بأنها حملت لي تحيات من «اصدقاء» من القاهرة. بدت حريصة جداً بأن لا يرصدها احد او يسترق اليها السمع.

في تلك الأيام من الحرب العالمية الثانية، أي سنتان او ثلاث سنوات بعد غزو هتلر للإتحاد السوفيتي في حزيران من العام 1941، تساهلت السلطات العراقية ومستشاروها البريطانيون بعض الشيء بقدر تعلق الأمر بالأنشطة المؤيدة للسوفييت او حتى الأنشطة الشيوعية بشكل صريح. في بغداد نفسها، تمّ اطلاق مجلة شهرية ذات ميول وعواطف يسارية – هي «المجلة»، تحرير ذوالنون ايوب – بينما كانت صحف يومية معينة تستخدم عدداً من اليساريين المعروفين ورفاق السفر بصفة محرري اخبار وسكرتيري تحرير.

لكن الأدب والمطبوعات الشيوعية المتشددة، الحقيقية استمرت بالمجيء فقط من الخارج – بشكل رئيس من بيروت حيث كانت عدد من الدوريات يسيطر عليها ويحررها شيوعيون نشطون او مثقفون يساريون ملتزمون امثال رئيف خوري، و قدري قلعجي، و آخرين، الذي كان بينهم مَن حرّر وكتب في شهرية مقروءة جداً ومكتوبة بذكاء تدعى «الطريق».

ولم يأتِ شيء مماثل من القاهرة، التي كانت حينها العاصمة الثقافية بلامنازع للعالم العربي. هناك، على اية حال، استثناء واحد – وهو «المجلة الجديدة». الآن هي شهرية تحمل ذلك الإسم كان قد اسسها وحررها في اواسط الثلاثينات المثقف القبطي المصري الغنوصي النشوئي الإشتراكي المخضرم سلامة موسى. اخيراً وجد موسى بأنه غير قادر على الإستمرار على تحمل الأعباء المالية ولذلك توقفت هذه المجلة الشهرية عن الصدور. في اوائل الأربعينات، اخذت مجموعة من المثقفين التقدميين الشباب اسم المجلة وبدؤوا بإصدار نسخة جديدة منها، اكثر حيوية وأكثر تماسكاً من الناحية الفكرية.

كان يحرّر هذه الشهرية الجديدة، ويكتب معظم محتوياتها، رامسيس يونان و جورج حنين، يساعدهما عدد من المثقفين، والشعراء، وكتّاب القصة القصيرة اليساريين الآخرين. ومع المجلة ورث الفريق الجديد القائمة القديمة من المشتركين – ولهذا استلمتُ الأعداد الجديدة الأولى، مع العرض الإعتيادي لتجديد اشتراكي. وقمت بذلك بحماس.

في السنة الأولى او نحوها من ظهورها، بدت «المجلة الجديدة» تسير على خط مشابه الى حد ما الى خط الماركسية-اللينينية المتشدد وكانت مؤيدة للسوفيت في نغمتها العامة. بعد ذلك، وعلى حين فجأة، عقب تطور معين ما او لمجرد بسبب تغيير في الرأي بين محرريها، اصبح خط التحرير بشكل واضح مناوئاً لستالين وبدأ اسم تروتسكي يظهر في المقالات، اسوة مع عروض مفضلة لنظريته في الثورة الدائمة ومناظراته ضد مذهب ستالين في الإشتراكية في بلد واحد.

وحصل ان يتزامن هذا التغير في الخط الاديولوجي مع تحرري من الوهم فيما يتعلق باللينينية، اذ اصبحت الآن على معرفة افضل ببعض الحقائق التاريخية مثل محاكمات موسكو السيئة الصيت وحملة التطهير العظيمة. شعرت بتعاطف متزايد مع المجلة ومحرريها، ولأنه لم تعد «المجلة الجديدة» موجودة للبيع في بغداد قررت ان اتخذ الخطة غير الإعتيادية في طلب عدد من النسخ – وكانت عشراً حسبما اعتقد – واتولى بيعها بنفسي من خلال بائع صحف من معارفي. وهكذا حدث ان اصبح وكيلاً لهذه المجلة الشهرية.

وبُعيد هذا، اشهر قلائل في الغالب، ظهرت هيلين في مبنى المصرف الشرقي. قالت بأنها حملت تحيات وتعبيرات الإمتنان من المحررين – اعتقد انها استخدمت كلمة «المجموعة» – التي قالت بأنها مشتركة معهم، ومرتبطة بتطابق الآراء. وحتى لمّحت الى انها كانت تعمل بنشاط «معهم»، وطُلِب منها ان تحصل على معلومات حول «حلقتكم»، ماهو مدى نشاطنا هنا في بغداد، وطبيعة نشاطنا، وإن كنا بحاجة الى عون او مساعدة.

صدّقت كل كلمة قالتها، وأخيراً دعوتها الى البيت الى غرفتي لحديث خاص. جاءت متأخرة ذات مساء، وكانت تشعر بخيبة امل واضحة عندما اكتشفت بأنه ليس هناك اية «حلقة» او نشاط من أي نوع، وان الشيء برمته لايتعدى فضول فكري جموح. فحصتْ مكتبتي بعناية فائقة، ولابد انها دُهِشَت إذ وجدت تقريباً اعمال كل شاعر «منحط»، وروائي، ومثقف يمكن ان يخطر ببالها، ناهيك عن نسخ من «هرايزن»، «كتابة بنغوين الجديدة»، وغيرها من الدوريات غير الملتزمة بالمرة.

لم تستطع اخفاء دهشتها، والى حد ما استنتجت على مضض بأنه كان لديها هنا عمل مع حركة ذات رجل واحد وليس مع حركة تروتسكية شعبية مشتركة بنشاطٍ في مؤامرة لإسقاط النظام. اتذكر قولها، في نقطة ما بعد الإنتهاء من تناول شايها: «اذن انه فقط نوع من السعي الفكري من جانبك شخصياً.» قلتُ لها نعم ثم غادرتْ.

لابد ان اقول بأنني شعرتُ بالإحباط نوعاً ما. بشكل سري – كما هو الحال في معظم لقاءات كهذه مع شابات – كنت اتمنى بأن نوعاً من «العلاقة» ستتطور بيني وبين هيلين، وثم من يدري! على اية حال، لم يكن عندى ادنى معرفة كم كنت محظوظاً في انني لم اكن تروتسكياً نشطاً اقود حركة سرية.

كان الأمر كالآتي: اخبرتُ إيلي كل شيء عن فتاة القاهرة بل حتى استطعت ان ابيّنها له ذات يوم عندما كنا نسيرِ في شارع الرشيد؛ بل حتى قمت بعملية التعارف. وبرغم ذلك، إيلي، الذي اعتقدت

بأنه بدا مشككاً نوعاً ما بالقصة، لم يعلّق برغم انه اوضح بأنه لايريد ان يفعل أي شيء بالنسبة للفتاة. مع ذلك، لم يكن سياسي الهوى وانا شخصياً في ذلك الحين كنت مهتماً بقسم الأدب والفنون في مجلة «المجلة الجديدة» اكثر من السياسة فيها.

بعد حديثنا الخاص في بيتي، لم تتصل بي هيلين ثانية، ولأنه لم تكن لدي فكرة عن مكان سكنها او رقم تلفونها فأنا بالمثل ابقيت المسألة كلها تقف حيثما كانت عليه في نهاية لقائنا. ذات يوم، على اية حال، جاء إيلي الى المصرف ليزف خبراً مثيراً: انه اكتشف هيلين في الشارع، في الزي العسكري البريطاني الكامل يرافقها ضابط بريطاني! الآن بغض النظر عن الإساءة بكونها مجندة بريطانية وتخرج مع ضابط أيضاً، فإن ما جعل الفضيحة اعظم هو ان الإثنين كانا لا ينتميان الاّ لفرع استخبارات الجيش!

كالعادة، انه إيلي العارف بكل شيء هو الذي اكتشف الأمر. كان لإيلي عدد من الأصدقاء والمعارف الذين كانوا يخدمون في الجيش البريطاني في ذلك الوقت – ضباط مثقفون كان يشترك معهم بالإهتمامات الأدبية والذين يدعونه لمشاهدة عرض مسرحي مرتجل او حضور محاضرة، واليهود الفلسطينيون الذين كانوا يخدمون في ذلك الجيش وفي نفس الوقت يتصرفون بهذه الصفة او تلك للمساعدة في تنظيم وتعزيز الحركة الصهيونية السرية في العراق. من هؤلاء الأشخاص كان قد تعلّم كيف يميّز بين الشارات والشعارات التي يرتديها الجنود البريطانيون – ولذلك ميّز بسرعة تلك الشارات التي ارتدتها هيلين وصاحبها بأنها تنتمي للإستخبارات.

رسائل الى إيلي

هل عرفتَ ذلك العجوز الأحمق إيستوود؟ تصورْ انه جاء الى هنا قبل ايام وسأل عن كتاب «معركة الكتب». قبل ان يعرف اسمي قال بأن عرض مجلة «التايمز» كان «سيئاً للغاية». «لا بأس ان يكون قد كتبه تلميذ في مدرسة ثانوية. لكن يجب ان يُعطى سلطة جريدة رائدة في البلاد! على اية حال، عندما يستطيع ان يكتب مثل هذه الأشياء ويجعل المحرر ينشرها ويفلت هكذا بدون عقاب – حسن اذن ... « وتصورْ انني كنت على وشك ان اعدّ هذا هو التعليق المعقول الوحيد على مقالاتي! لكن مرة اخرى لم يعرف السيد إيستوود او يأبه بالمواد التافهة او العقيمة، او بأي مادة اخرى منشورة في «التايمز». بعد هذا عرُّفت نفسي على انني السيد رجوان، وقدّمت للمهرج العجور كرسياً وتحدثت معه ساعة. قال بأنه كان مسروراً بأنني استقبلتُ ملاحظته «بروح ودية». مازلت اعتقد بأن ملاحظاته لم تكن مجردة من المعنى، لكنني افترض بأن على المرء ان يبدأ في مكان ما. (بغداد، 17 تشرين الأول، 1947)

***

الشخص الذي افتخر بأنني قابلته مؤخراً هو يوسف الكبير. زار المكتبة – ليراني! سأل، بأكثر الطرق عفوية وبدون مقدمات «اين تلك الكتب التي كنتَ تكتب عنها امس؟» كانت كتب كرانكشو «روسيا والروسيون» و«مراجعة الروسية» Russian Review. اعتقد بأن كرانكشو هو شخص

غير عادي (هل قرأتَ، بالمناسبة، مراجعته لكتاب «ستالين» لتروتسكي في مجلة New Statesman ؟). كتابه هذا جيد حقاً، احد اعقل الكتب حول روسيا. لابد انه عانى الأمرين عندما قرر نشر مراجعتي، التي أرضت العديد من الشيوعيين ورفقاء السفر. غريبة؟ لا ابداً، حسبما اعتقد. ماهي المزايا التي يمتلكها الانكلو-ساكسونيون بالنسبة لروسيا؟ مولوتوف يتصرف مثل بيفين، وهذا بدوره يتحدث وكأنه ترومان، الذي لابد ان يكون مكانه الصحيح، على ما اظن، في قسم الحسابات في شركة كبيرة. على اقل تقدير، تقدّم روسيا الخيار الحقيقي الوحيد للفوضى! على اية حال، آندي كان ينشر سلسلة من 7-8 مقالات بقلم مدلتون درو حول روسيا (دعاية). وهذا لم يكن غير مرتبط تماماً بقراري في الكتابة عن ذينك الكتابين، عليّ ان اعترف. احراج قليل للشاب، حسبما اعتقدتُ. بالتأكيد، في اليوم الذي ظهرت فيه مقالتي، توقفت السلسلة. لم يكن هناك ملتون درو المدير العام في يوم الأربعاء السابع. وفي اليوم التالي اخبرني آندي بأنه ظنّ من مراجعتي بأن الكتاب كان «منحازاً جداً لصالح روسيا». اخبرته بأنني لا اظن ذلك. هل اعجبك هذا؟ اخبرني. (بغداد، 16 نيسان، 1948)

***

انها الآن بالضبط تقريباً سنة واحدة منذ غادرتَ الى لندن. يمكن ان تضحك عليّ، لكنني لم اتوقف للحظة واحدة من انني فقدتُ شيئاً ما لا سبيل الى تعويضه. اثناء الأسابيع الأولى بعد مغادرتك شعرتُ تقريباً بأنه ليس من المعقول تماماً ان اكون عاطفياً جداً بشأن الموضوع، لكنني تعلمتُ منذ ذلك الحين، وهذا كلّفني كثيراً، بأن الأمر كان معقولاً وغير عاطفي بالمرة؛ فرحيلك كان بلا شك كارثة شخصية حقيقية. هل لي ان اضيف بأنني لم افلح في إيجاد بديل؟ من السخف ان اتصور بأنني استطيع! (بغداد، 22 مايس، 1948)

***

ربما تتذكر ما اخبرتك به ذات مرة – وهو انني كنت «اتكلم بالضبط وكأنني مشاهد». كنتَ تظن بأنني امزح. لم اكن امزح. وهناك كَمَنَ الخطر – ويكمن ايضاً. الرعب الذي يكتنفه قد احاق بي مؤخراً. ان موقفاً بدون تماه تام يكون مستحيلاً، او انه يتطلب قوى انسانية خارقة. لكن موقفاً ذا تماه تام مع جانب واحد يكون ايضاً مستحيلاً لأنه يحتاج مقداراً عالياً جداً من القرب. ربما افضل دور سيكون خاصاً بالتأويل والمصالحة – في التطبيق. مثل هذا الشيء اعتقد سيكون افضل حلّ. مع ذلك، هناك شيء من قبيل الواجب، الواجب تجاه نفسك والواجب تجاه الآخرين، بعض الآخرين ....

احدهم قال عن ماثيو آرنولد، ليس تماماً بدون نبرة انتقاص، بأنه عمداً تصوّر نفسه تصحيحياً. «كان يفتخر بنفسه ليس بسبب قول الحقيقة ولكن بسبب قول نصف الحقيقة غير الشائعة. كان يلوم معاصريه ليس بسبب قول الكذب، ولكن بسبب قول الحقائق الشائعة». ويمضي الى القول: «كان آرنولد يعاني من هذه الموافقة على التصحيح ليس الاّ؛ من هنا الموافقة على قول نصف الحقيقة التي كانت مهملة. يصل [أي آرنولد] احياناً الى التعصب الذي كان فوق العادة لأنه كان تعصب الإعتدال

fanaticism of moderation، أي عصبية الزهد intemperance of temperance. تعصب الإعتدال؟ عصبية الزهد؟ تعجبني نغمتها! (القدس، 1 تشرين الثاني، 1952).

الفصل الخامس عشر

البداية: الأفلام وعروض الكتب

احدى الأوراق الشخصية القليلة التي استطعتُ ان أأخذها معي الى اسرائيل، حيث وصلتُ كمهاجر جديد في شباط 1951، هي الورقة التالية:

31 كانون الثاني، 1951

الى مَن يهمه الأمر

قدّم السيد نسيم رجوان نقوداً سينمائية الى هذه الصحيفة من حزيران 1946 الى آب 1948 وعروض كتب من مايس 1947 الى آب 1948. كانت هذه سمة دورية رائجة للصحيفة. كذلك اسهم السيد رجوان بمقالات حول مختلف المواضيع وكان هذا العمل ذا مستوى راقٍ جداً.

جِي. ريد اندرسون، المحرر، صحيفة «إراك تايمز»

ان الظروف التي قادتني، بشكل اعتباطي على مايبدو، الى التوقف عن تقديم عروضي «الدورية والرائجة» الى جريدة «إراك تايمز» بالضبط في آب 1948 لابد ان يتعلق بالحرب العربية-الإسرائيلية الأولى وكارثة الجيش العراقي في تلك الحرب، وإنني لا اريد الخوض فيهما. هنا سأحاول الوقوف على الظروف التي بدأتُ فيها الكتابة بشكل دوري لتلك الصحيفة اليومية البغدادية الناطقة بالإنكليزية والتي يسيطر عليها البريطانيون.

كانت تلك في الحقيقة خطواتي الأولى في «الصحافة». باستثناء مقالات قليلة قدمتها الى الصحافة العربية المحلية – وكلها تدور حول موضوعات غير سياسية – وترجمة عربية لكتيب في زمن الحرب لأستاذ العلوم السياسية هارولد جَي. لاسكي، فإن إسهاماتي بصحيفة «إراك تايمز» مثّلت جهودي الأولى في مهنة الكتابة.

كان إيلي، الذي شاطرته اغلب اهتماماتي الفكرية، هو الذي، ذات يوم وبشكل بدا غير متوقع، اخبرني بأنه قرر ان يفاتح اندرسون، ليعرض عليه المساهمة بعمود كتاب اسبوعي a weekly book column الى الجريدة. قلت «ماذا»؟ كان التوضيح بسيطاً. فالمحرر، وهو رجل عجور كان مثالاً نموذجياً للسيد البريطاني الإستعماري. كان قد تقاعد لتوه وأصبح اندرسون، الذي يبلغ حوالي الثلاثين من العمر، المحرر الجديد؛ لذلك لابد ان يكون اكثر انفتاحاً لمثل هذا العرض. كما هو متوقع، قبلَ اندرسون العرض، وكانت عروض إيلي الأولى مكتوبة بعناية فائقة، ومتطورة جداً، ونوعاً ما لاذعة. بعد اسابيع قليلة من بدء اسهاماته، فاجأني إيلي ذات يوم مرة ثانية حينما اقترحَ بأن عليّ ان اقدم الى صحيفة «التايمز» خدماتي كناقد سينمائي، وتولى بنفسه مهمة الحديث لأندرسون

عن الموضوع. ترددتُ – الى حد ما بسبب رهبة المسرح لكن في الحقيقة لأنني لم اكن اتصور بأن انكليزيتي جيدة بما فيه الكفاية. وبعد مخاض عسير ومقدار لابأس به منه الحث، استسلمت وقررت البدء بالمهمة.

في السنوات مابين 1946-1948 كتبتُ بشكل منتظم عن الأفلام السينمائية، ثلاث وأحياناً اربع مراجعات قصيرة في الأسبوع، تحت الإسم الحركي الذي اقترحه إيلي – وهو the Nightwatchman (الخفير الليلي) – بينما استمر إيلي نفسه في المساهمة بمراجعاته للكتب. وبُعيد مغادرة إيلي الى لندن للدراسة، في صيف عام 1947، طلب مني اندرسون ان اتولى مسؤولية عمود الكتب بالإضافة الى الأفلام. ولأن اهتماماتي الثقافية، في ذلك الحين، قد اصبحت ادبية بحتة تقريباً – ولأن، ايضاً، «السياسة» لم تكن موضوعاً آمناً لأي شخص في العراق ليكتب عنها بأي حال من الأحوال – فإن الكتب التي اخترتها للمراجعة كانت في الأغلب روايات وأعمال ادبية، مع قلة قليلة تتعلق بمواضيع اجتماعية، وفلسفية، وسياسية عامة. في تلك الأيام، كانت معرفتي بالعراق نفسه، واهتمامي بشؤونه وشؤون العالم العربي، لاتعدو ان تكون قليلة جداً فعلاً. في الحقيقة، اصبحتُ معتاداً على رؤية نفسي ناقداً ثقافياً-ادبياً هاوياً، مراقباً ومتذوقاً للآداب البريطانية، والأمريكية، والأوربية – تقريباً تحت ذلك الترتيب.

وبقدر تعلق الأمر بمراجعاتي وآرائي حول هذه القضايا، كنت طليعياً بشكل كبير وبإفراط ونوعاً ما متسرعاً بأحكامي. في تلك الأيام بالذات عثرنا أيلي وأنا على مقالة فرجينيا وولف «متوسط الثقافة»، التي نحتتْ فيها تلك الكلمة لتشير الى كل ماوجدته بغيضاً ومقيتاً في الثقافة. هي نفسها، حسبما كتبت، كانت «رفيعة الثقافة» وفخورة بذلك كثيراً. وهكذا، كانت قادرة على تقدير، واحترام، وحتى الإستمتاع بثقافةِ «ضئيل الثقافة» وأعمالِه الأدبية. كان «متوسط الثقافة»، على اية حال، شيئاً ما آخر else مرة ثانية. وإذ تحكم عليه بأنه «لا هنا ولا هناك»، لا هو سمك ولا هو طير، فإنها كانت تضع أي شيء وجدته «متوسط الثقافة» في خانة الإزدراء. اضف الى ذلك، انها كانت صريحة بما فيه الكفاية بحيث سمّت الأسماء بمسمياتها، وهي تربط اعمال آرنولد بينيت، هـ. جِي. ويلز، سومرست موم بصنف متوسط الثقافة – وصندوق القمامة.

بالنسبة لي و لإيلي، رأينا انفسنا رفيعي الثقافة بروح قتالية، وعليه فإننا تساهلنا بفرح وبحماس مع ما اخترناه – اعتباطاً على الأغلب – لندعوه ضئيل الثقافة. وأي شيء حتى لو كان عن بعد نشم منه رائحة «متوسط الثقافة» كنا نرفضه في الحال ونجعله هدفاً لأشد الهجمات شراسة.

جيمس آكيت و أنا

في تلك الأيام اشتركتْ صحيفة «إراك تايمز» في قسم الإستطلاعات في جريدة «ديلي اكسبرس» اللندنية، وهي جريدة يومية واسعة الإنتشار معروفة بإثارتها وانهماكها بالرياضات sports وما كان حينها يُعَدّ «جنساً». احد التحقيقات الصحفية للـ «اكسبرس» الذي استخدمته صحيفة «تايمز» كان عمود جيمس آكيت الأسبوعي الخاص بمراجعات الكتب. الآن اذا كان أي شخص بالنسبة لنا متوسط

الثقافة فهو آكيت – الذي نعدّه ايضاً غير مطّلع علاوة على ذلك. كان يبدو لنا في تلك الأيام بأنه اقرب شيء الى تحدّ شخصي – دائماً رافض ومحتقر للجديد والطليعي ولم يدع فرصة تمرّ دون التهجّم بعنف على ايقوناتنا امثال تي. أس. إليوت، جيمس جويس، فرجينيا وولف، ويعجب صراحة ويمتدح كل شيء تقليدي و«متوسط الثقافة» في الأدب والمسرح.

في احدى المناسبات، كان آكيت متهوراً جداً ليهاجم إليوت بشراسة حقاً. فبعد مراجعته لتقييم نقدي عن عمل تي. أس إليوت بقلم هيلين كاردنر، كتب من بين اشياء اخرى بأن كاردنر قامت بمحاولة مسعورة لتقنعه بأن إليوت كان شاعراً. ومضى الى القول بأن الشاعر بالنسبة له هو شخص ما يكتب شيئاًما سيجعله، أي آكيت، اكثر سعادة لبقية حياته – وأن إليوت، بسبب فشلة في تحقيق هذه المأثرة، فهو ليس شاعراً. وهذا حفّزني في النهاية الى كتابة رسالة طويلة، حادة و، استطيع ان اراها الآن، ثقيلة الظل الى المحرر، طبعها تحت عنوان «السيد آكيت – 'الفاشي الثقافي'».

وبجهود مشتركة من إيلي و مني، حاولت الرسالة ان تكون شأناً ساخراً، متهكماً. بالنسبة لتذمّر آكيت بأن إليوت فشل في جعله سعيداً لبقية حياته، كتبنا: «كوننا قرأنا كلاً من مقالة الآنسة كاردنر وشعر إليوت، وإنصافاً لـ 'رفيعَي الثقافة' الخسيسَين هذين اسمح لي، سيدي، لأوضح بأن اياً منهما لم يحاولا القيام بأي شيء من هذا القبيل، وأعبّر عن قناعتي الراسخة بأنهما، لو حاولا ذلك الشيء، لكانا قد فشلا.»

وإذ اقرأ الرسالة الآن – فهي كُتبت في عدد الجريدة الصادر في 15 آذار، 1947 – فإنه لا يسعني الاّ ان انبهر وأصدَم بنغمتها – حدة الشعور، عمق الإرتباط، الإندفاع الصريح. يبدو بأنه ليس اقلّ مظهر مزعج من هجوم آكيت في ذلك الحين هو حقيقة ان المقتطفات من مقالة كاردنر كانت قد ظهرت اول مرة في New Writing Penguin ، التي اسوة بمجلة Horizon وعدد من «المجلات الصغيرة» الأخرى من بريطانيا والولايات المتحدة اعطت التغذية الفكرية الوحيدة المتوفرة لنا في ذلك الحين.

مع ذلك، بعدما استمتعنا ايما استمتاع بما قاله آكيت، كتبنا في رسالتنا (التي قررنا بأني أنا وحدي من يوقع):

المشكلة مع جيمس آكيت ومن لفّ لفه (لورد إلتون، و الفرد نويس، و أف. أل. لوكاس، لنذكر فقط الأكثر حساسية) هو انهم يرفضون ببساطة حقيقة انه ليس هناك شاعر او فنان حديث يستحق الإسم يكون مهتماً إما في إمتاع ذواتهم الصغيرة المهمة او في اقناعهم بأي شيء مهما كان نوعه. وطبقاً لذلك فهم يصفون أي شيء تعجز عقولهم الضيقة من فهمه بأنه تافه، بل حتى سخيف. (السيد آكيت يقول في مقالته بأن الكتاب الذي يعكف على مراجعته يستحق الشراء «اذا كان ذلك من اجل الضحك»).

ان الإهتمام الوحيد لهؤلاء السادة متركزاً على الموتى والمخضرمين؛ في الحقيقة انهم يعيشون على الموتى ونصفِ الموتى. مراراً وتكراراً، على سبيل المثال، اجد السيد آكيت يتفاخر بكونه قادراً على

تهجئتهِ تهجئةَ صحيحة اسماء شخصيات دكنز – وكأن ذلك هو المهم. اذا كان هذا هو طريقهم، لاشيء اقل من حرق جميع الكتب الحديثة الخاصة بالشعر وتدمير «المخاوف التي يسببها الحداثيون» في الرسم سيُرضي متوسطي الثقافة المنحوسين هؤلاء. هم باختصار، فاشيون ثقافيون.

وبعد ذلك، في محاولة على مايبدو لقول شيء ما ايجابي، تختتم الرسالة بهذه الفقرة:

لم اكتب هذا، على اية حال، لمجرد القيام بالملاحظات اعلاه، ولكن لأدخل في احتجاج معك، سيدي، للسماح بهذا الهراء المضلل ان يقدَّم لقرّاء جريدتكم. موضوعي، اذ اضعه ببساطة، هو، انه بينما قرّاء الإنكليزية يستطيعون، إما بعدم اخذها على محمل الجد او بتجاهلها بالمرة، تحمل مراجعات السيد آكيت، هنا، حيث ان جمهوراً صغيراً للكتب الإنكليزية يتزايد باضطراد، وحيث ان بعضاً من قرائك غير مطّلعين بما فيه الكفاية لكي يأخذوا هذه المراجعات على محمل الجد، فإنه خليق بها بأن يكون ضررها اكثر من نفعها.

«الخفير الليلي» و قليلو الإطلاع

كان هذا قبيل رحيل إيلي الى لندن و اضطلاعي بكتابة عمود الكتب. وعن هذا الوقت، كانت نغمتي الشديدة «رفيعة الثقافة» تقترب من نقطةٍ حيث لم يجد القرّاء فقط نقدي مقلقاً بل ايضاً المحرر نفسه وجده كذلك. ان فترة ما بعد الحرب مباشرة في صناعة السينما كانت مشهورة بإنتاج عدد من الأفلام التاريخية المثيرة، لاسيما عن طريق الأفلام اللندنية الرائجة وقتذاك. كانت هناك حوالي ست دور سينما في بغداد، وعدد قليل آخر منها صيفية عندما كانت سينمات الهواء الطلق تعرض ما لديها. وهكذا كان الأمر مرهقاً غالباً لتغطية جميع الأفلام الجديدة، خصوصاً وأنه عدد قليل جداً من هذه الأفلام كانت تعرض لأكثر من اسبوع. وكذلك، على مرّ الأسابيع كان عليّ ان اعاني من وطئة مشاهدة هذه الأفلام، غالباً فلمان في الليلة – وبسبب نوعية معظمها، فإن المراجعات اصبحت بشكل ثابت لاذعة.

وعند العودة الى تلك الأيام لايسعني الاّ ان اندهش بروح الدعابة الجميلة وسعة الصدر التي تحلّى بها محرري وهو اسكتلندي دمث الخلق. اتذكر بقشعريرة بأن المراجعة الأولى بالذات وهي مسألة 150 كلمة، اخذت مني افضل جزء من ليلة صيف لكي اكتبها!

كنت حينها في الثالثة والعشرين من العمر ومملوء بقناعات متوهجة وأفكار مجلجلة (الأولاد في ذلك الوقت درجوا على البلوغ بخطى اسرع مما يبدون عليه في هذه الأيام). كما كان هناك ايضاً مقدار لابأس به من التحدي وقليل من المنغصات – وأنا اتذكر عند التأمل بأنه لو عرف اندرسون المشاكل التي كان يتسبب فيها لنظرَ في مكان آخر من اجل ناقد سينمائي. لكنه كان رجلاً منصفاً ومستقيماً و طالما تمّت الصفقة مضى بالترتيبات بغض النظر عن الظروف. وحصلت ابشع «الحوادث» ليس بعد انطلاق العروض بفترة طويلة. ففي الأسبوع عقب ظهور عرضٍ قذر على نحو خاص حول انتاج بريطاني شعبي جداً يسمى «السيدة الشريرة»، اذ بينما كنت في طريقي الى صالة سينما الملك غازي مع الإعلان الإعتيادي بأنني من جريدة «إراك تايمز»، مُنعت من الدخول باقتضاب ولو

بأدب. لم اجادل ومضيت الى شراء تذكرتين (فهي كانت دعوة لمقعدين حيث كان معي صديقي) - ليس لمشاهدة الفلم ولكن لإثبات مسالة ما. وهكذا كتبتُ المراجعة كما ينبغي وظهرتْ على حسب الأصول في الجريدة – لمجرد ان نبيّن لأعداء الثقافة الرفيعة بأن لا مهرب من المراقبة الواعية «للخفير الليلي»!

في اليوم التالي امر اندرسون، عند سماعه الخبر، قسم الإعلانات في الحال بأنه، ما لم يعتذر المالكون فوراً ويجددوا دعوتهم، فإن الجريدة تتوقف عن عرض اعلاناتهم. كان التحرّك حكيماً. وطالما ان «التايمز» هي الجريدة اليومية الوحيدة الناطقة بالإنكليزية في البلد وقرّاؤها هم الراعون الطبيعيون للأفلام الإنكليزية، فببساطة ليس هناك وسيلة سوى من خلال هذه الإعلانات لمعرفة ما كانوا يعرضون في دور السينما. وهكذا جاء الإعتذار في موعده، وتمّ تجديد الدعوة – واستمرت المراجعات الموجّهة بغضب والعالية الثقافة بشكل جلي، التي ازعجت اصحاب السينما برغم انها، مع الأسف، لم تنل دائماً رضا او تهذيب رواد السينما انفسهم.

وهذا ما جاء بي لأقع في «الحادثة» الكبرى الثانية في ايام مراجعاتي السينمائية. حدثت هذه حول فلم ينيرسال بكچرز Universal Pictures film بطولة ابوت و كاستيللو عنوانه، «هنا يأتي المحررون المساعدون» Here Come the Co-Eds. في هذه المرة كان المحرر يعاني من مشكلة ما مع المراجعة، التي هاجمتُ فيها الفلم العالمي للترهات التي زعمتُ انهم ينتجونها وأطلقتُ على الفلم اسم «تسلية من الدرجة الثالثة».

وكانت المراجعة تعاني من ان ابوت و كاستيللو يعيدان خدعهما المرة تلو الأخرى. «فهما يسعيان الى لخبطة أي مهنة تُسند اليهما. ان أصغر، وعلى مايبدو اكثر الإثنين اهمية يوضع في اكثر المواقف سماجة، من اجل ان يُعطى فرصاً حتى يُقدّم المزيد والمزيد من صراخه المعتاد الذي يبدو بأنه الشيء الذي يحبه كثيراً جمهوره المخلص. وتعبر الفكرة عقل احدهم بأن هذين الإثنين يمتلكان امكانيات كبيرة كممثلَين كوميديَين اكثر مما أعطيا لحد الآن؛ لكن، مع ذلك، الأفلام لايصنعها الممثلون فقط – فهي اساساً من نتاج عمل المخرجين الذين، برغم انهم العاملون المبدعون الوحيدون في هذا المجال، يسيطر عليهم، في هوليوود، رجال الأعمال التافهون الذين يحلو لهم ان يدعو انفسهم منتجين والذين هم في الواقع 'ينتجون' لاشيء على الإطلاق.

سلّمت المراجعة ذات صباح، ولدهشتي الكبيرة وجدتها في الجريدة في اليوم التالي مطبوعة تحت عنوان «هل تستطيع ان تكتب مراجعات سينمائية؟» ومشفوعة بهذه الملاحظة التمهيدية:

ان محرر جريدة «إراك تايمز»، كونه رأى بنفسه هذا الفلم، وسمع آراء مختلفة عنه، طلب من كل من «الخفير الليلي» وصديقٍ ليكتبا مراجعات له. وقد اطلع هذا الصديق على نقود الخفير الليلي لهذا النوع من الأفلام. ولأن المحرر يتعاطف تعاطفاً كبيراً مع وجهات نظرهما، وهي ايضاً اغاضته كثيراً، فسيكون مهتماً لمعرفة رأيكم بالفلم. اكتبوا باختصار. عندما تكتبون رسائل طويلة فسيتم

اختصارها، لذا احتفظوا بطاقتكم. كل النقود التي تمتلك شيئاً ما لتقوله ستُنشر. ويحق للنقّاد الأصليين ان يردّوا والمحرر سوف يقدّر الأمر.

افتتح «صديق» المحرر، الذي وقّع ملاحظته بالحروف «R. B. M.»، بسؤال: «هل هناك من سبب لماذا يجب ان يُهاجَم الفلم لمجرد انه ليس فكرياً او تحفة فنية من حيث الإنتاج؟» وكانت اجابته هي ان الفلم موضوع العرض «هو كوميديا هزلية ولايدّعي اي شيء غير هذا»، كا انه كان في مستوى متقدماً ضمن تصنيفه وجعله يطلق «عدةَ ضحكات قلبية و [أعطى] المزيدَ منها الى رعاة السينما – الذين بلا شك ليس من بينهم سوى عدد قليل من المحللين. واستنتاجه هو: «عندما يحصل الراعي على الشيء الذي يدفع نقوده ليراه، اذن مَن هو الناقد الذي يتذمر؟ ربما يسجّل آراءه هو، لكن بالتأكيد لابد ان يقول، في نفس الوقت، من اجل توجيه الجمهور، بأنه يُحتمل بأن هذا الفلم او ذاك هو من النوع الذي يرغبون بمشاهدته».

لا اعرف كم عدد «المراجعات» التي انتجها التماس المحرر. اذ ان ما تمّ طبعه هو مجموعة من ست اجابات – ثلاث لصالح الفلم وضد الخفير الليلي، واثنتان ضد الفلم وواحدة بين بين. كتب احد نقادي، وهو يحاول ان يكون مضحكاً، بأن مراجعتي يمكن تبريرها اكثر لو اسميتُ نفسي «الخفير الصباحي» Morning Watchman. في الحقيقة، اضاف، «نحن بحاجة الى مثل هذه الأفلام الكوميدية لتتم مشاهدتها اثناء الليل، على الأقل لتمنحنا راحة من مشاكل العمل الذي نكابده اثناء النهار». وآخر أوصى الكوميديا لـ «اولئك المحتاجين الى الإسترخاء الذهني»، بينما تساءل ثالث، «كيف يستطيع المرء ان يطبّق معايير النقد نفسها على افلام مثل «الآمال الكبيرة» و «هنا يأتي المحررون المساعدون؟»

وكانت اجابتي لهذا التحدي، الذي بدا الأكثر شؤماً بسبب تدخّل المحرر السافر فيه، [كانت] مطولة وغير مقتصدة كالعادة. ان الناقد السينمائي، حسبما تذمرتُ في فقرتي الإفتتاحية، هو في موقف مراوغ نوعاً ما. «من المتوقع انه يحكم على الأفلام بالمقاييس الجمالية نفسها التي يحكم بها ناقد فني او ناقد ادبي على الصور والكتب، وفي الوقت نفسه لابد، نوعاً ما، ان يلعب دورَ رئيس الكهنة بالنسبة للغز الشعبي الذي هو الآن السينما. فالسينما هي شكل فني، لكن في الوقت نفسه هي اكثر من ذلك بكثير وأقل من ذلك بكثير. وسط كآبة السينما العالمية الحديثة ومللها، باستثناء السباقات وساحات كرة القدم، تكون المكان الوحيد الذي تزّود السواد الأعظم من الناس بالإثارة والسحر الذي لايمكنهم ان يجدوه في يقظتهم، أي حيواتهم اليومية».

وهكذا. كان فحوى الجدال هو ان كل هذا جعل مهنة الناقد السينمائي «المحددة بالحفاظ على مقاييس واضحة معينة» مهنة صعبة وعاقّة. وتبع هذا اجابات لنقاط معينة صيغت برسائل التمسها المحرر. في نقطة ما اعلنت أنني سعيد «بأنني عديم النفع كمرشد لرجال أعمال متعَبين يبحثون عن نسيان جميل من المسودات، والدفاتر، وفواتير الشحن». وردًّا على احد نقّادي كتبتُ: «يبدو انه يشير الى ان الناقد، إن كان على المرء ان يكون هناك بالمرة، عليه ان لا يدين فلماً يحبه الجمهور، او، من الأفضل حتى، ان يكون مرآة يعكس ذوق العامة. عندما يكون هذا مقبولاً، عندها اقترح بأن المكان

الصحيح للناقد هو ليس داخل المسرح على الإطلاق بل في شباك التذاكر حيث، عند عدّ التذاكر التي بيعت في الليلة الأولى، يمكنه ان يذهب حالاً الى البيت ويعدّ تقريره».

واختتمتُ بعد محاولات اخرى قليلة، «برأيي، ان الوظيفة الحقيقية للناقد هي ان يزن الأمور وينظر فيها، على ضوء التحف الفنية الماضية ويساعده في ذلك 'فطرته النقدية'، أي مقدار ما يستحقه العمل الفني عندما يقارَن بأعمال فنية اخرى في نفس التصنيف. وأعترف بأن هذه هي الخدمة الوحيدة التي يمكن ان تُطلب منه بكل عقلانية والتي بوسعه ان يقدّمها على اكمل وجه».

هذه الحادثة، لابد ان أضيف، لم تسبب أي قطع من أي نوع سواء في مجرى المراجعات ام في صرامة وتشدد لهجتهما العدائية. الآن، على اية حال، بعد كل تلك الأيام، لست متأكداً تماماً ما مدى الفائدة التي تمكّنت العروض من تحقيقيها. بالفعل انا شخصياً بدأت اشعر بأنه حتى مالكي السينما توقفوا عن الغضب، بينما كانت النكتة تدور حول فائدة هذا الناقد بالذات بوصفه مرشداً لرواد السينما. اذ اكدتْ النكتة بأن «الخفير الليلي» قد اصبح فعلاً مرشداً جيداً – من المهم ان نتذكر جزئية صغيرة واحدة وهي: عندما يمدح فلماً عليك ان تتجنبه مثل الوباء، في حين كلما كان العرض اكثر سوءً كان من الأفضل ان تشاهد الفلم!

مُراجِع الكتب

عند النظر الى احداث الماضي، وبعد مايقرب من ستة عقود في مهنة مراجعة الكتب، اجد نفسي ما ازال مندهشاً للمدى الواسع من الإهتمامات، والرغبة الحاضرة لدى محرري جريدة «إراك تايمز» في طلب نسخ المراجعة وفي طبع جميع المراجعات التي اخترتُ الكتابة عنها، في كل اسبوع مع القيام بشيء من التحرير من جانبهم.

في حزيران 1947، بعد اربعة عشر شهراً من ارتياد السينما واستعراض الأفلام، وجدتُ نفسي على حين غرة اقبل بحماسٍ العبءَ الإضافي بتقديم عمود كتاب اسبوعي لجريدة «إراك تايمز»، بحيث اصبحت الآن مراجعها الدائم بالإضافة الى مهمة مراجعات الأفلام. وفضلاً عن الولع الطويل بالكتب وبالكلمة المطبوعة، كنت ذهنياً وايديولوجياً مستعداً للوظيفة، التي ادركت بأنها من الطبيعي تنطوي على التعبير عن الرأي وإظهار الميول والأفكار الشخصية حول طائفة كبيرة من المواضيع، والأشخاص، والأمكنة.

والحقيقة هي انه في الوقت الذي تركتُ فيه المصرف الشرقي، حيث كنت اعمل بصفة مراقب سجل الحسابات في السنوات 1942-1945، قد اصبحت غريباً تماماً عن كل المدارس الفكرية الماركسية – الستالينية، والتروتسكية، والليلينية، وحتى «الماركسية» الأصلية. فاهتماماتي الآن بشكل عام ادبية وكذلك ثقافية بالمعنى العريض الأوسع. وبرغم افتقاري الى تعليم نظامي في اللغة الانكليزية وآدابها، على اية حال، فقد «تدبُّرت» العمل وتغلبتُ على ضجر دراسة الأدب الإنكليزي حسب الترتيب الزمني ، فبدلاً عن التقدم ببطء عبر اللغة الإنكليزية الوسيطة، شوسر، شكسبير وبقية الآثار الكلاسيكية، تمكّنت من البدء بـ 'تي. أس. إليوت' و 'عزرا باوند'. في الحقيقة، كانت اولى القصائد

الإنكليزية التي قرأتها وقيمتها هي «الأرض اليباب». في ذلك الوقت لم اجد أي شيء غير اعتيادي في هذا، برغم انه مع مرور السنين بدأت اتساءل إن كان الأساس الجيد في الآثار الكلاسيكية لم يعدّ طريقة مثلى للإنطلاق.

في مثل هذا المزاج وبهذه الخلفية التحقت بجريدة «إراك تايمز» بصفة مراجع كتب دائم. كانت اول مراجعة كتبتها للجريدة هي عن كتابين قصيرين جديدين يتعلقان بحالة صناعة الأفلام في بريطانيا – كتاب «ميول نحو الإحتكار في صناعة الأفلام السينمائية»، تمّ إعداده الى رئيس مجلس التجارة على يد مجلس الأفلام ونَشَرَه مكتب جلالة الملك، وكتاب «الأفلام: بديل عن رانك»، بقلم فردرك مولالي، نشره مركز الكتب الإشتراكية، لندن. كان مسعى المراجعة هو هجوم على «الطبيعة الإحتكارية لصناعة الأفلام»، ووغد هذه المراجعة كان، طبعاً، منظمة رانك Rank Organisation، التي كانت في ذلك الوقت تُنتج ما اعتقدته في الأساس «تسلية من الدرجة الثالثة».

بالنسبة لهذه المراجعة الأولى للكتب، كان اختياري دقيقاً جداً. فمن ناحية، ثمة تقرير رسمي عبّر فيه مؤلفوه عن آراء استطيع ان اوردها باستحسان. كمثال على ذلك، الإشارة الى هذا الرأي، «الذي حملته بعض المجلات الفصلية»، بأن الصناعة السينمائية البريطانية يُنظر اليها بوصفها صناعة من بين اخرى غيرها، وانه من غير الوارد بالنسبة للبرلمان إظهار اهتمام خاص لإدارتها ونموها المستقبلي، ويقول مؤلفو كتاب «ميول نحو الإحتكار في صناعة الأفلام السينمائية»:

نحن لانتشاطر في ذلك الرأي، ونحن واثقون بأن البرلمان سيستمر في مسعاه لحماية مستقبل هذه الصناهة عن طريق تشريع خاص لاينطبق على الصناعة عموماً. اذ ان صناعة الأفلام السينمائية تمثّل اكثر من مجرد سلعة يتم مقايضتها مقابل سلع اخرى. فالشاشة لها تأثير كبير سياسياً وثقافياً على عقول الناس. امكانياتها هائلة، بوصفها وسيلة للتعبير عن الحياة الوطنية، والمُثُل والتقاليد، وبوصفها وسيلة درامية وفنية، وبوصفها وسيلة دعائية.

ثمة جانب آخر من التقرير تطرقتْ له المراجعة يستحق الذكر هنا كمقدمة عن نوع القلق الذي كان يتملكني في اواسط عشرينياتي هو موضوع «تسويق الأفلام البريطانية الى الخارج». «حتى الآن»، تكلمت بثقة.

تمّ عمل الأفلام البريطانية بشكل رئيس للسوق المحلية. ويؤكد السيد رانك بأنه ليس هناك امل لصناعة السينما البريطانية اذا لم يمتد كفاحك الى ماوراء البحار، ولاسيما سوق عبر الأطلنطي. الآن، حيث يكون الجمهور الأمريكي «متحمَّسا» بشكل كامل لأفلام هوليوود، فإن الفرصة الوحيدة لجعل هذا «الغزو» ناجحاً، حسبما تذهب المناقشة، هو بإنتاج افلام، من اجل ان تستهوي الجمهور، يجب بطريقة او اخرى ان تكون ليس اكثر من محاكاة لهوليوود.

من اجل تحقيق هذا تجتذب منظمة رانك الآن «نجوم» امريكيين ومنتجين ومخرجين درجة اولى بأسعار خيالية. وفضلاً عن هذا، لابد من القيام بمجموعة من الصور مع التركيز على الشاشة الخارجية. وبهذا هناك «قصة حب»، «مادونا ذات الأقمار السبعة»، «السيدة الشريرة»، و

«القافلة». ومن هنا ايضاً هناك الأعمال الموسيقية الضخمة الملونة مثل «قيصر وكليوباترا»، وحتى الممثلة بتي كريبل. باختصار، الأفلام البريطانية، بالمعنى الذي تكون فيه الأفلام الفرنسية فرنسية، والأفلام الروسية روسية – وكذلك بالمعنى الذي لا تكون فيه الأفلام الامريكية امريكية – لن تكون او تكون بشكل نادر جداً متوفرة حتى للجمهور البريطاني، مالم يتم انتاجها على يد مجاميع مستقلة ومتحمسين، كما رأينا قبل قليل، تكون في موقف قلق جداً.

برغم انني لم اكن ناجحاً في الإحتفاظ بقصاصات جميع مراجعاتي للكتب، فقد كنت دائماً احتفظ في ملفاتي بقطعة ورق ادرج فيها تواريخ وعناوين تلك المراجعات. احدى المراجعات السابقة كانت تبحث في كتاب بقلم ألدوس هكسلي يسمّى «العلم، والحرية والسلام»، نشرتها تشاتو و وندوس بمبلغ 3s. 6d. كان هكسلي احد ابطالي الثقافيين في ذلك الحين، لذلك منحني استعراض احد اعماله اللاقصصية فرصة جيدة جداً لأسجّل نقطة او نقطتين شعرت بضرورة تسجيلها.

في الحقيقة، عند النظر الى هذه القائمة الآن وقراءة شيء مما فيها، ادرك كيف كنت اتجرّد تقريباً في جميع مراجعاتي التي كتبتها [اتجرد] من بعض انحيازاتي وميولي الشخصية. فظهور كتاب جديد بقلم هنري مللر، مثلاً، كان بنظري فرصة نادرة لإعطاء امريكا وثقافتها علقة جيدة. ان استعراض ثلاث كراسات من المجلس البريطاني حول الشعر، والرواية، والأدب النثري في بريطانيا منذ العام 1939 كان بمثابة مناسبة لتقديم مديح حماسي جداً لأعمال كتّاب وشعراء بريطانيين معاصرين مفضلين. اما مراجعة مشتركة لكتب جديدة حول صناعة الجريدة في بريطانيا فقد استُعمل كوسيلة لشن هجوم كاسح على الصحافة البريطانية الرائجة والإنهماك بالرياضة، والجنس، والجريمة (والذي رُفِض بدعوى انه كان معتداً جداً برأيه – وهو كان كذلك!).

الفصل السادس عشر

خارجاً في البرد

في مساء يوم احد في صيف عام 1948، بينما كنت في المكتبة اضع اللمسات الأخيرة على عمود الكتاب الأسبوعي، دخل رسول مع مظروف يحمل اسمي وعنوان المكتبة. تقول الرسالة:

عزيزي رجوان،

نظراً للكساد التجاري المهيمن اجد من الضروري تخفيض النفقات على مساهمات التحرير. لذلك يؤسفنا جداً بأنه يجب ان اخبرك بأنه ابتداءً من نهاية هذا الشهر لن نكون قادرين على نشر مراجعات الكتب وكذلك يجب علينا ان نوقف نقد الأفلام. سوف تقدّر بأنني لم ارغب باتخاذ هذه الخطوة لكني مضطر عليها كون العمل سيء جداً. مع ارق اعتباراتي.

المخلص لكم،

جِي. ريد اندرسون، المحرر

كان تاريخ رسالة المحرر هو 24 تموز، السبت، لذلك كانت آخر مراجعة كتاب لي ستظهر يوم الأربعاء في الثامن والعشرين من الشهر – وهو إشعار قبل أربعة ايام تقريباً. كذلك، صحيح ان الجريدة كانت تدفع لي عن المراجعات والأعمدة (وصل المجموع تقريباً الى حوالي 20 باوند في الشهر، وهذا مبلغ كبير جداً بالمقاييس السائدة آنذاك)، لكن ادعاء اندرسون بخصوص الكساد التجاري لم يقنعني تماماً. كنت منجذباً جداً الى العمل الذي ازاوله، كما ان هذه العادة اصبحت في ذلك الحين متأصلة الى ابعد حد، لدرجة انني عرضت مخلصاً على المحرر بأن استمر في مساهماتي لقاء نصف المبلغ او حتى بدونِ دفع بالمرة. كان ردّه قصيراً وغامضاً – مجرد ابتسامة رافضة وبعض التمتمات المؤدبة حول عدم تفكيره بجعلي اقوم بوظائف بدون ثمن. اخيراً، بمساعدة سكرتيرته، عرفت بأن اندرسون كان قد املى الرسالة عن طريق الهاتف من «السفارة»، حيث كان من عادته الذهاب للإجتماعات والمشاورات كل يوم سبت بعدما توقفت الجريدة.

لم اتمكن من اكتشاف الحقيقة الكاملة بخصوص هذا الأمر لكنني اعتقد بأن السبب وراء قرار اندرسون المتسرع ليس من البعيد الوصول اليه. في تلك الأيام، كانت جريدة «إراك تايمز» بمثابة مؤسسة وتتمتع بمقدار كبير من الإستقلال والنفوذ. وباستثناء اعتبارات المكانة ونوعية قرائها، فهي كانت ايضاً من الناحية الإفتراضية جريدة البلد الوحيدة التي لاتتأثر بتقلبات معاصريها، حيث من الممكن في أي يوم من الإسبوع ان تستلم امراً حكومياً بتعليق المطبوع بسبب عدم الإنتظام حقيقياً كان ام متخيلاً.

لذلك بدا ان ليس هناك سبب لماذا، في وقت كان فيه اليهود يُطرَدون بشكل منظم من المراكز الحكومية وبالتأكيد من جميع المواقع المرتبطة بالمعلومات ووسائل الإعلام، [لماذا] ينبغي للجريدة الإنكليزية الوحيدة ذات الإرتباطات الواضحة بحكومة جلالة الملك ان تستمر في توظيف يهود في اقسامها المختلفة، ووجود يهودي واحد يعمل بصفة مراجِع افلام وكتب وحيد.

والحالة هذه، كانت آخر مساهمة لي في جريدة «إراك تايمز» هي مهمة قام به اندرسون بأشهر قليلة بعد إنهاء خدماتي – وهو مسح بصفحة كاملة للسنة في الأدب العراقي الحديث ظهر في العدد الخاص بالسنة الجديدة في نهاية كانون الأول عام 1948. وتمّ استقبال الموضوع استقبالاً حسناً، سواء من اعضاء حلقتنا، الذين ظهر العديد منهم في المقال، ام من خارج الحلقة من بينهم دزموند ستيوارت السيء الصيت والإنكليزي الشاب الذي كان حينها مديراً للمجلس البريطاني في بغداد.

وفضلاً عن كوني يهودياً، على اية حال، فهناك عدد من العوامل التي لا يسعني ان افكّر فيها لها تأثير ما على قرار اندرسون المتعجل بإيقاف نشر مراجعاتي. في المقام الأول، جاء القرار بأسابيع قليلة بعد التفتيش الذي قامت به الشرطة للمنزل الذي كنا نسكن فيه كمستأجرين (الذي سأصفه ادناه). قبل ذلك بثلاث سنوات، كانت هناك الزيارة المفاجئة لهيلين، الفتاة من القاهرة التي تحولت الى مجندة في الإستخبارات البريطانية.

والأهم من هذا، ربما، كانت هناك ايضاً تلك الدعوة لقسم التحقيقات الجنائية ترجع الى بواكير الأربعينات. وبرغم قلة عددهم وعدم كفاءتهم غالباً، فإن سلطات الأمن العراقية كان لها على الأقل فضيلة مهنية واحدة وهي: انهم كانوا يحتفظون بسجلات كافية من التفاصيل الشخصية وغيرها من «التفصيلات» الخاصة بجميع اولئك الذين كانت لهم قضايا معهم، سواء كانوا مذنبين ام بريئين. في مناسبة واحدة على الأقل – المناسبة التي استُجوبتُ فيها على يد موظف قسم التحقيقات الجنائية بشأن تعدد وتنوع الكتب والمطبوعات التي تصلني بالبريد – طُلِبَ مني بأدب ان ادلي بمعلومات وحيثيات مفصلة عن نفسي قبل «اطلاق سراحي».

ان الظروف المؤدية الى استدعائي من جانب قسم التحقيقات الجنائية لابد ان يتعلق بحقيقة انني درجتُ على استلام جميع بريدي عن طريق المصرف الشرقي المحدود، حيث كنت اعمل في السنوات 1942-1945. الآن اذا طُلب مني ان ادرج الأماكن التي عشتُ فيها منذ ان غادر اربعتُنا – الأب، الأم، سمحة، و أنا – بيت يامين عام 1939 وحتى العام 1946، اعتقد بأنه يبدو بأننا كنا نغير بيوتنا بمعدل على الأقل مرة كل تسعة اشهر. وهذا هو السبب لماذا اثناء تلك السنوات كنت دائماً استلم بريدي عن طريق in care of المصرف والأماكن الأخرى التي عملتُ فيها. كان البريد يتألف بشكل رئيس من مادة مطبوعة، وخدمات بريدية اثناء سنوات الحرب الدائرة آنذاك، والكتب والدوريات التي اعتدت الإشتراك فيها وكانت الطلبات تدخل على شكل مجموعات وأكوام.

ذات يوم، حينما بدا كل شيء انه وصل في الوقت نفسه، صُعِق كاتب الإرسالية في المصرف الشرقي عندما وجد بأن جميع الرُزَم والمظروفات الكبيرة تقريباً كانت معنونة لي – اثنان او ثلاثة

مختارات لنادي كتاب اليسار وعدد متساوٍ من اعداد مجلات «هرايزن» Horizon، «ريدرز دايجست»Readers Digest ، «لايف آند لترز» Life and Letters ، «بارتزان رفيو» Partizan Review، «لفت نيوز»Left News ، و «انترنشنال لترچر»International Literature (مرسَلة مباشرة من موسكو برغم ان الإشتراك تمّ من خلال وكالة لندنية). لحسن الحظ، لم تلفت انتباه الموظف clerk سوى رزم نادي كتاب اليسار – وعندما سألني ماهذه وماذا تعني كلمة «يسار» left، اجبته على الفور، مدعياً بأنها شركة تتعامل مع «المتروك» left بمعنى الكتب المتروكة او المتبقية. انطلت الحيلة على الموظف لكن يبدو لم تتطلِ على دائرة الرقابة العراقية، التي كانت حينها تعجّ بالجنود البريطانيين المتعلمين ورجال ونساء من جميع الجنسيات والخلفيات اللغوية الذين كانوا ملتحقين بالجيش البريطاني (بضمنهم، عن طريق الصدفة، العديد من المجندين اليهود من فلسطين).

وإثناء مقابلتي مع موظف قسم التحقيقات الجنائية، فهمت بأن شفيعي الوحيد بخصوص «تصرفي» – ومن الطبيعي الظرف الذي جعل القوى المهيمنة تتغاضى عن الإهتمام غير المشترك التي كنت اظهره في الأفكار الخطرة والهدّامة – هو ان اهتماماتي كانت متشعبة ومتنوعة جداً بحيث ان قراءتي «الأمينة» الموجودة في مجلة «ريدز دايجست» راقت لي جنباً الى جنب مع المجلة الشهرية الأدبية السوفيتية «انترنشنال لترچر».

امر التفتيش

لقائي الثاني، والأخير، مع الشرطة السرية حصل بعد خمس او ست سنوات. ذات يوم في حزيران عام 1948، في الحرارة المحرقة لبغداد في عزّ الظهيرة، جعلت طريقي بالحافلة من المكتبة في راس القرية حيث مكان عملي الى المنزل في بستان الخس. كانت هذه هي استراحتي وقت الغداء، التي حرصت دائماً على استغلالها لأخذ حمّام وتناول وجبة اليوم الرئيسة – وكذلك للقيلولة التي لابد منها. كنا في ذلك الحين نعيش في غرفتين – الأم، وأختي سمحة، وأنا – في منزل تملكه عائلة يهودية وصلت لتوها الى العاصمة قادمة من مدينة الحلة البعيدة. كانت مجموعة lot كثيرة الضوضاء، متشبثة برأيها، وتقريباً استعراضية، لديها اربعة او خمسة اولاد وبنات غير متزوجين يحاول جميعهم ان يتصرفوا وكأنهم في المدينة الكبيرة. ان مشاركة المنزل معهم كان بمثابة محنة، لاسيما بسبب تلهّف كلّ منهم ليسجّل احساناً بينما يضع الآباء اكثر من عين على مايرونه شاباً مؤهلاً جداً في متناول ايديهم.

احد الأبناء، غازي، كان يداوم في مدرسة متوسطة مسائية قريبة. ذات ليلة في شتاء عام 1947-1948، وفي طريق عودته من المدرسة، اصبح نوعاً ما مشترِكاً في احدى تلك المظاهرات الطلابية المناوئة للحكومة، وتمّ احتجازه لفترة قصيرة ومن ثم أطلِق سراحه، سليماً وبدون ان يُسئل أي سؤال. لكن العقبة، على اية حال، كانت تكمن في ان «تفاصيله الشخصية» – الإسم، العنوان، المهنة، وما الى ذلك – قد اخذها الشرطة حسب الأصول وأخفيت في مكان ما. كان هذا اجراءً اعتيادياً بالنسبة للشرطة في تلك الأيام. اما حكومة اليوم فلم تكن في افضل حالة ولا شعبية او قوية

بما يكفيها من اتخاذ اجراء ضد المنظمين والمشاركين في المظاهرات العدوانية، واكتفت بمجرد الإحتفاظ بسجل اسماء وأماكن تواجد معكّري السلم.

واثبت الجهاز فائدته بفترة قصيرة بعد ذلك – على الأقل بقدر تعلق الأمر باليهود الذين كانوا بين المجموعة. ففي حملتهم الممنهجة، غير المقيّدة لمضايقة اليهود، التي شنّوها مباشرة بعد تأسيس اسرائيل والإندلاع الرسمي للحرب في فلسطين، اختارت السلطات ان تفتح سجّلات الأسماء والعناوين تلك. وصدرت اوامر التفتيش ضد جميع اليهود الذين اشتركوا او بطريقة اخرى اصبحوا متورطين في مظاهرات مناهضة للحكومة – وكان هناك العديد من مثل هذه المظاهرات منذ ان وافقت الأمم المتحدة على خطة تقسيم فلسطين. كان غازي احد هؤلاء، وتمّ تفتيش الشرطة للبيت في ذلك اليوم نفسه في حزيران.

وهكذا،عند وصولي الى البيت في وقت ما بعد الساعة الواحدة بعد الظهر، وأنا اتطلع لأخذ قسط من الراحة وكنت جائعاً جداً، استقبلتني سمحة عند الباب وهمستْ لي بأنـ «هم» كانوا يفتشون البيت – وبالفعل هم الآن في غرفتي في الطابق العلوي. ورشح بأنه، طالما قدموا للبحث عن غازي ومعهم وثيقة تفتيش، فقد صادف أن نظروا عبر احدى النوافذ المطلة على الباحة الداخلية – واذا بهم يكتشفون «كتباً»، بالفعل كمية كبيرة جداً من الكتب ومواد اخرى مطبوعة ومخطوطة. وقد باءت بالفشل تأكيدات عائلتي ووالدَيّ «المشتبه بهم» – الذيَن كانا اكثر لهفة لئلا يكون اسم ابنهما مرتبطاً بهذه الأشياء السرية المخيفة كالكتب. وحسبما اخبرهما الشرطيان، فقد تأكّد لهما بأن الكتب كانت تعود فعلاً الى شخص ما آخر وليس لابنهما، كانا من واجبهما تفحّصها لئلا تكون قد احتوت على «ادب هدّام».

لم يكن هناك احد في البيت – او في أي مكان بالنسبة لتلك القضية – ليقف ويجيب عن هذه المجادلة. استمر التفتيش – وحينما وصلتُ وجدت الشرطيين يعبثان بأكوام الدوريات، والرفوف الغاصة بالكتب، والملفات المحتوية على اوراق شخصية، ورسائل، وقصاصات المقالات. كانا في ورطة. رحبّا بي، بشكٍّ نوعاً ما، بالسؤال: «هل كل هذا لك؟» ترددت في ان اقول نعم، وكنت راغباً في توقيع تصريح بهذا الشأن. وأضفت بأن «مشتبههم» غازي (الذي كان والداه واخوانه في تلك الإثناء يندبون حظ ابنهم لارتباطه بالكتب) لاعلاقة له بالمرة بهذه المجموعة [من الكتب]. لكن هذا لم يجدِ نفعاً. فقد استمر الشرطيان ببحثهما، وهما غير قادرَين احياناً على كبت خوفهما على ما عدّوه المجموعة المطلقة من الموضوعات والإتجاهات التي شخّصاها في الكتب والدوريات. عند نقطة ما لم يتمالك احدهما الاّ التعبير عن دهشته بأن المكتبة احتوت على القرآن بالإضافة الى العهدين القديم والجديد.

كنت محظوظاً في تلك المناسبة. ليس لأن الشرطيَين كانا يبحثان فعلاً عن شخص ما غيره يضحيان به ولكن لأن معرفتهما باللغة الإنكليزية كانت غير كافية بشكل كبير بالنسبة للمهمة الحالية. وبسبب جملة عجيبة من الأسباب، فشلوا في العثور على أي من الكتب التي كانت السلطات في ذلك الحين تعدّها هدّامة ولذلك تكون تجريمية. استطاعا ان يميزا كلمات مثل «روسيا» و «روسي»، لكنهما

اخفقا في استيعاب معاني مصطلحات مثل «شيوعية»، «اشتراكية»، «فوضوية»، وحتى «ماركسية» ومشتقاتها. كانا يعرفان ماذا تعني «اسرائيل» و «فلسطين»، و «الصهيونية» و»الصهاينة»، لكنهما تغاضا عن الكتب والدوريات التي تحمل الكلمات «jew [يهودي كاسم]»، او «jewish [يهودي كصفة]»، او «الشعب اليهودي» في عناوينها. كان يعرفان ايضاً مَن هو لينين وستالين، لكن ليس ماركس، او انجلز، او تروتسكي، او بليخانوف. واستطاعا اخيراً ان يميزا مؤلفين روس – ولذلك فهم خطرون وهدامون – مثل تولستوي، و دوستويفسكي، وسيمونوف، لكن ولا واحد من اسماء المؤلفين اليساريين من بريطانيا، او الولايات المتحدة، او اسبانيا، او فرنسا.

كانت النتيجة مدهشة – وكانت ستبدو مضحكة جداً لو كنا نعيش ظروفاً وأوقاتاُ اعتيادية. اذ ان الشرطيين اخذا معهما، كمادة جرمية ممكنة، مجموعة المكتبة العصرية «قصص قصيرة روسية» و «آنّا كارنينا» لتولستوي، لكن ليس «البيان الشيوعي» او «كراس الماركسية» لبيرنز؛ و [اخذا] «فلسطين: ارض المعاد» للودرملك لكن ليس «الدولة اليهودية» لهيرتزل او مجلد بعنوان «تاريخ الشعب اليهودي» الذي نسيت اسم مؤلفه.

وبالنسبة للدوريات، كانت عمليات الحذف حتى اكثر دهشة – واكثر حسماً. فهما لم يمسّا مجلة «كومنتري»، التي كنت امتلك كومة منها في ذلك الحين، برغم ان غلافها اعلنَ بحروف كبيرة الى حد ما بأنها نُشرت على يد الجمعية اليهودية الأمريكية. لم يكلّفا نفسيهما بأخذ نظرة ثانية على مجلة «انترنشنال لترچر»، وهي مجلة شهرية تُنشر في الإتحاد السوفييتي والتي اشتركت فيها لمدة سنة. كما انهما لم يجدا أي شيء يثير الإشتباه في اكوام مطبوعات نادي كتاب اليسار – وحتى دورية شيوعية رسمية مثل مجلة «العمال الشهرية» Labour Monthly، التي احتفظت منها بأعداد سابقة. كذلك كنت محظوظاً نوعاً ما في ان الشرطيين – احدهما برتبة ضابط – لم يستطيعا التعرّف على الدوريات العربية التي وجداها هناك: مجاميع من الأعداد القديمة من مجلة «الطليعة» الشهرية لخالد بكتاش، وهو مطبوع شيوعي صريح؛ وأعداد جديدة من مجلة «الطارق» الشيوعية، وهي شهرية بيروتية؛ ومجلة القاهرة التروتسكية «المجلة الجديدة» لجورج حنين و رمسيس يونان.

على اية حال، بينما كانا مهملين في اختيارهما للكتب، فقد اخذ الشرطيان معهما كل قطعة ورق، مخطوطة او مطبوعة، على الأرض حيث لم يكن لديهما الوقت الكافي لتفحصها في نفس المكان. وكانت هذه اشدّ الخسارات وطأة، لأن السلب loot ضمّ جميع الرسائل المستلمة من إيلي و سلفيا، صديقته وزوجته المستقبلية، بالإضافة الى رسائل اخرى، ودفاتر ملاحظات ومدوّنات لم ارَ لها اثراً.

في الأيام التالية اصبح الأمر اشبه بنكتة بين العائلة والأصدقاء – وشاهد شاخص على غرابة اطواري و»وقاحتي» الكبيرة – اذ انهما قبل ان يمضيا بغنيمتهما استوقفتُ الشرطيين وأخبرتهما بنبرة واضحة ورسمية تماماً: «رجاءً لاتنسيا ان تعيدا لي الكتب والأوراق بعدما تنتهون من التحقيق. كذلك ارجو ان تتذكرا بأنها تعود لي وليس لغازي الذي جئتما لإلقاء القبض عليه».

كان الأسبوعان او الثلاثة اسابيع التي تلت ذلك، حيث ان غازي المحتَجَز بانتظار محاكمته، مليئة على نحو طبيعي بالشد في سكننا المشترك، نتيجة لشعور والدَيّ غازي ولشعور عائلتي بأن المواد التي استولت عليها الشرطة قد استخدمت كدليل جرمي ضد ابنهما البريء. كنا جميعاً ننتظر اليوم بفارغ الصبر وتوقع الشر، بالنسبة لي التعهّد بالمثول امام المحكمة للشهادة بأن الكتب والرسائل تعود لي وليس لأحد ما غيري – والكل يعرف تمام المعرفة بأن هذا هو امر زائف وكل ما في الأمر هو النقود.

بالتأكيد، عندما عُقد مايسمى بالمحاكمة، ليس هناك أي اثر لكتبي وأوراقي – ومن الطبيعي ليس هناك ذكر لإسمي، ناهيك عن تورطي المزعوم. ولم تستغرق الحفلة التنكرية كلها سوى دقائق قليلة، التي في نهايتها أدين غازي بالإشتراك في «شغب ضد الحكومة» وحُكِم بسنتي سجن او، بدلاً عن ذلك، غرامة مقدارها الفا دينار عراقي. لاحاجة للقول بأن عائلة غازي تمكّنت نوعاً ما من تجميع المبلغ، ليعود ابنهما الى البيت سالماً غانماً.

الحب غير المعلن، غير المتبادل

كان نادي خريجي التحالف في كرادة مريم بمثابة شأن خاص واعتقدت بأنني، كوني لست خريجاً من المدرسة، لم يكن باستطاعتي ان اصبح عضواً حتى لو رغبت في ذلك. لم اكن متحمِّسا، وحتى إيلي الذي كان خريجاً ويتردد على المكان لم يكن متحمساً او سعيداً لأنه لم يجد أي شيء ذا فائدة يمكن ان يتشاطر به مع أي من الأعضاء. ولأنه رفيع الثقافة، ومطلع، وطليعي نوعاً ما في ذوقه، فهو لم يشعر بالإرتياح في النادي وغالباً ما افصح عن تحفظاته ونقوده الموضوعية. المشكلة هي انه حتى اولئك الأعضاء الذين كان لديهم ادعاءات فكرية وأدبية لم يكونوا تقريباً جيدين بما يكفي لأي منا. فمن ناحية – كما اعتدنا على القول – انتهى الأدب الإنكليزي مع اوسكار وايلد؛ ومن ناحية اخرى، مثّلت روايات سومرست موم حدّ الفهم؛ ومن ناحية ثالثة، كانت اسماء كافكا، مان، جويس، إليوت، وغيرهم من ابطالنا الثقافيين لاتعني شيئاً مهما كانت.

بالنسبة لي، على اية حال، كان «للنادي» جاذبياته attractions – او بالأخرى له جاذبية واحدة وهي: انه كان مختلطاً وكانت العضوية تتكون بشكل كامل من الشباب والشابات غير المتزوجين. في مجتمع كان فيه الإختلاط بين الجنسين غير معروف تقريباً ولايحدث الاّ في اطار العوائل والأقارب، فإن هذا كان بمثابة شيء جديد. وكوني محروماً بشكل دائم من الرفقة الأنثوية، وعلى عكس إيلي لم احضر سوى مدارس البنين، اذن لابد ان انجذب الى مكان مثل نادي التحالف وحقيقة انني نادراً ما اذهب الى هناك هو بمثابة احباط بالنسبة لي.

لكن النادي كان يمتلك سحراً اضافياً، وحاسماً بالنسبة لي شخصياً – وهو شابة تدعى مارسيل. كانت مارسيل، وهي خريجة مدرسة الشماش التي اجتازت ايضاً اختبارات لندن للقبول في الجامعة، [كانت] تعمل سكرتيرة لمحرر جريدة «إراك تايمز». في تلك الأيام الأولى من الكتابة، برغم انني اشتريت طابعة محمولة وكذلك كانت عندى واحدة في المكتبة ايضاً، اعتدت ان اقدّم مراجعاتي بخط

اليد وكانت توكل مهمة طباعتها الى مارسيل. وهكذا ومن خلال الإتصالات اليومية تولّد ودّ خاص جداً نحو الفتاة – ودّ تحوّل الى حبّ ابدي. لم يكن هناك، طبعاً، سؤال عن اعلان حقيقي. في البدء، لم يحدث أي شيء من هذا، فأنا لم اكن من ذلك النوع تماماً. اردتُّ، وخططتُّ، من اجل ان تحدث الأشياء تقريباً بشكل طبيعي ومن تلقاء نفسها – من خلال النظرات والإشارات ونغمات الصوت وغيرها من الأمور. لكن هذا لم يفلح – وحتى اليوم لا اعتقد بأنني اعرف اين تكمن المشكلة. هل انني لم اكن مندفعاً بما يكفي؟ هل انني لم اكن جيداً بما فيه الكفاية في نظرها؟ هل كان عندها شاب في مكان ما؟ ام هل يمكن ان يكون مرد ذلك الى انها لم تفهم الرسالة؟

لا اعرف – ولا أعتقد بأنني سوف اعرف في يوم ما. شيء ما واضح وربما يعطي دليلاً على ما يبدو وهو: ان ام مارسيل كانت قد ابتعدت لبعض الوقت من ابيها ومن المحتمل حتى انفصلت عنه – وهذا شيء لم يُسمَع به تقريباً في المجتمع اليهودي. هل كان لدى مارسيل شيء ما ضد «الرجال»؟ ومهما يكن الأمر، كانت دائماً مبتهجة ومؤدبة ومبتسمة وبشكل عام ذات منهج متفائل نحو الحياة. لا أعرف تماماً كيف حصل هذا، لكنني مازلت امتلك في اوراقي قصاصةً لمقالة كتبتها مارسيل لعدد الجريدة الصادر لمناسبة اعياد الميلاد 1947 – وهو الظهور الوحيد في النشر الذي قامت به في حياتها في جريدة «التايمز» او في أي مكان آخر. هذه القصاصة، التي تحمل العنوان «ماذا اريد من حياتي»، تبدأ بهذه العبارة الصادمة: «انا اعظم متفائلة على قيد الحياة. لا شرّ سيحدث لي بالمرة. ستتحقق جميع امنياتي وطموحاتي. انا على ثقة بأنني استطيع ان اصنع نجاحاً من أي شيء اضع يديّ عليه، وأن الفشل لن يقترب مادمت حية».

ياله من نوع نادر، وخاص نوعاً ما من التفاؤل! هل هذا يأتي من نقص الثقة بالنفس، أي عدم يقين ملحّ بشان المستقبل؟ وتستمر الكاتبة، «هذا التفاؤل يتطلب شيئاً من العمل الجاد بحق وأنا ادرك ذلك. لكن مع ذلك انا سعيدة بأن الأمر لابد ان يكون هكذا. النجاح في الحياة لايمكن ان يأتي بسهولة، والكدح والعرق الذي يقع على الطريق الطويل الموصل اليه لايجعله الاّ محبباً اكثر ويضع المزيد من التحديات لقدراتنا».

لكن ماذا كانت مارسيل تريد من حياتها؟ اولاً وقبل كل شيء ارادت ان تُعطى فرصة «لتتفوق على انجازات الآخرين»، فرصة «لأثبت بأنني كفء كبير، إن لم اكن اكثر كفاءة، من اصدقائي في دراساتي، وعملي، ورياضتي او بالفعل في أي شيء يعتقد الشباب بأن الشابات لايجيدنّه.» ثم ارادت «ان تتحمل المسؤولية» – فهي بالرغم من انها كانت تحب ان تشعر بالسعادة والإنطلاق، «الاّ ان المسؤولية تقوّي روحي عندما توضع المهام الصعبة ، التي تنطوي على مسؤوليات جسام، ضمن مهامي.

ثمة اشياء ارادتها مارسيل من حياتها هي «الفرصة والإمكانية لمساعدة الآخرين»؛ «وأكون قادرة على إكمال دراساتي العليا وتحسين معرفتي العامة» و، فوق هذا كله، «ان احضر الى كلية او جامعة في الخارج وأغتسل بالأدب النبيل للحضارات القديمة والحديثة»؛ «فرصة لأرى العالم»، لأن «المرء لايمكن ان يقول بأنه متعلم تماماً لمجرد حضوره المدارس».

لا اعرف ماذا كانت ردة فعلي على هذا المقال حينها. اعرف ماذا كان ينبغي ان يكون. لكن، رغم ذلك، للقلب اسبابه التي لايعرفها المنطق.

في وقت ما في صيف عام 1952، في اسرائيل، وأنا احاول ان اجدّد معرفة قديمة و – مَن يدري؟ - وهج قديم، كتبتُ الى مارسيل باختصار، مشيراً الى ما كانت قد كتبتْه في تلك المقالة في جريدة «إراك تايمز» حول «الطموح». وأدناه ردّها المختصر، المؤرخ في 15 آب، 1952 (تل ابيب):

عزيزي نسيم،

شكراً جزيلاً. الفكرة رائعة. سأكون سعيدة بالمجيء الى القدس في مساء يوم جمعة والبقاء حتى مساء السبت. تتداخل الأعياد لذا فأنا افضّل ان انتظر حتى الأيام الأخيرة من عيد المظال. سأكتب اليك ثانية بهذا الخصوص.

هل تعتقد بأن الطموح لاسبيل الى التفكير به هنا؟ لا اقول سوى ان الطموحين يجدون فرصاً هنا لتحقيق احلامهم افضل مما لديهم في العراق. تميل احلامنا الى التغير مع مرور الوقت. القديمة منها تموت لتحل محلها احلام جديدة. اهم شيء ان نأخذ احلامنا على محمل الجد ونحاول ان نقتطف بعض الأشياء الجميلة من هذا العالم المجنون/الحكيم.

حتى رسالتي القادمة.

شالوم مرسيل

مهما احاول بجد، على اية حال، لايبدو انني اتذكر او اجد أي اثر لـ «رسالة قادمة»، ناهيك عن عطلة نهاية الأسبوع في القدس. وبالنسبة للـ «طُموح» والطَموحين، اتذكر ملاحظة قام بها صديق قديم لي كان قد عرفني جيداً في بغداد، اخبر بها صديقاً مشتركاً – حينما كان الذهاب يشقّ كثيراً عليّ وكان عيشي انا مهدداً بالخطر – إذ ان حالتي جعلتْه يتأمل بتحرِّك جعل الجولات في ذلك الحين في اسرائيل: «هل تريد ان تعمل ثروة صغيرة؟ اصنع لـ «علية» ثروة اكبر.»

عبدالفتاح يقرر اغلاق المكتبة

وتقريباً طيلة السنتين التاليتين لإنهاء عملي في جريدة «التايمز» واصلتُ العمل مع عبدالفتاح وجمعية الرابطة. بالإضافة الى المكتبة، خطط عبدالفتاح ان يُنشيء معمل طباعة وشركة نشر، وكنا حينها مشغولين بترتيب المكائن وبناء المصنع قمت بجميع المراسلات وضبط الحسابات المتعلقة بهذه العمليات بالإضافة الى ادارة المكتبة، وطلب الكتب والدوريات، ومسك الحسابات، والقيام بمهام البائع الوحيد.

في بداية عام 1950، ومع تجهيز المكائن ونصب المعمل اخيراً، بدأت تخطر في بال عبدالفتاح افكار ثانية بشأن المكتبة. فكّر، بشكل صائب، بأن العمل لم يعد يسدد اجوره – او انه مجرد يقوم بذلك ولاشيء سواه. والحقيقة هي انني، مع إطلاق حرية اليد بشكل تام والقليل من التروّي بالجانب التجاري، كنت اطلب تقريباً أي كتاب يسترعي انتباهي في حين لم يكن هناك سوق لمثل هذه الكتب، إما لقلة الإهتمام او لقلة النقود. والأنكى من ذلك، كان عبدالفتاح نفسه يطلب الكتب بدون تمييز تقريباً – الكتب الهامّة، الباهضة الثمن التي لاتكمن ميزتها الاّ كونها «جيدة» او «مهمة» او «ضرورية» بغض النظر عن امكانية بيعها.

وكانت النتيجة انه عند نهاية العام 1949 اصبح بين ايدينا خزين غني ومتنوع من كتب التاريخ، والفلسفة، وعلم الإجتماع، والعلوم، والأدب، والشعر التي لايتحمل شراءها الاّ القليل من الأشخاص والذين يكون مشتروهم المحتملون هم المكتبات والمؤسسات الأكاديمية. لذلك فكّر عبدالفتاح ومن ثم قرر بأن الكتب لابد ان تُنقل الى البناية الجديدة، حيث يمكن عرضها للبيع لمثل هذه المكتبات والمؤسسات بدون صعوبة. وقرر ان ينقل مكتبه هناك من اجل ان يتمكن من ادارة قسم المؤسسة الخاص بالطباعة والنشر وكذلك التعامل مع الكتب إن دعت الحاجة. كان هذا يعني، في الواقع، بأنه لم يبقّ لي سوى القليل من الأعمال التي اقوم بها – ولأنني في ذلك الوقت كانت تراودني فكرة الهجرة، رفضتُ عرضاً للعمل على اساس دوام جزئي وتركتُ الرابطة في نهاية آذار عام 1950.

وإثناء سنواتي التي قضيتها في المكتبة توفي والدي. ذات يوم في صيف عام 1947، بينما كنت استمتع بنسيم الصباح الباكر على سطح الشقة مقابل تقاطع السنك التي [أي الشقة] كنا نتشارك فيها مع اختي نجية وعائلتها، استيقظتُ على صوت ابي يشتكي من آلام في ساقه اليسرى. كان ذلك في صبيحة ليلة قضيتها اشاهد فلمين وأكافح مع مراجعتين لتسليمهما الى الجريدة، وكان من الصعب عليّ ان اكون مستيقضاً تماماً. عند الفحص، على اية حال، تبيّن بأن الساق كانت متورمة والأب، بذاته المجرِّبة المثالية والجادة، كان يتمتم بأن هذه ستكون «النهاية». اتذكر بأن الأب، بفضل كونه مراقباً خبيراً بالشؤون الإنسانية في العديد من المجالات، كان سيثبت في الأخير صحة ما ذهب اليه.

وإذ كان الأب في ذلك الحين يبلغ تقريباً 67 عاماً، وكان يعدّ في تلك الأيام كبيراً في السن، برغم ان عمره لم يشر الى نهاية رجل او امرأة يتمتع بصحة الى حدّ ما. لكن الأب كان محقاً، كما كان هكذا في كثير من الأحيان، وقبل ان ندخل في المهمة المعقدة في الإتصال بطبيب – إذ ليس هناك هاتف في مكان ما قريب او لاشيء يوصلك الى عائلة او أي طبيب – توفي الوالد بسلام بعد اقل من ساعة.

تمّ اجراء ايام الحداد السبعة والصلوات في شقتنا، حيث قضاها الأخ إلياهو والأخت نعيمة معنا، فيما مُنِعَ المعزّون من الخروج ماعدا لأداء الصلاة ولزيارة المقبرة. كانت هذه مناسبة لتجديد الإتصال مع افراد العائلة الذين فقدتُ الإتصال بهم منذ ان انخرطت في عملي الخاص بي واصبحتُ معيل العائلة الوحيد.

لم يمرّ وقت طويل بعد رحيلي من الرابطة حتى ذهبتُ انا وأمي الى كنيس المسعودة شمطوب في بستان الخس – التي تبرعت بها الجالية اليهودية مؤقتاً لإيواء الدوائر والموظفين المتعاملين مع اليهود الذين ارادوا ان يسلّموا جنسيتهم العراقية ويهاجروا الى اسرائيل. اما سمحة، اختي، فقد وصلت بسلام في ذلك الحين الى اسرائيل وأكثر من ثمانية آلاف يهودي سجّلوا من اجل الهجرة. كان ذلك قبيل التدافع الذي سبّبتْه بعض القنابل التي ألقيت او زُرعت في المؤسسات اليهودية والتي تمخضت عن بعض الإصابات – هذه القنابل، التي لايُعرف لحد اليوم العقول المدبرة لها والتي مازال الناس يزعمون بأنها كانت من فعل الصهاينة – كمحاولة لإحداث الرعب وتسريع عملية الهجرة.

كان الكنيس هادئاً الى حد ما في ذلك الصباح، حيث ليس هناك صفوف طويلة جداً مع وجود عدد قليل من نشطاء «الحركة» اليهود وهم يقدمون المشورة والإرشاد لأولئك الذين جاءوا ليسجّلوا على الهجرة. لم يأخذ منا هذا سوى دقائق قليلة لتوقيع الوثائق ذات العلاقة والحصول على الشهادات البالية التي تسمح لنا بمغادرة البلد الى الأبد. ما ازال احتفظ بالوثيقتين وغالباً ما اتساءل عن السهولة والسرعة التي تمّت بها «الصفقة» المصيرية برمتها.

الفصل السابع عشر

التخلص من المكتبة

في اوائل عام 1950، نتيجة لكوني عاطلاً عن العمل وأن اعضاء حلقتنا يدرسون ليصبحوا محامين او يعملون في وظائف حكومية صغيرة مختلفة، فإن حقيقة قراري للهجرة كان معروفاً لدى جميع اصدقائي، بحيث امتدت مسألة توديعهم الى اشهر قليلة. كان من السهل معالجة الجانب المادي لهذا التحرك – اذ ليست هناك عقارات ابيعها، ولا اثاث للحديث عنه، مجرد 750 دولاراً في المدخرات سأحولها بشكل غير شرعي. فالبضائع المادية الوحيدة التي يمكنني الإدعاء بأنني امتلكها هي مكتبتي الشخصية – مئات الكتب والمجلات في الأدب والإنسانيات. كانت هناك ثلاث طرق للتخلص منها – عرضها للبيع، ارسال جزء منها بالبريد الى الخارج من اجل حمايتها، وإعطاء بعضها كهدايا.

وهكذا كانت اكبر وأضخم عملية بيع لكتبي قمت بها في حياتي هي الصفقة التي عقدتها مع امين مكتبة كلية الآداب والإنسانيات في بغداد، التي كان يرتاد هذا المكتبة عميدها، عبدالعزيز الدوري، وعدد من اساتذتها ومحاضريها. كانت كلية جديدة نسبياً وكان الدوري واحداً من الجيل الجديد من العلماء العرب نالت اشتغالاتهم في التاريخ العربي عموماً وفي الفترة العباسية خصوصاً [نالت] استحساناً من لدن عبدالفتاح ابراهيم نفسه، الذي اخبرني ذات مرة بأن الدوري كان في صدارة ما كان يمكن للمرء ان يدعوه في تلك الأيام، بصعوبة كبيرة، بالمؤرخين العرب الجدد. مازلت احتفظ بنسخة من كتابه الأول، مقدمة في تاريخ الإسلام، وهو عبارة عن نظرة نقدية جديدة جريئة في تدريس التاريخ العربي وتحليل ولادة الإسلام المبكر ونموه.

لقد قمت بعمل قوائم مفصّلة لجميع الكتب التي اردت بيعها، اغلبها باللغة الإنكليزية لكنها تحتوي ايضاً على مجموعة مختارة قليلة نسبياً من الكتب العربية التي كنت احتفظ بها، التي مرّرتها الى امين مكتبة الكلية، الذي مررها بدوره الى عميد الكلية. في يوم اختيار الكتب وتثبيت الأسعار كان العميد نفسه حاضراً.

وقد اشرت الى السبب وراء تصفية مكتبتي ولم يبدِ أي من اولئك الحاضرين اية ملاحظة، اذ كان مفهوماً بشكل عام تقريباً لماذا يريد الشاب اليهودي الطموح او الشابة اليهودية الطموحة ان يغادروا البلد. وبينما عبّر عن اعجابه المشوب بالخوف بنوعية وتشكيلة الكتب المعروضة، اختار الدوري مجموعة كبيرة جداً، ودفع الأسعار المخصصة كاملة. ان تنوع الموضوعات التي تدرّس في الكلية والإهتمامات الواسعة للكادر التدريسي ساهمتْ ببيع الكتب في جميع الميادين تقريباً التي كنت مهتماً فيها – التاريخ، الفلسفة، السياسة، السفر، التاريخ الأدبي والنقد الأدبي، ومختارات ادبية، وأعمال الكلاسيكيين القديمة والجديدة. بكل تواضع وإذا ما اخذنا الأوضاع الإقتصادية الراهنة بعين الإعتبار، كانت تلك صفقة متميزة بكل المقاييس – وساعدت في دعم الدنانير القليلة التي استطعت حتى ذلك الحين ان ادّخرها للأيام الصعبة التي ستأتي.

اما التخلص من الكتب المتبقية فكان سهلاً نسبياً. فتلك التي قررتُ بأنني سأحتاجها في أي مكان احلّ فيه، بضمنها مجموعة كاملة تقريباً من مجلة Horizon (التي صادف ان توقفت عن الصدور في نهاية عام 1949)، ومجموعة كاملة من Penguin New Writing، والعديد من الطبعات المبكرة لأعمال الجيل الشاب من الشعراء البريطانيين والأمريكيين، بالإضافة الى بعض اعمال جويس، كافكا، توماس مان، إلياس كانيتي، كونولي، باورا، والعديد غيرها، رزمتها بعناية في ثلاثين او اربعين طرداً زنة الواحد منها كيلوغرامين او ثلاثة كيلو غرامات لإرسالها الى إيلي، الذي كان حينها في كلية سانت انتوني، اكسفورد. بقية المكتبة، لاسيما اعمال الشعراء العرب الشباب من لبنان، ومصر، والعراق، وسوريا بالإضافة الى النقد الأدبي وبعض الروايات، اعطيتها او بعتها بأسعار زهيدة جداً الى اعضاء الشلة، الذين بعضهم لم يدفع، كون اغلبهم كانوا مفلسين مزمنين.

مرت تقريباً سنة بين تركي عملي في الرابطة ومغادرتي الى اسرائيل. كانت سنة من البطالة، اعتقد اضطررنا فيها ثانية انا وأمي ان نعود الى اخي إلياهو من اجل المساعدة في الإيجار وفواتير البقالة. اثناء تلك الشهور الطويلة، كل الذي كنت احتاجه فعلاً هو مصروف جيب. وإذ كنت اقضي جلّ وقتي في البيت أقرأ، فإنني لا اغادر الاّ في وقت متأخر من الأمسيات، لأتوجه الى أي مكان كان اعضاء حلقتنا سيجتمعون فيه في ذلك اليوم. عادة ما كان ذلك مقهى اما على ضفة النهر، او جولة نهرية، نزهة، او في شارع المدينة الرئيسي، حسب الوقت من السنة والطقس.

وكون كل شخص يعرف بخططي للمغادرة، كانت ثمة العديد من عبارات الأسف، سواء حقيقية او غير ذلك. كان بعضها احياناً يرقى، فعلاً، الى ان يكون عاطفياً. ثلاثة اشخاص من الحلقة احزنتني مغادرتهم بشكل خاص، ومن ثم لم اكن قادراً على معرفة كم يطول فراقهم، كانوا نجيب، وعدنان، وبلند.

نجيب المانع وأف. سكوت فتزجيرالد

لقد تحدثت عن بلند الحيدري و عدنان رؤوف في قسم سابق. لكنني فعلاً وجدتُ في نجيب القرين العاطفي والفكري والأكثر حميمية. وكونه حلو المعشر، ونوعاً ما خجولاً، وحكيماً قياساً لعمره، ومستقبِل الى ابعد حدّ للأفكار، كان نجيب قارئاً نهماً وقد غذّى الى حد ما معرفته باللغة الإنكليزية من بين مجموعتنا على الإطلاق. انا ونجيب كان بمقدورنا التحدث عن كافكا، الذي كانت كتبه تُقرأ في وقت واحد ، لمدة ساعات متواصلة – او [نتحدث] عن كتاب سارتر «الغثيان»، الذي ظهر تواً باللغة الإنكليزية، عاقدين مقارنات بين الوضع الموصوف هناك ووضعنا نحن بوصفنا نوعاً من المثقفين المحبوسين. انها فترة من الزمن كانت تتشكّل لتوّها فيها بعض المعالم في الأدب المعاصر – رواية اورويل «1984» و «مزرعة الحيوان»، والترجمات الإنكليزية لـ «الغريب» لألبير كامو، وترجمات اعمال رلكه، وبعض مسرحيات وشعر لوركا، ومسرحية توماس مان «دكتور فوستس». وكانت مجلة Horizon ماتزال تصدر و مجلة Partisan Review كانت في ايام عنفوانها. وكنا نتشاطر في جميع هذه وغيرها من الكنوز الأدبية والفكرية الأخرى؛ تأملناها جيداً، ناقشناها وحللناها لساعات بلا انقطاع جالسين في الغالب في مقهى في الهواء الطلق (مفتوح) على دجلة ليس بعيداً عن

مكان سكني. ليس لدي فكرة كيف وجد نجيب في النهاية الوقت لإعداد دروسه وكيف تمكّن من التخرج في كلية القانون حيث كان يدرس حينها. وقبيل مغادرتي بغداد، كتب لي رسالة طويلة باللغة الإنكليزية، مليئة بالمشاعر الجميلة ومقدِّرة جداً وحزينة – هي اشبه برسالة وداع، اخذتها معي الى اسرائيل، حيث اختفت بطريقة ما من المكان الذي وضعتها فيه. اعتقد بأن شخصاً ابكماً من الشن بيت (وهو جهاز الأمن الإسرائيلي) اخذها بعد تفتيش كوخنا المصنوع من الصفيح في معبرة طالبيوت (وهو معسكر انتقالي) كدليل على انتماءاتي الشيوعية المزعومة – او اسوء من هذا.

لم اسمع بنجيب الاّ في اواخر الستينات. اذا جاء يهودي عراقي الى اسرائيل بُعيد حرب الستة ايام، وهو صحفي، نقل لي تحيات من صديقي القديم، الذي كان يعمل آنذاك في وزارة الشؤون الخارجية. من وقت لآخر ارى اسم نجيب في بعض الدوريات المنشورة في بيروت، بعض الأحيان بصفة مؤلف قصة قصيرة وفي احيانٍ اخرى مراجعة كتاب او مقالة نقدية – وفي احايين نادرة حينما كنت في الخارج كانت تتملكني دائماً رغبة في الإتصال ببغداد واطلب إن كان بمقدورهم ان يوصلوني به في محل عمله او البيت. لكن بسب الوضع في ذلك الحين الذي كان عليه البلد، دائماً ما كنت اقاوم هذا الدافع.

ذات يوم في صيف عام 1971، بينما كنت اتحدث مع محمود ابو زلف في غرفة التحرير في مكتب صحيفة «القدس» اليومية في القدس الشرقية، وقعت عيني على مجلد نحيف ورقيّ الغلاف موضوع على منضدة جانبية. كان واحداً من السلسلة القصصية المصرية المشهورة التي تصدر شهرياً عن دار الهلال في القاهرة – لكن الكتاب موضوع النقاش صعقني كشيء لايتوقع المرء بأن احداً سيهتم بتلك السلسة بالذات. كان العنوان العربي هو «گاتسبي العظيم» وأخذ مني ثواني معدودات لربطه بالعمل الأصلي – رائعة سكوت فتزجيرالد «The Great Gatsby». كان فضولي كبيراً بالنسبة للشخص الذي تجشّم عناء ترجمته وكيف ان سلسلة مثل روايات الهلال قررت نشره. بعد ان تناولت المجلد وتفحصت صفحة العنوان قرأت الكلمات: «ترجمة نجيب المانع وتحرير جبرا ابراهيم جبرا»، عندئذ سألت ابا زلف إن كنت استطيع ان أأخذ الكتاب، وقال، «لماذا بالطبع».

كنت متلهفاً بشأن نوعية الترجمة وعند المرور على بعض الصفحات وجدته شيئاً جميلاً جداً – شيء يمثل مأثرة في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الإعتبار النص الأصلي. كما كانت هناك ايضاً ملاحظتين ببليوغرافيتين حول المترجم والمحرر. كنت اعرف بأن نجيب ولد في مدينة صغيرة بالقرب من البصرة لكنني لم اعرف بأنه يصغرني بسنتين بالضبط. ان المعلومات المعطاة على الغلاف الخلفي تضمنت المعلومة bit بأنه خريج كلية القانون، ولديه اهتمام خاص باللغة الإنكليزية والفرنسية، وكتبَ «عدداً من القصص القصيرة والمقالات في الدوريات العراقية والعربية»، وكان موظفاً في وزارة الخارجية، وهو الآن يعمل على ترجمة مختارات من رسائل ابراهام لنكولن وخُطَبه. ذلك يعني بأنه اثناء فترة ما يقرب من عشرين سنة وأكثر لم يجد نجيب طريقه لنشر عمل من اعماله، ولا حتى مجموعة قصصية.

لم اتفاجأ بذلك، سيما اذا عرفت كم حساساً كان نجيب بشأن أي شيء كان يكتبه. بعد ذلك بثماني سنوات تقريباً، على اية حال،عثرت اخيراً على كتاب له في مكتبة المحتسب في القدس الشرقية – رواية تحمل عنواناً صادماً هو «تماس المدن»، وهي عبارة لايمكن ترجمتها تقريباً، اترجمها بـ A Proximity of Cities او Cities Chafe. اعتقدت بأنها أنجزت بمهارة وكُتبت بذائقة واقتصاد. كانت تعالج فترة غير معروفة لي – فترة الخمسينات والستينات – لكنني اعتقدت بأنني اكتشفت بعض الشخصيات وميُّزت الأماكن. هي حسبما يتضح رواية اوتوبايوغرافية وتعالج موضوعتين مثّلتا بلا شك تطوراً لاحقاً في نجيب – الحب، والزواج، والنساء من جانب والعروبة والعرب من جانب آخر.

في وقت ما في اواخر الثمانينات، عندما رأيت اسمه على المقالات في الصفحات الأدبية لجريدة «الشرق الأوسط» اليومية السعودية التي مقرها لندن وبعد ان عرفت بأنه كان يعمل لصالح الجريدة بصفة كاتب حر، قررتُ ان اكتب ل نجيب المانع ملاحظة قصيرة ارحب به واطلب منه اقامة تواصل معه. هذه الرسالة، التي أرسلتْ عن طريق الجريدة، لم تتم الإجابة عنها، إما انها لم تصل الى نجيب، او وصلته مع وجود الإشاعة التي لابد منها في المكتب بأنه تلقّى بريداً من اسرائيل، او وجدته حائراً وربما خائفاً بعض الشيء من اتصال كهذا – او راجع الى جميع تلك الأسباب مجتمعة.

سميرة المانع

بعد حوالي عشر سنوات اخرى لم اسمع اثنائها أي شيء سواء من نجيب او عنه، ارسل لي صديق نسخاً من اجزاء من «الإغتراب الأدبي»، وهي مجلة فصلية ادبية تصدر في لندن ومكرسة لأعمال كتّاب وشعراء في المنفى، لاسيما العراقيين الذين وجدوا بأنهم لايستطيعون نشر أعمالهم في الجو الخانق الذي يعيشه العراق في ظل البعث. لصدمتي وحزني، كانت البضع مقالات الأولى تقريضاً قام به اصدقاء وزملاء من الكتّاب المهاجرين والمثقفين لأعمال نجيب المانع وشخصيته، الذي وافاه الأجل فجأة اثر عجز في القلب ذات ليلة في شقته في لندن، وحيداً بين آلاف الكتب وتسجيلات الموسيقى الكلاسيكية.

ولأنني شعرت بالرغبة الكبيرة لمعرفة المزيد عن صديقي سيء الحظ ولعلمي بأن اخت نجيب سميرة كانت محررة مساعدة في مجلة «الإغتراب»، كتبتُ لها رسالة مواساة طويلة وطلبت منها تزويدي بمعلومات اضافية عن سنوات اخيها في المنفى. هل مات موتة سعيدة؟ هل تزوج؟ هل عاش مع شخص ما؟ هل لديه أي اطفال؟ وما الى ذلك. كل الذي عرفته من كلمات التقريض هو ان غرفته كانت تعج بالكتب والتسجيلات والصحف. اللعنة على الكتب، تمتمت في نفسي، وأنا كنت حينها في خضم عملية هائلة تهدف الى التخلص من ثلثي مكتبتي الخاصة.

كان جواب سميرة فورياً مثلما كان مؤثراً ومفصلاً. تقول الرسالة في اجزاء منها، «عزيزي نسيم رجوان، الإسم الذي سمعتُ نجيب يذكره مراراً. كما انني رأيت الصورة التي تظهر فيها معه في مقهى على ضفاف دجلة في بغداد في تلك الأيام الخوالي ...».

ان القصة التي كان لا بد ان ترويها عن حظوظ نجيب ونهايتة تبدو تليق بأولئك الكتّاب والمثقفين العراقيين الآخرين في المنفى. فبعد قضائه معظم الخمسينيات والستينيات في راحة نسبية، وهو يتبوأ مناصب رسمية رفيعة – كان من بينها المدير العام لوزارة الشؤون الخارجية، ومدير شركة البترول العراقية، وغيرها – جاء نجيب الى لندن عام 1979 «لاستنشاق هواء نقي»، مخلّفا وراءه زوجة، وثلاثة ابناء، وبنتاً. بُعيد ذلك، مع اندلاع الحرب الإيرانية العراقية، أرسِل اثنان من ابنائه الى الجبهة، والنتيجة هي ان زوجة نجيب لم تكن قادرة على المغادرة الى لندن والإلتحاق بزوجها. ومما عقّد الأمور اكثر، تزوجت البنت بينما كان هو في الخارج وتركها زوجها بعد ذلك بقليل؛ لذلك بقي في هولندا لتفادي الخدمة العسكرية، واكتُشِف فيما بعد بأنه أخذ زوجة اخرى واستمر في العيش في هولندا. وعن سني نجيب الأخيرة في لندن، هذا ما وصفته سميرة: «عاش وحيداً مع قطته العرجاء في شقة في لندن ... مات برفقة شخص ما يحبه، كتابه المفتوح كان على صدر نجيب. هل هناك شخص ما افضل من بروست في مواقف كهذه!»

اذن انه بروست الذي كان يقرأه في ليلته الأخيرة – بروست الذي تعرّفنا جميعاً على اعماله في وقت مبكر اواخر الأربعينيات والذي توفرت روايته «ذكرى اشياء مضت» بترجمتها الإنكليزية لأول مرة في العراق عن طريق مكتبة الرابطة. وإذ اقول الحقيقة، فإنني وجدت نفسي نادماً على الدور اليسير الذي كنت قد لعبته انا شخصياً في انهماك نجيب المتواصل بالأعمال الأدبية – على مايبدو باستثناء الكثير غيرها عن طريق الحياة الحقيقية.

وعن قراءة كلمات التقدير المكتوبة عن نجيب – اثنتان منها بقلم اصدقاء مقربين لنا استحضروا ذكرياتهم الشبابية عن الرجل – وجدتُ نفسي أرثي ليس فقط نجيب بل عالم شبابنا بأسره الذي يبدو انه ضاع الى الأبد. واذا بي اتأمل بالسؤال المتعلق بكم عدد الشباب والشابات في بغداد اليوم – بعد تلك الأيام بخمسة وأربعين سنة كاملة – الذين هم واعون بنوع الشخصيات الأدبية وأعمالهم التي قيّض لها ان تستغرق افكارنا وتستنفد وقت فراغنا.

جبرا و بنت «روبين ضابط الجيش»

كان جبرا ابراهيم جبرا آخر من التحق بحلقتنا – اذا كان الفعل «التحق» هو الطريقة الصحيحة لوصف هذا الشيء. وكونه الشخص الوحيد بيننا الذي «لديه وظيفة مربحة، مع شهادات من الجامعات البريطانية والأمريكية، ووظيفة ثابتة، ويفخر بترجمات قليلة لشكسبير، فهو لم يكن حضوره منتظماً في تجمعاتنا العاطلة ونقاشاتنا غير المنتهية. لكن، شأنه شأن معظم اعضاء النخبة الثقافية في بغداد في ذلك الوقت، كان يتردد على مكتبة الرابطة.

توفي جبرا في نهاية عام 1994. ولم يكن لكلمات النعي وعبارات الإعجاب المنشورة في جميع انحاء العالم العربي في تلك المناسبة ماتضيفه لما كان معروفاً بالنسبة لنا. ولأنه وُلد مسيحياً اورثودوكسياً في بيت لحم عام 1920، فإنه حضر الكلية العربية في القدس وتابع دراساته في انكلترا، حيث نال شهادة الماجستير في الأدب الإنكليزي من جامعة كيمبرج عام 1948. في

السنوات 1944-1948 درّس اللغة الإنكليزية وآدابها في كلية الرشيدية في القدس، وبعيد اندلاع الحرب الإسرائلية-العربية الأولى في مايس عام 1948، جاء الى بغداد، حيث حاضر في دار المعلمين العالية وكلية الآداب حتى العام 1952. وهناك قابل، وصادق، صديقته الأولى في بغداد – ايفيلين، ابنة «روبين ضابط الجيش»، وهي شابة مشرقة، ومرحة، وعصرية، وأنيقة، وجذابة في بواكير عشرينياتها.

كانت اهتمامات جبرا ومهاراته متنوعة. نشر حوالي ستين كتاباً – روايات، ونقد، وترجمات، ومجلدين سيرة ذاتية بقلمه. كذلك انخرط في الرسم وكان عاشقاً للموسيقى. وبرغم انه كان ودوداً جداً مع افراد مجموعتنا – لاسيما مع بلند الحيدري الذي كان جاره القريب في منطقة الأعظمية في بغداد – الاّ انه لم يقضِ وقتاً طويلاً معنا يتسكع ويزجي الأيام في المقاهي والحانات والمكتبات.

كان انساناً مقتصداً ودؤوباً بطبيعته. كما ادرك بلا شك بأنه بوصفه لاجئاً كان عليه ان يعمل بجد ويُظهر نتائج افضل بشكل مضاعف – وبالفعل بين العام 1954 وموته كان يعمل بشكل جيد، متبوئاً مناصب رسمية مختلفة مرتبطة بنشاط ثقافي ما. قبيل مغادرتي بغداد الى اسرائيل، اعتدنا انا ونجيب، وبلند ان نزوره – دائماً زيارات لم يُعلَن عنها – في غرفته في فندق العاصمة في شارع الرشيد، وأنا اتذكره جيداً مؤدباً في الغالب متظاهراً بأن في جعبته الكثير إما لتسليتنا بقدر ما كنا نرغب في ذلك او في رفقتنا في الخارج. كان حينها يعمل في ترجمة سونيتات شكسبير، لكن إن لم اكن مخطئاً هو لم يتمكن قط من انهاء المهمة. وفضلاً عن بضع روايات كتبها فيما بعد – كلها تقريباً عن بغداد، احداها كانت باللغة الإنكليزية – فإن اعماله المطبوعة ضمّت ترجمات «الملك لير» و «هاملت»، بينما بعض السونيتات التي ترجمها يبدو انها ظهرت في الدوريات. وتضم ترجماته الأخرى «ادونيس» لجيمس فريزر (فصل من «الغصن الذهبي») و «قبل الفلسفة» لفرانكفورت.

وفيما يتعلق بحياته الشخصية، كل الذي استطعت معرفته من معارفه هو انه تزوج امرأة مسلمة من عائلة بغدادية كريمة وانه كان في مناسبات عدة في الولايات المتحدة يدرّس في الجامعات اثناء سنوات تفرغه العلمي. قبيل مغادرتي الى اسرائيل، سألت جبرا إن كان يريد ان يوصل أي شيء الى اصدقائه او عائلته او إن كان عنده أي شخص يريدني ان اقابله في القدس. ومع تقسيم القدس، على اية حال، ليس هناك الكثير مما يمكن القيام به في ذلك الإتجاه. لكنه اصرّ على ان انقل تحياتي الخاصة جداً الى شخصين في القدس – ايفيلين، التي هاجرت في غضون ذلك الى اسرائيل وكانت تعمل مضيفة في فندق راقٍ في القدس، وصديق حميم كان حينها رئيس مكتبة الـ YMCA في القدس وأحد العرب القلائل جداً الذين كانوا سيقيمون في المدينة بعد اضطرابات عام 1947 والحرب الإسرائيلية العربية الأولى التي تلت ذلك. كنت قد قابلت ايفيلين في بغداد – وهي شابة رشيقة ونموذج رائع لجيلها المتمثل بالنساء اليهوديات العراقيات العصريات المثقفات – وحينما وجدتها اخيراً وتكلمت معها اعتقدت بأنني اكتشفت نغمة استسلام في صوتها – شعور بأن ليس هناك طريق لاستعادة ذلك الجزء من ماضيها وبأن عليها اعادة بناء حياتها ثانية. اخيراً فعلت ذلك، وكانت على خير ما يرام حينما رأيتها آخر مرة.

سُرَّ امين مكتبة الـ YMCA عندما سمع عن صديقه، لكنني اعتقدت بأنه مندهش بعض الشيء وحتى متشكك ووجِل – كما لو كان يغمغم الى نفسه داخلياً: كيف استطاع في هذا العالم صديقه جبرا، وهو لاجيء من اليهود، ان يتّخذ من هذا اليهودي صديقاً؟ لكنه كان رائعاً ومؤدباً، وفي الأسابيع والأشهر القادمة كان ودوداً ومساعِداً لي حينما بدأتْ دراساتي في الجامعة وتوجّب عليّ قضاء ايام بلا انقطاع في تلك البناية الفاخرة.

في وقت ما اثناء الخمسينات، كما يروي في مجلده الثاني من سيرته الذاتية، قابل جبرا لميعة العسكري، ووقع في حبها، وقرر ان يتخذها زوجة له. ومن اجل القيام بذلك كان عليه ان يتحول الى الإسلام – وهذا ما فعله، وربّى الإثنان اسرةً عراقيةً صحيحة ومنعمة. في جميع هذه السنين، وبرغم الإضطراب والقمع والاضطهاد الذي عانى منه العديد من اصدقائه العراقيين، بقي جبرا هادئاً وطلب – وحصل على نحو وافٍ – المساعدة واستحسان القوى ، كما اوضح ذلك بلند جيداً في مقالة مختصرة كتبها بُعيد وفاة صديقه سابقاً.

الفصل الثامن عشر

نهاية الجالية

انه بحكم المستحيل ان نحدد بالضبط تاريخاً او حدثاً بدأ معه موقف يهود العراق يتدهور ويأخذ مساره المؤدي اخيراً، وبشكل حتمي، الى تدمير الجالية. بعض المراقبين يربطون هذا بالفرهود. بينما آخرون يؤكدون بأن العملية برمّتها لم تبدأ الاّ مع تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة خطة تقسيم فلسطين اواخر عام 1947.

لا اتظاهر بعرض أي شيء كجواب مقنع – هو ليس موجوداً في أي حال من الأحوال حسبما اظن. على اية حال، في كتاب نُشر في منتصف التسعينات حول تدخّل العراق في القضية الفلسطينية طوال السنين، عثرتُ على ما اعتقده وثيقة فريدة. كان مؤلف تلك الوثيقة، سي. جَي. أدموندز، يعمل لعدة سنوات مستشاراً اقدم للحكومة العراقية، والتقرير الذي كتبه كان موجَّها لمكتب الخارجية البريطانية.

في تقريره، الذي يعود تاريخه الى 29 آب، 1938، كتب أدموندز بأن موقف يهود العراق تهدده المعارضة العراقية المتنامية لسياسة بريطانيا في فلسطين و[يهدده] أنموذج اضطهاد اليهود على يد المانيا النازية. واختتم تقريره بهذه الكلمات: «ليس ضرباً من الخيال تماماً تصوّر التسعة آلاف يهودي من العراق الذين تمّت مرافقتهم عبر الفرات وأُخْبِروا بأن يتحملوا تحدي الصحراء الى فلسطينهم.

لكن المشهد في كنيس مسعودة شمطوب في كانون الثاني 1951، حيث الغيتُ جنسيتي العراقية، كان باعتراف الجميع، لايشبه تسعة آلاف رجل، وأمرأة، وطفل سيقوا قطعاناً عبر النهر وفي الصحراء. مع ذلك، تحققت اخيراً رؤية إدموندز المروعة – برغم انه بدلاً من إرسالهم سيراً على الأقدام، فإن الـ 110.000 يهودي عراقي تمّ حملهم في النهاية «على اجنحة النسور»، بعملية سميت تيمناً بعزرا و نهميا، الذَين، حسب التقرير في التوراة، ترأسا هجرة عدد من اليهود البابليين الى فلسطين، هناك ليشاركوا في إعادة بناء المعبد الأول ومعه الكيان اليهودي المستقل.

الصهيونية في بغداد

لا استطيع ان اقول بأنني كنت اتمنى ان اكتشف شيئاً ما ملموساً عن طريق الشرح حول كيف وصلت مجموعة عرقية قديمة ومتجذرة جداً كالجالية اليهودية العراقية بهذه السرعة والسهولة الكبيرة الى مثل هذه النهاية المرعبة. مع ذلك، قمتُ بالمحاولة فعلاً – بفتور بالتأكيد – ذات مساء في تلك الأيام الخوالي في بواكير الستينات، حينما كان انهماكي في المشكلة العامة في اسرائيل يتعمق باضطراد. في ذلك الوقت كانت رائجة مسألة مناقشة قضايا من قبيل إن كان اليهود الشرقيون قد ساهموا في الحركة الصهيونية وفي بناء دولة اسرائيل. وكما عُبِّر عن ذلك في نقاشات خاصة،

وتلميحات واضحة في مظاهر عامة (لاسيما في الخارج اثناء مهام جمع التبرعات)، وأحياناً عبر الكلمة المطبوعة، فإن جانباً لابأس به من سكان اسرائيل، بضمنهم أناس ذوو نفوذ لابد انهم كانوا يعرفون جيداً، بدا يعتقد بأن اليهود لم يمتلكوا تاريخاً، او على الأقل ليس كثيراً من التاريخ الحديث، وبالتأكيد ليس ثمة تاريخ صهيوني مسجّل.

لقد كانت مع هذه الأفكار غير الملهمة بأنني، في ذلك المساء من آب عام 1963، اخذتُ طريقي الى قاعة محاضرات معينة في تل ابيب. كان الجو حاراً ورطباً كأمسيات تل ابيب، لكنه اينما ذهبتُ كان يتجمع حشد صغير للإحتفال بالذكرى العشرين على تأسيس حركة هالوتز الصهيونية في العراق.

اثناء المساء، عرفتُ، تماماً، بأنها لم تكن بالضبط الذكرى العشرين، لأن حركة هالوتز (أي الطليعة) عقدت اول مؤتمر لها في بغداد عام 1942. كما لم يكن، ايضاً، من دواعي العجب بأن اول مؤتمر لحركة هالوتز اشّر بداية الحركة الصهيونية بين يهود العراق، لأن كلاً من الصهيونية والهجرة الى الأرض المقدسة كانت قد بدأت قبل ذلك بعقود. لكن على ما يبدو كانت هذه ماتزال مناسبة طيبة للأحتفال بهذه الذكرى.

وإذ اتحدث عن نفسي، فإنني لم اشعر بأنني في بيتي تماماً في ذلك التجمع وكان عليّ اولاً ان اتغلّب على شعور ما بعدم الإنتماء. لابد انني كنت الشخص الوحيد الحاضر الذي لم ينتم قط الى حركة صهيونية، في العراق او في أي مكان آخر. لم ادرس قط اللغة العبرية او أخفي اَي سلاح، ولم اقم بواجب الحراسة الليلية في الأحياء اليهودية من المدينة، ولم احاول قط عبور الحدود بشكل غير قانوني في الطريق الى ارض المعاد. وإذا عرفتُ او ميُّزت اياً من وجوه الشباب وغير الشباب من الرجال والنساء الحاضرين في تلك الليلة، فإن تلك المعارف لم تتم ضمن «الحركة» (ha-tenu'ah).

مالذي جعل الحركة الصهيونية تنمو وتزدهر في العراق اوائل الأربعينات – وبالأخص نجاحها المذهل بين الشباب من مجاميع عمرية معينة وليس غيرها؟ وبالعودة الى تلك الأيام الهادئة، يتخيل المرء بأنه يستطيع ان يضع اصبعه على بعض الأسباب الرئيسة لهذه الظاهرة. ان اواخر الثلاثينات و بواكير الأربعينات وجدتْ الجالية اليهودية العراقية – والمجتمع العراقي ككل – في خضم ثورة سوسيواقتصادية عميقة. في ذلك الحين، كان جيلان كاملان من اليهود العراقيين من مختلف الطبقات الإجتماعية – برغم ان جلّهم من الطبقات العليا – قد عانا من التحولات الثقافية للتغريب Westernization الذي تغذيه مؤسسات ثقافية مثل التحالف الإسرائيلي العالمي، المدرسة الامريكية، والمدارس الثانوية الناطقة بالإنكليزية التي تأسست بمساعدة التحالف الأنكلو-يهودي. انه بسبب هذا حلّت حركة هالوتز والهاغانا، والحركة الصهيونية عموماً، حينما جاءت اخيراً بشكل منتظم، [حلّت] على كل ارض خصبة.

ربما تحتاج هذه النقطة الى بعض التفصيل. ان التناقض الصارخ بين المفاهيم والمُثُل التي تربّى عليها جيلان من اليهود العراقيين المثقفين وواقع الحياة والمؤسسات الإجتماعية اليهودية كما وُجدت

آنذاك في العراق اصبح لايطاق. وإذا استطاع الآباء بطريقة او بأخرى ان يوفّقوا بين المتناقضات ثقافياً واجتماعياً، فإن ابناءهم لم يستطيعوا ذلك. كانت التناقضات كثيرة وحادة جداً احياناً: التعليم العلماني في المدرسة مقابل الطرق اليهودية التقليدية في البيت؛ الأفكار الرومانسية للحب والزواج تتناقض بشدة مع وسائل كبار السن في الخطوبة والمهور الباهضة؛ و»الحرية، والمساواة، والأخوّة» لم تجد لها تعبيراً في الواقع الباهت للفساد السياسي، والإبتزاز، والوجود التنافسي للأقلية.

لذلك يمكن القول بأنه، اكثر حتى من الحركات الوطنية، كانت الهالوتز والهاغانا في العراق تمثل ثورة سوسيو-ثقافية بين الشباب. في التجمع في تل ابيب ذلك المساء، قال موردیخاي بيبي، وهو مخضرم في حركة هالوتز، بأنه وجد من المثير بأن الشابات اليهوديات، اللواتي لم يحلم اباؤهن وإخوانهن بالسماح لهن في الخروج ليلاً بدون معرفة على الأقل اماكن تواجدهن، اعتدن على البقاء خارجاً طوال الليل تحدياً لكل المعايير الإجتماعية المقبولة، لايحركهن أي سبب آخر سوى قضية الحركة. بالتأكيد، على اية حال، سيكون على الأقل من الصواب ان نصف الأمر بطريقة مغايرة – أي، لولا الشعور بالحرية والتحرر الذي كانت تمنحهن اياه [هذه الحركة]، من المحتمل ما كنَّ هؤلاء الشابات حلمنَ مطلقاً بالإنظمام الى الحركة.

بالنسبة للحشد المتجمّع هناك، على اية حال، لم تكن هناك مسائل حاسمة وهي بالتأكيد لم تشكّل القلق الرئيس. النقطة التي اسهب فيها جميع المتحدثين هي ما عَدّوه الحقيقة المؤسفة التي حتى ذلك التاريخ لم يتم انتاج أي عمل تاريخي، او اوتوبايوغرافي، او قصصي واحد يسرد القصة البطولية والإنسانية العميقة لحركة شباب رائدة، في ظرف اقل من عقد، تمكّنت من تولّي قيادة افتراضية لجالية يهودية قديمة ومتجذرة في فترةِ تحوِّل وثورة سوسيو-ثقافية.

وإذ أصغي الى المتحدثين، على اية حال، لايسعني الاّ ان افكر بأن مثل هذه الأعمال، لو تمّت كتابتها، لكانت بالفعل ابعد بكثير من مجرد آثار لحركة هالوتز وغيرها من الحركات الأخرى في العراق. ولأعطت ثقافة في امسّ الحاجة اليها – لأن الجمهور الإسرائيلي عموماً وحتى بالنسبة للكثيرين في المجتمع العراقي نفسه – في الحياة والتاريخ الحديث لليهود الشرقيين. في خطابه، سرد بيبي كيف، بالعودة الى عام 1950، تساءلت الشخصية الإسرائيلية الرفيعة جداً إن كان يهود العراق قد سمعوا عن تأسيس دولة اسرائيل! بدا هذا لي يوحي بأن تاريخ حركة الهالوتز في العراق، والتاريخ الحديث للجالية اليهودية العراقية ككل، هو تاريخ مهمَل، تاريخ تمّ تجاهله عمداً تقريباً.

انواع المضايقات

الغموض والتناقض هما مظهران لجميع التاريخ اليهودي لايمكن فصلهما. ثمة حكايات في التاريخ اليهودي الحديث، على اية حال، تكون مغلفة بالغموض والتناقض كالهجرة الجماعية الى دولة اسرائيل المتأسسة حديثاً من اراضي الشرق الأوسط وشمال افريقيا. ويتجلى الغموض هنا عبر اكثر من صعيد، لكنه بارز بشكل خاص في مجال الحافز. لكن ماهي القوة المحركة وراء هذا النزوح الجماعي؟ مالذي جعل يهوداً راسخين ومتأقلمين جداً كأولئك الموجودين في اليمن، والمغرب،

والعراق يقررون رزم امتعتهم ويتوجهون الى اسرائيل، فيما خلّف الكثير منهم بيوتاً مريحة، وأعمال تجارية مزدهرة، وجيراناً وأصدقاء ربطتهم علاقات وثيقة وودية؟

في اسرائيل الخمسينات والستينات كان من الشائع الحديث عن الهجرة الجماعية من اراضي المسلمين بوصفها «هجرة انقاذ»، لتدل بذلك على ان هذه الجاليات اليهودية لُفِظت فعلاً من اراضي مولدها وكان لديها الحظ الجيد في الحصول على اخوان محبين وخيرين في ارض اسرائيل Eretz Yisrael التي وفّرت لهم برحابة صدر ملاذاً وبيوتاً جديدة. ان ما يقوله السجل التاريخي، على اية حال، وما يشهد به الناس المنخرطين مباشرة في تلك الحركات السكانية الجماعية، يبدو يتناقض بشكل واضح مع هذه النسخة البسيطة جداً من الموقف.

في وقت ما من ربيع عام 1964، حينما احتفلت اسرائيل بسنة الهجرة غير الشرعية، في محاولة لأن يعملوا لأنفسهم مافشلت القوى ان تعمله لهم، شنّ ناشطون سابقون في الحركة الصهيونية في العراق نوعاً من الإحتجاج. ففي تجمّع مثير للإعجاب في تل ابيب احتفل «المهاجرون العراقيون غير الشرعيين» بهجرتهم غير الشرعية. مرة اخرى، ذهبتُ الى هناك لأرى بأم عيني، وأعتقدت بأنني اكتشفت حقيقة ان ما كانوا يعدّونه فصلاً بطولياً في تاريخ الحركة الصهيونية لم يُعطَ حقه في حوليات تلك الحركة.

احد اولئك الحاضرين كان شلومو هيلليل، الذي كان هو نفسه مهندساً لنزوح اليهود الجماعي من العراق. في خطابه، اوضح هيلليل بأن إغفال القصة العراقية من سنة الهجرة غير الشرعية شكّل ظلماً تاريخياً ليس لأولئك المسؤولين عن تنظيم الهجرة بقدر ما كان ظلماً للجيل الشاب من الإسرائيليين، الذين من حقهم معرفة ما تمّ عمله في ذلك المجال من النشاط الصهيوني.

كان هناك ثلاثة متحدثين آخرين، جميعهم بشكل او بآخر مشتركون بقوة في تأسيس الحركة الصهيونية في العراق وتنظيمها ونموّها، وبالتالي البدء بما كان يُعرف بعملية عزرا و نهميا. وذكّر شاؤول أفيغور، الذي نظّم الهجرة غير الشرعية، بالبدايات بُعيد فرهود الخلايا اليهودية السرية في بغداد. فيما تحدّث اسرائيل جليلي عن الإنطباعات التي خرج بها المبعوثون من فلسطين حول تكريس وحماس الشباب اليهودي العراقي المنخرطين في الفروع الثلاثة للحركة – التعاليم العبرية، والدفاع، والهجرة غير الشرعية؛ فإن بيبي تذكّر بالأيام حينما، قبل ان تقرر الحكومة العراقية السماح لليهود بالهجرة، تمّ فتح حدود البلد بالقوة وبشكل ممنهج لإفساح الطريق لمئات المهاجرين غير الشرعيين؛ في حين تكلّم هيلليل عن جهوده في بغداد، وهو يقوم بذلك تحت قناع ممثل خطوط جوية اجنبية وهمية، ليهتم بتنظيم الإنتقال الجماعي لما يقرب من 120 الف يهودي من العراق الى اسرائيل.

وأنا اصغي الى هؤلاء المتحدثين فكرتُ بأنه من الغريب بأن، بينما بعضهم على الأقل مايزال يتحدث عن «إنقاذ الهجرة»، الجميع متفقون بأن هذا انما هو نتيجة للنشاط الصهيوني المكثف داخل

العراق بحيث سمحت السلطات اخيراً لليهود بالهجرة – شريطة، بالطبع، ان يسلّموا جنسيتهم العراقية.

من الطبيعي هناك ضغوط و «دفع» من جانب الحكومات. عندما اندلعت الحرب الفلسطينية عام 1948 فإن قوات الأمن العراقية، التي لم يكن بوسعها تجاهل الأنشطة الصهيونية في البلاد، قامت بالعديد من الإعتقالات تضم اشخاصاً تقريباً – او احياناً ليسوا على الإطلاق – متورطين في تلك الأنشطة. في تلك العملية، على اية حال، سرعان ما تحوّلت السلطات الى معاقبة جميع المجتمع بشتى الطرق المنحرفة. وما من يهودي كان متورطاً في «السياسة» من أي نوع كانت كان في مأمن من هذا النوع او ذاك من المضايقات التعسفية والقاسية التي يمارسها الشرطة والمحاكم العسكرية المؤقتة. ثمة مثال صارخ، لايمكن تصديقه بسبب الشفافية المطلقة، هو الطريقة التي كان يروَّع فيها اليهود المناوئون للصهيونية، ويؤتى بهم الى المحاكمة، ويدانون بتهم الأنشطة الصهيونية.

بدأت قصة عصبة ضد الصهيونية the Anti-Zionist League بُعيد موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة على خطة تقسيم فلسطين في 29 تشرين الثاني، 1947. كان هذا الحدث علامة وفي نواحي كثيرة حجة لمظاهرات الشارع التي قامت بها المجاميع الراديكالية بين طلبة الجامعات، والعناصر الساخطة من كل من اليمينيين، واليساريين، والشيوعيين، الذين كان العديد منهم يهوداً، اقنعوا المعادين لليهود على آخرهم.

هؤلاء اليهود، الكثير منهم طلبة جامعات وخريجو المدارس الثانوية، كانوا قد قدّموا للحصول على رخصة تأسيس منظمة خاصة بهم، اختاروا لها الإسم غير الضار «عصبة مكافحة الصهيونية». ومنحت الرخصة في وقت مبكر من عام 1946 حكومة توفيق السويدي، متغاضية على مايبدو عن حقيقة ان المتقدمين كانوا جميعهم شيوعيين كانوا يبحثون عن إثبات ولاءاتهم العراقية-العربية وخلق منظمة جبهوية للحزب الشيوعي السري.

في حزيران عام 1947، اخذت العصبة زمام المبادرة. اذ نظّمت مظاهرة سلمية، ظاهرياً موجّهة ضد الحكم «القمعي» في فلسطين. الشيوعيون، على اية حال، الذين لم يُسمح لهم بتنظيم حزبهم، استخدموا العصبة للترويج لقضيتهم، وأصبح هذا واضحاً اثناء المظاهرة. اما الحكومة – التي كان يترأسها آنذاك ارشد العمري – والتي تشك بأن المظاهرة موجهة ضدها، امرت الشرطة بتفريق المتظاهرين بالقوة، مما نجم عن جرح خمسة، توفي احدهم متأثراً بجراحه.

اخيراً، كان لابد لهذه العصبة المناوئة للصهيونية ان تعاني من مصير مؤسف، لو لم يكن حزيناً، لكان مضحكاً جداً. ان عصبة «مكافحة الصهيونية»، بسبب الطبيعة الغامضة لاسمها العربي، اتُّهمت بكونها منظمة صهيونية، تكافح من اجل الصهيونية وليس ضدها. وبالفعل تم اعدام وسجن قياديها لهذه الأسباب؛ حيث لم يأخذ الأمر من السلطات الكثير من الوقت او العناء لإثبات انهم كانوا اعضاء بارزين في الحزب الشيوعي. وهكذا انظمّوا الى رفاقهم المسلمين ليقضوا فترات طويلة في السجن. ان العملية المناوئة لليهودية، التي كانت احياناً تشبه شكلاً من اشكال الإنتقام الذي كان

العراقيون يتخذونه بسبب الذل الذي كانت تعانيه قواتهم على يد الصهاينة، تمّ شنّها بشكل رئيس على «الجبهات» التالية:

التوظيف: من الناحية العملية تم طرد جميع الموظفين الحكوميين اليهود – اسوة بأولئك العاملين في شركات الدولة، ومؤسسات اجنبية معينة تمتلك فيها الحكومة مصالح واضحة، والمصارف المحلية منها والأجنبية الذين [أي العاملين] فهموا الإشارة.

التجارة والصيرفة: التراخيص التجارية، وتصاريح التصدير والإستيراد، وصفقات العملة الأجنبية، وجميع الصفقات التجارية الأخرى التي تحتاج الى موافقة رسمية لم تُمنَح لليهود.

الرقابة: في وقت ما عقب تبني خطة تقسيم فلسطين توقّفت دائرة البريد من تسليم الرسائل القادمة من فلسطين. فيما بعد، حينما بدأت موجة المضايقات والمحاكمات، فُتِحَت الطرود المتراكمة وتمّ استدعاء جميع العناوين اليهودية الى مبنى قسم التحقيقات الجنائية بصورة فردية. وبدون استثناء اتهموا بـ «الإتصال بالعدو» وحُكموا بشكل قطعي بالسجن او غرامة باهضة. كذلك فتّشت القوات الأمنية في سجلاتهم وحدّدت اليهود الذين كانوا قد زاروا او اقاموا في فلسطين في وقت سابق– وهؤلاء ايضاً تمّ استدعاؤهم وفي حالات كثيرة حوكموا وحُكِموا كسابقيهم.

الطلبة: الطلبة اليهود وتلاميذ المدارس الثانوية الذين مُسكوا وهم يشاركون – او بأية طريقة ما متورطون – بالمظاهرات خضعوا للمضايقات والمحاكمة. عادة كان هذا يأخذ شكل مذكرات تفتيش كان الشرطة يجلبونها معهم الى منزل «المتهم» وبناءً على قوتها تتم عملية التفتيش، ويؤخذ الشخص المعني للمزيد من التحقيق، ومن ثم تجري المحاكمة التي لم يتم فيها تبرئة أي شخص مُدرج اسمه في القائمة. بدليل او بلا دليل، كان الشخص المعني يحاكَم بشكل اكيد بسنتي سجن او غرامة تقدر بألفي دينار عراقي – أي ما يعادل حينها الفي باوند او ثمانية آلاف دولار وكثير من الأموال بأي معيار من المعايير السائدة. والإنطباع البارز الذي تولّد لدى المرء في ذلك الحين هو انه، لو لم يكونوا متأكدين من ان اليهود سيجدون بطريقة ما النقود لدفع الغرامات بدلاً من الذهاب الى السجن، لما اصدرت المحكمة قط العديد من الأحكام بالسجن. كما انه ببساطة لم تكن هناك سجون كافية لإيوائهم جميعاً.

على المستوى الواقعي بشكل دقيق، برغم هذه الإجراءات، نجد اخيراً بأن الضغط الذي مارسه اليهود انفسهم، والذي شجّعته وقادته الحركات الصهيونية، وحقيقة ان الحدود فُتِحت عنوة – غالباً بمساعدة مسؤولين امنيين رفيعي المستوى ليسوا فوق مستوى قبول الرشاوى – هو الذي اجبر اخيراً يد السلطات. وما إن سُمح لهم بمغادرة العراق، اظهر اليهود رغبة في الهجرة التي ابهرت كلاً من السلطات العراقية والإسرائيلية.

بالنسبة لمتحدّثي «المهاجرين غير الشرعيين» المتجمهرين في تل ابيب في ذلك المساء، على اية حال، لم تكن الملاحظة اكاديمية. فبعد اربع عشرة سنة من الإختتام الناجح لعملية عزرا و نهميا، فإن القيادة الصهيونية للجالية اليهودية في العراق فشلت في جعل حضورها محسوساً به، او معترَفاً به،

في الهيئات الصهيونية التمثيلية، او بالنسبة لتلك المسألة في أي مكان ضمن المؤسسة السياسية- الثقافية الإسرائيلية.

كيف يتسنى للمرء توضيح ذلك؟ احد هذه التوضيحات، بالتأكيد، وقع في غموض ما كان يصعقني دائماً كونه يهاجم موضوع الهجرة من اقطار الشرق الأوسط وشمال افريقيا – اذ ان اختلافاً دقيقاً معيناً لكنه هام جداً بين ما يكون في الواقع منهجان متميزان للصهيونية. ان عوبديا إسحيّق، الذي يقال بأنه بمعية اخوانه وأخواته الثمانية قد شكّل جوهر حركة هالوتز في بغداد في بواكير الأربعينات، وصف الأمر بهذه الطريقة: «والدنا هو يهودي يقظ وأعطانا تعليماً دينياً. لكن بالنسبة لنا لم يكن هناك سوى دين واحد – هو الصهيونية».

الحقيقة هي ان يهود العراق، وبلاشك ايضاً بالنسبة ليهود اليمن والمغرب، كانت اليهودية وحب صهيون مرتبطة بشكل وثيق بفكرة الدولة في ايريتز يسرائيل. في هذا المفهوم المسيحي للدولة، الغامض تقريباً، لم تلعب المنظمة السياسية والمجادلات الحزبية أي دور يُذكر، وكانت النتيجة هي ان هؤلاء اليهود جاؤوا الى اسرائيل غير مستعدين تماماً لذلك النوع من الصراع السياسي على السلطة الذي كان بانتظارهم.

وأخبرت حسب مصادر رفيعة وصف ديفد بن غوريون ذات مرة حركة هالوتز في العراق بإنها «بدائية». من الواضح انه، بالنسبة للدرجة التي فشلت فيها هذه الحركة وزعماؤها في تقييم المشهد السياسي الإسرائيلي بشكل بارد ومنهجي – ومن اجل التوصل الى استنتاجات واقعية على حدّ سواء من ذلك التقييم – كان بن غوريون معذوراً تماماً في تقييمه.

نهاية صديق

في نهاية العام 1950 لم يكن هناك الاّ القليل، القليل جداً، من اصدقائي اليهود في بغداد. نعيم قطّان تبع إيلي بعد سنة او نحوها، اولاً الى باريس وبعد ذلك الى كندا؛ اسحاق خضوري جعل طريقه نحو الدولة اليهودية المتأسسة حديثاً سالكاً طرقاً غير شرعية، بعد اتهامه بانتمائه الى الحركة الصهيونية السرية؛ يعقوب معلم كان من بين الأوائل الذي يسلّم الجنسية العراقية ويتوجّه الى اسرائيل – وكذا فعل ناجي عبودي و گرجي تشويلا.

ومن بين اصدقائي الذين بقوا كان ادموند صاموئيل، الذي نجا من الهجرة الكبيرة والفوضى ومضى الى باريس للدراسة، بجواز عراقي صحيح، لكنه لم يرجع الى بغداد. وآخر كان تشارلس حوريش، وهو صديق قابلته من خلال ادموند واقارب آخرين له الذين كانوا ايضاً اصدقاء ومعارف لي. آخر مرة رأيت فيها تشارلس كانت في صباح بغدادي بارد، جاف في اواخر كانون الثاني 1951. حصل هذا بأيام قلائل قبل رحلتي المقررة الى اسرائيل، حيث توادعنا.

كان تشارلس حينها في اواخر عشرينياته، وغير متزوج، ويعمل بصفة كاتب اقدم في شركة بريطانية للشحن تقع بنايتها في مركز المدينة التجاري. من بين العديد من الأشياء، تحدّثنا عن

الموقف «هناك» وعن المعلومات اليسيرة الرائجة آنذاك بين يهود بغداد، الذين كان اغلبهم قلقاً لمعرفة مايتربص بهم حينما جاء دورهم اخيراً وهبطوا في ارض الميعاد. في ذلك الوقت كانت الرسائل القادمة عن طريق لندن، وباريس، ونيويورك من الأقارب والمعارف الذين قد غادروا [كانت] تعطي جميع انواع الإيحاءات بأن جلّ الواصلين الجدد تركوا الكثير الذي تاقوا اليه. فعبارات من قبيل «لاتأتِ حتى تتزوج إيفون»؛ و»تحت أي ظرف من الظروف عليك ان تضطلع بتلك الوظيفة الجديدة»؛ و «لاتغيّر المنزل» كانت بعض الوسائل المفضلة، أريدَ منها تحذير الأهلين من مغبة المخاطرة. لكن هذا كله بدا غير قابل للتصديق نوعاً ما. «ماذا حصل لموريس، اذ يكتب مثل هذا»، فكّر ابو إيفون بصوت عالٍ، مدركاً بأن رسالة ابنه الأكبر كانت تعني بأن على العائلة ان تبقى لفترة غير محددة تقريباً، لأن عمر إيفون كان حينها لا يتعدى السنتين!

لكن تلك لم تكن تحذيرات مكشوفة بحيث منعت تشارلس من التسجيل للهجرة، برغم انه تلقّى نصيحة مماثلة من اختيه الصغيرتين اللتين وصلتا الى اسرائيل ويعيشان في المستوطنة kibbutz [مزرعة جماعية يهودية]. في الحقيقة لم اتمكن فعلاً من سبر اغوار افكاره حول الموضوع؛ ولم اضغط عليه. كنت احترم بشكل صادق تردده، وطوال السنوات التالية مابين ذلك الصباح من كانون الثاني وصباح يوم 27 كانون الثاني، 1969 – عندما عُلّقت جثة تشارلس في الهواء الطلق في اكبر ساحة في بغداد – لم اسمع به الاّ لماماً من الأقارب والمعارف المشتركين. كان قد ترك وظيفته وانطلق يعمل لحسابه الخاص؛ وتزوج، وانجب بنتاً وحملت زوجته بطفل آخر؛ كما اصبح ميسوراً نوعاً ما وحظي بعلاقات رائعة. ومظهره، اذا ما حكمنا عليه من خلال الصورة التي التقطتْها له السلطات العراقية وستة عشر آخرين في قفص الاتهام اثناء محاكمتهم الجماعية، لم يتغير كثيراً.

وفضلاً عن كلمة «جاسوس»، الملحقة باسمه في لافتة تتدلى من عنق جسده المشنوق، لم اتمكن مطلقاً من معرفة بالضبط ماهي التُهم الحقيقية التي أدين تشارلس بموجبها. بحثتُ في صحيفتين بغداديتين رائدتين، الجمهورية والراصد البغدادية، للأيام 18-24 كانون الثاني، لكنني فشلت في ان اجد حتى اسمه منشورٍ في محاضر الجلسات. كل الذي كان هناك هو حكايات غامضة، تافهة نوعاً ما عن كيف ان متهماً كان قد استلم رسالة من آخر من اجل تسليمها الى ثالث؛ وكيف ان احد المتهمين طلب من الآخر «تجنيد بعض البحارة في السفن الراسية في البصرة لأغراض التجسس»؛ وكيف ان «معلومات سرية حول العدد والعدة في معسكر للجيش بالقرب من البصرة» مُرّرت الى «عملاء اسرائيليين». وتحققت اسوأ شكوكي بعد ذلك بأيام قليلة، حينما قرأت في صحف يوم 7 شباط بأن رئيس «محكمة الثورة» الذي صادق على القرارات والأحكام اخبر المراسلين الأجانب في بغداد بأن جميع الأدلة المادية – كالوثائق والمرسلات اللاسلكية وغيرها من معدات التجسس – قد تمّ «تدميرها»! فجأة تماماً بدون أي توضيح! لم يقتصر الأمر على عمليات الشنق، بل الأسلوب الذي جرت به تلك العمليات والجلبة التي رافقت العملية كانت عدائية. تبدو المحاكمة برمتها فبركة كبيرة تعوزها حتى شفاعة التخطيط السليم والتنفيذ الدقيق.

ماذا حصل؟ ماذا عسى ان تكون دوافع بغداد لعملٍ اخرق صادم جداً لدرجة انه جلب الإستهجان العام حتى من العواصم العربية، من بينها القاهرة؟ قبل ان نشرع بالإجابة عن هذا السؤال لابد من

الإشارة الى ان الشنق هو الأسلوب الإعتيادي لتنفيذ عقوبة الإعدام في العراق، ينطبق على الجميع الاّ الجيش. الإعدام العلني، بمناسبة او دونها، نادر نسبياً. بقدر ما اتذكر، لم تحدث عمليات شنق كهذه في العراق الاّ في ثلاث مناسبات اثناء الأربعينات. كانت الأولى في حزيران عام 1941، عندما تمّ شنق مسلمَين علناً اتهما باشتراكهما في الفرهود في 30-31 مايس والقصد المصرّح به هو ليكونا عبرة ودرساً. في عام 1948، بعيد اندلاع الأعمال العدوانية في فلسطين، تم اعدام اربعة قادة شيوعيين، احدهم يهودي، في اربعة اماكن مركزية في بغداد، ايضاً كتحذير وعبرة.

في وقت لاحق من تلك السنة اعدم تاجر يهودي معروف، هو شفيق عدس، في البصرة بعد ادانته بـ «تعامله مع العدو». عملية الإعدام الأخيرة هذه حضرها جمع غفير وهائج جداً – كما يقال – لدرجة ان الجلاد اضطر الى الكشف عن وجه الرجل المدان من اجل ان يتأكد المتفرجون من انهم حصلوا على البضاعة نفسها التي كانوا قد وُعِدوا بها وليس بديلاً عنها.

الفصل التاسع عشر

الوداع ولمّ الشمل

في 2 آذار، عام 1950، قدّم وزير الداخلية العراقي، صالح جبر، الى البرلمان مسودة قانون كان سيسمح بفضلها لليهود العراقيين بمغادرة البلاد شريطة ان يتخلوا عن جنسيتهم. اخبر جبر النواب بأن الحكومة دُفعت لاتخاذ هذا الاجراء بسبب الهجرة الجماعية لليهود العراقيين بوسائل غير شرعية. وأوضح بأنه، نظراً لرفع الاحكام العرفية في 17 كانون الأول 1949، ازدادت الهجرة غير الشرعية، وانه «ليس من المصلحة العامة إجبار الناس على البقاء في البلاد إن لم يمتلكوا الرغبة في ذلك.»

ان الحكومة التي يرأسها علي جودت هي التي رفعت الاحكام العرفية – وفي تلك الفترة الوجيزة التي امدها ثلاثة اشهر ونصف اشتدّت المتاجرة غير الشرعية باليهود المغادرين صوب اسرائيل. كان هؤلاء في غالبيتهم شباناً وشاباتٍ يبحثون عن متنفس لطاقاتهم، وإكمال دراساتهم، وعمل يؤدونه، او مجرد «حياة» مدنية تتمتع بحريات اجتماعية وسياسية حيث تمّ تدريس العديد منهم على انها لهم طالما وطئت اقدامهم على ارض المعاد. لكن هناك ايضاً آباء قرروا اللحاق بأبنائهم وبناتهم الذين هم هناك، فيما أرسل الأطفال عن طريق ابائهم للحاق بأقاربهم، واخوانهم، او اخواتهم الذين غادروا من قبل.

كانت كل الهجرة غير الشرعية موجهة الى الجارة ايران، حيث تمّ اخذ المهاجرين من هناك الى اسرائيل. ان عملية العبور الى الأراضي الايرانية كانت نسبياً عملية بسيطة. اذ تمّ القيام بذلك إما عن طريق الأراضي الكردية في الشمال او من البصرة عبر شط العرب والى داخل المحمرة (عبادان الآن) في الجنوب. هذا الإنتقال نظمته وأشرفت عليه إرساليات الوكالة اليهودية ومختلف حركات المستوطنات، التي لكل منها انتماءاتها الحزبية السياسية. كانت هذا الإرساليات، التي ساعدها ناشطون محليون، تعمل من خلال «متعهدين» مسلمين – أكراد من الشمال، وعرب من الجنوب – اذ مقابل دفع مبلغ معين لكل شخص تولوا عملية نقل قوافل او احمال زوارق من المهاجرين الى نقاط معينة في الجانب الآخر من الحدود، حيث سيستقبلهم هناك أناس من التنوعة ha-tenuah (أي «الحركة»، وهو الإسم الجمعي الذي كانت تُعرف به محلياً المنظمات الصهيونية في العراق) ويتم نقلهم الى طهران.

ان القانون الذي ادخله جبر – وصودق عليه برغم بعض الإحتجاجات المتفرقة التي تفيد بأنه لم يتماشَ مع المصالح العربية – اصبح يُعرف بـ «قانون تسقيط الجنسية». وتضمّن ثلاثة مقررات قصيرة:

المادة الأولى خولت مجلس الوزراء حرمان أي يهودي عراقي من الجنسية العراقية «الذي، برغبته، يختار ان يغادر العراق الى الأبد، بعد ان يُدلي بذلك خطياً امام مسؤول معيّن من قبل وزارة

الداخلية».

المادة الثانية نصّت على ان أي يهودي عراقي يغادر العراق او يحاول مغادرة البلاد بصورة غير شرعية «سيُحرم من الجنسية العراقية بقرار من مجلس الوزراء».

المادة الثالثة نصّت على ان اي يهودي عراقي كان قد غادر العراق بصورة غير شرعية «سيُنظر اليه كأنما غادر العراق الى الأبد ما لم يعد في غضون شهرين من وقت دخول هذا القانون حيّز التنفيذ» – وبخلافه سيتم اسقاط جنسيته العراقية.

ان وضع الاستعدادات اللازمة للهجرة لم يشكّل أية صعوبة – ماعدا فيما يتعلق بالكتب التي وددتُ الاحتفاظ بها. وإذ رزمت هذه الكتب في طرود صغيرة بغية إرسالها الى عنوان إيلي في اكسفورد، لم استطع سوى إرسال حوالي ثلث الطرود عندما حان الوقت بالنسبة لي ولأمي للمغادرة. وعليه استشرتُ صديقي الطيب گرجي ربيع، الذي كان عنده محل في شارع الرشيد يبيع قطع الغيار للسيارات والشاحنات، ووافق بكرم ان يخزن الطرود المتبقية في محله ووعد ان يأخذها الى دائرة البريد، رزمة او رزمتين في كل مرّة بفواصل معقولة. لم يكن القيام بهذا صعباً كون الرزم معبّأة بعناية، ومعنونة، وموزونة، ومختومة.

على اية حال، لم يتمكن گرجي من القيام بالمهمة. ففي 10 آذار 1951، بعد مضي شهر على رحلتي الى اسرائيل، اصدرت حكومة نوري السعيد قانوناً يجمّد موجودات جميع اليهود الذين سجّلوا على الهجرة الى اسرائيل. ومُرّر القانون في البرلمان على اساس ان اليهود قد هرّبوا كميات كبيرة من ثروتهم خارج البلاد. كان هذا صحيحاً بالطبع. فنقودي البالغة 750 دولاراً، برغم انه مبلغ زهيد، كان يشكل قضية. صديق لي كان حينها يعمل محاسباً في شركة يهودية للاستيراد والتصدير يملكها ثلاثة اخوان بإسم مكمّل. حينما تكلمت اليه حول مشكلتي، عرض في الحال ان يرتّب المسألة من خلال الشركة: دفعتُ النقود بالعملة العراقية، مايعادل 750 دولاراً، ثم ابلغتْ الشركةُ احدَ الأخوة الذي كان قد اسّس في ذلك الوقت عملاً تجارياً في العاصمة البرازيلية.

كل الذي كان عليّ ان اقوم به هو الكتابة اليه طالباً منه ان يرسل لي الـ 750 غراماً من القهوة على عنوان محدد في اسرائيل – والهدف من وراء حيلة القهوة انما لصرف انتباه السلطات الإسرائيلية، الذين كانوا يشترون الدولار في السعر الرسمي الذي تكون قيمته تقريباً ثلث او اقل من قيمته في السوق السوداء. في النتيجة – كما عرفت فيما بعد ولدهشتي الكبيرة – انني بعتُ اخيراً الدولارات الى احد «السماسرة» الحكوميين الكثيرين، كون وزارة المالية الاسرائيلية قد قررت بأن لا سبيل الى الحصول على دولارات المهاجرين العراقيين وجنيهاتهم الاسترلينية الاّ عن طريق شراء العملة الصعبة منهم بأسعار السوق السوداء، مع دفع العمولة المطلوبة الى الوسطاء، الذين كان كل واحد منهم عراقياً!

في بغداد، وتنفيذاً للقانون الجديد، امر وزير المالية العراقي جميع المصارف والصرّافين الذين يتعاملون بتحويل العملة الأجنبية بإيقاف صفقاتهم فوراً، من اجل منع سحب الحسابات اليهودية

وتهريبها خارج البلاد. والأنكى من ذلك بالنسبة لبعض اليهود الذين على وشك المغادرة الى اسرائيل، هو ان دائرة تسجيل الأراضي أمِرت ايضاً بإيقاف تسجيل الصفقات التي كان اليهود طرفاً فيها. ان العديد من اليهود الموسرين ومن الطبقة الوسطى الذين اتصلوا بدائرة التسجيل ولم يختموا الاّ مؤخراً قد باعوا بيوتهم وممتلكاتهم غير المنقولة وكانوا على وشك اكمال الصفقات بذهابهم الى دائرة تسجيل الاراضي. اخي إلياهو، مثلاً، خسر من الناحية العملية كل ما يملك نتيجة للقانون الجديد. وكونه استثمر كل مدخراته في منزل الأسرة في بستان الخس، وكونه انتظر حتى اللحظة الأخيرة قبل ان يتم اقناعه اخيراً بالتسجيل للهجرة، فقد باع المنزل في وقت متأخر من اليوم وكانت عملية البيع ستنتهي في الصباح نفسه الذي كان القانون الجديد سيدخل في حيّز التنفيذ.

لم يكن هناك أي شي مطلقاً يمكن القيام به – ولم تكن هناك اية امكانية لاستعادة مايمكن استعادته من الاموال التي يمتلكها في حسابه المصرفي. فقد جاء هو وعائلته – المؤلفة من زوجته، وثلاثة ابناء، وثلاث بنات – الى اسرائيل خالي الوفاض تماماً. كانت تجربة تقطّع نياط القلب بالنسبة لي حينما، بعد سنين قلائل عندما بدا وضعي الإقتصادي مستقراً نوعاً ما، جاء لي يلتمس المساهمة في مقدّم ايجار شقة في الطابق الأرضي في حيّ فقير في رامات غان.

وكان مصير المتاجر والبضائع اليهودية مماثلاً. فمكتب الأمين العام، الذي يُزعَم بأنه مسؤول الآن عن مسح وإدارة الموجودات اليهودية المجمدة، اغلق وختم جميع المخازن والمتاجر اليهودية – بضمنها تلك التابعة لأناس لم يسجّلوا للهجرة – بدعوى ان اصحابها ربما ينقلون محتوياتها بشكل غير شرعي. محل گرجي لبيع قطع غيار السيارات كان احد المتاجر التي خُتمت وأغلقت – وكان ذلك اخر شيء شهده المرء بالنسبة لبقية رزم الكتب الثمينة.

«مهووس في اسرائيل»

ان قرار التخلي عن جنسيتي العراقية والتوجة الى المجهول لم يكن امراً سهلاً، ولم يكن خالياً من الهواجس. وكل الذي اعرفه عن اسرائيل، ومجتمعها، وثقافتها جاء من الكتب. رواية آرثر كويستلر «لصوص في الليل» كان مصدراً، في الدرجة الأولى بسبب المكانة المرموقة التي يتمتع بها الكاتب بفضل رواياته «ظلام عند الظهيرة»، و «وصول ورحيل»، واسهاماته العديدة في مجلة Horizon، من بينها تقرير اولي ومرعب عن معسكرات الإبادة. اتذكر بأن إيلي وأنا كنا مأخوذين جداً عند قراءة شيء ما كان كويستلر قد نشره في مجلة Horizon بعنوان «مهووس في اسرائيل». في ذلك الوقت وجدنا القصة مسلية والتقرير مكتوباً بشكل جيد، لدرجة انه في رسائلنا اعتدنا على ان نتندّر بالفكرة والسياق.

عندما اتخذت في النهاية قراري، ومع ندرة المادة الموثوقة حول بلدي المستقبلي في التبني، غالباً ما كنت افكر بحكاية المهووس عديم الحظ وما رأيته بأنها نقطة جوهرية لـ «كويستلر» – لاسيما ان اسرائيل، والمجتمع اليهودي في ايام ما قبل الدولة، كانت نوعاً من الأرضية الخصبة للمهووسين. التوترات، والتعقيدات، والضغائن، والتناقضات الحادة، والتنوع الكبير، التي بدأت اشعر بها، اذا ما

وُضعتْ جميعها سوية فإنها تؤدي بسهولة الى الهوس، وبالأخص بالنسبة للناس المفكرين، ذوي الميول الثقافية.

ومن اجل إنعاش ذاكرتي استطعت فيما بعد، عندما استقرّ بي الحال في اسرائيل، ان احدّد مكان المقالة وأقرأها من جديد. رشح بأن كويستلر لم يكن المؤلف الحقيقي، بل هو مترجم فقط. وإذ نُشرت المقالة في عدد حزيران عام 1949 في تلك المجلة الشهرية، يكتب كويستلر في «ملاحظة المترجم» عن مؤلفها: «الدكتور جيكوب وينشال هو طبيب ممارس في تل ابيب، نشر عدة اعمال في العبرية الحديثة. تخصصه هو المهوسون السياسيون». لم ادرك – و، الحق اقول، مازلت لا ادرك – بأن المهوسين السياسيين اصبحوا «تخصصاً»، وتصدّى له « اطباء ممارسون ايضاً.

ومهما كان الأمر، قُدَّمت المقالة بوصفها دراسة تاريخ حالة مريض وينشال B، وكُتبت حسب طلب كويستلر على شكل رسالة معنونة اليه اثناء زيارة اخيرة الى تل ابيب «بحثاً عن مادة لكتاب حول اسرائيل.» ويختتم كويستلر، لابد ان نعيد الى الأذهان، بأن المريض B توفي عام 1945، وتشير الأحداث الى فترة حتى ابكر من ذلك التاريخ – «السنوات المضطربة من تكوّن الدولة الجديدة.»

ان الطريقة التي كُتبت فيها الدراسة نزعت الى إظهار الدرجة التي شدّد عليها وينشال، وفهمها، المتماهية تقريباً مع مريضه، الذي يدعوه «صديقي» طوال تلك الدراسة. يكتب في نقطة ما، «رجل مسن ذو ماض رائع يقترب من المليونير في فينا، خسر، مثلنا، ممتلكاته ... كان يشعر بعدم الفائدة تماماً في بلادنا هذه.» ويتأمل في مجرى تاريخ حالته، «التاريخ، مثل الطبيعة – وكونه جزءً من الطبيعة – يمتلك رعب الفراغ. ان مجتمعاً جديداً كمجتمعنا هو غير كامل و يفيض بالفراغات – كالجيوب الهوائية التي تجعلك تشعر بالدوار على متن رحلة جوية.» وفي نقطة ما يقتبس، «صرخة معينة» من «صديقي B»:

وأمة النصف مليون شخص التي لا تعرف اية إهانة غير كلمة «حمار»؛ والتي تتألف مفرداتها برمتها الخاصة بالأغراض الجنسية والغزلية من العبارة المجردة «احبك» – امة كهذه لاتمتلك هوية. انظر فقط الى اسماء شوارعنا! كيف يمكنك ان تتحدث عن امة ذات هوية في مدينة حيث شارع فيرديناند لاسال يقطع زقاق البقالين، ومجموعة إسطبلات سقراط تنتهي في شارع رابنوچ؟ صدقني، ايها الطبيب، لا نمتلك هوية ... بالطبع نحن جميعاً عبرانيون، ونتكلم جميعاً اللغة العبرية ونعبد انبياءنا وحاخاماتنا. لكن أي نوع من العبرانيين نحن، ومن اية مرحلة في التاريخ؟ يعتقد [حايم] وايزمان بأننا نعيش في فترة عزرا و ناهيميا، فترة العودة من المنفى البابلي؛ إذ يظن اشتراكيونا في المستوطنات بأننا فلاحو زمن السلالة المكابية؛ ويعتقد [مناحيم] بيگن بأنه نسخة من بار كوخبا الذي قاد الثورة ضد الرومانيين. في اية لحظة حرجة توقّفت ساعة تأريخنا؟ ... ماهو ذلك الشيء الذي علينا ان نستمر عليه؟ هل هي تقاليد فلافيوس يوسيفوس الذي استسلم وتصالح مع زعماء الرومانيين، ام [تقاليد] حاخام عقيبة الذي كان فيلسوفاً ومع ذلك هو قائدُ تمردٍ يائسٍ ضد روما؟ ذلك هو السؤال!

الأسلوب الذي واجه فيه المريض B موته كان خسيساً مثلما كان مروّعا. «فبعد ان اخذه هجوم هوس الاضطهاد اندفع عارياً الى الشارع. تعقّبه بعض الشباب، ورموا الحجارة وراءه، جرحوه وخدشوه وسحبوه من شعره على طول الرصيف. توفي في المستشفى من آثار الضرب الذي تلقّاه في الشارع وفي مركز الشرطة.»

بالنسبة للمراقب المتعاطف مثلي، اذا كان شكّاكا جداً، والذي لا يحمل صلة ايديولوجية معينة بالكيان اليهودي المستقل المتشكّل حديثاً، فإن قصة المريض B، وتأملاته وهواجسه، ونهايته المريعة لم تثر أي شيء سوى الأفكار المتجهمة. ليس لأن سقف توقعاتي كان مرتفعاً جداً. عند النظر في الهجرة الجماعية والصراعات المسلحة التي انتهت لتوها، يعرف المرء بأن الصعوبات المالية للدولة الجديدة لابد انها كانت مدهشة جداً. مع ذلك، كان التفاؤل منتشراً بين المهاجرين المتوقعين، لاسيما الشباب منهم، برغم ان عدداً قليلاً حاول الإسهاب في ذلك.

يوسف الكبير

من بين اليهود الذين قررت ان اراهم قبيل رحيلنا، رجال اقدّر رأيهم ايما تقدير والذين شعرتُ انني لابد ان اودّعهم، كان يوسف الكبير، وهو محام بارز وعضو محترم جداً في الجالية (التي، على اية حال، لم يوافق قط على تبوء أي منصب سياسي). كنت رأيت الكبير اول مرة اثناء السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية يبحث عن كتب ومجلات في مكتبات بيع الكتب الأجنبية القليلة التي اعتدت ارتيادها، وبشكل رئيس مكتبة مكنزي. حقيقة استغرق منا اللقاء والحديث وقتاً قصيراً، وفي السنوات التي قضيتها في ادارة مكتبة الرابطة وكتابة عروض للكتب والمجلات لصحيفة Iraq Times كنت اتجرّأ غالباً في الحوار معه او اطلب الرأي منه، برغم انه كان دائماً بعيداً وكتوماً.

انها اول زيارة كنت سأقوم بها للكبير في مكتبه وجاءت حسب طلبي. عرف باغلاق المكتبة ولم يسعه ملاحظة غياب عروضي في صحيفة الـ Times، التي كان كغيره من يهود العراق المتغرّبين Westernized قارئاً منتظماً. وهكذا كان واضحاً نوعاً ما بأنني كنت مستعداً لمغادرة البلاد بشكل دائم، وضيفي – الذي لا تُعرف ميوله الصهيونية والذي ماانفكّ ينصح بدمج اليهود في قومية عراقية – لم يحاول ان يثنيني برغم انه لم يُظهر أي حماس خاص. في ذلك الوقت كانت الأمور تتسارع فيما كان عدد المهاجرين المتوقعين يزداد بوتيرة لم يحاول أي احد ان يقلل من السيل الجارف.

ان الجزء الوحيد من حوارنا الذي اتذكره الآن بوضوح هو ملاحظاته اللاذعة – التي، لابد ان اضيف، انه ابداها بحزن وليس بتهكّم – حول المواقف والآمال العريضة التي كان المهاجرون يحملونها بالنسبة لتوقعاتهم في اسرائيل. وما اثار استغرابه على نحو خاص النشاط الذي كانوا يندفعون فيه في التنازل عن جنسيتهم العراقية. وقال بأسلوبه الهاديء دائماً، «من ناحية، على الأقل، انهم يرتكبون خطأ جسيماً. يبدو انهم يفكرون بأن الهجرة لا تعدو اكثر من 'تسيارة الشطاني'« [أي تجوال على ضفاف نهر دجلة].

انحدر يوسف الكبير من اغنى العائلات اليهودية في بغداد وأكثرها نفوذاً. كان اصغر ثلاثة اخوة، الآخران هم حسقيل و إبراهيم، اللذان تركا كتب مذكراتهم على شكل مخطوطات.

حسقيل الكبير، الذي غادر العراق الى باريس بحدود عام 1932، عنونَ عمله بـ «العلاقات بين العرب واليهود». اما ابراهيم، الذي قيّض له ان يتبوأ عدداً من المراكز الحكومية المرموقة ابتداءً تقريباً بميلاد المملكة العراقية، والذي تقاعد عن الخدمة العامة في اواسط الستينات وهاجر في نهاية المطاف الى فرنسا، فقد كتب مجلدين من المذكرات – «حياتي العمومية: موت مجتمع» و «حياتي الحكومية: قصة حلم».

بقي يوسف الكبير في بغداد مدة 15 سنة عقب النزوح الجماعي لليهود الى اسرائيل، ليترك موطنه الأصلي نحو باريس عام 1966. وباستثناء مقالات ورسائل متفرقة قليلة الى المحرر نشرها في صحيفة Iraq Times في ظرف ثلاثة عقود، يبدو انه قد ترك بعض المذكرات عن حياته وعمله في بغداد التي بقيت غير منشورة. ولايُعرف عنه او اخويه انهم زاروا اسرائيل في يوم ما.

من مطار بغداد الى مطار اللد، 10 شباط، 1951

مازلت ارتعد حينما اتذكر تلك الرحلة – ومازلت ارى هذا الأمر معجزة بأنه في النهاية هبطنا بسلام في مطار اللد. اذ ان الطائرة القديمة ذات المقاعد الخشبية نفثت الهواء وهبطت وبالضبط طقطقت، وفي لحظة مخيفة في منتصف الطريق غطست واعتقدت بأن تلك هي النهاية. لا اتذكر رؤية أي من المضيفين او المضيفات، وكان المسافرون يرتعدون من البرد ويستخدمون أي شيء يمكنهم ان يضعوا ايديهم عليه ليلفّوا به انفسهم. اما الصوت الذي يُصدره المحرك فقد كان عظيماً جداً بحيث لا يستطيع المرء ان يسمع كلمة.

وبرغم اننا غادرنا مطار بغداد قبل غروب الشمس، الاّ إنه تطلّب منا عدة ساعات للوصول الى مطار اللد، فحسب ما اتذكر اننا هبطنا حينما كان الجو ما يزال مظلماً لكن سرعان ما طلع النهار. ان الطريقة التي استُقبلنا فيها جعلت الناس تتذمر، برغم انني ظننت بأنه ليس من العجب حدوث من هذا الشيء في مثل هذه الظروف. وأول شيء طُلِب منا القيام بعد الهبوط هو البقاء في مقاعدنا حيثما كنا؛ ثم دخل شخص قصير، ملتحٍ بدا نفسه غير مغسول نوعاً ما في الطائرة وبدأ بغسل المسافرين بشكل منظم سطراً بعد سطر بمسحوق الـ دي دي تي – بشكل مفاجيء.

ليست هناك تمتمات او شكاوى وتحوَّل ذلك الإجراء البشع برمته الى موضع تندّر بين المهاجرين العراقيين في اسرائيل. وعند النظر من زاوية ما كان بانتظار هؤلاء المهاجرين، على اية حال، نذير شؤم – اول الغيث لنوع الموقف الذي كانت ستتخذه المجموعة الداخلية تجاه هذه الشريحة من المجموعة الخارجية.

ويبقى وقت الرحيل ذكرى مؤلمة ومرعبة. اذ ان جو شباط في بغداد معروف بتقلّبه، لكن في ذلك المساء من يوم 10 شباط، عام 1951، كانت السماء صافية ودرجة الحرارة معتدلة. كانت نوافذ

الحافلة الصغيرة التي استخدمت لأخذ اليهود المغادرين الى المطار [كانت] مغلقة بالخشب المعاكس المؤقت من اجل ان لا يستطيع المارّ رؤية وجوه المهاجرين. والسبب وراء هذا الإحتراز الخاص لم يكن واضحاً لكن لابد انه يتعلق بشيء ما مرتبط بالـ «الأمن».

لكن الذي كان يعني للمسافرين، على اية حال، هو حرمانهم من آخر نظرة لمدينة ولادتهم، التي كانوا يعرفون بأنه مكتوب عليهم ان لا يروها مطلقاً. وبينما عبرت الحافلة شارع الرشيد العام ومن ثم عبرت الجسر على دجلة واهب الحياة، فإن كل الذي تمكنت من القيام به هو تخيّل الأماكن التي مررنا بها والمعالم التي اصبحت جزءً لايتجزأ من حياتي اليومية ومن شعوري. وإذ كنت اقوم بذلك وجدت بأن عليّ ان ابلع بشدة وأحاول منع الدموع المتكوّنة في عينيّ.

كنت في السادسة والعشرين من العمر في ذلك الحين. كانت الخمس عشرة دقيقة او نحوها التي تستغرقها الرحلة الى المطار غير كافية لإستحضار مترف للأحداث؛ لكن بسبب كنه الطبيعة البشرية، وجدتُ نفسي مجبراً على المحاولة. ست وعشرون سنة وشهران – جميعها، ماعدا اسابيع قليلة قضيتها في كرمنشاه وأيام قليلة هنا وهناك داخل العراق، تمّ قضاؤها في هذه المدينة [بغداد].

أشياء اتذكرها و أشياء اتذكرها على النصف، حقائق وصور وخيالات – كلها انثالت مزدحمة في رأسي في هجوم قاسٍ لمشاعر مختلطة من الندم والإمتعاض، السعادة والآمال العريضة. المباهج والتعاسات، الإنتصارات وخيبات الأمل، الصداقات، الكتب، الجو المطلق، الروائح، الأصوات، والمناظر: ماذا عسى ان يجعل المرء منها عندما يعرف بأنه يودّع كل تلكم الأشياء؟

وإذ استذكر تلك اللحظات الكئيبة من اللايقين، والتشويش، والفقدان الآن، بعد خمسين سنة طويلة، لايسعني الاّ ان اردّد ابيات تي. أس. إليوت من قصيدة «Little Giddings» في «الرباعيات الأربع» Fourth Quartets: «لن نتوقف عن الإستكشاف / ونهاية استكشافنا / ستكون للوصول الى حيث بدأنا / ومعرفة المكان للمرة الأولى.»

لكن سبق السيف العَذَل وتوجّهنا الى المطار ومن ثم في ظرف ساعات قلائل سنكون في اسرائيل ونبدأ حياة جديدة، وبذلتُ جهداً للتركيز على ذلك الجانب من الرحلة المحيّرة.

بلند يستذكر الأيام الخوالي

كان الفضل كل الفضل يعود الى سميرة المانع و مجلة «الإغتراب العربي» في تجدّد الإتصالات، بعد 44 سنة طويلة من الإنفصال الإضطراري، مع على الأقل صديقَي شبابي الذَين افتقدتهما كثيراً. لقد ساهم كل من بلند الحيدري و عدنان رؤوف بكلمات ثناء في ذكرى نجيب الى العدد المكرس للرجل وعمله حول موته المفاجيء، وغالباً ما شابَ ذلك ذكريات مولعة جميلة عن المراحل الأولى لصداقتهم بالراحل، حيث ذهب بلند بعيداً ليذكر اعضاء آخرين من الـ «شلّة»، والأيام التي تمّ قضاؤها في مقاهي بغداد، ومكان الإلتقاء الذي كان مكتبة الرابطة و «الشاب اليهودي الذي أدارها والذي كان اسمه نسيم رجوان».

اخيراً، بعد ان اخذ عنواني من سميرة، كتب بلند رسالة اولى مؤثرة جداً اكّد لي فيها بأن «ما بدأناه كأخوة، ككتّاب، كتطلعات، كأحلام، لايسعه الاّ ان يلمّ شملنا بالتأكيد على اننا اكبر من ان ندع الأحداث الماضية تفرقنا».

علاوة على ذلك، وبرغم السمعة التي كان قد اكتسبها على مرّ السنين بأنه شخص كسول – وهي سمعة، بالمناسبة، لايمكن ان نبررها في انسان مايزال نشيطاً جداً في اواخر ستينياته – الاّ انه نقل عنواني الى عدنان، الذي بادر الى الكتابة قائلاً، «لم تعد بحاجة الى السؤال عن اخباري من بلند. فها أنذا أأخذ زمام المبادرة.» وهذه ايضاً أرّخت البداية لمراسلة طويلة وتبادل مستمر للأشياء التي كتبها ثلاثتنا عبر هذه الأربعة عقود ونصف الماضية والتي من خلالها سنحت لنا الفرصة في رؤية النزر اليسير من الكتب والدوريات التي صادفناها. (ما عدا، يمكنني ان اضيف، عمل بلند: ما زلت احتفظ بالمجلد السميك والمطبوع والمنتَج بلا اكتراث لمجموعته الشعرية، المنشورة في دار العودة، بيروت، بعنوان «ديوان بلند الحيدري»). كما توجد ايضاً ترجمة انكليزية لقصيدة طويلة له، هي «حوار في الأبعاد الثلاث»، التي تغني فيها الجوقة:

ربنا ... ربنا .. ربنا

فلا تأخذانِ الرائي بجريرة ما رأى

و لا السامع بجريرة ما سمع

وبالعين التي وهبتَ رأينا

والعين لا تشبع من النظر

والأذن لا تمتلئ من السمع

وبمشيئتك

نقول الحق .

عدنان رؤوف يبحث عن اصدقاء قدامى

اخيراً، ارسلتُ الى سميرة نتفاً قصيرة من مذكراتي، التي ترجمَتْها ونشرَتْها في مجلة «الإغتراب» تحت العنوان العام «الرابطة وما بعدها». وأخبرتْني سميرة وزوجها، الشاعر صلاح نيازي – المحرر – بأن زملاءه المهاجرين استقبلوا السلسلة بحماس. كان احد هؤلاء، الشاعرة لميعة عباس عمارة، التي تأثرت كثيراً بوصفي لتلك الأيام الخوالي حينما كانت هي نفسها في بواكير عشرينياتها. وشاءت الأقدار بأنه رشح بأن لميعة كانت تدرّس في المدرسة الإعدادية نفسها في مدينة العمارة

الجنوبية كما كانت كذلك نورما (نورية) بار-موشيه، وإنهما اصبحتا صديقتين جداً في الجو الخانق لمدينة صغيرة حيث لم يكن مسموحاً للشابات التنقّل بعد غروب الشمس. حينما كتبتْ سميرة تخبرني عن ردة فعل لميعة لمذكراتي، اعطت عنوانها في كاليفورنيا ايضاً، الذي مرّرته حالاً الى عائلة بار-موشيه، وحصل لمّ شملٍ مؤثر عن طريق الرسائل، والفاكس، والتلفون، مع الوعد بلقاء قادم شخصياً.

في رسالته الأولى لي، من ليماسول، في قبرص، حيث كان يقضي سنيّ تقاعده مع زوجته سمية، تساءل عدنان عن الأعضاء اليهود في حلقتنا وكيف كانوا يعملون. عرف عدنان بـ «إيلي»، الذي غادر بغداد عام 1947 وبهذا لم يقضِ سوى وقت قصير مع الحلقة. كذلك ذكر نعيم قطّان، الذي يعيش الآن ويعمل في كندا والذي قال انه حاول بلا طائل ان يقيم اتصالاً معه. وبالنسبة لعضوَي حلقتنا اليهوديين الباقيين الذَين سأل عن مكان تواجدهما، كتبتُ الى عدنان بأنني قد مرّرت عنوانه الى اسحق خدوري (بار-موشيه) وأخبرته عن وفاة ناجي عبودي في ميلان قبل حوالي عشر سنوات.

وكتب بلند في احدى رسائله يخبرني بأنه قد مرّر عنواني الى عدنان في ليماسول، مضيفاً بأن عضوين من شلّتنا قد توفيا في لندن، وكم كان حزنه عميقاً اذا يراهما يُدفَنان في تربة اجنبية. وقال بأنه هو نفسه لم يكن في احسن صحة برغم انه كان مايزال نشيطاً جداً في صفوف المعارضة للنظام الحالي في بغداد. وفضلاً عن تحرير جريدة من القطع الكبير في اللغة العربية تنقل انشطة حلقات المعارضة، كان كذلك يسافر كثيراً في العواصم العربية ليبقى على تماس مع زملائه العراقيين المعارضين لصدام حسين المتفرقين الآن في جميع انحاء العالم. (ويقدّر بأن هناك اليوم مامجموعه ثلاث ملايين لاجيء عراقي، منفيين – وهو عدد يحيّر اللبّ في ان سكان العراق ككل كان يبلغ اقل من سبع ملايين حينما تركتُ ذلك البلد عام 1951.)

مرُّرت عنوان بلند الى اسحاق بار-موشيه وزوجته نورما الذَين، كونهما اكثر نشاطاً مني ومن زوجتي راحيل، في هذه الإثناء زارا بلند وزوجته – النحاتة دلال المفتي – بينما كانا في لندن. كذلك طارَ آل موشيه الى ليماسول من اجل اللقاء بعدنان، حيث استقبلهما هو وزوجته بالكرم العراقي المعروف.

بلند، الذي يعدّ الآن احد ابرز شعراء العرب المعاصرين، اخبرني كذلك بأن مصدر دخله الوحيد هو الأجر الذي يكسبه من مجلة «المجلة» الأسبوعية السعودية التي مقرها في لندن عن اسهاماته في صفحاتها الأدبية. وفي وقت مبكر من عام 1996، نشرت المجلة الشهرية الإسرائيلية العربية، «مشارف»، التي اسسها وحرّرها الراحل اميل حبيبي، [نشرت] قصيدتين جديدتين للشاعر بلند. احداهما، قصيدة طويلة موحية بعنوان «كنّا اربعة»، مهداة «الى اخي الأعزّ، نسيم رجوان».

كنا انا وبعض الأصدقاء في جامعة حيفا نحاول إقناع بلند لقضاء بضعة ايام في اسرائيل كضيف على بعض كليات الأدب العربي المختلفة حينما جاءت الأخبار بنبأ وفاته في مستشفى بلندن بعد

عملية قلب مفتوح التي، برغم نجاحها، ادّت الى مضاعفات معينة بسبب مرض السكر الذي كان يعاني منه ايضاً. كان عمره سبعين سنة.

استمرت الإتصالات بعدنان فترة اطول كثيراً. إذ زرته انا و راحيل ثلاث او اربع مرات في ليماسول مما جعلنا نتعرف اكثر على زوجته الجذابة سمية. بل حتى خططنا للقيام معاً بجولة بحرية في البحر المتوسط، كما بقينا نتبادل الرسائل فيما بيننا بشكل منتظم – رسائل طويلة تذكّر بالأيام الخوالي وتعلّق على هموم الشرق الأوسط الحالية وعملية السلام التي يبدو لانهاية لها بين اسرائيل والفلسطينيين. اخيراً في اواخر صيف عام 1998، بدأت صحة عدنان تتدهور وأدخل في مستشفى بليماسول، حيث توفي في صبيحة 29 تشرين الثاني. دُفِن في مسجد صغير في المدينة، حيث حضر ولداه، وابنته، وأختاه – الذين يعيشون جميعهم في الولايات المتحدة وفرنسا. لذلك قررت سمية ان تقيم في امريكا بالقرب من ابنيها وعائلتيهما.

الملحق 1

يهود العراق: لمحة تاريخية موجزة

اعطى إرميا، وهو اكثر انبياء بني اسرائيل مأساوية وشاهد على خراب الهيكل وغيرها من الأحداث المشؤومة، [اعطى] نصيحته النادرة هذه الى الشيوخ، والرهبان، وعامة الناس الذين تمّ نفيهم والمجيء بهم الى بابل في ثلاث موجات تهجير – في الأعوام 733، و 731، و 586 ق.م:

ابنوا المنازل واسكنوا فيها؛ اغرسوا البساتين وكلوا من نتاجها. تزوجوا وانجبوا البنين والبنات ... تكاثروا هناك ولا تقللوا عديدكم. لكن ابحثوا عن رفاهية المدينة حيث ارسلتُكم الى المنفى، وابتهلوا الى الرب نيابة عنها، لأن في رفاهيتها ستجدون رفاهيتكم (إرميا 29: 5-7).

اخذ يهود بابل المنفيون بنصيحة النبي بحيوية ونشاط؛ وجعلوا يبحثون عن، ويعملون من اجل، رفاهية المكان ووجدوا رفاهيتهم فيه. برغم انه في مكان ما آخر في التوراة نعلم بأن يهود بلاد بابل يجلسون «بجانب انهار بابل» ويبكون ترحُّما على القدس، بينما استمر السواد الأعظم من اولئك اليهود بإعادة بناء بيوتاتهم وحيواتهم – وعملوا بجد، وازدهروا، وتضاعف عددهم.

منذ تلكم الأيام الخوالي، التي تنيف على ثمانية وعشرين قرناً، تواصلَ الوجود اليهودي بلا انقطاع في بلاد الرافدين، التي تعرف الآن بالعراق. في جمهورية العراق اليوم، على اية حال، لم يبقَ في العاصمة العراقية بغداد سوى عشرين الى ثلاثين يهودياً. وكما فعل اسلافهم منذ عهد سحيق، مافتئ هؤلاء اليهود يبتهلون من اجل «رفاهية المدينة»، فضلاً عن ترحيبهم بالحاكم في ذلك اليوم – صدام حسين.

ان المنفى البابلي، الذي بدأ بالموجة الأولى من المبعَدين في وقت مبكر من القرن الثامن قبل الميلاد، لم يكن اللقاء الأول لبني اسرائيل لتلك الأرض. بمعنى، فعلاً، ان موجات التهجير كانت نفسها على شكل «عودة». اذ انه من اور الكلدانية، في سومر، خرج تارح، ابو ابراهيم الخليل، مع عائلته وأفراد عشيرته. وبعد رحلة طويلة وشاقّة، استقروا في نهاية المطاف في ارض كنعان – حيث توفي تارح في ذلك الوقت وآلت الخلافة الى ابراهيم.

هذه الهجرة مستثمرة في التوراة بصفة حركة دينية، منذ ان ترك التاريحانيون [أي اتباع تارح] خلفهم، عند مغادرتهم اور، الآلهةَ التي كانوا يعبدونها هم وآباؤهم. علاوة على ذلك، عند تولّيه زعامة العشيرة، قام ابراهيم – الذي كان موحِّدا على عكس والده – [قام] في الحال بتكسير الأصنام وتحوَّل الى خدمة الله الواحد الأحد الذي اقرّ بأنه خالق السماء والأرض والذي، على عكس الآلهة التي تعبدها ديانات اخرى في تلك الفترة، لم يكن اله طبيعة او الهاً ارضياً. بل كان من الناحية الجوهرية الهاً اخلاقياً يأمر بالعدل والتقوى.

وبعد سبع وأربعين سنة على الترحيل الجماعي، الثالث، في عام 539 ق.م، سقطت بلاد بابل بيد الفرس، فأصدر ملكهم كورش الكبير في الحال مرسوماً ملكياً يسمح لليهود بالعودة الى القدس وإعادة بناء الهيكل. كما امر ايضاً بضرورة إعادة قوارير الهيكل المقدسة الى اليهود، والتي أعادها اصلاً البابليون مع المبعدين.

وبينما كانوا في غمرة ابتهاجهم وانتعاش آمالهم، على اية حال، تردد ابناء بابل، وفي النهاية قررت الأغلبية الساحقة البقاء، إذ انه في تلك الإثناء ازدهروا وذاع صيتهم في التجارة والزراعة. فقد وجدوا بأن الرحلة الى مدينة يهوذا طويلة ومحفوفة بالمخاطر، والحياة هناك ستكون بلاشك صعبة جداً ومليئة بالمنغصات. فضلاً عن ذلك، كان يهود مدينة يهوذا فقراء، ولذلك كان ضرورياً اخذ كميات كبيرة من النقود من اجل إعادة بناء القدس والهيكل.

ومن الملاحظ، برغم هذه العوامل، بأن القافلة التي غادرت اخيراً بلاد بابل الى القدس كانت تتألف من 24,360 شخصاً، عدا 337،7 من الخدم. اخذ العائدون معهم جميع ممتلكاتهم الدنيوية، بالإضافة الى التبرعات من الذهب والفضة التي لم يقدمها فقط اليهود الذين اختاروا البقاء ولكن قدّمها الملك من خزينته. برغم صعوبة العودة وإصابة العائدين بخيبة أمل وإرهاق بعد سنين من العمل الشاق، اكتمل الهيكل المتواضع على اكمل صورة، في عام 516 ق.م، مما زرع البهجة في نفوس اليهود في كلا الموطنين.

ومع اكتمال الهيكل، بدأ يهود مدينة بابل بالشعور بأن اخوانهم في ارض يهوذا كانوا يعيشون وجوداً يهودياً كاملاً، أي على عكسهم هم الذين وجدوا من الصعب العيش عيشة يهودية كاملة على ارض اجنبية. وفي خضم هذا، على اية حال، فإنه في مدينة بابل وليس في القدس حفظت الديانة اليهودية ونظمت. علاوة على ذلك، ان عملية العودة غدت بحد ذاتها ممكنة بفضل، الى درجة كبيرة، الجهود المتواصلة والمساعدة التي قدّمها يهود الشتات البابلي.

وطيلة الألف ومائة السنة القادمة او يزيد، حيث اصبحت الأرض بالتتابع تحت سطوة الحكم الإغريقي، والروماني، والسلوقي، والساساني، مازال يهود بابل قادرين على الإحتفاظ بهويتهم اليهودية سليمة، والصمود بوجه العواصف التي اجتاحت فلسطين وأراضي اخرى حيث كانت تقطن اعداد غفيرة من اليهود. وبالفعل، بينما كانت فلسطين تكافح، لتفادي اخطار التهلن Hellenization، ومن ثم تحرير نفسها من نير روما، اصبحت جاليات الشتات على نحو مضطرد مهمة في الحفاظ وصيانة اليهودية وأسلوب العيش اليهودي.

ومن اجل تحقيق هذا في الوقت الذي يعيشون فيه كأقلية بين اكثرية غير يهودية، فإن يهود بابل خاضوا بنجاح صراعاً ثلاثياً: فهم جاهدوا للحفاظ على انفسهم، ولكسب حسن نية جيرانهم، والعيش بما ينسجم مع معتقداتهم وتقاليدهم. اما الجالية اليهودية الكبيرة الوحيدة التي لم تكن تحت الحكم الروماني، المتمثلة بيهود بابل، لقرنين تقريباً، فقد ظهروا خاملين، منزوين بانتظار مرور العاصفة. في الأخير، ومع التدهور المستمر للظروف في فلسطين، وبعد سحق آخر بقايا الإستقلال اليهودي

هناك بسقوط بلدة مسادة في ربيع عام 73 م، اضطلع اليهود البابليون بدور في الحياة اليهودية اكبر بكثير من ذلك الذي اضطلعوا فيه في أي وقت مضى.

ولم يتم التعبير عن او الإحتفاظ بهذه المركزية في اي مكان افضل من تأليف التلمود، وهي مهمة ضخمة بدأت في الأكاديمية في مدينة سورا حوالي 367 م واختتمت بعد حوالي 130 سنة. قيل، وبإنصاف، بأنه ليس هناك كتاب – باستثناء التوراة فقط – لعب دوراً مهماً في تاريخ الشعب اليهودي مثلما فعل التلمود بنسختيه، التلمود الفلسطيني او الأورشليمي والتلمود البابلي. التلمود الأخير متوفر اليوم بنسخته الأصلية في اثني عشر مجداً صعبة الى حد ما وفي ترجمة انكليزية في ثلاثة اضعاف عدد مجلداته في النسخة الأصلية.

وإذا قيّض للتلمود ان يمتلك خصيصة واحدة يمكن ان تطغى على الخصائص الأخرى، فتلك ستكون خصيصة البراغماتية. فحاخامات التلمود لم يكونوا فلاسفة، ولم يكونوا مهتمين بالنظريات. بل كان هناك أناس عمليون همّهم الرئيس هو السلوك. ان منهجهم العملي في قضايا الدين والعقيدة الدينية يدخل في صميم عملهم، بالفعل، بحيث حتى امتدّ الى الموضوع البالغ الأهمية المتعلق بالإيمان بالله. اذ ان الحاخامات اوضحوا بأن المعتقد لا يُمتَدَح الاّ بقدر ما يؤدي الى اعمال خيّرة – وبأن الإعتراف بالإيمان بالله والتصرف كما لو انه لم يكن موجوداً هو امر غير ذي قيمة تماماً. كما اشاروا الى ان معرفة الله وعدم التصرف بما ينسجم مع مشيئته هو اسوأ من إنكار وجوده.

هذا وتنوعت وتعددت الطرق التي قام فيها اليهود، المتفرقون في جميع انحاء المعمورة في القرون المتأخرة، باستخدام التلمود البابلي استخداماً حسناً. اذ عند بروز مواقف جديدة وعند ظهور حاجات جديدة، كان اليهود يلجأون الى التلمود للنصح. وبرغم انهم في الكثير من الحالات لم يجدوا هناك مايشابه، او مايطابق، الظروف التي تعرضوا لها، الاّ انهم مع ذلك وجدوا مايوازيها. وهذا ما ادى الى كتابة العديد من التعليقات على التلمود، وعلى العديد من القوانين المختلفة المستندة عليه.

ان التأثير الكبير الذي تمتع به التلمود البابلي على الجاليات اليهودية المتشتتة يرجع تاريخه الى حوالي نهاية القرن السابع بعد الميلاد. وتزامنت هذه الفترة مع نهاية الحكم الساساني في بلاد مابين النهرين. بعد ذلك بفترة قصيرة، بدأت الجيوش الإسلامية بالزحف المظفر لفتح اجزاء شاسعة من العالم المتمدّن آنذاك، حيث كانت بلاد مابين النهرين احد انجازاتهم المبكرة. ثمة سبب للإعتقاد بأن يهود بابل، بالإضافة الى اليهود في اماكن اخرى، رحبوا بالحكام الجدد مع شعور عميق بالإرتياح، كون الساسانيين في ذلك الوقت قد بدأوا بموجاتهم الدورية من المضايقة والإضطهاد ضد رعاياهم اليهود.

في الوقت الذي بدأ فيه اتباع محمد وقادته سلاسلَ فتوحاتهم المثيرة، كان اهم مركز للحياة اليهودية بالإضافة الى اكثرها اكتظاظاً بالسكان [كان] يقع في بلاد مابين النهرين. لقد ازدهرت المدارس والأكاديميات القديمة؛ وكذلك مازالت ذكرى الفترة التلمودية طرية؛ ومكتب المنفيين، الذي يمثّل رمز الحكم الذاتي اليهودي وقناته الرئيسة، مازال يقوم بوظائفه برغم التقلبات التي عانى منها اثناء

العقود القليلة الماضية. لذلك كان طبيعياً بالنسبة لأولئك الفاتحين ان يتحولوا صوب منفيي اليوم، للتعلم من خبرتهم القصيرة كحكّام في اراضي اجنبية بأنه من الأفضل استثمار المؤسسات الحالية بدلاً من إضاعة الوقت الثمين في محاولة فرض طرقهم وأعرافهم الخاصة بهم.

برغم الأعباء الناجمة من كونهم من اصحاب الذمة (أي اشخاص عمل معهم المسلمون ميثاقاً وكان يربطهم بهم التزام)، فإن يهود بلاد مابين النهرين رحّبوا بالتغير نحو الحكم الاسلامي، بشكل اساسي لأن الحكام الجدد تركوهم لحالهم. ان الأوجه المختلفة للتمييز المتمثلة في ما يسمّى بميثاق عمر، والتي كانت اجتماعية من حيث الصفة، تمّ تطبيقها بشكل متقطع وفي اغلب الأحيان كان يتم التغاضي عنها بالمرة. ففي الممارسة اليومية، لم يتم التسامح في الحقيقة مع اهل الذمة فقط بل كانوا يتمتعون في بعض المناطق بمساواة كاملة امام القانون. على اية حال، وبسبب انشطتهم الثقافية والدينية التي ماتزال تشكل همّهم الأكبر، وبسبب إدارة شؤونهم الداخلية بما ينسجم مع قوانينهم وأعرافهم الخاصة بهم، شعر اليهود بأن وضعهم كان افضل مما كان عليه تحت الحكام الساسانيين المتذبذبين، والمتزمتين غالباً.

اصبحت بغداد في القرن الثامن مركز الثقل ليس فقط للإمبراطورية الإسلامية بل ايضاً للحياة اليهودية البابلية والتعلم. وبُعيد بروزها عاصمةً وحاضرة، اصبحت المدينة بالتدريج مقرًّا اولاً للمنفيين وثانياً للغاؤونيم (عمداء الأكاديمية)، الذين حتى ذلك الوقت كانوا يسكنون في ثلاث مراكز للتعليم اليهودي، نهارديعا، و سورا، و بومبيديتا.

كان الرحّالة اليهودي الكبير من القرون الوسطى بنيامين الطليطلي في نا□ار [كان] في بغداد حوالي العام 1168، وتقريره يسلّط الكثير من الضوء على حياة يهود المدينة في القرن الثاني عشر. يكتب:

في بغداد كان هناك 40,000 يهودي يسكنون في امان، ورخاء، و شرف تحت حكم الخليفة العظيم، ومن بينهم ثمة حكماء كبار، هم عمداء الأكاديميات المنخرطين في تدريس القانون. وعلى رأس الأكاديمية الكبرى هو الحاخام الأكبر، الحاخام صموئيل ابن علي. هو «عميد الأكاديمية التي هي بفضل يعقوب». كان لاويًّا، ويرجع نسبه الى موسى معلمنا.

وانتهى مجد بغداد حينما زحف هولاكو، حفيد جنكيزخان، بجحافل المنجنيق تجاه العراق، ليدك اسوار العاصمة في كانون الثاني عام 1258. بحلول 10 شباط، كما يكتب احد المؤرخين، «تحركت حشود هولاكو الى داخل المدينة واندفع الخليفة سيء الحظ بمعية 300 من مسؤوليه وقضاته لعرض استسلام غير مشروط.» بعد ذلك بعشرة ايام،على اية حال، تمّت ابادتهم جميعاً، وبقيت المدينة نهباً للسرقة والنيران. وتمّ مسح غالبية السكان من الوجود.

كانت المجزرة التي اقترفتها حشود هولاكو ذات ابعاد كبيرة بحيث قدّر ان عدد الضحايا مابين 800,000 و 2,000,000. وبرغم نجاة اهل الذمة في العاصمة، المسيح واليهود، وفق بعض المؤرخين المسلمين، الاّ ان يهود بغداد عانوا اسوة بجيرانهم المسلمين من الخراب والإستباحة.

لانعرف سوى القليل عن يهود العراق تحت حكم الخانات khans[26] المغولية، التي انتهت سطوتهم على البلاد في عام 1336. ولم يبدأ اليهود بإعادة بناء حيواتهم في العاصمة الاّ في اواسط القرن الخامس عشر، اثناء فترة حكم اوزون حسن وخلفائه من الخروف الأبيض. كما يُعتقد ايضاً بأنه بعد العام 1492 وجد عدد من اليهود الذين طُرِدوا من اسبانيا طريقهم نحو بغداد.

في اليوم الأخير من العام 1534، دخل السلطان العثماني سليمان القانوني بغداد، برفقة عدد من العلماء والأطباء اليهود. يقال بأن الجالية اليهودية في المدينة ساعدته ورحّبت به بحفاوة. وحكم الأتراكُ العراقَ من خلال نوّاب، يعرفون بالباشوات والولاة. وبحلول منتصف القرن السادس عشر، بدأت الجالية اليهودية في بغداد بإعادة تأكيد وجودها وفي بواكير القرن السابع عشر، حينما زار الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا المدينة، وجد هناك 25,000 منزلاً، 250 منها كان يقطنها اليهود. وأخبرته الإثنتا عشرة عائلة التي تحدّث اليهم بأنهم وأسلافهم كانوا قد عاشوا في بغداد منذ تدمير الهيكل الأول. كذلك صرّح بأن لدى اليهود العديد من الكُنُس؛ وكانوا يكسبون عيشهم بالعمل في مختلف المهن وفي التجارة؛ وسكنوا جزءً معيناً من المدينة حيث موقع كنيسهم – اشارة الى الكنيس الكبير.

بعد فاصل قصير من الحكم الفارسي، اعاد الأتراك احتلال العراق عام 1638، وبقوا هناك حتى عام 1917. وبرغم التغيرات المستمرة والإعتباطية غالباً في النواب، بقي موقف اليهود مستقراً نوعاً ما طوال هذه الفترة. وبالإحتكام الى المقاييس السائدة آنذاك بالنسبة لهذه القضايا، فإن الجالية اليهودية اسوة بغيرها من جاليات الأقليات عاشت تحت نظام متسامح الى حد ما. كانت بغداد، طبقاً لملاحظة احد المؤرخين، عالمية جداً، والطوائف الإسلامية كانت متشعّبة ايضاً، بحيث لايمكن ان تغذّي او تشجع التعصّب.

حكم العراق 12 باشا في الأعوام 1750-1831، ولم تكن وجهات نظرهم تجاه اليهود متطابقة. ففي الربع الأول من القرن التاسع عشر بلغ عدد اليهود في بغداد حوالي ستة آلاف. كان بعضهم ثرياً، والغالبية موسرة نوعاً ما، وأقلية صغيرة فقيرة. نشط معظم اليهود بالتجارة، في البيع والشراء، وفي إقامة اتصالات تجارية امتدت في بعض الأحيان الى البلدان المجاورة مثل تركيا، وسوريا، واليمن، والهند. وبعض اليهود كانوا حرفيين – صاغة ذهب، وصباغون، الخ.؛ والقليل منهم عمل كموظفين حكوميين. وعاشوا في حيّ منفصل، برغم ان غالبية ساكنيه من اليهود، الاّ انه لم يكن من ذلك النوع الذي كان يُعزَل فيه بالقوة اخوانُهم في الدين في الغرب.

فضلاً عن بغداد فإن الجالية اليهودية الكبيرة الوحيدة الأخرى عاشت في شمال العراق. الاّ ان يهود كردستان، برغم انهم اقل تأثراً بالغزو المغولي، عانوا من انتكاسة بعد خمسة قرون حينما، في عام 1832، تمّت استباحة مركزهم الإقتصادي والفكري الرئيس، مدينة الموصل، وتدميرها عملياً على يد حاكم محافظة مجاورة ثار ضد السلطان. وهذا دلّ على نهاية عملية انحدار لم تتمكن الجالية اليهودية الكردية من الشفاء منها حتى القرن العشرين.

في جنوب العراق، اختلف الموقف في ان هذا الجزء من البلاد كان تقريباً بدون اية مستوطنات يهودية منذ القرن الثالث عشر، باستثناء جاليات صغيرة في البصرة، والحلة، وعانه. والأسباب وراء هذا كانت اقتصادية الى درجة كبيرة وتتعلق بقضايا الجغرافيا والإدارة. ولم يحصل أي تقدّم حتى بداية القرن الثامن عشر، في كل من اعداد هؤلاء اليهود ووضعهم السوسيو-اقتصادي.

وإثناء فترة حكم محمد الثاني، الذي اعتلى العرش في اسطنبول عام 1808، تمّ التفكير بالإصلاحات الأولى بعد قرنين من الإنحطاط الإجتماعي، والإداري، والأخلاقي. وعند اعتلائه العرش انطلق السلطان الجديد في مسألة العصرنة modernization عن طريق فتح كلية طب وكلية عسكرية، بالإضافة الى عدد من المدارس الثانوية، وأمر بإرسال 150 طالباً الى اوربا لإكمال دراساتهم العليا. كذلك جعل التعليم الإبتدائي الزامياً، وأنشأ خدمة البريد، ووضع الأسس لجهاز شرطة وطني. كما انتهت الممارسة العريقة في اعادة ملء الخزينة عن طريق مصادرة املاك المسؤولين والمواطنين الخاصين. وبالنسبة لليهود وغيرهم من اهل الذمة، يقول جفري لويس، وهو مؤرخ تركيا الحديثة:

ان التسامح الإسلامي التقليدي، المستند ... على احتقار اتباع العقائد الأخرى الغارقة في الجهل، كان سيستبدل بمساواة حقيقية بين الأديان. تذكر التقارير بأن محمد الثاني قال: «من الآن فصاعداً لا اميّز المسلمين الاّ في المسجد، والمسيحيين الاّ في الكنيسة، واليهود الاّ في الكنيس. اما خارج اماكن العبادة هذه ارغب في ان يتمتع كل فرد بالحقوق السياسية نفسها وبحمايتي الأبوية».

وإثناء العقود الأولى من القرن التاسع عشر، بدأت حظوظ يهود العراق تتحسن على نحو ملحوظ، وعلى جميع الجبهات. اذ ازداد عددهم في المركزين الحضريين الرئيسين، بغداد والبصرة، وحصلت تحسينات في اوضاعهم الإقتصادية حينما بدأوا يستأنفون نشاطهم القديم كصيارفة كبار ومستشارين ماليين بعد قرون قليلة من الإنحطاط. وفي مجال التعليم، ايضاً، طرأت تغيرات اثبتت اهميتها الراسخة. كما حدثت ايضاً تغيرات في الوضع السياسي لليهود اثناء هذه الفترة، لاسيما بعد الإعلان عن سلسلة من الإصلاحات بعيدة المدى في التنظيمات في تشرين الثاني عام 1839. بعد ذلك بخمسين سنة، حينما جاء الأتراك الشباب بمفاهيمهم الجديدة المتعلقة بالمساواة، والحرية، والأخوة، رحّب اليهود بالإصلاحات ترحيباً حاراً – وعندما التئم برلمانٌ في اسطنبول عام 1908 تم تعيين احد اليهود العراقيين البارزين، الا وهو ساسون حسقيل، ليمثّل يهود ولاية بغداد.

وهكذا كانت عملية تغير جذرية في الظروف الإجتماعية، والسياسية، والتربوية، والإقتصادية في اوجها قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914. من المهم ان نضيف هنا، على اية حال، بأن هذه التغيرات لم تؤثر سوى على نسبة صغيرة من الجالية، على الأرجح الـ 5% العليا التي تمثل الأغنياء وجزء صغير ليس الاّ من الطبقة الوسطى. مهما يكن، وجدت الحرب العالمية الأولى والإحتلال البريطاني اليهود مستعدين استعداداً جيداً وكافياً.

هذا ويمكن ان تعود بعض مؤشرات النشاط الصهيوني بين يهود العراق الى 1890s. وازداد هذا النشاط بعض الشيء في السنوات المبكرة من القرن، برغم انه قلما تجاوز قراءة الدوريات العبرية

والأدب الصهيوني المبكر. وكونه محدوداً في نطاقه، فقد بدأ هذا النشاط بمبادرة من اليهود المحليين وليس من الخارج. والسبب لماذا هذا [النشاط] على مثل هذا النطاق الصغير كان ذا شقين – الموقف العدائي للسلطات من ناحية وانعدام زعماء صهاينة محتملين من ناحية اخرى. اضافة الى ذلك، لم يشهد العراق في تلك المرحلة المبكرة بروز حركة قومية عربية، وهي حالة مالت الى تأخير ظهور حركة موازية بين اليهود.

في بواكير العشرينات، حينما بدا النشاط الصهيوني يديم الزخم، عبّرت السلطات العراقية عن الرغبة في ان يلتزم الصهاينة الإنزواء، وهو موقف يتشاطر به المندوب السامي البريطاني في بغداد. وقيادة الجالية، ايضاً، كانت تشعر بعدم الإرتياح حول التأثير الذي من المحتمل ان يفرضه النشاط الصهيوني على موقف اليهود. ويوضّح هذا الوضع افضل توضيح مناحيم صالح دانيال، وهو عضو بارز في الجالية، في رسالة بعثها الى سكرتير المنظمة الصهيونية في لندن في 8 ايلول، 1922، كتب فيها بأن الحركة الصهيونية شرحت لليهود «مشكلة تحتاج الأوجه المختلفة فيها الى النظر بتأني».

وأضاف، «ثمة مشاكل لم تواجهها أي من الجاليات اليهودية الأوربية، تفرض نفسها علينا في هذا الصدد.» وانتهت الرسالة بملاحظة مشؤومة. اذ كتب، «الآراء المقدمة اعلاه هي آرائي الشخصية. من المؤسف جداً ان الجالية منظمة organized بشكل يرثى له جداً بحيث لا تمتلك أي رأي منسّق، ولهذا السبب هي فعلاً معرّضة للخطر اكثر.

وكذا كان معرضاً للخطر موقف يهود العراق بالفعل – لكن في النهاية لا التماسات دانيال ولا تحليله كانت مقنعة سواء للصهاينة في الخارج او للقوميين العرب في الداخل. وكما لاحظ إيلي خدوري: «بحكمة ثاقبة تتنبأ رسالة [دانيال] بالخطر المحدق بجالية مؤلفها الذي يمثله اسلوب السياسة التي تتشاطر فيها الصهيونية والعروبة بنفس المقدار، وهو خطر غدا مميتاً جداً نتيجة اللامبالاة بالشؤون العامة والسياسية التي، كما يلاحظ بشكل صائب، كانت ميزة يهود بغداد.»

ثمة تطورات تالية، لاسيما في الثلاثينات، كانت ستعطي دلائل كثيرة لنظرة دانيال الكئيبة. وبلغت الأمور ذروتها في حزيران عام 1941، في نهاية ثورة قومية مؤيدة للمحور برئاسة رشيد عالي الكيلاني، انطوت على تدخل عسكري من جانب بريطانيا العظمى، حيث خضع يهود بغداد الى سلسلة من اعمال السلب والقتل ليومين متتاليين. وقد تمّت الإشارة الى هذه الأعمال، المعروفة جيداً بالمصطلح العربي «الفرهود»، في متن هذه المذكرات.

الملحق 2

الكاتب نسيم رجوان: سيرة حياة وقائمة بأهم مؤلفاته

ولد الكاتب نسيم رجوان في بغداد، العراق، في 12 كانون الأول عام 1924. اكمل دراسته الإبتدائية عام 1939، وأكمل دراسته الثانوية في المدارس المسائية عام 1945. عمل كاتباً في مصرف للفترة مابين عامي 1941 و 1946. ترأس إدارة مكتبة الرابطة من عام 1946 الى عام 1949، واثناء هذه الفترة عمل ضمن كادر صحيفة The Iraq Times بوصفه مراجِعاً للكتب والأفلام. هاجر الى اسرائيل عام 1951. وفيما يلي تقرير مفصّل عن مراحل حياته وقائمة بأهم مؤلفاته وأعماله.

- Nissim Rejwan: Curriculum Vitae and Partial List of Publications
- 1924: Born in Baghdad, Iraq, 12 December.
- 1931-1945: Primary School (1931-39). Secondary Night School (1939-45).
- 1941-1946: Bank Clerk; Ministry of Commerce temporary employee.
- 1946-1949: Manager, Al-Rabita Bookshop.
- 1946-48: Staff writer, The Iraq Times (Book and Movie Reviews).
- 1951: Emigrated to Israel.
- Hebrew University, Jerusalem:
- 1951-52: Islamic Civilization, Arabic Language and Literature.
- 1955-56: Medieval History, International Relations.
- 1951-57: On the staff of The Jerusalem Post.
- 1952-96: Staff writer The Jerusalem Post (Marginal Column Arab Affairs Commentator Book Reviewer) 1952-1996.
- 1957-59: News Editor Israel Broadcasting Service (Arabic).
- 1949-66: Editor-in-Chief, Al-Yawm daily, Tel Aviv.
- 1963-89: Member of the Editorial Board, New Outlook Magazine.

Tel Aviv University:

- 1966-1967: Sociology, Anthropology, Modern Middle East
- 1967-1969: Senior Research Fellow The Shiloah Institute for Middle Eastern and African Studies Tel Aviv University.
- 1970-1973: Political Analyst, The American Jewish Committee Israel Office.

- 1971-1973: Founding member and one-time chairman The Association for Civil Rights.
- 1976-1989: Features Editor Israel Arabic Broadcasts
- 1987: Research Associate South-West Asia and North Africa Program State Universit of New York at Binghamton.
- 1996 - 2014: Research Fellow، The Harry S. Truman Research Institute for the Advancement of Peace، The Hebrew University of Jerusalem

Books:

- Nasserist Ideology: Its Exponents and Critics (John Wiley & Sons، N.Y. 1974).
- The Jews of Iraq: 3000 Years of History and Culture (Weidenfeld and Nicolson، London; Westview Press، Boulder CO، 1987).
- Elie Kedourie and His Work: An Interim Appraisal (Davis Occasional Papers، The Leonard Davis Institute for International Relations، 1997).
- Arabs Face the Modern World: Religious، Cultural، and Political Responses to the West (University Press of Florida، Gainesville، FL 1998).
- A Short History of the Jews of Iraq (Association of Iraqi Academics in Israel، Jerusalem، 1998) (in Arabic).
- Jews and Arabs: Retrospect and Prospects (Association of Jewish Academics from Iraq، Jerusalem، 1998) (in Arabic).
- Israel's Place in the Middle East: A Pluralist Perspective (University Press of Florida، Gainesville، FL، 1998; Paperback Edition، 1999. Winner of the 1998 National Jewish Book Award for Israel Studies).
- Israel in Search of Identity: Reading the Formative Years (University Press of Florida، Gainesville، FL، 1999).
- Arab Aims and Israeli Attitudes: A Critique of Yehoshafat Harkabi's Prognosis of the Arab-Israeli Conflict (The Leonard Davis Institute for International Relations، 2000.
- The Many Faces of Islam: Perspectives on a Resurgent Civilization (University Press of Florida، Ganesville، FL، 2000).
- The Last Jews in Baghdad: Remembering a Lost Homeland (University of Texas Press، 2004).
- Outsider in the Promised Land: An Iraqi Jew in Israel (university of Texas

Press، 2006).

- Israel's Years of Bogus Grandeur: From the Six-Day War to the First Intifada (University of Texas Press، 2006).
- Arabs in the Mirror: Images and Self-Images from Pre-Islamic to Modern Times (University of Texas Press، 2008).

In Preparation:

- The Debunker as a Student of Politics: And Other Middle Eastern Essays.
- A Wild Goose Chase: Five Middle Eastern Essays.
- Living in Two Worlds: The Pains of Displacement: Memoirs, Diaries, Letters, Writings--Baghdad-Jerusalem 1924-2006.
- A New Iraq?: Sectarian and Ethnic Divides and the Prospects of Democracy.

Contributor – Books:

- The Middle East in Transition (W.Z.Laquere Editor, London, 1959).
- Middle East Reader (Irene Gendzier, Editor, Boston, 1971).
- Israel, the Arabs and the Middle East (Irving Howe and G. Gershman, Editors, New York, 1975).
- Books on Israel (Ian Lustick, Editor, Albany, NY, 1988).
- At Home in Exile: Oriental Jews in Israel (Ulla Philipps-Heck, Editor, Hamburg, 1998) (in German).
- Islam, Judaism, and the Political Role of Religions in the Middle East (John Bunzl, Editor, University Press of Florida, 2004).
- Journals and Periodicals:
- Commentary, Judaism, Midstream, Dissent, Present Tense, Response, Congress Bi-Weekly, Hadassah Magazine, Middle East Review – New York.
- The Jewish Chronicle, Jewish Observer and Middle East Review, New Middle East, Censorship, The Jewish Quarterly – London.
- Temps Modernes, Esprit, Le Monde Diplomatique, L'Arche – Paris.
- The Jerusalem Quarterly, Palestine/Israel Journal, Forum, Immanuel – Jerusalem.
- Keshet, Amot, I'ton Shiv'im va-Sheva', Haaretz, Davar – Hebrew.

Home address:

- 27 Ha-Haganah Street, Jerusalem 97851, Israel.
Telephone: 02-5817596 Email: msdon@mscc.huji.ac.il

فهرست بأسماء الشخصيات الواردة في الكتاب:

أ

ابراهيم الكبير16

ابراهيم حبّة71

ابراهيم ناجي177، 228، 229، 230

احمد السيد177

أحمد الصافي النجفي173

أحمد امين172

ادموند صاموئيل312

ادوارد الثامن185، 189

ادوارد الخراط177

آرثر كويستلر176، 319

ارجامان45

ارشد العمري213، 308

أسبيرانس كوهين26

استيرين ابراهيم21

اسحاق بار-موشيه26، 29، 328

اسحاق خضوري7، 311

اسحاق نقاش37

اسرائيل جليلي307

اسماعيل مظهر174

اكرم الوتري235

اكرم حوراني195

الدوس هكسلي177، 193

السلطان العثماني عبدالحميد135

الملك غازي216، 265

النبي حسقيل133، 134

الوصي عبدالإله221

إلياس ابو شبكة173، 177

إلياهو خضوري23

إلياهو سميرا23

إلياهو كوهين140، 145

ام كلثوم23

اموس عوز183

انور شاؤول20، 22، 27، 30.

أوسكار وايلد213، 233، 282

اسحاق حسقيل19

إيلي خدوري7، 177، 206

ايلي عمير29

ب

باروخ موشي مزراحي18

بالم دَت200

بدر شاكر السياب235

بكر صدقي173، 184، 186

بلند الحيدري7، 234، 235، 292، 297، 326

بنيامين الطليطلي336

بيدرو تكسيرا338

ت

تشارلس حوريش312

تولستوي193، 233، 280

ج

جبرا ابراهيم جبرا235، 236، 293، 297

جبران مالكون203

جرجي زيدان172

جعفر ابو التمن200

جعفر الخليلي173

جفري لويس339

جورج اورويل176، 206، 227، 242

جون ستراچي176

جون كمچي227

جون لهمان206، 251

جَي. بي. أس هالدين176، 205

جيمس جويس233، 236، 249، 264، 248، 262

ح

حسقيل ابراهيم نسيم23

حسقيل ابن ملة مردان94

حسقيل الكبير323

حسقيل الهلالي138

حسقيل قصاب23

حسقيل معلّم23

حسقيل ناثانئيل62

حسن العجمي181، 182

حسن العلوي 135

حسين الشبيبي178

حسين مردان234

حسين هداوي235

خ

خالد الرحّال189

خالد بكتاش195، 280

خالد قشطيني168

خضوري خدوري226

خضوري شهرباني22

خلدون ساطع الحصري238، 239

خليل تقي الدين173

خيري الحلبي85

د

داريني خشبة174

داؤد سمرا16

داود الصايغ197، 198

دزموند ستيوارت237، 275

دلال المفتي228

ديفد بن غوريون311

ديفيد تزيمه27

ديلان توماس247

ذ

ذو النون ايوب197، 203

ر

رئيف خوري173، 177، 195، 252

رزّوق غنّام25، 187

رشيد افندي الصفار19

رشيد ياسين235

رونالد ساندرز240

ز

زكي محمد بسيم177، 179

زكية جورج165

س

ساسون حسقيل16، 340

ساسون خضوري119، 120

ساسون دلال226

ساسون سوميخ26، 28، 29، 30

سامي ميخائيل26، 28

ستيفن سبندر206، 251

سلامة موسى174، 253

سلفيا جي. هايم99

سلمان شينا20

سلمان عبدالله23

سلمان محمود حلمي235

سلمان موشي23

سلمان يعقوب درويش22

سليم البصون26، 28

سليم اسحاق19

سليمان عنبر19

سليمة باشا165

سليمة مراد23

سمير نقاش27، 29

سميرة المانع295، 326

سهيل ابراهيم26

سي. جَي. أدموندز301

سيسيل دي لويس206

سيغريد نونيز81

ش

شالوم درويش21، 22

شاؤول أفيغور307

شفيق عدس314

شلومو كاتز240

شلومو هيلليل306

شمعون بلاص28، 29

شموئيل موريه22، 26

ص

صالح مهدي عماش27

صالح جبر315

صالح وداود كويتي23

صدام حسين328، 332

صديقة الملاية165

صلاح الدين المنجّد97

صلاح نيازي327

ط

طه حسين172

ع

عبد الفتاح ابراهيم26، 177، 208، 227، 232، 242، 243، 245، 290

عبدالعزيز الدوري289

عبدالقادر الجزائري98

عبدو الشامي85

عدنان الچلبي150

عدنان رؤوف7، 239، 240، 292، 326

عزرا بن مناحيم دانيال16

عزرا حداد20، 185

عزرا دانكور19

علي جودت315

عمر فخوري173

ف

فرج الله الحلو195

فرجينيا وولف261، 262

فرويد90، 155، 156، 233

فريد ابوحديد174

فكتور غولانسز176

فلوريان زنانياكي57

فؤاد صروف174

فيصل الأول16، 24، 70

ق

قاسم حسن195

قدري قلعچي173، 252

قسطنطين زريق173

ك

كارل بارث31

كامل الچادرچي245

كراهام كرين177

كريم ثابت187

كلوديا كاردينال97

كناهان كورنوالس213

ل

لميعة العسكري299

لميعة عباس عمارة327

لولو ام البير38، 43

لويس عواد177

لويس ماكنيس206، 247، 251

لويس ناميير194

ليونارد وولف176، 205

م

مارون عبود173

محسن الامين37

محمد القبانجي23

محمد حسن الزيات172

محمد حسنين هيكل172

محمد صالح بحر العلوم168، 173

محمد مهدي الجواهري24، 173

محمود ابو زلف293

مراد العماري25، 28

مراد ميخائيل19

مصطفى لطفي المنفلوطي172

معروف الرصافي20

ملة عبود الكرخي41

مناحيم صالح دانيال16، 341

مهدي الجواهري24، 173، 177

موردیخاي بيبي304

مير بصري21، 27

ميشيل عفلق195

منشي سوميخ26

ن

ناجي عبودي312، 328

ناظم الغزالي23

نجيب المانع7، 235، 292، 293، 294، 295

نسيم يوسف سوميخ19

نعيم طويق25، 28

نعيم قطّان26، 28، 30، 311، 328

نعيم ممتاز199

نورما نورية) بار-موشيه)327

نوري السعيد23، 321، 317

نير شوحيط26

هـ

هارولد جَي لاسكي260

هنري ريد206

و

و. هـ. اودن13، 206

وليم الأول57

ي

ياسين الهاشمي186

يئير دلال29

يعقوب بلبول21، 94، 174

يعقوب معلم311

يوسف سلمان يوسف (فهد)177

الهوامش

(1) Hanna Batatu The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists Ba'thists and Free Officers (Princeton: Princeton University Press 1978) 248.

(2) Sylvia G. Haim «Aspects of Jewish Life in Baghdad under the Monarchy» Middle Eastern Studies 12 no 2 (May 1976): 188.

(3) Batatu The Old Social Classes 244 246 250.

(4) Zvi Yehida «Iraqi Jewry and Cultural Change in the Educational Activity of the Alliance Israélite Universalle» in Harvey E. Goldberg ed. Sephardi and Middle Eastern Jewries: History and Culture in the Modern Era (Bloomington: Indiana University Press 1996) 134-145.

(5) Dafna Tzimhoni «Kavim le-reshit ha-modernizatzia shel yehudei bavel bame'a ha-19 'ad shnat 1948» Pe'amim 36 (1988): 31-32.

(6) Nisim Kazzaz, Ha-yehudim be-'irak ba-me'a ha-'esrim (Jerusalem: Mosad Ben-Tzvi le-Heker Kehilot Yisra'el ba-Mizrah, 1991), 147

(7) Sasson Somekh, «Lost Voices: Jewish Authors in Modern Arabic Literature,» in Mark R. Cohen and Abraham L. Udovitch, eds., Jews among Arabs: Contacts and Boundaries (Princeton: Darwin Press, 1989), 14.

(8) Myer Samra, «Shaded by the Followers of Muhammad: The Poet Anwar Sha'ul and the Jews in Iraq,» Australian Journal of Jewish Studies 7, no. 2 (1993): 127-129.

(9) Nancy Berg, Exile from Exile: Israeli Writers from Iraq (Albany: State University of New York Press, 1996), 36-37.

(10) Shmu'el Moreh, ed., «Arabic Literary Creativity of Jewish Writers in Iraq,» in Shmu'el Moreh, ed القصة القصيرة عند يهود العراق / Short Stories by Jewish Writers from Iraq, 1924-1978 (Jerusalem: Magnes Press, Hebrew University of Jerusalem, 1981), 23.

(11) Shmu'el Moreh,»,H a-te'atron ha-yehudi be-'irak be-mahatzit ha-rishona shel ha-me'a ha-'esrim,» Pe'amim 32 (1985):64-98.

(12) Neil van der Linden, «The Classical Iraqi Maqam and Its Survival,» in Sherifa Zuhur, ed., Colors of Enchantment: Theater, Dance, Music, and the Visual Arts of the Middle East (Cairo:

.American University of Cairo press, 2001), 321-335

(13) Sasson Somekh, «Rhyme and Reason at Café Baghdad,» ha-Aretz, September 10, 1999.

(14) Moreh, «Arabic Literary Creativity of Jewish Writers in Iraq,» 19-20.

(15) Samra, «Shaded by the Followers of Muhammad,» 132-t12.

(16) Reuven Snir, «We Were Like Those Who Dream: Iraqi-Jewish Writers in Israeli n the 1950s,» Prooftexts 11, no. 2 (May 1991):155.

(17) Aviva Luri, «Buena Vista Baghdad Club,» ha-Aretz, June 23,2000.

(18) Anwar Sha'ul, Qissat hayati fi wadi al-rafidayn قصة حياتي في وادي الرافدين (Jerusalem: Rabitat al-Jam'iyin al-Yahud al-Nazihin min al-'Iraq, 198).

(19) Naim Kattan. Adieu, Babylone (Paris: Julliard, 1976); translated into English as farewell, Babylon (New York: Taplinger, 1980).

(20) For example, articles in ha-Aretz, September 10, 1999; September 17, 2001; October 15, 2001; January 18, 2002. The memoir was published just as this volume went to press: Bagdad, etmol (Tel-Aviv: Ha-Kibutz ha-Meuhad, 2004).

(21) الـ Kiddush هو دعاء يُقرَأ على النبيذ او عصير العنب في السبت او المناسبات اليهودية.

(22) المقوي miqwe او المق□ي mikve هو حمّام يُستخدم للغمر الطقسي في الديانة اليهودية.

(23) وهي مدرسة للتلاميذ اليهود تدرَّس فيها العبرية والعلوم الدينية.

(24) الإعدام لمسيحي واحد وسنّي واحد وشيعي واحد ويهودي واحد (الكاتب والباحث أميل كوهين).

(25) مصطلح "رفاق السفر" يشير الى الشخص الذي يقبل بمعظم مفاهيم المذهب الشيوعي، لكنه ليس عضواً في الحزب الشيوعي. وفي الإستخدام الحالي، يشير الى الشخص الذي يتفق مع فلسفة ما او جماعة معينة من دون ان يعمل لصالحها علناً.

(26) كلمة خان khan تشير الى لقب الأمراء في افغانستان وبعض اجزاء آسيا الوسطى، والمصطلح هنا يشير الى ايّ من خلفاء جنكيزخان.

الفهرس

كلمة شكر 5
الإهداء 7
تمهيد 13
اليهود بوصفهم عراقيين اصليين 13
مقدمة: جويل بينين 13
توطئة: لحظة تأمّل 31
الفصل الأول: في بغداد القديمة 33
التجارة والصيرفة 35
بيت لولو ام البير 38
الفصل الثاني: قبيلة رجوان 45
آل رجوان الأغنياء وآل رجوان الفقراء 47
مواجهة عمى الأب 51
الفصل الثالث: الأم وتأثير الوهم 57
الأم 60
دجاجة عشية السبت 62
الفصل الرابع: نعيمة 69
اسرة الطحان 72
المَشاهد، الأصوات، النكهات، الروائح 75
اسواق بغداد الشهيرة 82
الفصل الخامس: البدايات الأولى 87
دينا وبناتها 89
الأخ إلياهو 92
تغيّر الحظوظ 94
في عين الناظر 97
ممرضة المدرسة 100
الجنس في العائلة 102
الخادم المقابل لنا 104
الفصل السادس: التعليم 107
سنة في الروضة 110
مدرسة راس القرية 112
مقاطعة منتجات المانيا النازية 117
انشقاق في الجالية 118
الفصل السابع: نحن و الإنهيار الإقتصادي الكبير 121

نجية وناجي122
موت في العائلة125
كرمانشاه128
التأمل في نصيب المرأة129
الچِفِل - الكِفل133
الفصل الثامن: حسقيل ابو العلوة يستأجر مساعداً137
حسن ومحاولة الإنتحار الصورية140
بيع الجوارب والمناديل145
مجرد شريك عمل148
ام عدنان الچلبي150
الفصل التاسع: العيش في الحرمان الجنسي 153
احتلامات ليلية»155«
في عائلة جوري157
العصيان المفتوح لإبنة الخال ايفيلين160
الماركسي والعاهرة162
الإرتباط بالكلچية165
الفصل العاشر: ايام البطالة171
الصحوة السياسية175
زكي محمد بسيم ومدرسة المأمونية المسائية 177
صناعة المعتدل المتعصب 183
مأزق منشي زعرور186
الفصل الحادي عشر: رؤى مشوّهة191
مغازلة الماركسية194
التعليم الذاتي للغة الإنكليزية196
سنوات التكوين 201
انا و«جيل بنغوين»205
التعرّف على إيلي206
المنزل الذي عشنا فيه209
الفصل الثاني عشر: انقلاب رشيد عالي وماتبعه213
انا والفرهود218
ماذا حصل فعلاً220
كاتب مصرف223
خضوري خدوري يعمل اكتشافاً225
لقاءات قصيرة227
الفصل الثالث عشر: ايام المكتبة231

الجماعة التي رافقتُها 234
سياسة بلا حدود 237
لمّ الشمل239
احتجاجات عبدالفتاح242
مجتمع في مرحلة انتقالية244
الفصل الرابع عشر: صداقة عميقة247
فتاة القاهرة252
رسائل الى إيلي 256
الفصل الخامس عشر : البداية: الأفلام وعروض الكتب259
جيمس آكيت و أنا 262
الخفير الليلي» و قليلو الإطلاع264»
مُراجِع الكتب 269
الفصل السادس عشر: خارجاً في البرد273
امر التفتيش 277
الحب غير المعلن، غير المتبادل282
عبدالفتاح يقرر اغلاق المكتبة285
الفصل السابع عشر: التخلص من المكتبة289
نجيب المانع وأف. سكوت فتزجيرالد292
سميرة المانع295
جبرا و بنت«روبين ضابط الجيش»297
الفصل الثامن عشر: نهاية الجالية301
الصهيونية في بغداد302
انواع المضايقات305
نهاية صديق311
الفصل التاسع عشر: الوداع ولمّ الشمل315
مهووس في اسرائيل»319«
يوسف الكبير322
من مطار بغداد الى مطار اللد، 10 شباط، 1951 323
بلند يستذكر الأيام الخوالي326
عدنان رؤوف يبحث عن اصدقاء قدامى327
الملحق 1: يهود العراق: لمحة تاريخية موجزة331
الملحق 2: الكاتب نسيم رجوان: سيرة حياة وقائمة بأهم مؤلفاته343
فهرست بأسماء الشخصيات الواردة في الكتاب:347